



رسائل ومضامين لبناء مشروع حضاري
من خلال السيرة النبوية - دراسة حديثة

سلطان عبدالرحمن العثيم

دكتوراه في فقه السنة

كلية العلوم الإسلامية

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

رسائل ومضامين لبناء مشروع حضاري
من خلال السيرة النبوية - دراسة حديثة

سلطان عبدالرحمن العثيم

PFS111AK087

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في فقه السنة
كلية العلوم الإسلامية

المشرف:

الأستاذ المشارك الدكتور / محمد إبراهيم محمد الحلواني

ذي القعدة ١٤٣٩ هـ / يولييه ٢٠١٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاعتماد

تم اعتماد بحث الطالب: سلطان عبدالرحمن العثيم

من الأساتذة الآتية أسماءهم:

The thesis of **SULTAN ABDULRAHMAN ALOTHAIM** has been approved
By the following:

المشرف

الاسم : الأستاذ المشارك الدكتور/ محمد إبراهيم الحلواني

التوقيع: 

المشرف على التعديلات

الاسم : الأستاذ المشارك الدكتور/ محمد محمود عبدالمهدي

التوقيع: 

رئيس القسم/يوقع عنه:

الاسم : الأستاذ المشارك الدكتور/ محمد إبراهيم الحلواني

التوقيع: 

عميد الكلية/يوقع عنه:

الاسم : الأستاذ المشارك الدكتور/ السيد سيد أحمد محمد نجم

التوقيع: 

عمادة الدراسات العليا/ يوقع عنه:

الاسم : أحمد علي عبدالعاطي

التوقيع: 

صفحة التحكيم

التوقيع	الاسم	عضو لجنة المناقشة
	الأستاذ المشارك الدكتور/ عبدالناصر خضر ميلاد	رئيس الجلسة
	الأستاذ الدكتور/ عبدالباري محمد الطاهر الشرقاوي	المناقش الخارجي الأول
	الأستاذ المشارك الدكتور/ فضلان محمد عثمان	المناقش الخارجي الثاني
	الأستاذ المشارك الدكتور/ محمد محمود عبدالمهدي	المناقش الداخلي
	الأستاذ المشارك الدكتور/ فؤاد بوالنعمة	ممثل الكلية

إقرار

أقر بأن هذا البحث من عملي وجددي إلا ما كان من المراجع التي أشرت إليها، وأقر بأن هذا البحث بكامله ما قدم من قبل، ولم يقدم للحصول على أي درجة علمية من أي جامعة، أو مؤسسة تربوية أو تعليمية أخرى.

اسم الطالب: سلطان عبدالرحمن العثيم

: التوقيع

: التاريخ

DECLARATION

I acknowledge that this research is my own work except the resources mentioned in the references and I acknowledge that this research was not presented as a whole before to obtain any degree from any university , educational or other institutions .

Name of student: **SULTAN ABDULRAHMAN ALOTHAIM**

Signature

Date

حقوق الطبع

جامعة المدينة العالمية

إقرار بحقوق الطبع وإثبات مشروعية الأبحاث العلمية غير المنشورة

حقوق الطبع ٢٠١٨ © محفوظة

سلطان عبدالرحمن العثيم

رسائل ومضامين لبناء مشروع حضاري من خلال السيرة النبوية - دراسة حديثة

لا يجوز إعادة إنتاج أو استخدام هذا البحث غير المنشور في أي شكل أو صورة من دون إذن مكتوب موقع من الباحث إلا في الحالات الآتية:

١. يمكن الاقتباس من هذا البحث بشرط العزو إليه.
٢. يحق لجامعة المدينة العالمية ماليزيا الاستفادة من هذا البحث بمختلف الطرق وذلك لأغراض تعليمية، لا لأغراض تجارية أو تسويقية.
٣. يحق لمكتبة جامعة المدينة العالمية بماليزيا استخراج نسخ من هذا البحث غير المنشور؛ إذا طلبتها مكتبات الجامعات، ومراكز البحوث الأخرى.

أكد هذا الإقرار:

الاسم : سلطان عبدالرحمن العثيم

التوقيع:

التاريخ:

الشكر

أتقدم بالشكر لله أولاً على نعمائه وفضله وتيسيره أن أتم إنجاز هذه الرسالة العلمية التي أرجو أن تكون فاتحة خير وبركة وعلم نافع لكل ناظر فيها، باحث عن طرق الهداية، وطالبًا نَحَج الإسلام، ونورَه.

والشكر الجزيل الذي لا أراه يَفِي حقَّ فضيلة الدكتور محمد الحلواني، مشرف الرسالة على جهده وتوجيهه، وصره، فله منَّا خالصُ الدعاء والتقدير.

كما أتوجه بالشكر الواجب المُقَدَّر للأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة، على وقتهم وجهدهم المبذول في قراءة الرسالة، وتوجيه صاحبها، لما فيه الخير له ولرسالته.

والشكر موصولاً إلى القائمين على هذا الصرح العظيم، جامعة المدينة العالمية، قياداتها ومشائخها وأساتذتها، وجميع منسوبيها، ومن يُقدِّمون الدعم للباحثين بها، على هذا العمل العظيم، والمميز في خدمة طلبة العلم، من جميع أنحاء العالم.

والشكر العظيم العميق لوالديّ -متَّعها الله بالصحة والعافية -فهي التي شجَّعتني، وآزرَّتني، ودَعَت لي ولا تزال، وماذا أكون دون هاتين اليدين اللتين تُرْفَعان بالدعوات في الرُّوحات والعُدوات لأجلي.

والشكر الموصول الصادق إلى زوجتي -وفقها الله إلى كل خير - سراج بيتي، وأم أولادي، كم صبرت، وقامت بحقي وحق أولادنا، وبيتها، وتحملت محاسبة صابرة، فلها منِّي كلُّ الدعاء والثناء.

والشكر في الختام لجميع مشايخي وأساتذتي؛ لفضلهم وبذلهم وعطائهم العلمي الكبير الذي كان إضافة لي، لا تُقدَّر بثمن.

ملخص

في هذه الرسالة العلمية تتبّع مسارات الرسالة الحضارية النهضوية العظيمة للإسلام، في شقّها السياسي وكيف كانت هذه الرسالة الخالدة مؤثرة على مسار البشرية ومصالحهم وحياتهم، ومآلاتهم، وكيف كان التغيير والتحوّل الكبير في عالم الأفكار مدخلاً مهماً؛ لإحداث أعمق تغيير في عالم الأعمال والسلوك والعلاقات. فقد كانت الرسالة المحمدية ذات صدقٍ مُحكّمٍ في الجانب التشريعي والتطبيقي والاجتهادي، في عوالم السياسة التي من خلالها تمّ إعداد وتأهيل أعظم جيلٍ في التاريخ، لقيادة هذه الأمة، والتبشير بدينها الخاتم. ولقد ركّزت في هذه الرسالة على تتبع أغلب المسارات السياسية التي كان لها أثر كبير في النقلة الحضارية والنهضوية للجزيرة العربية أولاً، والعالم من بعد ذلك ثانياً. وكذلك الأثر والتأثير الذي تركه الإسلام في إنسان ذلك الزمان، ومخرجاته الحضارية، على جميع المستويات النفسية والعقلية والبدنية والروحية والمادية. كما تتبعت الرسالة البعد الاستراتيجي في الرسالة النبوية، وكيف كان تطبيقها المُتدرّج فاعلاً وذكيّاً في إحداث أكبر تغيير إيجابي، وفعال، عرفته البشرية عبر التاريخ.

Abstract

Ask in this thesis trace of civilization and renaissance message deep-Islam politician both its tracks and how this timeless message touching on the human path and their interests, their lives and their worlds and Malathm and how the change was great and the shift in the world of ideas an important input to make a deeper change in the business, relationships and outputs world .Where the Mohammedan message with resonate widely in the legislative and practical and discretionary side in the political worlds which have been used to prepare and qualify the greatest generation in history to lead this message and preached .We have focused on the message to keep track of most of the political tracks that have had a significant impact on the shift of civilization and the renaissance of the island of Arab first, and then the world after that, impact and influence left by Islam in the person of that time and outputs of civilization, which like Islam has great lever on all mental, physical and spiritual levels. Also it traced the message practical and strategic dimension in the Prophet's message and how it was applied . Tiered active and nimble in the most positive and effective change known to mankind throughout history events.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
صفحة العنوان.....	أ
صفحة اسم المرجع.....	ب
صفحة البسملة.....	ج
الاعتماد.....	د
التحكيم.....	هـ
الإقرار:.....	و
DECLARATION.....	ز
حقوق الطبع.....	ح
الشكر.....	ط
ملخص البحث.....	ي
ABSTRACT.....	ك
المقدمة.....	ل
المحتوى.....	ق
التمهيد.....	(١)
الفصل الأول:(المشروع الإسلامي الحضاري من التكوين إلى التمكن....."	(٩)
المبحث الأول: التمهيد.....	(١٠)
المبحث الثاني: أحوال العرب السياسية قبل البعثة.....	(١٢)
المبحث الثالث: العقيدة السياسية للجزيرة العربية قبل الإسلام.....	(١٥)
المبحث الرابع: الأوضاع السياسية لما حول الجزيرة العربية.....	(١٦)
المبحث الخامس: بناء إنسان الحضارة وقصة التغيير.....	(١٢٠)
المبحث السادس: الخلاصة.....	(١٣٥)
الفصل الثاني: مولد التمكن.....	(١٣٦)
المبحث الأول: التمهيد.....	(١٣٧)

- المبحث الثاني :الصراع الصفري مآلات وتحولات.(١٣٨).
- المبحث الثالث: الانتقال من الدفاع إلى الهجوم.(١٥٥).
- المبحث الرابع : فتح مكة والتحويلات الكبرى.(١٨٨).
- المبحث الخامس : خلاصة الفصل(٢٤٦).
- الفصل الثالث : الخاتمة(٢٤٧).
- المبحث الأول : التمهيد(٢٤٨).
- المبحث الثاني :نتائج البحث(٢٤٩).
- المبحث الثالث :الأثر العلمي للبحث في المجال والمجتمع(٢٥٠).
- المبحث الرابع : التوصيات(٢٥١).
- المبحث الخامس : الخلاصة(٢٥٢).
- فهرس المراجع والمصادر.(٢٥٣).

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغرِّ الميامين، وعلى الأتباعِ الصالحين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أحمدُه أن يسرَّ لي إتمامَ هذا المشروعِ في هذه الرسالة العلمية التي أردتُ فيها سبَرَ أغوارِ المشروعِ الحضاري الإسلامي يُبعده السياسي حيثُ التشريعاتُ والتطبيقاتُ والتحدياتُ والنقالاتُ، والعلمُ والعملُ والحلمُ والحكمةُ، والتخطيطُ، والاستيعابُ، القوةُ بعدَ الضعفِ، والحريةُ بعدَ العبودية، والتوحيدُ بعدَ الشرك، والعدلُ بعدَ الظلم، والهدايةُ بعدَ التيه.

والإسلامَ هو دينٌ حضاريٌّ خلقي سلوكيٌّ، يُجوِّدُ مخرجاته ومنتجاته، ويُسهِّمُ في تحولاتٍ وتغييراتٍ كانت ومازالتُ البشريةُ في أمسِّ الحاجةِ إليها، فهو ليس دينَ تنسُّكٍ أو عباداتٍ فقط، بل هو مشروعُ حياةٍ، وعمارةٌ للأرضِ وإحسانٌ للإنسانِ وللحيوانِ والجمادِ.

وسوفَ نجولُ في هذا البحثِ في عدةِ معارجٍ ومدارجٍ في مشروعِ النهضةِ والمشروعِ الحضاريِ في السيرةِ النبويةِ تمرُّ فيها على مراحلِ التكوينِ للمشروعِ من بدايةِ المرحلةِ المكيةِ والتي كان التركيزُ فيها على زراعةِ الأفكارِ الصحيحةِ ونزعِ الأفكارِ المريضةِ وتصفيةِ العقيدةِ وهيئةِ المشاعرِ الإيجابيةِ التي تقبلُ التغييرَ الإيجابيَ والعميقَ في السلوكِ والتصرفاتِ والنتائجِ؛ لتجهيزِ المسلمين على نهجِ السلوكِ الصحيحِ في بناءِ نهضتهم وارتقائهم، حيثُ يتحولون من الشتاتِ إلى الوحدةِ ومن التخلفِ إلى التقدمِ ومن الجهلِ إلى العلمِ، ومن الاستهلاكِ إلى الإنتاجِ.

يُركِّزُ هذا البحثُ في مجمله على المنطلقاتِ السياسيةِ في المشروعِ الحضاريِ والنهضويِّ. حيثُ الأنظمةُ والتشريعاتُ والحُططُ التي ساهمت في نهضةِ المجتمعِ المسلمِ وتحويله إلى مجتمعٍ صانعٍ لحضارةٍ شاهدها العالمُ كله، وتأثر بها الكثير من المجتمعات.

ويطرحُ البحثُ الكثيرَ من الأجوبةِ على العددِ من الأسئلةِ في فقهِ السيرةِ النبويةِ ومنهجِ التغييرِ العميقِ والمذهلِ الذي تم في ثلاثةِ وعشرين عاماً على الإنسانِ والفكرِ والمجتمعِ والثقافةِ العامةِ والسلوكِ

كما يركز البحث على فقه التدرج الذي تمّ في عملية التغيير وكيفية التعامل مع مقاومة التغيير والرافضين للتغيير وتفكيك التعقيدات التي كانت تواجهه للمشروع الحضاري الإسلامي .

وهنا يتبين لنا درس مهم وقانون عميق في أن المنتفعين من الواقع المظلم هم الذين يقاومون التغيير حتى لو كان في قرارات نفسه مقرراً بأن هذا التغيير فيه من المصلحة الشئ الكبير للفرد والمجتمع .

إشكالية البحث :

يناقشُ البحثُ - بإذن الله - مشكلة الأمة الكبرى، وهي مشكلة النهضة والوصول إلى المشروع الحضاري المستمد من الإسلام رسالته ومساره وفحواه ونظام الحكم فيه، من خلال استلهام التجربة الأولى وفوائدها ودروسها ومحاوله إسقاطها على أرض الواقع حيث يعاني المسلمون فيه اليوم من معضلة التخلف الذي جلب الضعف والتقهقر ومن ثم الاستعمار والتفكك والشتات وغياب الوحدة والتكامل، وحاوّل الباحث تحليل واقع مشابه جلب التخلف والرجعية والفرقة والتناحر والجهل قبيل رسالة الإسلام مما سبب ضعفاً عاماً وتيهاً بشرياً وصراعاً خطيراً، وهذا الحال يجعل من المسلمين في هذا الوقت يتأملون في الجانب الحضاري العظيم في شريعتهم وسيرة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - الماضي في دينهم نحو واقع أفضل، حيث يعملون على نهضة أمتهم وأوطانهم من خلال الاستفادة من تجربة البدايات العظيمة التي حفلت بالكثير من الدروس والعبر والأفكار والمعاني التي من الممكن إسقاطها على أرض الواقع، ومما يزيد الأمر أهمية غياب الرؤية المستقبلية والاستراتيجية الطامحة.

وظهور كثير من الأمراض الاجتماعية والفكرية والروحية، وتأثير هذه الأجواء في غياب الفاعلية والإيجابية والعمل الجاد المتقن في كثير من الأحيان، كما يتناول الباحث بعض الفرص التي من خلالها تمكن الاستفادة من حكمة وعمق النظام السياسي الإسلامي؛ إذ يتضح من فحوى هذه الرسالة أن المسلمين لديهم فرصاً أكبر للنهوض والارتقاء، والأخذ بزمام العمل والمبادرة والقوة والتمكين لواقع أفضل، فتطبيق معايير الشريعة ومقاصدها جالب للكثير من الخير.

أما حين يفصل الناس عن دينهم ومنطلقاتهم وشرع ربهم ومقاصده وحكمته في خلقهم واستخلافهم في الأرض فإن الأمر يصير إلى الجاهلية الأولى بكل ما فيها من شتات وتخلف.

أسئلة البحث :

- ١- ما مدى تأثير التخلف والجهل والظلم والانحراف على الأمم السابقة قبل الإسلام وكيف كان أثر رسالة الإسلام على إنسان ذلك الزمان ونهوضه، والنقلة النوعية في عالمه وحياته.
- ٢- ما مدى تأثير الفرد في استنهاض الأمة، وهل مبادرات النهوض حكراً على النخبة أو مراكز القوى، وما تنتج من قرارات وتوجهات واستراتيجيات، وهل بُنيت مبادرة هضوية حضارية تبدأ من الأعلى أو من الأسفل (السيرة النبوية نموذجاً).
- ٣- كيف كانت التراكمية في تجارب الأمة تجعل الأجيال تتعاقب على تنفيذ هذا المشروع الاستراتيجي الطامح.
- ٤- ما هي الدروس و الاستراتيجيات التي صنعت لنا جيل النهضة وقادة التطوير في عصر النبوة، وكيف يتم إسقاط تلك الأفكار على أي مبادرة حضارية إسلامية في الزمن المعاصر.
- ٥- كيف فعل المسلمون الأوائل عقولهم وطاقاتهم وخرجوا من ذلك الركود الفكري والانغلاق الذاتي إلى فاعلية عالية وقوة كبيرة وعمق عظيم ورسالة عالمية.
- ٦- كيف استطاع المسلمون في عصر النبوة تفعيل قانون التكامل والتجانس بين العقل والنقل، وما مدى تأثير ذلك على مشروعهم السياسي.

أهداف البحث:

- ١ - الاستفادة من أبعاد السيرة النبوية للرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام وآل بيته العظام-رضي الله عنهم أجمعين -والتجارب البشرية الناجحة في النهوض بالواقع السياسي للأمة؛ لينهض بالواقع العام لها، ووضع تصورات عملية مُتعمقة لذلك، بعيداً عن السرد التقليدي لمنظومة القيم والمنطلقات.
- ٢ -تناول وإيضاح كيف تُجيب السيرة النبوية على الأسئلة الكبرى على مرّ العصور وتنوع الأحداث، وكيف كانت مرجعية أصيلة، ومتجددة في ذات الوقت، بأبعادها المختلفة بوجه عام، وببُعدها السياسي بوجه خاص.

٣ - مقارنة واقع المسلمين مع مرجعيتهم الشرعية والفكرية والمقاصدية، ومعرفة سُبُل التقدّم والحضارة والنهوض. ومعالجة المشكلات من خلال استلهاهم تجربة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - والاستفادة من تجربة البداية، والتأسيس، لأعظم رسالة عرفها التاريخ.

٤ - دراسة ما يُسمّى " أسباب القوة وقوانين التمكين " والتي أخذت بها بعض الأمم، وزهد بها آخرون رغم توفر المنهج والدستور والمرجعية التي تُرشد إلى ذلك وتحت عليه.

٥ - دراسة مرحلة ما قبل الإسلام وما يُسمّى بعصور الانحطاط حيث ضياع البشرية وتخبُّطها والأثر الكبير للدعوة المحمدية العظيمة في قيادة الناس إلى مشروع حضاري عالمي ناهض.

٦ - لفت الانتباه إلى منظومة صناعة القادة التي كانت من أهم أسباب استمرارية المشروع الإسلامي لدى الفرد المسلم ومجتمعه وعلاقة ذلك بمشروع النهضة المحمدية وأثر ذلك على الواقع العام والخاص.

٧ - تقديم لينة تساعد الكثير من الباحثين والدارسين والعلماء والساسة والمهتمين بالعمل الحضاري والنهضوي من البناء عليها والاعتماد على أرضيتها، كمنطلق لمشاريع مستقبلية قادمة تصب في ذات السياق.

٨ - الوقوف على النواميس الكونية والقوانين الحياتية، لأسباب النصر وأدوات إدارة الصراع، والحكمة البالغة في إدارة الأوطان والشعوب، والارتقاء بالبشر بالطريقة التي تجعل الإنسان يُؤدي رسالته كخليفة على الأرض، وعامر لها، ولا يكون كائنًا تائهاً بلا هدف أو رسالة أو عنوان.

الدراسات السابقة :

تتمحور الدراسات السابقة حول دراسة المشروع الحضاري ومنطلقاته السياسية بوجه عام أو دراسة التجارب الإنسانية الناهضة، مثل المشروع الإسلامي في الأندلس أو العهد الراشدي أو في غيرها مثل المشروع الأوربي أو المشروع الياباني ... وغير ذلك من التجارب الإنسانية .

بالإضافة إلى أطروحات متنوعة في علم التغيير الإيجابي والبناء وفنونه المهمة لنجاح عملية النهوض من الكبتة ومعاودة الحراك الفكري والعلمي والسياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي من جديد.

كما أن هناك الكثير من الأطروحات في القيادة وعلم القوة والنفوذ، الذي بدأ يأخذ وضعه على رأس الموضوعات المهمة في عالم المهتمين في مجال النهضة والمشاريع الحضارية .
وتقدّم الدراسات السابقة قراءةً مختلفةً بعضها تُعطي المشاريع النهضوية من الجانب الاقتصادي وبعضها من الجانب الإداري، وبعضها من الجانب الفكري والشرعي، وأخرى من الجانب السياسي، وطائفة تراه من جانب التطوير الشخصي والتنمية البشرية والجوانب التربوية المختلفة.
وهذا التركيز والتخصص مهم جدًا؛ لكي تجتمع الرؤى والأفكار وتكون في نهاية المطاف جهودًا متكاملةً تَبْلُغ مبلغ الرشد والانضباط، ويستطيع الباحث أن يُجري عملية المزوجة والترتيب المنطقي والعلمي الذي يخرج لنا بناءً له أصوله ومنتجائه وبرامجه. وإليكم نبذة عن بعض هذه الدراسات.
وليس من شك أن المؤلفات في السيرة النبوية - على وجه العموم - كثيرة ومتنوعة وهي أكثر من أن تحصى ، والجهود المبذولة في خدمة السيرة النبوية عظيمة ومتنوعة ، وقد مر الحديث عن السيرة بمراحل :

- مرحلة الرواية .
- مرحلة التجميع
- مرحلة التدوين
- مرحلة التوثيق .
- مرحلة المستشرقين .
- مرحلة الصحوة الإسلامية حديثا ، مرحلة الصحوة ، وهي المرحلة التي تُعد انقلابا على مرحلة المستشرقين والتي أعادت للسيرة النبوية بهاءها باعتماد المنهج العلمي ، ثم تابعت في هذا المضمار إضافة المنهج التحليلي والاستنباطي لاستخراج الدروس والأحكام ، وهي المرحلة التي يطمئن الدارس والباحث لإنتاجها في مجموعه.
- ولما كانت الدراسات في السيرة النبوية أكثر من أن تحصى فإنني أكتفي بالتنبيه على بعضها مما قد

يقترَب من دراستي التي أقدم بها ، ومن ذلك ما يلي :

الدراسة الأولى :

اسم صاحب الدراسة : العمري ، عبد العزيز .

عنوان الدراسة : رسول الله وخاتم النبيين : دين ودولة .

منهج الدراسة : تناولت الدراسة السيرة النبوية بالمنهج العلمي التاريخي الموثق ، التفصيلي الشامل التحليلي التربوي بداية من ذكر مصادر السيرة ، وكيفية دراستها ، فتراه يقول : " فإن على دارس السيرة أن يلتزم الأدب مع النبي - صلى الله عليه وسلم - حين الحديث عنه وعن سيرته وحقه ومحبه وما له في أنفسنا وقلوبنا ويجب أن نرتبط بالأدلة الشرعية " .

ويقول : " وقد اخترت منهجا يقوم على الاستفادة من مصادر السنة في الروايات المرتبطة بالسيرة وتقديمها على غيرها وخصوصا ما يرتبط بأحكام شرعية ويأتي في مقدمة ذلك صحيح البخاري... وقد حاولت صياغة الأحداث بأسلوبي الخاص ممزوجا بالشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية " .

هدف الدراسة : هدفه من الدراسة هو تحبيب النبي إلى الناس وتحقيق السعادة ، فيقول : " ورأيت أن الكتابة في سيرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - تحقق سعادة... " .

ويقول : " وإني لأعترف وأعلن أن أهم ما دفعني للكتابة في السيرة هو محبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والتقرب إلى الله بذلك " .

والكتابة في السيرة تؤدي إلى محبه - صلى الله عليه وسلم - في كل أحواله وأعماله حتى في شكله الظاهر " .

نتائج الدراسة :

- السيرة النبوية علم بذاته ومفتاح لكثير من العلوم من خلاله يتعلم المسلم الأخلاق والعقيدة وأصولها والأحكام الشرعية والآداب المرعية والعدل والنظم الإسلامية وسياستها الشرعية والحقائق عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتعلمها المسلم مع كثير من الحقائق الجغرافية لبلاد العرب والعالم الذي ارتبطت به أحداثه .

- المتعلم لسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومصادرها الصحيحة يدرك ما صح من الروايات ومراحل حياته وتدرجه في الدعوة مع الواقع ، ورحمته .
- آذى المشركون الرسول وأصحابه لصددهم عن دين الله فصمدوا وكانوا أمثلة للمسلمين عبر الزمان في التحمل والشهادة في سبيل الله .
- جاء الإسلام إلى المجتمعات البشرية ليحيبها في طاعة الله وتوحيده وليفزع كرامتها ويعزز النظام والحقوق ويزيد الانتاج ويحمي البيئة والأرض من الفساد .
- كانت المدينة نموذجاً للمدينة ، نظمها النبي - صلى الله عليه وسلم - بمختلف التشريعات والأعمال المدنية ، فسارع أهلها للإنتاج والعطاء ، بدلا من الاعتماد على الآخرين أو التشاؤم والسلبية ، فتمت وتغيرت أحوالها .
- وضعت معاهدة المدينة كوثيقة لتنظيم عادل ومسؤولية اجتماعية تشبه الأنظمة الحديثة التي تتيح حرية الدين وعدم الإكراه مع التزام الأمن والنظام المشترك والمسؤولية الجماعية فكانت أساسا في قيام الدولة .
- كانت حياة الرسول مقاومة للشرك ومليئة بالجهاد بمفهومه الشامل .
- دعوة الإسلام عالمية ، عرفت العدل في أسمى صوره ، وهي تتسم بالشمولية لأمر الدنيا والدين ، والجوانب المادية والمعنوية .
- المعاشون للنبي - صلى الله عليه وسلم - من الصحابة والصحابيات وآل البيت وغيرهم كانوا حريصين على تطبيق الإسلام والتأسي بالنبي في جميع أمورهم ، وكان الاحترام أساس التعامل بينهم ، عملوا جميعا - حتى بعد موت الرسول - على استقرار نظام الدولة ، ونشر الإسلام .

أوجه الشبه والاختلاف بين دراستي وتلك الدراسة :

دراسة رسول الله وخاتم النبيين دين ودولة تتناول السيرة جميعا بطريقة شمولية وتهتم بكل جزئياتها ، وتناولت مصادر السيرة النبوية ، ومناهج الكتابة فيها ، وختمت بمجلد أخير للصحابة المعاشين للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

وأما دراستي فهي تتناول مواقف وأحداث معينة رئيسة ، وتسلط الضوء على عوامل تكوين المشروع الحضاري الإسلامي .

الدراسة الثانية :

اسم صاحب الدراسة : عبد الكريم بكار .

عنوان الدراسة : من أجل انطلاقة حضارية شاملة : أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع .

منهج الدراسة : هي دراسة تقوم على المنهج النقدي محاولا تقديم رؤية للنهوض من جديد بالمشروع الحضاري في العالم الإسلامي .

أهداف الدراسة : تهدف الدراسة تناول قضايا مهمة في الجوانب الفكرية والثقافية والأخلاقية والتربوية ، لما شهدته هذه الجوانب من إصابات التخلف الأولى قبل الجوانب العمرانية والتنموية والمادية ، وترى الدراسة أن تحضير الإنسان شرط أساسي وسابق لإشادة العمران ، وما لم ننجح في ذلك فإن جهودنا في إعمار الأرض ستكون ضعيفة الثمار ، محدودة النجاح ، بل إن كل إنجازات الإنسان على الصعد المادية والعمرانية على مدار التاريخ كان يتم تدميرها بسبب حماقات الإنسان ورعونته وانحرافه عن الصراط المستقيم .

إن هذه الدراسة تمثل نوعا من المقاربة للحصول على جواب على السؤال الكبير الذي يطرحه كل من يملك حظا من الوعي ، ألا وهو : ما لذي هبط بأمة قادت العالم قرونا إلى أن تصبح في الحضيض ، لا سيف ولا قلم ؟

وتتبع أهمية الإجابة على هذا السؤال من أننا إذا لم نستطع أن نقارب بين رؤانا للماضي لم نستطع أم نتقارب في فهم الحاضر ، وإذا لم يتوحد أو يتقارب تقويمنا للماضي والحاضر فلن نستطيع أن نخطط للمستقبل ، ولا أن ننجز فيه ما نطمح إليه .

نتائج الدراسة : بينت الدراسة أن هناك جوانب فكرية وثقافية وأخلاقية وتربوية لا بد من تصحيحها ،

وترسيخها تعمل على انطلاقة حضارية معاصرة . وقررت الدراسة أن ما تم طرحه ومناقشته من قضايا ليست مشروعاً حضارياً ولا مقدمات له بل هي جملة من المفاهيم والملاحظات والتأملات التي بإمكانها فتح بعض الآفاق على طريق تحسين واقع الأمة والنهوض به .

- تشابه واختلاف بين دراستي وتلك الدراسة : هذه الدراسة تقدم عملاً تأملياً نقدياً عبر عددٍ من المقالات يكتبها المؤلف ، تتناغم تلك المقالات التي تناقش جوانب فكرية وثقافية وأخلاقية وتربوية ، وتجتمع تلك المقالات لتكون انطلاقة لفتح الآفاق لإحداث النهوض للأمة وبداية الانطلاقة .

- وأما دراستي فإنها وإن تشابهت معها في هدف محاولة النهوض بالواقع الإسلامي عبر إظهار المشروع الحضاري الإسلامي إلا أن دراستي تنطلق من وقائع أحدث السيرة النبوية وقراءة أحداثها وبيان عوامل تكوين النهضة في المشروع الإسلامي .

الدراسة الثالثة :

اسم الباحث : منال موسى علي دبابش .

عنوان الدراسة : منهج الرسول - ﷺ - في التربية من خلال السيرة النبوية - قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول التربية - الجامعة الإسلامية - غزة عمادة الدراسات العليا كلية التربية قسم أصول التربية - التربية الإسلامية - ٢٠٠٨ م - ١٤٢٨ هـ .

مشكلة الدراسة : تحددت مشكلة الدراسة من خلال الأسئلة التي طرحها الباحث وهي :

- ما أهم الأسس التربوية التي يقوم عليها منهج الرسول - ﷺ - التربوي من خلال السيرة النبوية؟ .

- ما المبادئ التربوية المستمدة من سيرة الرسول - ﷺ -؟

- ما الأساليب التي استخدمها الرسول - ﷺ - في تربيته لأصحابه من خلال سيرته النبوية؟

- ما الصيغة المقترحة للاستفادة من منهج الرسول ﷺ في التربية من خلال السيرة النبوية في مؤسساتنا التربوية؟

أهداف الدراسة : سعت الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية :

- التعرف على أهم الأسس التربوية التي يقوم عليها منهج الرسول - ﷺ - التربوي من خلال السيرة النبوية

- الكشف عن المبادئ التربوية المستمدة من سيرة الرسول

- توضيح الأساليب التربوية التي استخدمها الرسول - ﷺ - في تربيته لأصحابه من خلال سيرته النبوية

- تقديم تصور مقترح للاستفادة من منهج الرسول - ﷺ - في التربية من خلال السيرة النبوية في مؤسساتنا التربوية.

منهج البحث : استخدمت الدراسة أسلوب تحليل المحتوى من الناحية الكيفية، كأحد تقنيات المنهج الوصفي، بالوقوف على أحداث السيرة النبوية المختلفة واستخراج ما فيها من أسس ومبادئ وأساليب تتعلق بمنهج الرسول - ﷺ - في التربية .

أهم النتائج : كان من أهم نتائج الدراسة ما يلي:

- إن السيرة النبوية اشتملت على أسس تربوية، استند عليها النبي - ﷺ - في تربيته لأصحابه وهذه الأسس هي (الأسس العقائدية والأسس الأخلاقية والأسس العلمية والأسس الجهادية).

- (إن السيرة النبوية غنية بالمبادئ التربوية مثل (تربية الحواس ووجوب التعلم ونشر العلم واستمرارية التعليم ومراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين وتوجيه المتعلم نحو التربية الذاتية والتعامل الناقد مع التراث والتدرج في التربية والتجديد والانفتاح على خبرات الآخرين والمرونة في التربية والصحة بين المعلم والمتعلم) والتي ساهمت في بناء مجتمع إسلامي قوي استطاع أن يصمد في وجه التحديات لقرون طويلة.

- إن أساليب تربية النبي لأصحابه تميزت بالتنوع والمرونة والتكامل والشمول مما جعلها صالحة لكل زمان ومكان ولكل فئات البشر ومن هذه الأساليب (التربية بالقُدوة، والتربية بالقصة، والتربية بالأحداث، والتعليم بضرب الأمثال .

جوانب الاتفاق والاختلاف مع الدراسة ، اتفقت هذه الدراسة مع دراستي في الانطلاق من السيرة النبوية والاستنباط من أحداثها ، واختلفت في دائرة تناول ، حيث خصصت هذه الدراسة باستنطاق الموقف التربوية في السيرة النبوية ، وأما دراستي فهي تبحث في هدف آخر وهو المشروع الحضاري الإسلامي ، وعوامل بنائه .

خطة البحث :

اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون من مقدمة ، وفصلين مقسمة على النحو التالي :

الفصل الأول:(المشروع الإسلامي الحضاري من التكوين إلى التمكين.

المبحث الأول للتعريف بمصطلحات العنوان .

المبحث الثاني : أحوال العرب السياسية قبل البعثة .

المبحث الثالث :العقيدة السياسية للجزيرة العربية قبل الإسلام .

المبحث الرابع : الأوضاع السياسية لما حول الجزيرة العربية .

المبحث الخامس :بناء إنسان الحضارة وقصة التغيير .

المبحث السادس : الخلاصة .

الفصل الثاني: مولد التمكين.

المبحث الأول : التمهيد .

المبحث الثاني :الصراع الصفري مآلات وتحولات.

المبحث الثالث: الانتقال من الدفاع إلى الهجوم.

المبحث الرابع : فتح مكة والتحويلات الكبرى.

المبحث الخامس : خلاصة الفصل .

الفصل الثالث : الخاتمة .

المبحث الأول : التمهيد .

المبحث الثاني :نتائج البحث .

المبحث الثالث :الأثر العلمي للبحث في المجال والمجتمع .

المبحث الرابع : التوصيات .

المبحث الخامس : الخلاصة .

ثم الفهرس و المراجع والمصادر.

منهجية البحث:

اقضت طبيعة البحث أن أجمع - بإذن الله - بين المنهج التاريخي بالإضافة إلى المنهج الوصفي التحليلي الاستنتاجي، وبناء على المنهج التاريخي أقوم بجمع المعلومات التاريخية والأحداث والوقائع من السيرة النبوية بحسب تسلسلها الزمني، ثم أبدأ بتحليل ودراسة هذه المواقف والأحداث للوقوف على الدروس والعبر، والفوائد، وإظهار مبادئ وقيم هذا المشروع الحضاري، وذلك عن طريق اختبار مجموعة الفروض، التي سوف يتم صياغتها عبر العديد من الأطروحات النظرية والتطبيقات العملية والتي سوف تلي ذلك بإذن الله.

والله أسأل أن يكون هذا العمل لوجهه الكريم، وأن ينفع به أمة الإسلام والمسلمين، إنه بكل جميل كفيلاً، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وأخز دعواناً أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

التعريف بمصطلحات عنوان البحث

عنوان البحث:

(رسائل ومضامين مشروع النهضة في السيرة النبوية)

أحاول - في البدء- تناول مصطلحات بحثي، لغةً واصطلاحًا، ومُرادي في ذلك أن أُحدِّد الدلالات التي أستخدمها في بحثي؛ فكما هو معروف في أصول الفقه، أنه لا مُشاححة في الاصطلاح^(١) كما يقولون؛ فإن الواجب عند تناول مادة معينة أن يذكر المتناول ما الذي يقصده بمصطلحاته؛ حتى يمكن لغيره أن يقف على مراداته، وقد أرذت أن أكشف عن دلالات مصطلحاتي؛ عملاً بقول العلماء " أثبت العرش ثم انقش " ^(٢). ولنشرع الآن فيه:

رسائل ومضامين لغةً واصطلاحًا:

أولاً- في اللغة: (رسائل) مفردتها رسالة، وهي من الفعل (أرسل)، وأرسلتُ (رَسُولًا) بعثته برسالة^(٣)، وأرسل الشيء، أي أطلقه، يقال أرسلت الطائر من يدي، ويقال أرسل الكلام أطلقه من غير تقييد، والرسالة: مَعْرُوفَةٌ، وجمَّعها رَسَائِلُ ^(٤).

-والرسالة اصطلاحًا، لم أقف على تعريف للرسالة في الاصطلاح . ومرادي بها في اصطلاح بحثي هي : ما انبعث من السيرة النبوية إلى العباد من مبادئ، وتعاليم، وقيم لإصلاح أمر دنياهم وأخراهم. وأما المضامين لغةً:

فمضامينٌ: جمع مضمون، وهو من الفعل (ضمين)

قال الفيومي وتقول: " (ضَمَّنْتُ) الشيء كذا جعلته محتويا عليه (فَتَضَمَّنَهُ) أي فاشتمل

(١) - السبكي : الإبهاج في شرح المنهاج على منهج الوصول إلى علم الأصول - ط. الأولى - ٣٩/١.

(٢) - أمير بادشاه، تيسير التحرير - دون . ط. ٧٢/٤.

(٣) - الفيومي . المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - دون . ط في (رسل).

(٤) - الصاحب . المحيط في اللغة - دون ط. في (رسل).

عليه واحتوى".^(١) وفي المعجم الوسيط: (المضمون) المحتوى، ومنه مضمون الكتاب ما في طيه ومضمون الكلام فحواه وما يفهم منه (ج) مضامين^(٢).

- (والمضمون) في الاصطلاح هو ما يدل عليه المصطلح لغةً، والمراد هنا الأمر التي حوتها و تضمَّنتها السيرة النبوية من المبادئ والقيم والتشريعات السياسية لهداية العباد والقيام بمصالحهم في الدنيا والآخرة.

فيكون المضمون هو الشيء نفسه الذي تشمله الرسالة في أحداثها ، والرسالة هي ما ينبعث من هذا المحتوى إلى المرسل إليه .

(المشروع) لغةً واصطلاحاً:

قال الخليل: " شرعَ الواردُ الماءَ شروعا، وشرعا؛ فهو شارع، والماء مشروع فيه، إذا تناوله بغيره " ^(٣). وفي المعجم الوسيط: " (المشروع) ما سوَّغَه الشرع، والأمرُ يُهيأُ ليُدرس، والجمع مشروعات " ^(٤).

وفي الاصطلاح: هو ما أعدته السيرة النبوية وهيئاته، وقرَّرتَه في المجال السياسي لخدمة الإنسان وتحقيق العبودية وعمارة الأرض ونشر العدل.

لفظ (النهضة) لغةً :

كلمة (النهضة) اسم مرة من الفعل الثلاثي (نَهَضَ)، وفي دلالته يقول ابن فارس (٣٩٥هـ): " النون والهاء والضاد أصلٌ يدلُّ على حركةٍ في علُو. ونَهَضَ من مكانه: قام. وما له نَاهِضَةٌ، أي قومٌ ينهضون في أمره ويقومون به... ونَهَضَ النَّبْتُ: استَوَى " ^(٥).

وقال ابن سيده: " التُّهُوضُ: البراح من الموضع والقيام عنه، نَهَضَ يَنْهَضُ نَهْضًا ونُهوضًا، وانْتَهَضَ.

(١) - أحمد الفيومي - المصباح المنير - في (ضمن).

(٢) - النجار وآخرون ، المعجم الوسيط في (ضمن).

(٣) - الخليل، كتاب العين. دون ط. في (شرع).

(٤) - النجار وآخرون - المعجم الوسيط في (شرع).

٥ - ابن فارس معجم مقاييس اللغة. دون ط. في (نحض).

.. وأَهْضَه: حركة للنُّهوض. وأَهْضَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ: ساقته وحملته. ..وَالنَّهْضَةُ: الطَّاقَةُ والقُوَّة. وَأَهْضَهُ بِالشَّيْءِ: قَوَاهِ عَلَى النَّهْضِ بِهِ"^(١).

وفي المصباح: "نَهَضَ عَنْ مَكَانِهِ (يَنْهَضُ) (نُهُوضًا) ارتفع عنه و (نَهَضَ) إلى العدو أسرع إليه و (نَهَضْتُ) إلى فلان و له (نَهَضًا) و (نُهُوضًا) تحركت إليه بالقيام و (انْتَهَضْتُ) أيضا و كان منه (نَهْضَةٌ) إلى كذا أي حركة و الجمع (نَهَضَاتٌ)"^(٢).

النهضة في الاصطلاح

أما عَنِ النُّهْضَةِ فِي الاصطلاح فإنه لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي، فهي حركة قيام لتغيير الواقع وتطويره، فقيل هي: "نظرية الصعود من درجة إلى أعلى، أو هي إيصال العرب إلى مستوى الحضارة الكونية"^(٣).

أو هي: "هبةٌ مجتمعيةٌ تسعى إلى إكساب الحضارة القومية قُدْرَتَهَا عَلَى إنتاج المعارف والمهارات في تعامل متكافئٍ مع الحضارات الأخرى"^(٤).

وهذا التناول السابق للنهضة اعتمادًا على مفاهيم عصر النهضة الأوروبية، فهي حركةٌ إحياءٍ للتراث القديم، حيثُ هناك كِبُوَّةٌ بعد تطورٍ حضاريٍّ تحتاجُ إلى نُهوض، أمَّا معناها الواسع فهي عبارة عن ذلك التطور في كلِّ من الفنون والآداب والعلوم، وطُرُقِ التعبير، والدراسات، وما صاحب ذلك من تغيُّرٍ في أسس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية، وهي عمليةٌ تتجاوزُ انغلاقَ فترةٍ زمنيةٍ سابقةٍ.

وأرى أن النهضة هي: القيام بالتغيُّر الواسع الشامل في كلِّ مجالات الحياة: الدينية والاجتماعية والسياسية والسلوكية والفكرية والأدبية، وتطوير ذلك إلى ما فيه صلاح الإنسان والبيئة، بما يخدم دينه

١ - ابن سيده، الخُكْمُ والحِيطُ الأعظم، دون ط. باب: (الهاء والضاد والنون)

٢ - الفيومي - المصباح المنير - في نَهَض.

٣ - إسماعيل صبري عبدالله، نحو نهضة عربية ثانية: الضرورة و المتطلبات، مجلة المستقبل العربي، دون ط. ص ٤.

٤ - النويهض، النخبة ضد الأهل، ط الأولى، ص ١١.

ودنياه.

ويشمل ذلك النقلة النوعية التي تتجاوزُ الزمن والانغلاقَ الماضي إلى الجهود، والثمرات، والأعمال، والمبادئ، والتشريعات التي أنتجتْ كُلَّ مُفيد في الحياة الإنسانية، وكونت الحضارة الإسلامية، التي تنظرُ للإنسان نظرةَ تكريمٍ وشمول، وتحرص على تزيينته؛ ليعمر الكون، ويطور الحياة تنفيذًا لعبودية الله.

فهذه المنطلقات النهضوية التي جعلت لكلِّ شيءٍ قيمةً ومبدأً، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَرْفَعَ الْإِنْسَانَ وتحميه، وتؤهله للمُكْرَمَاتِ في جميع المجالات، والذي يخصُّنا هنا المنحى السياسي، ولو أخذنا على ذلك مثلاً من الحضارة الإسلامية، نتأملُه في مُعاملاته السياسية، حتى في الحروب:

نجدُ صاحبَ السيرة -عليه السلام- يُوصي المُحارِبين بوصية هي بمثابة دستور أنتجته نهضتنا الإسلامية، تعجزُ حضاراتُ العالم في أوجِ إنسانيتها أن تسيّرَ عليه، والواقع خيرُ شاهدٍ، ففيها تشريعُه -عليه السلام- للمُحارِبين بقوله: " أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوها عني: لا تحوُّوا، ولا تغلوا، ولا تُفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأةً، ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تدبحوا شاة، ولا بعيراً إلا لأكله، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعُوهم وما فرَّغوا أنفسهم له... اندفعوا باسم الله^(١).

إن دستورَ المسلمين في الحربِ نقاطٌ جُسيِّدٌ إنسانية هذه النهضة الإسلامية، وروحها المفعمة بالرحمة، والشفقة. وإنه لمن المفيد أن نُقرِّرَ أنَّه لم يكن بُناة هذه الحضارة ودعاتها وأساتذتها من العرب وحدهم، بصفتهم أولَ مَنْ تَلَقَّى الوحي، وآمنَ به، وإنما شارك في ثراءِ هذه الحضارة الفكرية أجيالٌ من المُفكرين والعلماء والأئمة، المذكورون ومسطورون في أعزِّ، وأغلى صفحاتِ الفكرِ الإسلامي والإنساني.

إن النهضة الإسلامية بكل مقوماتها، لا سيما السياسية، لم تكن، ولن تكون ملكاً لأُمَّةٍ من الأمم،

(١) - أخرجه النسائي في السنن الكبرى - كتاب السير - ٧١ - باب من اختار الكف عن القطع والتخريب إذا كان الأغلب أئمةً ستصيرُ دارَ إسلامٍ أو دارَ عهدٍ - دون ط. برقم (١٥٨٩٢). ٨٥/٩.

أو دولة من الدول، أو جيل من الأجيال، بحيث يحق لأي فرد أو جماعة أن يحتفظ لنفسه أو لأمته بحقوق التأليف والنشر والتصرف؛ لأن هذه الثقافة ثقافة مرتبطة بالوحي الذي أنزله الله -تعالى- لهداية البشر كل البشر^(١). هذا مقصودنا بالنهضة في الإسلام.

تعريف السيرة النبوية لغة واصطلاحاً:

أما السيرة في اللغة فقد قال الفيروز آبادي: "والسيرة بالكسر: السنّة، والطريقة، والهيئة والميرة"^(٢).
- وفي الاصطلاح: فقد قال المناوي: "السيرة جمع سيرة، وهي الطريقة سواء كانت خيراً أو شراً، يُقال: فلان محمود السيرة وفلان مذموم السيرة"^(٣).

وكلمة السيرة الذي أقصده في بحثي هنا، هي الطريقة النبوية في معالجة القضايا، أي تساوي معنى السنّة النبوية: وهي كل ما نُقل عن النبي من قولٍ أو فعلٍ أو تركٍ أو تقريرٍ أو وصفٍ أو همٍّ". يُضاف إليه ما ثبت عن أصحابه الأبرار، وخلفائه الراشدين، وإليكم تفصيل ذلك.

ذكر ابن النجار الفتوح في شرح تعريف (السنّة) أنها: "قول النبي -ﷺ- غير الوحي، أي غير القرآن ولو كان أمراً منه بكتابة، كأمره -صلى الله عليه وسلم- علياً رضي الله عنه بالكتابة يوم الحديبية^(٤)، وأمره بالكتابة إلى الملوك^(٥) ونحو ذلك.

وفعله -صلى الله عليه وسلم- حتى ولو كان الفعل بإشارة علي الصحيح؛ لأنه كالأمر به، كما في

(١) - ابن العربي، العواصم من القواصم ط. : الثانية، ص ٧.

(٢) - الفيروز بادي، القاموس المحيط. ط: الثامنة، في (سير).

(٣) - المناوي، التعاريف لعبد الرؤوف المناوي ص ١٦٧

(٤) - أخرجه البخاري في صحيحه المسمى (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -ﷺ- وسننه وأيامه) -

كتاب الصلح - باب: كيف يُكتب هذا: ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبته إلى قبيلته أو نسبه - دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، برقم (٢٦٩٩). ١٨٤/٣.

(٥) - كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى له - ٦٤ - كتاب آداب القاضي - باب اتخاذ الكتاب - برقم

(٢٠٩٠٦). وصححه الألباني في مختصر إرواء الغليل : برقم (٢٦٢٩).

حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ^(١): لَمَّا تَقَاضَى ابْنُ أَبِي حَدَرِدٍ دَيْنًا لَهُ عَلَيْهِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، حَتَّى سَمِعَهَا النَّبِيُّ -ﷺ- وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا، حَتَّى كَشَفَ حُجْرَتَهُ فَنَادَى فَقَالَ: يَا كَعْبُ، قَالَ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ -فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ- أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ. فَقَالَ كَعْبُ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "قُمْ فَأَقْضِهِ".

فَإِذَا نُقِلَ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ أَرَادَ فِعْلَ شَيْءٍ كَانَ مِنَ السُّنَنِ الْفِعْلِيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِ أَنَسٍ: "أَرَادَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَنْ يَكْتُبَ إِلَى رَهْطٍ مِنَ الْعَجَمِ. فَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَمٍ، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ".

وفي تركه كذلك، فَإِذَا نُقِلَ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ تَرَكَ كَذَا، كَانَ أَيْضًا مِنَ السُّنَنِ الْفِعْلِيَّةِ، كَمَا وَرَدَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قُدِّمَ إِلَيْهِ الضَّبُّ فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَتَرَكَ أَكْلَهُ، أَمْسَكَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَتَرَكَوهُ، حَتَّى بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ حَلَالٌ، وَلَكِنَّهُ يَعَافُهُ.

وَإِفْرَازُهُ عَلَى الشَّيْءِ يُقَالُ أَوْ يُفَعَلُ سَنَةً تُتَّبَعُ، فَإِذَا سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْسَانًا يَقُولُ شَيْئًا، أَوْ رَأَهُ يَفْعَلُ شَيْئًا. فَأَقْرَهُ عَلَيْهِ، وَمِثَالُهُ: "مَرَّ عُمَرُ فِي الْمَسْجِدِ وَحَسَنَانُ يُنْشِدُ، فَقَالَ: كُنْتُ أَنْشِدُ فِيهِ، وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ"^(٢)، يَقْصِدُ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَحْتَجُّ حَسَانًا بِإِقْرَارِ النَّبِيِّ لَهُ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى الْجَوَازِ؛ وَكَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: "وَأَمَّا إِقْرَارُهُ -عليه السلام- عَلَى مَا عَلِمَ وَتَرَكَ إِنْكَارَهُ إِيَّاهُ فَإِنَّمَا هُوَ مَبِيحٌ"^(٣).

أَوْ هَمَّ بِشَيْءٍ، أَيْ مَا هَمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفِعْلِهِ وَمَنْ يَفْعَلُهُ؛ لِأَنَّهُ -ﷺ- لَا يَهْمُ إِلَّا بِحَقِّ حُبُوبٍ مَطْلُوبٍ شَرْعًا؛ لِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ لِبَيَانِ الشَّرْعِيَّاتِ، وَمِنْهُ: هَمُّهُ -ﷺ- بِمُعَاقَبَةِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الصلاة (بدون رقم) - باب التَّفَاضِي وَالْمُلَازِمَةِ فِي الْمَسْجِدِ - برقم (٤٥٧). ٩٩/١.

(٢) - عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: بدون ط. في فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه - فأخرجه البخاري في الصحيح - (٥٩) كتاب بدء الخلق، وفي باب ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ وَقَالَ أَنَسٌ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-: إِنَّ جِبْرِيْلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ برقم (٣٢١٢). ١٠٥/٤.

(٣) - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، دون ط. ١٤٦/٢.

الْجَمَاعَةِ" (١).

وصفاته الخلقية والخلقية: سواءً أثبت ذلك حُكْمًا شرعيًا أم لم يُثبت. كما نقلوا عنه - ﷺ -- أخباره وشماله وقصصه وصفاته خَلْقًا وَحُلُقًا. وهذا ما قررته كُتُبُ الحديث، وأنتجتَه مجهوداتُ المحدثين.

ونحن نقصد بالسيرة كلَّ ذلك؛ لأننا نتحدث عن سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإمام الهادي، النبيِّ الخاتم، الذي أخبرنا ربُّنا - سبحانه وتعالى - أنه أُسْوَتُنَا وَقُدْوَتُنَا (٢).

ويَدْخُلُ (٣) في ذلك ما عَمِلَ عليه الصحابةُ - رضي الله عنهم - سواءً وُجِدَ ذلك في الكتاب والسنة أم لا؛ لكونه اتباعًا لِسُنَّةٍ ثَبَتَتْ عندهم لم تُنْقَلْ إلينا، أو اجتهادًا مُجْمَعًا عليه منهم أو مِنْ خُلَفَائِهِمْ، كما في جمع المصحف، وتدوين الدواوين، وما أشبه ذلك. ويدل لهذا الإطلاق قوله - ﷺ - (٤): "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ".

أَمَّا مُصْطَلَحُ (النَّبِيَّةِ) لُغَةً :

فهو اسمٌ منسوبٌ من لَفْظِ (النبي)، وَلَفْظِ النبي في اللغة اشتقاقه من (نَبَأ) أو (نَبَأَ) على ما يلي: قال ابن دريد (٥) نَبَأَ يَنْبُو نَبْوًا. والنَّبْوَةُ: الارتفاع عن الشَّيْءِ. ومن ذلك قولهم: نَبَأَ السَّهْمُ عن الهدَفِ، لأنَّه تَنَحَّى عنه. وَمَنْ لَمْ يَهْمِزِ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فاشتقاقه من هذا؛ لأنَّه نَبَأَ، أي ارتفع. فكأنَّ النَّبِيَّ فَعِيلٌ. .. ومن هَمْزٍ فهو من النَّبَأِ، من قولهم: نَبَأْتُكَ بِكَذَا وَكَذَا، أي أخبرتك "

(١) - انظر الحديث عند الحميدي، في الجمع بين الصحيحين، دون. ط. القسم الثاني - المتفق عليه من مسند أبي هريرة برقم (٢٣٧١) - ٥/٣ .

(٢) - كما في قوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: ٢١].

(٣) - ابن عبد الحق، تيسير الوصول إلى قواعد الأصول ومعاقد الفصول، طبعة الأولى. ٢٧/١.

(٤) - أخرجه أحمد في المسند: مسند العرياض . ط.: الأولى. دون م. برقم (١٧١٤٢) ٣٧٥/٢٨ - بسند صحيح، وأخرجه الترمذي في سنن الترمذي - كتاب العلم - باب ١٦ ما جاء في الاخذ بالسنة واجتناب البدع - برقم (٢٦٧٦) وقال حسن صحيح.

(٥) - ابن دريد، الاشتقاق. ط. الأولى، ٤٦٢/١ - ١.

-وأما اصطلاحًا، فالمُخْتَارُ فِي مَدْلُولِ لَفْظِ (النبي)^(١) أَنَّهُ مَنْ نَبَّأَهُ اللهُ بِشَرِّعٍ سَابِقٍ يُنْذِرُ بِهِ أَهْلَ ذَلِكَ الشَّرِّعِ، وَقَدْ يُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِ بَعْضِ الْأَوَامِرِ فِي قَضِيَّةٍ مُعِينَةٍ، أَوْ الْوَصَايَا وَالْمَوَاعِظَ، وَذَلِكَ كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِذْ كَانُوا عَلَى شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَرِّعٍ جَدِيدٍ نَاسِخٍ لِلتَّوْرَةِ، فَتَكُونُ مَنْزِلَتُهُ حِينَئِذٍ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَدِّدِ لِتَعَالِيمِ الرِّسَالِ السَّابِقِينَ.

وهي هنا تخصُّ نبيَّنَا مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء، وسيد الأولياء، وخير المرسلين أعظم الخلق، ومَن شهد له أعداؤه بالبر والوفاء، والحكمة والذكاء، والرحمة والعطاء، وفداه بأنفسهم وأبنائهم وعشائره، وأموالهم أصحابه وحواريوه، ويتمنى الواحدُ من أتباعه اليومَ أن يراه نظرةً، وأن ليس له الدنيا وما فيها.

والآن، بعدَ مُحاوَلَةِ التَّعْرِيفِ بِمُصْطَلِحَاتِ البَحْثِ أَشْرَعُ - مستعينا بالله - في كتابةِ فصلي الرسالة، وبالله التوفيق، ومنه العون والمدد:

أَنْتَ رَبِّي فِي تَصَارِيفِكَ أَنْتَ خَيْرُ الْأَحْكَامِينَ

أَنْتَ أَوْلَى بِي مِنِّي؛ فَأَعِنِّي يَا مُعِينِي

(١) - انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، ط. ٦. ص ٦٧

الفصل الأول :

المشروع الإسلامي من التكوين إلى التمكين

وفيه ستة مباحث :

الأول : التمهيد

- المبحث الثاني : أحوال العرب السياسية قبل البعثة
- المبحث الثالث : العقيدة السياسية للجزيرة العربية قبل الإسلام .
- المبحث الرابع : الأوضاع السياسية لما حول الجزيرة العربية .
- المبحث الخامس : بناء إنسان الحضارة وقصة التغيير .
- المبحث السادس : الخلاصة .

فقد ضلت البشرية وحُرِّفَت الرسائلُ وانتشرت الجهالاتُ والخرافاتُ والحروبُ والصراعاتُ والقهرُ والظلمُ وإنكارُ الحقوقِ، وتحولت البشرية من مجتمعاتٍ خلقها الله لتعمر الأرضَ وتنشرَ الخيرَ وتعبده على بصيرةٍ، إلى قطعانٍ من الوحوشِ الكاسرةِ التي فقدت المرجعيةَ والحكمةَ، وأضحَتْ بلا منطلقاتٍ أو وجهةٍ تؤوبُ إليها، بل هائمةً على وجهها لا تعرف المسير ولا إلى أين المصيرُ؟!
تعبدُ الشجرَ والحجرَ^(١)، وآخرون يعبدون البقرَ كقوم السامري^(٢)، والكواكب والنجوم كالقوم الذين حاججهم إبراهيم عليه السلام في بلاد الشام (٣) ، وكان في البشرية من يطوفُ على النارِ ويقسُ البشرَ والأصنامَ، وكذلك وقع الشرك والوثنية في الديانات السماوية كاليهودية ، والنصرانية^(٤). وقسُ على ذلك من كُلِّ التصرفاتِ التي تصدرُ من الإنسانِ الذي سقطَ روحُه فسقطَ عقلُه حيثُ ضلَّ السبيلَ.

وإذا أردنا أن نُطيلَ الحديثَ بعضَ الشيءِ عن هذه الأحوالِ المتردِّيةِ؛ وإذا أردنا أن نتبينَ أهميةَ هذا المشروعِ الإسلاميِّ ورسالةَ الدعوةِ إلى توحيدِ الله تعالى، وما واجهتها وما جابهها - فإنه يمكننا التحدثُ عن ذلك وفقَ نظرتينِ :

الأولى: نظرةٌ إجماليةٌ عامةٌ وهي التي ذكرها حديثُ الرسولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبِيًّا وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ"^(٥).

(١) - السهيلي، الروض الأئفُ في شرح السيرة النبوية. دون ط. ١ / ١٦٦.

(٢) - قصص الأنبياء للحافظ أبي الفداء بن كثير ١٦٤/٢

(٣) - قصص الأنبياء للحافظ أبي الفداء بن كثير ١٦٨/١

(٤) - كان أهل مكة - على سبيل المثال - يحجون إلى الأصنام ويقدمون لها القرابين، وكانت الكعبة في ذلك العصر الجاهلي مقر الوثنية، إذ كانت تحيط بها الأصنام من كل جانب، وكان هناك قوم في اليمن يعبدون الشمس، وهم الذين ذكر الله قصتهم في القرآن الكريم مع سليمان -عليه السلام-. وكما كان هناك طائفة من العرب يعبدون النار وهم المجوس، وقد انتقلت إليهم هذه الديانة من الفرس الذين كانوا يجاورونهم، وكذلك كانت توجد اليهودية في يثرب وخيبر، والمسيحية في الحيرة وغسان. وهكذا كانت توجد في شبه الجزيرة العربية أديان مختلفة إلا أن الوثنية كانت هي السائدة. انظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، المؤلف: محمد الطيب النجار، الناشر: دار الندوة الجديدة بيروت - لبنان. دون ت. ص ٥٨ وما بعدها .

(٥) - أخرجه مسلم في صحيحه - ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها من حديث عياض بن حمار المجاشعي - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار - برقم (٢٨٦٥). ٢١٧٩/٤.

الثانية: ونظرة تفصيلية مبيّنة على الأحوال السياسية

1.2. المبحث الثاني : أحوال العرب السياسية قبل البعثة النبوية:

كان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي^(١)، ولم يعرفوا الاجتماع على دولة إلا في أحوال قليلة، وعلى مساحات ضيقة؛ فالجزيرة العربية طوال تاريخها قبل الإسلام لم تعرف وحدة سياسية جامعة، حتى في الدول التي قامت في اليمن أو في أطراف الجزيرة في الشام والعراق، لتنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما بقيت القبائل وحدات، لها نفوذها واستقلالها، وأوضح مثال حالة مكة قبيل زمن البعثة النبوية، فلا يوجد رأس للدولة له سلطات، ولا مؤسسات إدارية وسياسية، وإنما تألفت وتعاونت قبلياً على حسب الأسر وقوة رجالها.

وكانت هناك ممالك متحضرة في اليمن وكذا في مملكة الغساسنة، ومملكة الحيرة في شمال الجزيرة العربية^(٢)، ومع ذلك فهي تُدار بنفس العقلية والنمط الذي تُدار به القبائل العربية التقليدية تقريباً.

وهنا يتضح أنه لم يوجد نظام واضح، أو محدّد الملامح أو مرجعيّ لاختيار القائد أو الرئيس أو الزعيم؛ بل ظلّت معايير عامة تنقص أو تزيد، لكنّ باب الاجتهاد فيها واسع ومُشرّع، والعرف العام هو الحاكم في هذا الأمر.

(١) - من يتأمل أحداث التاريخ العربي قبل الإسلام يدرك أن النظام كان قبلياً في كل شيء في الحرب وفي السلم . الروض الأنف للسهيلي ، ٣١٧/١ - ٢١٢/١ - الجاحظ، كتاب الحيوان - دون. ط. ص ٣٣٠ - المباركفوري، الرحيق المختوم - دون. ط. ص ٢٤.

(٢) - ذكر هذه الممالك ابن هشام في السيرة ، انظر : عبد السلام هارون في تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٤٢٣

ويتمتع الحاكم (رئيس القبيلة) بعد تنصيبه بمميزاتٍ عدةٍ غيرِ السمع والطاعة مثل^(١) أن يحصل على (المرباع)؛ أي ربع الغنائم التي تأخذها القبيلة، بالإضافة إلى (الصقايًا) وهي ما يصطفيه لنفسه من الغنائم قبل القسمة، و(النشيطه) وهي ما أُصيب من مال العدو قبل اللقاء، و(الفضول) وهي ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمه.

وكان طبعياً في هذه البيئة أن يختفي الاستقرار في بيئة العلاقات السياسية، أو يكون شبه مفقود؛ فانتشر السطو والحروب والخلافات، بل كانت بعض المعارك بغرض كسب الرزق عبر الإغارة على القبائل الأخرى؛ ناهيك عن الانتقام وتصفية الحسابات التي كانت منتشرة في ذلك الزمان، وكان البعض يرفع شعار الرزق مقروناً بطرف السيف^(٢)؛ وهذا يصف لنا الحالة المضطربة للبيئة السياسية والأمنية في تلك الحقبة، والتي بكل تأكيد لا يُنبئ عن مشروع حضاري، أو إنساني في ذلك الحيز من العالم.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية بشكلٍ ما؛ فقد نشأ العربي في الصحراء الواسعة، ينتقل كما يشاء من غير قيود، ولذا كانت الحرية من خصائص العرب، يابون الضيم والذل^(٣)، ويفتخرون بالقبيلة

(١) - ضمها قول الشاعر عبد الله بن غنمة الضبي، والبيت من الوافر :

لك المرباع فيها والصفايا وحكمتك والنشيطه والفضول.

وانظره في : الجاحظ، كتاب الحيوان - دون. ط. ص ٣٣٠.

(٢) - نعم، هؤلاء كانوا يجعلون رزقهم بالسطو والنهب والإغارة على الضعاف، ومن لا يستطيعون المقاومة، وأحيانا على الأقوياء أمثالهم بقصد الانتقام أو التكبُّب؛ فلما جاء الإسلام منع كل ذلك، وجعل الرزق بالسعي وبالجهات التي شرعها الله فقط، ومنها طلب الرزق بالجهاد، لنشر الحق ودفع الظلم .

حتى لا يفهم الكلام على غير وجه الصواب، لأن لدينا أثرا مروياً في صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب ما قيل في الرماح - بدون رقم - ويُذكر عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم " جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّعَاؤُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي " والمعنى فيه أن الله لم يكن يُحل الغنائم لنبيِّ قبله، فخصه - سبحانه - بتحليل الغنائم له، وجعل له نصيباً خاصاً فيها، فكان هذا رزقا ومنةً من الله بما على رسوله وعلى الأمة، ولم يكن الرسول ليقضي حياته في طلب الرزق، بل في الدعوة إلى التوحيد وقاتل المعاندين بالضوابط التي حددها الإسلام، بلا حيفٍ ولا تعدٍ.

(٣) - حتى قال قائلهم (عمرو بن كلثوم من الوافر) والقصيدة في : أبي زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام -

بدون ط. ٢٧٢/١ :

ونشربُ إن وُرِدْنَا الماءَ صَفْوَاً وَيَشْرَبُ غَيْرَنَا كَدِرًا وَطِينًا

ويدافعون عن حماها وحُرُماتها، ويشيدون بأيامها ومفاخرها، وينتصرون لكل فردٍ من أفرادها سواءً كان محقًا أو مبطلاً، ولهذا كان من أقوالهم: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا^(١).

ويقول شاعرهم^(٢): وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت. .. غويت، وإن ترشد غزيرة أرشد

فالقبيلة لها شخصيتها السياسية المستقلة، تعقد الأحلاف وتشن الغارات حسب مصلحتها وأوامر رجالاتها، ولهذا لم يكن لهم في آخر عهدهم أثرٌ في السياسة الدولية، لأنهم وحداتٌ صغيرة متفرقة، بل خضعوا في بعض أطرافهم لنفوذ الدولتين الكبيرتين في ذلك الزمن: الفرس والروم، واستعمرت اليمن من قبل الأحباش، وبلغ الأمر بأبرهة الحبشي^(٣) أن غزا الكعبة وأراد هدمها، ولم يستطع العرب مواجهته، لأنهم لم يجتمعوا له في جيش واحد، وإنما واجهوه قبيلةً قبيلةً، فلم يصنعوا شيئاً، بل استسلم بعضهم وآثر الدون من الفعال؛ فأرسلوا مع أبرهة من يده على الطريق إلى مكة، كما فعل أبو رغال الطائفي^(٤) الذي مات بالمغمس قرب مكة، وكرهه العرب؛ لخيانته فصاروا يرمون قبره.

وعندما أراد سيف بن ذي يزن التحرر من استعمار الأحباش لجأ إلى سلطان الروم فلم يجبه، ثم لجأ

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَأَمَ النَّاسَ حَسَنًا أَبَيْنَا أَنْ نُقَرَّ الدُّلَّ فَيَنَا .

وهذه القصيدة الفخرية سار بها الركبان في الآفاق لِقَوْلِهَا.

(١) - وقد كانوا يستعملون هذا المثل على ظاهره المتبادر إلى الفهم، ومعناه: أن الواجب عليك أن تتعصب لأخيك وابن قبيلتك، سواء أكان الحق معه أو عليه، فإن ذلك لا يهم، المهم أن تتحد معه على من خالفه، فلما جاء الإسلام، وكان من أول دعائمه العدل، ونصرة المظلوم، والأخذ على يد الظالم، استعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا القول وبين معناه الصحيح، وأن نصرته ظالمًا: برده عن الظلم، والوقوف بجانب المظلوم.

(٢) - البيت لدريد بن الصمة من بحر الطويل، قال اليوسي في كتابه (زهر الأكم في الأمثال والحكم، دون. ط. في ضبط كلمة (غزيرة) ٢٤٣/١: " و غزيرة قبيلة، وهي فيما أظن بفتح المعجمة وكسر الزاي. وهكذا رأيت في نسخة من الصحاح مضبوطاً بالقلم، ويؤيده ما في القاموس من أنهم يسمون غازية وغزيرة كغنية ولم يثبت في أسمائهم غزيرة. بلفظ التصغير". وفي معنى البيت، وضبط الفعل (ترشد) يقول المرزوقي في: شرح ديوان الحماسة، ط. ١٠ - ١ / ٢٥٣: " لك أن تضم الشين من (ترشد) وأن تفتحها. وقوله هل أنا هو في مذهب النفي، وإن كان استفهاماً ولذلك تبعه إلا، كأنه قال: ما أنا إلا من غزيرة في حالتي الغي والرشاد، فإن عدلوا عن الصواب عدلت معهم، وإن اقتحموه اقتحمت بهم".

(٣) - ابن هشام، السيرة النبوية - دون. ط. - ١٦/١

(٤) - انظر: ابن كثير، البداية والنهاية - دون. ط. - ١٤٢/٣

إلى كسرى فارسٍ فأمدّه بعد جهدي^(١).

1.3. المبحث الثالث : العقيدة السياسية للقبيلة العربية قبل الإسلام :

كان للقبائل العربية في الجزيرة شخصياتٍ سياسيةً مختلفةً، حيثُ كان لكلِّ قبيلةٍ توجهٌ وقيمٌ جامعةٌ، ومُبرراتٌ ومسوغاتٌ للسلم والحرب، وعقدُ الأُخلافِ والصلحِ والمعاهداتِ، ومن خلالِ تاريخِ كلِّ قبيلةٍ يميّزُ الباحثُ عن هويةٍ مُختلفةٍ لكلِّ قبيلةٍ، أو مملكةٍ تُميّزُها عن الأُخرياتِ، رُغمَ التقاطعِ الكبيرِ في المنطلقاتِ العامة؛ وهذا يجعلنا أمامَ تكويناتِ البيئةِ والظروفِ والأفكارِ المكوّنة لهذا العالمِ رُغمَ أنه للوهلةِ الأولى يُعتقدُ أنه عالمٌ واحدٌ، وأنَّ كلَّ تجربةٍ مُستنسخةٌ من الأُخرى، وهذا لا يصحُّ وهو غيرُ واقعيّ.

1.3.1 نمطُ العلاقاتِ السياسية:

كان نمطُ التعاطي السياسيِّ في تلكِ الحقبةِ مُضطرباً، وذلكِ لإشكالياتِ الاضطرابِ الأخلاقيِّ في عالمِ القيمِ والأخلاقِ، فالنأز-مثلاً - كان مُنتَشِراً، وشعارُ "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" كان سائداً بغضِّ النظرِ عن كان الحقُّ له أو عليه؛ كما أنَّ الظروفَ الاقتصاديةَ الصّعبةَ وغيابَ منظومةِ أخلاقِ جامعةٍ جعلتِ المناوشاتِ بينَ القبائلِ تكادُ تكونُ متواترةً، وُجدارُ الثقةِ بينَ تلكِ المكوناتِ يريدُ أن يَنْقُصَ، ومع هذا حاولتِ الحكمةُ والقُدرةُ البشريّةُ أن تُحافظَ على الحدِّ الأدنى من الأمانِ والاستقرارِ؛ فجاءتْ فكرةُ الأُخلافِ، والاتفاقاتِ التي تُخلَقُ حالةً من الاستقرارِ النوعيِّ، وتُقلِّلُ من الاحتكاكاتِ التي تُؤثِّرُ على مسارِ العملِ السياسيِّ والاقتصاديِّ والاجتماعيِّ.

وكان من أهمِّ هذه الأُخلافِ في التاريخِ العربيِّ قبلَ الإسلامِ حلفُ الفضولِ^(١)، والذي جاء نتيجةً

(١)- السهيلي. الروض الأنف ١/١٣٨.

الانفلاتِ الأمِّيِّ الناتجِ عن ضعفِ المكوِّنِ السياسيِّ العامِّ، وانتشارِ الجهلِ، والضعفِ والمرضِ والفسادِ، والطبقيةِ والقيمِ السلبيةِ؛ حيثُ يأكلُ القويُّ الضعيفَ، وهذا -ولا شك- أضعفَ النسيجَ الاجتماعيَّ وجعلَ الكيانَ السياسيَّ يكرسُ جهدهَ في الجهودِ الأمنيَّةِ بدلَ أن يُركِّزَ على البناءِ والتنميةِ والنُّهوضِ^(٢).

1.4. المبحث الرابع الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية وما حولها :

1.4.1.1. المطلب الأول : اليمن^(٣) :

كان النظامُ السياسيُّ في اليمن مكوناً من عدة ممالك^(٤) عربيَّة، تتقاسمُ النفوذَ والمساحةَ والمصالحَ، ويغلبُ عليها الطابعُ القبليُّ، الذي سبق شرحُه، في قبائلِ الجزيرةِ العربيَّةِ إلا أنَّ الأمرَ قد تحوَّلَ قبلَ الإسلامِ إلى احتلالِ اليمنِ، مِنْ قِبَلِ الأحباش^(٥)، والسيطرةَ على أجزاءٍ كبيرةٍ منه، حيثُ سقطَ حكمُ الحميريين هناك، و سيطرَ الأحباشُ على اليمنِ، ثم توسَّعَ نفوذُهم نحو تهامة.

وكانت تطلعاتُهم السياسيَّةُ تتَّجه نحو مكة، إلا أنَّ حادثةَ الفيلِ الشهيرة^(٦) التي ذُكرت في القرآن، غيَّرت المسارَ السياسيَّ لهم في ذلك الوقت، ومع ذلك التوسعِ والنفوذِ لم يَدُم ذلك طويلاً للأحباشِ،

(١) - البغدادي، المُتممُ في أخبارِ قُرَيْشٍ - دون ط. - ٢٨٢/١

(٢) - الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - دون ط. ص ٢٨

(٣) - انظر : ابن خلدون الكتاب المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. ط: الثانية. ٢-٥٠/٦٦ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الطبعة: الرابعة. د. ن. ٣٧٨/٣ - أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري. ٥٦٦/١

(٤) - انظر تاريخ الرسل والملوك ٥٦٦/١ - باب ذكر الخبر عن ملوك اليمن.

(٥) - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٤٩/٣ وما بعده.

(٦) - ابن كثير، البداية والنهاية: دار الفكر. ط : ١٤٠٧ هـ - ٢١٢/٢. وقد نقل ابن كثير ٦٢/٢ سبب عزم أبرهة على ذلك

فقد لتعاضد السبي مع أهل اليمن^(١). فاتجه أهل اليمن إلى الفرس يستنجدون^(٢).

فتغيرت موازين القوى لصالح الفرس الذين سيطروا على اليمن قبيل بداية الفتح الإسلامي. فكان حكم اليمن شراكة بين الفرس والعرب لفترة من الزمن إلى أن قُتل سيف بن ذي يزن فانفرد الفرس^(٣) بالحكم والسلطة. ثم دخل اليمن في الإسلام، بعد أن هاجر الرسول إلى المدينة، وأرسل إليهم الصحابة لدعوتهم^(٤)، ودخلت اليمن في رحاب الإسلام بعد أن دعا الرسول -صلى الله عليه وسلم - حاكم اليمن (بأذان)؛ فأسلم، ودخلت بعد ذلك الزمن اليمن في بجنوحة الإسلام.

(١) - ذكر ابن خلدون في مقدمته طرفاً من هذا التعامل القاسي حين أرسل إليهم النجاشي (أرباط): "وعهد إليه بقتلهم وسبيهم ، وخراب بلادهم، فخرج أرباط - اسم قائدهم - لذلك ومعه أبرهة الأشرم ؛ فركبوا البحر، ونزلوا ساحل اليمن، وجمع ذو نواس حمير، ومن أطاعه من أهل اليمن، على افتراق واختلاف في الأهواء، فلم يكن كبير حرب، وانهموا، فلما رأى ذو نواس ما نزل به، وبقومه وجهه بفرسيه إلى البحر، ثم ضربه فدخل فيه، وخاض ضحوضاح البحر، ثم أفضى به إلى غمرة، فأقحمه فيه، فكان آخر العهد به، ووطئ أرباط اليمن بالحبشة، وبعث إلى النجاشي بثلاث السبي، كما عهد له، ثم أقام بها فضبطها وأذل رجالات حمير، وهدم حصون الملك بها مثل سلجيق، وسون، وغمدان، وقال ذو يزن يرثي حمير وقصور الملك باليمن

ليس يردُّ الدمعُ ما فاتاً

و بعد سلجيق بيني الناس أبياتا

ومن عظيم إجرامهم ما ذكره الطبري في تاريخه ٤٧٦/١ عن شريك أبرهة المدعو (عتودة): " فقال الأشرم عند ذلك لعتودة، بعد أن تمت الصفقة بينهما: " حكمك يا عتودة وإن كنت قتلتني، ولا ينبغي لنا ذلك إلا ديتي فقال عتودة حكمتي إلا تدخل عروس من أهل اليمن على زوجها منهم حتى أصيبها قبله، فقال ذلك لك ". وقد أعطاه أبرهة ذلك لأنه ساعده في قتل عدوه أرباط.

(٢) - نقل الطبري في تاريخ الأمم والملوك ٤٣٧/١ أن سيف بن ذي يزن خرج يستنجد بكسرى: " قال أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغرية فقال كسرى أي الأغرية الحبشة أم السند؟ قال بل الحبشة. لتنصرتي عليهم وتخرجهم عني، ويكون ملك بلادي لك فأنت أحب إلينا منهم ".

(٣) - قال ابن المطهر في كتابه: البدء والتاريخ - دون ط. ١٨٤/١: " قالوا: وأقام سيف بن ذي يزن ملكاً من قبل كسرى، و (وهرز) له كالمعين والناصر إلى أن قُتل، وكان سبب قتله أنه اتخذ خولا لنفسه من الحبشة، فخلوا به يوماً في متصيدة، فقتلوه ثم لما مات (وهرز) ملك ابنه البنجان بن (وهرز) ثم مات، وبعث كسرى بأذان، فلم يزل عليها إلى أن بعث الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فاتبعه وآمن به ".

(٤) - البخاري، الصحيح - كتاب الزكاة - باب أخذ الصدقة من الأغنياء - حديث برقم (١٤٩٦) ١٢٨/٢ وفيه: " عن ابن عباس أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: " إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله - عز وجل - فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. .. "

1.4.2. المطلب الثاني : الفرس .

يقرر أهلُ التواريخ أنَّ من أعظم القوى السياسية، على مر الزمان الإمبراطورية الفارسية^(١)، حيث كانت تُسيطر^(٢) على بلادِ ما وراءَ النهرِ، وأجزاءٍ كبيرةٍ من قارةِ آسيا، وأجزاءٍ كبيرةٍ من العراقِ، عبرَ دولةِ المناذرةِ التابعة لهم.

وكان غالبُ النظامِ السياسيِّ نظامًا ملكيًّا^(٣) طبقًا استبداديًّا^(٤) يميّزُ بين الناسِ ويحصُرُ الحُكْمَ في العائلةِ الساسانيةِ التي يَعْتَقِدُ العامةُ بأن لهم الحقَّ الإلهيَّ المقدسَ، وكان الملكُ يُشرفُ على تقسيمِ المجتمعِ إلى طبقاتٍ، فلا يسمحُ لطبقةِ الحُكّامِ بالزواجِ مِنَ العامةِ، و كان رجالُ الجيشِ الفارسيِّ لهم

(١) - قال ابن خلدون في المقدمة ٢/٢٢٢ : "هذه الأمة من أقدم أمم العالم وأشدّهم قوة وآثارا في الارض".

(٢) - السابق ٢/٢٢٣ : ملكوا أرض فارس، ثم صارت لهم خراسان، ومملكة النبط والجرامقة ثم اتسعت مملكتهم إلى الإسكندرية غربا وباب الأبواب شمالا".

(٣) - أبو الحسن بن الأثير، الكامل في التاريخ - الطبعة: الأولى. ١ - ٢٨٨-٣٠٢.

(٤) -العسكري، الأوائل: ط: الأولى. ١/١٣٠ : "كان ملوك الفرس يتوخون المعدلة والإنصاف... حتى ولي (يزدجرد) الأثيم

فأزال هذه، وقال : ليس على الرعية أن تعترض على الراعي في شيء".

نفوذٌ وسلطانٌ كبيرٌ، حيثُ كان يسجدُ الناسُ لأفرادِ الجيشِ تعزيرًا وتوقيرًا.

وقد انتشرَ في ذلك المحيطِ الكثيرُ من مظاهرِ الطبقيّة، ومنها الظلمُ والعسفُ والاستعبادُ، وانحصرتِ الثرواتُ بين الطبقةِ الحاكمةِ لبلادِ فارس، وحُكّامِ الأقاليمِ (المزاربة)، وبعضِ الأُمراءِ والأسرِ الإقطاعيةِ (كالدهاقين)، وهذه الطبقةُ قد انتشرَ فيها الفحشُ والإسرافُ والتبذيرُ والاستعراضُ المالمليُّ، والاجتماعيُّ، الخارجينِ عَنِ المألوفِ.

بينما كانتِ العامةُ والفلاحونُ يقدّمونَ الضرائبَ والرسومَ للدولةِ الفارسيّة، والدّهاقونُ يقومونَ بجمعِ هذه الضرائبِ من الناسِ؛ لاعتمادِ الدولةِ في اقتصادِها على تلكِ الضرائبِ والمكوسِ، وكان دينُ الدولةِ الأساسَ المحوسبيّة، حيثُ يعبدونَ النارَ، ويقدسونها، وهناك رجالُ دينٍ، لهم قدسيّةٌ كبيرةٌ، وسلطانٌ، وهيلمانٌ، وصلاحياتٌ واسعةٌ.

وقد عانتِ الدولةُ الفارسيّةُ من وضعٍ سياسيٍّ مُضطربٍ قُبيلَ الإسلامِ؛ لِشِدّةِ الصراعِ معَ الرومِ، و كثرةِ الحروبِ، مما زادَ الضرائبَ، والرسومَ على الناسِ، الأمرُ الذي زادَ من نِقمةِ الناسِ على الطبقةِ السياسيّة، وساهمَ هذا الإحساسُ بالمظلوميةِ السوداءِ، وعملتُ هذه الاحتقاناتُ على جلبِ كثيرٍ من التحوّلاتِ.

الروم :

كانت الإمبراطوريّة^(١) الرومانيّةُ هي القوةُ العظمى الثانيةَ معَ الفرسِ في ذلك الزمانِ؛ إذ كانت تمتدُّ من أوروبا شمالًا إلى القُسطنطينيةِ (تركيا حاليًا)، ومصرَ والشامِ وبلادِ الشمالِ الأفريقيِّ، وكان مركزَ

(١) - ابن كثير، المختصر في أخبار البشر: ط: الأولى - ٤٤/١ : "وخرج أغسطس في السنة الثانية عشرة من ملكه من رومية بعساكر عظيمة، في البر والبحر، وسار إلى الديار المصرية، واستولى على ملك اليونان، وكانت قلوبطرا(كليوبترا ملكة مصر) هي ملكة اليونان. .. ولما ملك أغسطس الرومي على اليونان اضمحل ذكر اليونان ودخلوا في الروم، ولما ملك أغسطس ديار مصر والشام دخلت بنو إسرائيل تحت طاعته، كما كانوا تحت طاعة البطالسة ملوك اليونان".

الإمبراطورية الرومانية القسطنطينية، ودين الدولة الرسمي النصرانية^(١)، وكان نظام الحكم في المقاطعات ذا طابع عسكري، فكل ولاية فيها معسكر يُشرف على حكمها، وقد قامت الكثير من الصراعات^(٢) على المصالح، والنفوذ بين الفرس والروم، وبين الأقباط والروم في مصر في تلك الفترة، مما جعل الساحة السياسية مهياً للتغير، والفجر الذي يعقب الظلام البهيم.

وكانت العلاقة السياسية بين تلك القوتين العظميين (الفرس والروم) بين شد وجذب، فمرة تكون الغلبة للفرس، وأخرى للروم، وقد ذكر القرآن طرفاً من هذه الأحداث، قال الله تعالى: { غَلَبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ }^(٣)، وليس من شك أن هذه الأوضاع، وغيرها عادت على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بالآثار السلبية، لهذه المناطق في ذلك الزمن.

وكان النظام^(٤) الضريبي -أيضا - سائداً؛ لتمويل الحروب ومصروفات الدولة، وهذا شكلاً ضغطاً كبيراً على الناس، فهناك ضرائب على الناس والمزروعات وعلى التجارة وعلى الحيوانات، وكلما زاد الصراع زادت الضرائب والمكوس، وهذا قد جعل الشعور بالظلم والبؤس والقهر ينتشر، بل أصبح حقيقة واقعة؛ فقد أفلست الدولة من كثرة الحروب، مما حمل هرقل على أن يستدين من الأثرياء، والكنائس وطبقة رجال الدين التي كانت تحظى بنفوذ وثروة وصلاحيات كبيرة، حيث كان الناس يُطالبون بالسمع والطاعة مطلقاً دون نقاش أو قضاء بعد أن حُرِّموا الحرية الفكرية أو الاجتماعية أو

(١) - ابن المطهر، البدء والتاريخ ١٨٨/١ قال ابن المطهر: "وتنصرت الروم بأسرها وأراه في زمن ططوس أو بعده ثم تركت النصرانية في زمن قسطنطين وعبدت الأوثان، ثم عادت إلى النصرانية بعده، وقد اختلفت بهم الأحوال في الدين بعد عيسى - عليه السلام - إلى أن قام الإسلام، وكان ملكهم في عهد النبي هو هرقل". وانظر: ابن كثير في المختصر ٤٦/١.

(٢) - ابن خلدون المقدمة: : قال ابن خلدون " فوَقعت بين الفرس والروم حروب كثيرة وزحف " ٢١٨/٢.

(٣) - سورة الروم - آيات (٢-٣).

(٤) - العمري، عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين: ط: الأولى. ص ٣٢٢، قال العمري: "أما الحالة الاقتصادية، فإن الربا والاحتكار هما أساسا النظام، وقد فرض هرقل ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستائين من الحكم الروماني لتسديد الدين الكبير لحروبه مع فارس، وقد أصيبت الإمبراطورية البيزنطية بالخطاط هائل، نتيجة المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة وإهمال الزراعة وتناقص العمران." ثم قال: "نستشهد بقول بتلر عن إدارة مصر: " أن حكومة مصر الرومية لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون، غنيمة للحاكمين "، وحتى الروم أنفسهم تعرضوا لتقل الضرائب وخاصة الفلاحين، الذين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن.

التنوع الثقافي.

وهذه الأوضاع السياسية المضطربة، وذلك الانحراف العقدي أصبحت من أهم المؤشرات استعداداً للتغيير الكبير الذي حدث، مع الفتح الإسلامي، حيث كانت الشعوب تنتظر هذا التغيير والتحول في النظام العام والحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بحثنا عن العدل والرحمة، والحياة الكريمة.

وقد كان هناك تحدٍ كبير لهذا المشروع الذي واجه قهر قريش، وتخلي القريب والبعيد عنه في بدايته، رغم ما فيه من الخير، والفرص الدنيوية قبل الآخروية، وهو ما يؤكده الله -عز وجل- واصفاً هذا الإنسان الجاهل بأشد الظلم، حين ينصرف عن الحق والخير، ويرد الحق، ويصد عنه، ويريد الاعوجاج، والفساد، فقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} (١).

والم تأمل أحداث التاريخ يرى أن جميع القوى التقليدية والتكتلات الاقتصادية حاربت الإسلام في مطلعها؛ خوفاً على نفوذها، ومصالحها ومناطق سيطرتها، أو خوفاً على العمق (٢) التاريخي أو النفوذ السياسي، أو ضياع المصالح الفئوية لنخبة العشائر والقبائل أو العرقيات المكونة لذلك النسيج الاجتماعي؛ وقد ضاقتوا بالإسلام ذرعاً، وأصبح ضيقاً ثقيلاً على بعض القبائل العربية، وعلى رأسها قريش، ثم على الروم والفرس واليهود والمنافقين وغيرهم، حيث كان هناك الكثير من المواجهات في سنوات التأسيس وانطلاقة الدعوة بين كل هذه المكونات.

والمشروع الإسلامي الناشئ أراد أن يجد موطناً قدم على هذا الكوكب؛ لينطلق بمولد خاتم الرسائل السماوية للبشرية وآخر الكتب والرسائل التي تمثل رسالة السماء إلى أهل الأرض؛ ومن هنا خرج المنهج الإسلامي في الدعوة، حيث انطلق المشروع بشكل سرّي في دواخل مكة المكرمة، يزرع البذرة الأساسية في أعمدة، ستقوم عليهم رسالة عظيمة إلى العالمين، وهي الأخيرة في عمر البشرية، وقد

(١) - سورة هود آية (١٨-١٩).

(٢) - المكانة والمنزلة بين الدول والبلاد.

قضى الله في غيبه أن تنجح ويمكّن لها، حتى ترسخ حجة الله في أرضه على خلقه؛ {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ} (١).

وفعلا بدأت دعوة الإسلام بثلاثة (٢): رجل وامرأة وصبي، وهم أبو بكرٍ وخديجة بنت خويلد وعليُّ بن أبي طالب -رضي الله عنهم أجمعين -، واستمرَّ الحال بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وبين قريشٍ المُهيمنة سياسيًا وعسكريًا على مكة المكرمة، لثلاثة عشر عامًا، ما بين شدِّ وجذبٍ وقهرٍ وتضييقٍ ومؤامراتٍ وتدييرٍ حيث كانت المعاناة كبيرةً، لا يألون جهدًا في محاولة اغتيال المشروع كل يوم.

ومن يبحث في هذا الواقع المؤلم، متابعًا أحداثه يجد أن أتباع الإسلام -بعد عددٍ من السنوات تُقدَّر بست سنوات تقريبًا- لم يزيدوا على بضعةٍ وخمسين صحابيًا وصحابية (٣)، فوصل الرسول -عليه أفضل الصلاة والتسليم- إلى تصورٍ نهائيٍّ -بتسديد الوحي وهدايته - هو أن الدعوة لا تقوم بلا دولةٍ ترعاها، وتنصرها وتدعمها، وتكون الحِصنَ الأمينَ، والحصنَ الحصينَ للرسالة الخاتمة للبشرية.

ومن ثمَّ جاء الأمرُ بالهجرة والخطة الجديدة، بحثًا عن فضاءٍ حاضنٍ للمشروع، يجمع بين الأرضية الخصبة للمشروع، والمكون الإنساني المُستضيفِ والراعي، ومناخ الحرية الضروريِّ للتبشير بالرسالة، والأمن والاستقرار الذي ينعكس إيجابًا على الدعوة.

لقد مرَّ المشروع الإسلامي بعدة مراحل، فكانت مرحلة الدعوة باللين، ثم مرحلة مناقشة الحجة، ومقارعة العقول بالأدلة والبراهين، وبعد أن أسقطت قريشُ مشروعَ: " من يُؤويني حتى أبلغ رسالة ربي " (٤).

(١) - سورة الأنفال آية (٤٢).

(٢) - انظر: السهيلي، الروض الأنف ١/٤٢٦.

(٣) - في قصة إسلام عمر - رضي الله عنه - يقول ابن إسحاق في السيرة النبوية ١/٦٣: " والمسلمون يومئذ بضعة وأربعون رجلا واحدى عشرة امرأة ". و عن إسلام عمر ذكر المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٨٠: " أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة ".

(٤) - جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده - من مسند جابر بن عبد الله - برقم (١٤٦٥٣) من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير محمد بن مسلم أنه حدثه عن جابر قال: " مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين،

ولم تنفع معهم أطروحة مخاطبة العقل، واستخدام الحجج والبراهين، كان لا بد للمشروع الإسلامي أن يواجه ذلك بخطة جديدة، وبخاصة أن الإسلام لا يقف عاجزاً أمام أي فكر يخالفه، بل عنده حلولٌ متنوعة، وتناسب كلِّ الأفكار، مما يجعل له هيمنةً وسلطاناً عظيماً على النفوس.

ولا يضيرُ دعوة الإسلام أن قريشاً أسقطت الخطة الأولى التي جاء بها الإسلام في مشروعه الحضاري، تلك التي قامت على اللين، والتحاور ومحاولة الإقناع بالإله الواحد، ونفي الأرباب والشركاء، وإعمال العقل ونشر مكارم الأخلاق، تلك الفكرة التي توافقت كلَّ فطرةٍ سويةٍ، بل كان من الضروري البدء بهذه المرحلة، من الدعوة بالمعروف ثم رفع لواء التحاور؛ لأن النبي يشرع للأمة من بعده، فإذا باءت هذه المرحلة بالسقوط؛ نتيجة الاضطهاد، والعناد الشديدين؛ فلا ضير أن يبحث الرسول عن استراتيجيةٍ أخرى، ينشر بها رسالة الحق والعدل بين مجتمعٍ ما عاد يعترف إلا بالخرافات، ولا يرضى إلا بقانون البقاء للأقوى، مهما كان هذا الأقوى فاسداً ومجرماً.

لقد كانت بعثة الأنبياء عبر التاريخ الإنساني تأتي على عدة أشكال وألوان؛ فبعضهم يكلف بقومه، وبعضهم يكلف بما هو أكبر من ذلك وبعضهم بما هو أصغر.

وعند تأمل بعثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نجد لها خصوصيات، ولعل من هذه السمات أنها الرسالة السماوية الخاتمة لأهل الأرض في تاريخ البشرية فعن أبي أمامة أن رسول الله -ﷺ- قال (1): " فضّلني ربي على الأنبياء -عليهم السلام- أو قال على الأمم بأربعٍ ثم عدّد منها: أرسلت إلى الناس...".

لذا نجد أنها رسالة حملت في طياتها مفاهيم متنوعة راقية متكاملة، من حيث كونها ذات هدفٍ

يتبع الناس في منازلهم بعكاظ و مجنّة، و في المواسم معنى يقول : من يؤوييني ؟ من ينصرتي حتى أبلغ رسالة ربي و له الجنة ؟ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مَضَرَ - كذا قال - فيأتيه قومه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك، و يمشي بين رحالهم و هم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأويناه و صدقناه ". و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة في تخريج حديث رقم (٦٣). (٦٢/١).

(١) - أخرجه أحمد في المسند - مسند الصحابي أبي أمامة، برقم (٢٢١٣٧) - و حسنه الألباني في : إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: الطبعة: الثانية- بيروت. المكتب الإسلامي - برقم (١٥٢) .

عالمي لجميع البشرية، بدون حدودٍ للعرق ولا للجنس ولا للغة، وهنا تكسرت الحدودُ والحواجرُ أمام هدفها الاستراتيجي؛ فلا يوجد إطارٌ زمنيٌّ أو مكانيٌّ أو لغويٌّ يحدُّ من حركتها أو يوطرُ لتفاعلها مع البشر، بل هي رسالةٌ خيرٍ وعدلٍ وسلامٍ للبشرية.

وهذا كلُّه جعلَ لها عمقاً مُهماً في هذه الرسالة المحمدية، وهو فكرةُ الدولة التي تنطلقُ من فكرة الدعوة والجسدِ الصُّلبِ (النظام السياسي)، الذي يحمي الجسدَ اللينَ (المرجعية الدينية) حيث إن الدين - عندما نتأملُه - دستورٌ حياةٍ متكاملٌ، يحوي العديدَ من الأفكار، والممارسات والسلوكيات والتجليات العقلية والروحية؛ بالإضافة إلى قواعد العيش ونظم العمل والحياة، ولعل هذا يؤخذ من قوله تعالى: "إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"^(١).

وكلُّ ما سبق لا يمكنُ أن يكسبَ صفةَ الديمومة والاستمرارِ إلا إذا كُفِلَ له بيئةٌ تحميه وتحتويه، وتنطلقُ من خلاله، ومن هنا جاءت فكرةُ بناءِ الدولة^(٢) موازيةً لفكرةِ بناءِ الإنسان المسلم في رسالة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - حيث تكونُ الدولة مظلة العملِ ومستودعَ النتائج، والعلاقات والتفاعلِ بين الإنسان وكلِّ ما حوله؛ لذا كانَ هذا المشروعُ المهمُّ للبرية متكاملًا، حيث يتضمن بناءين آخرين يسيران معه في طريق التكامل والتواصل مع بعضها؛ مشروعُ بناءِ الإنسان ومشروعُ بناءِ الوطن الحاضر له، والأرضية التي سوفَ ينطلقُ منها.

(١) - سورة الأنعام رقم (١٦٢).

٢ - كل هذا بجُدى من الوحي. فهذه أمور قدَّرها الله وقضاها في الرسالة الخاتمة، فالإسلام جاء؛ ليعمر الكون، ولن يعمره إلا بالبناءين المعنوي والمادي:

فالأول: بناء الإنسان ونشر القيم والعقائد السليمة.

والثاني: بإبداع كل جديد ينفع البشرية، ويعمل على إسعادها، وأمنها وسلامتها، وعمارتها، وكل ذلك نابع من عقيدتها وشريعتها.

1.4.3. المطلب الثالث : الدعوة السرية وسياسة إدارة المرحلة.

قال ابن القيم - رحمه الله - : " وأقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفياً، ثم نزل عليه {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} (١). فأعلن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين" (٢). ومن أول من آمن بهذه الرسالة زوجته خديجة وأبو بكر، وعليّ بن أبي طالب وزيد بن حارثة (٣)، وهذه الدعوة سمات مهمة؛ وهي التركيز الكبير على اختيار قادة المشروع من تنوع بشري مهم في تلك الفترة الزمنية للانضمام للدعوة، وهذا في نظري يمثل بناء العمود الفقري للمشروع قبل أن يكسى اللحم، وهذا الإعداد والتأهيل العقدي والفكري والروحي يحتاج إلى تدني حالة الصراع بين الدولة الجديدة (دولة الإسلام) والقوة القديمة (قريش) ولهذا كانت السرية مهمة لعدة أسباب منها :

التدرج في المشروع.

أ-

(١) - سورة الحجر: (٩٤).

(٢) - ابن القيم ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٨٦/١

(٣) - ابن كثير : البداية والنهاية ٦١/٤ وما بعده

- ب- بناء القاعدة البشرية التي يعتمد عليها في قادم الأيام.
- ت- السماح للرسالة الربانية بالتعمق في نفوس وضمائر الأتباع الجدد دون الكثير من الضغوط التي سوف تقع عليهم في حالة إعلان الدعوة أو إظهارها أو ربما تصفية المشروع وعناصره.
- ث- موازين القوى في تلك الفترة تتجه نحو قريش.
- وهذه السرية من فقه الواقع الذي غلب في تلك المرحلة؛ إذ لم يكن البناء السياسي للمشروع الإسلامي قائمًا على العاطفة أو الشجن أو المبالغة أو التهور؛ بل كان مشروعًا واقعيًا متدرجًا. يأخذ بالأسباب ولا يجازف بالأتباع، ويحاول أن يوازن بين المصالح والمفاسد والفرص والتحديات، ويراعي طبائع البشر وظروف المكان والزمان وقدرات الناس وحاجاتهم؛ لاستيعاب المعالم الجديدة، قبل أن يكونوا عناصر بناءً وفاعلةً ومنتجةً في هذا المشروع الذي آمنوا به؛ وذلك كله، لأنه وحيٌّ من السماء مُسَدَّد، وخاتم، وجميع العالمين من المكلفين.

استمرت الدعوة السرية حوالي ثلاث سنوات، وكانت حصيلتها بضع وستون أو بضع وسبعون بحسب بعض الروايات من الرجال والنساء^(١)، ولم يكونوا كلهم - كما يحاول البعض أن يروج له - من الضعفاء أو الموالي أو المقهورين، مثل بلال بن رباح أو عمار بن ياسر؛ بل كانت هذه المرحلة حافلة - أيضًا - بأشخاص من وجهاء القوم وأقويائهم، مثل: أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب^(٢) وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين^(٣).

وهذا يؤكد أن المشروع الإسلامي ليس مشروعًا طبقيًا أو قوميًا. أو محليًا؛ بل هو مشروعٌ روحيٌّ عقديٌّ فكريٌّ حضاريٌّ، ذو سمات متوازنة، وقابلية عالمية للتطبيق، والاعتناق، وهذا لا يمنع أن

(١) - ابن أبي شبة، تاريخ المدينة المنورة، دون. ط. ولا تعارض بين هذا وبين العدد الذي ذكر قبل ذلك، لأن الأمر كان

تقديره اجتهاديًا من العلماء، ومن العاديين، والمسألة تتحمل الاجتهاد، فهذه رواية أخرى مع الأولى المذكورة. ٦٥٩/٢ -

(٢) - وإن كان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لا يزال صبيًا؛ لكنه من كرام قريش منزلة.

(٣) - انظر: الروض الأنف ٤٢٦/١ وما بعدها - وانظر: الشامي، من معين السيرة. دون. ط. ص ٤٠

الفقراء، والضعفاء هم أكثر أتباع كل نبي من قومه^(١)، إذ هم الذين يُمارَس عليهم الظلم والبغي، فوجدوا في الإسلام القيم التي يبحث عنها كلٌّ مَنْ أرادَ أن يعيش عيشة شريفة، تحترم آدمية الإنسان.

هذا الدين الذي يخاطبُ كلَّ شرائح المجتمع دون تمييزٍ، ويقعُّ أثره على العالم والجاهل والضعيف والقويِّ والمتمدن والقرويِّ دون فرقٍ؛ لأنه يخاطبُ الإنسانَ بخطاب الكرامة والتقدير، لا بخطاب الضغط والقهر، يعمل العقل ويفعل النصَّ، ويدفعُ لخيري الدنيا، و الآخرة، ومن هنا كانت أسرارُ هذا الإقبالِ من الناسِ في مكة رُغم الحصارِ والتضييقِ والتلصصِ، ومنعِ أي مظهرٍ من مظاهر العباداتِ أو المعاملاتِ باستثناء ما هو قائمٌ في قريشٍ سابقاً، وهذا جعلَ حتمية الصراعِ أمراً محسوماً؛ ومن هنا جاءَ ذكاءُ رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في إدارة المرحلةِ بواقعيةٍ ورشدٍ وتدرجٍ.

بدأ الرسول -عليه الصلاة والسلام- اجتماعه مع الصحابة -رضي الله عنهم- في بداية الدعوة السرية في بيت خديجة^(٢) -رضي الله عنها- ولكن البيت ضاق بالناس، ثم كان الانتقال إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهنا كان يربي الرسول -عليه الصلاة والسلام- في الصحابة الحسن الأميِّ العالِي، والحصافة السياسية حيث كان الأرقم صغيراً في السن بالإضافة إلى أن قومه على عداءٍ مع بني هاشم، وهذا ادعى لدرء الشبهة، وعدم لفت النظر في مثل هذه الاجتماعات التي كانت السرية مهمة جداً لإنجاحها.

وكان التركيز في هذه اللقاءات على التنشئة الروحية، وتدارس القرآن والعقيدة والتوحيد والذي كان مهماً جداً في مجتمع انتشر فيه الشرك والخرافة، ثم يأتي بعد ذلك تعليم العبادات ونحو ذلك؛ ولقد ركز

(١) - في سورة الشعراء في قوله تعالى : {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأُوْدُلُونَ} (١١١) قال القشيري في تفسيره لطائف الإشارات ٤٤٠/٥: " إِنَّ أَتْبَاعَ كُلِّ رَسُولٍ إِنَّمَا هُمُ الْأَضْعَفُونَ، لَكِنِّهْم - فِي حَكْمِ اللَّهِ - هُمُ الْمُتَقَدِّمُونَ الْأَكْرَمُونَ. وَفِي حَدِيثِ هِرْقَلِ الْمَطُولِ وَسَأَلَ عَنِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ، " قَالَ لِي قَيْصَرٌ سَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ، فَرَعَمَتْ ضَعْفَاءُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرَّسُولِ ". أخرج البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب . بدون رقم .

(٢) - الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة - دون ط. ١٣٠/٣.

الرسول - عليه الصلاة والسلام - لتجهيز القيادات الحاضرة لهذا المشروع بشكلٍ مدروسٍ ممنهجٍ؛ حيث كان - عليه الصلاة والسلام - يجزم أن هذه الفترة فترة مؤقتة، يفترض فيها الحفاظ على المكتسبات الشرعية والإنسانية للمشروع، قبل فترة الجهر بالدعوة والتي سيكون فيها الصراع على أشده، وهذا يحتاج إلى إعداد نوعي^(١)، وعميقٍ للقواعد والقيادات.

والتربية على الصبر والثقة في النصر^(٢). ولقد تم ربط الأتباع الجدد بمن يعلمهم أمور دينهم^(٣)، مثل ما حصل مع أخت^(٤) عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم أجمعين - وغيرها فكان كلُّ

(١) - عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا". وأخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" ٢ / ٢٢١ وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه - كتاب أبواب السنة - باب في الإيمان - برقم (٦٠). ٤٢/١ - دون ط. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى - كتاب الصلاة - بابُ البَيَانِ أَنَّهُ إِيمَانٌ قِيلَ: يُؤْمُهُمْ أَفْرُوهُمْ إِنَّ مَنْ مَضَى مِنَ الْأَيْمَةِ كَانُوا يُسَلِّمُونَ كِبَارًا فَيَتَفَقَّهُونَ قَبْلَ أَنْ يُفَرَّغُوا مَعَ الْقِرَاءَةِ - ١٧١/٣ برقم (٥٢٩٢).

وقوله: حزاورة، جمع الحزور، بفتح الحاء المهملة، وسكون زاي معجمة، وفتح واو، ثم راء، ويقال له: الحزور - بتشديد الواو - وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم. ويقال للغلام إذا راهق ولم يُدرك بعدُ حزورًا، أيضا". انظر تهذيب اللغة للأزهري في (حزر)
٢ - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنهما - قَالَ: (" مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِعَمَارٍ وَأَهْلِهِ وَهُمْ يُعَدُّونَ) (١) (فَقَالَ: صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ " أبو نعيم في معرفة الأصحاب ، ٢٨١٣/٥ . وأثبتته الألباني في صحيح السيرة ص ١٥٤ . ومن التربية على الصبر والثقة في نصر الله ما رواه البخاري عن حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفِرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَنْتِنٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ حَلْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهُ لَيَبْسُطَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيْبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الدَّيْبَ عَلَى عَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ". أخرجه البخاري - كتاب المناقب - بابُ عَلَامَاتِ النَّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ - برقم (٣٦١٢).

٣ - نقل السهيلي في الروض الأنف فضل أبي بكر فدعوة الصحابة في هذه الفترة فقال ٤٣٢/١: " الدِّينَ أَسْلَمُوا بِدَعْوَةِ أَبِي بَكْرٍ . فَأَسْلَمَ : عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ بْنِ حُوَيْلِدٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ . وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ . وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَاسْمُ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكُ بْنُ أَهْتَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ . وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، فَجَاءَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ فَأَسْلَمُوا وَصَلُّوا "

٤ - ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) - ط: الأولى، ١/٦٣.

مجموعة من المسلمين الجدد يُرِطون بمعلم يعلمهم أمور دينهم بشكلٍ سرّيٍّ وخَفِيٍّ.

1.4.4. المطب الرابع : الهجرة الأولى (المغزى والأهداف).

كانت المحاولات السابقة للرسول -صلى الله عليه وسلم- لإطلاق الدعوة، ونشر الرسالة في مكة أقلَّ مما يأملُ في نظر البعض؛ حيث إن النتائج التي تحققت على الأرض قليلةٌ ضئيلةٌ جداً من حيث العدد والعُدَّة، ولكنها مهمةٌ من حيث التأسيس؛ حيث أسلمَ عددٌ من الأسماء التي من الممكن الاعتمادُ عليها في قيادة الدعوة، والمضِيَّ بها قُدماً في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والدعوية. ولإيمان الرسول -صلى الله عليه وسلم- الكبير أنه ليس للدين قوة بلا دولة، وأن الدين الذي لا تحميه الدولة سيكون مهزوماً مظلوماً؛ وهذا يحتمُّ عليه كقائدٍ ورسول، ومؤسس إعداد قادة في مختلف المجالات ويحملون مختلف الخبرات والتجارب، يعينونه على جهد التأسيس والبناء الذي سوف يعقبه الانتشار والتوسع.

ولم يكن يغيب عن الحبيب -صلى الله عليه وسلم- ما يعانیه أصحابه من ظلم واضطهاد، و محاولة إثنائهم عن دينهم وعقيدتهم، وفتنتهم في ذلك بكل وسيلة؛ لهذا كانت هجرة الحبشة مهمةً، للحفاظ على المكتسبات التي تحققت، وهم الصحابة الذين أسلموا، حيث كانوا تحت ضَعْطٍ كبيرٍ

من قريشٍ لا يمكن أن يتحمّله أحدٌ دون معاناةٍ، ولم يكن يستبعد أن يتمّ تصفيّتهم جسدياً أو إيقاعُ الأذى بهم، بل قد وقع بالفعل هذا الاضطهادُ والتعذيب، وهذا خطيرٌ بالنسبة للمشروع في بداياته؛ ولهذا جاءت فكرة الهجرة للحبشة التي فيها الملكُ العادلُ، كمكانٍ آمنٍ لحفظِ النفسِ والعرضِ والمالِ والعقلِ والنسلِ لهؤلاءِ الأختيارِ رضوانُ الله عليهم حتى يقَعِ الفرَجُ ويحصلَ الانفراجُ النسبيُّ الذي يمكنهم من العودةِ إلى مكة مرةً أخرى حيث إن فكرة إنشاءِ وطنٍ بديلٍ في تلك الفترة لم تكن مطروحةً؛ حيثُ كان الأملُ أن تهدي قريشٌ ثم تكونُ مكةُ منطلقَ الرسالةِ وعاصمةَ النبوةِ، ولكنَّ الله بحكمته أرادَ شيئاً آخرَ، والله غلب على أمره، والخيرُ فيما اختاره اللهُ.

1.4.5. المطلب الخامس : المغزى السياسي من هجرة الحبشة

في بداية الدعوة غابت الدولة^(١)، وهي الجسدُ الذي يأوي المؤمنينَ بالمشروع، وذلك عرَّضَ الكثيرَ من المكوناتِ البشريةِ فيه للتعذيبِ والتحييدِ والإقصاءِ، بل التهديدِ بالهلاكِ والفناءِ بالإضافةِ إلى العقوباتِ النفسيةِ والاقتصاديةِ التي تمارَسُ عليهم رغبةً في إضعافهم وعودتهم إلى صفوفِ الدين القديمِ وهي قريشُ الوثنيةُ التي تتخذُ من مكةَ مقر قيادتها.

ذلك كله جعلَ التفكيرَ بشكلٍ جدِّي بوجودِ حلولٍ لهذه الأزمةِ مهمًّا جدًّا، للحفاظِ على المكتسباتِ العامةِ والخاصةِ التي وصلَ إليها الدين الجديد، خصوصاً أنه كان في بداياته، والحفاظِ على نواةِ المشروعِ فيه - وهم عددٌ قليلٌ من الصحابةِ والصحابياتِ - يمثلُ أهميةً كبرى؛ لأن هؤلاء هم النواةُ لما هو أكبرُ وهم القادةُ القادمون لهذه الرسالة.

(١) - لقد اقتضت حكمةُ الله ذلك، لعددٍ من الأسبابِ، لعل منها : أن هذه هي الأوضاع الطبيعية في أمر الدعوات أن تبدأ من القاعدة ثم تلوِّحُ ويمكِّنُ لها، ومنها أن تكون الأنموذج ومثالا تختذي بها كلُّ محاولات الإصلاح التي بعد ذلك، ومع كل دعوة تدعو لهذا الدين ، فلا يُقال : قد مُكِّنَ للدعوة الأولى من دون بلاءٍ ولا تمحيصٍ، ثم إن هذه هي سنة الله في كونه ومع خلقه، أن يُبتلى المرءَ ثم يمكن، وكفي لا يدخل في هذا الطريق المنافقون والخونة ؛ فهو طريق تمحيصٍ وانتقاء، تتساقط فيه الصور، والأشكال المزيفة.

ولهذا جاءَ الحِسُّ الأُمْنِيُّ والتفكيرُ الاستراتيجيُّ لحسم هذا الصراعِ، بخروجِ مجموعةٍ من الصحابةِ من الجنسينِ إلى الحبشةِ، والتي يختلفُ المؤرخون في مكانها، والمختارُ أُنْها إثيوبيا الحالية^(١)، وكانت هذه الهجرة على دُفعتين، وقد بدأت في العامِ الخامسِ من البعثة^(٢)، وانتهت بعودةِ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ بعد الهجرةِ بسنواتٍ^(٣).

وكان من أبرزِ المهاجرينَ عثمانُ بنُ عفانٍ وجعفرُ بنُ أبي طالبٍ وأبو موسى الأشعريُّ، وكانت الهجرةُ الثانيةُ أكثرَ من حيثُ العددُ، فقد عادوا إلى مكةَ في نفسِ العامِ، بعدَ إشاعةٍ انتشرت بوقوعِ صلحٍ، وأن ثمةَ تسويةً تمت بين المسلمين وقريشٍ، لكن تبينَ لهم عكسُ ذلك، فعادوا مرةً أخرى إلى الحبشةِ؛ لأن القمعَ والظلمَ والبطشَ كان قد زادَ عن السابقِ، وكانوا يحتاجون في هذه اللحظةِ التاريخيةِ مكاناً آمناً وشخصاً يثقون به، مثل النجاشيِّ الذي أشادَ الرسولُ -صلى الله عليه وسلم- بعدلهِ وسمعتهِ الطيبةِ، فعن أمِّ سلمةَ -رضيَ اللهُ عنها- قالتُ قالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم: " إنَّ بأرضِ الحبشةِ ملكاً، لا يُظلمُ أحدٌ عنده، فالحقوا ببلادهِ، حتى يجعلَ اللهُ لكم فرجاً، ومخرجاً مما أنتم فيه " ^(٤).

-
- (١) - يَتَكَرَّرُ فِي السِّيَرَةِ اسْمُ الْحَبَشَةِ وَمَلِكِ الْحَبَشَةِ وَالْأَحْبَاشِ . وَالْحَبَشَةُ : اسْمٌ لِلْأُمَّةِ أُطْلِقَ عَلَى أَرْضِهِمْ ، وَتُسَمَّى دَوْلَتُهُمْ أَثْيُوبِيَا ، وَهِيَ تَضُمُّ أَرْضِي إِسْلَامِيَّةً إِلَى جَانِبِ أَرْضِهِمْ . وَأَرْضُ الْحَبَشَةِ : هَضْبَةٌ مُرْتَفَعَةٌ غَرْبَ الْيَمَنِ بَيْنَهُمَا الْبَحْرُ ، وَعَاصِمَتُهَا أَدِيسُنْ أَبَابَا ، وَهُمْ صِلَاتٌ قَدِيمَةٌ مَعَ الْعَرَبِ ، وَلِمَلِكِهِمْ مَوْقِفٌ يُدَكَّرُ وَيُشَكَّرُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْهِ فَوَجَدُوا فِي كَنَفِهِ مَلْجَأً وَحُسْنَ جِوَارٍ . انظر : البلادي ، عاتق بن غيث ، المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية، ط. الأولى، ص ٨٠
- (٢) - السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٩٠ .
- (٣) - البيهقي، دلائل النبوة - ط: الأولى - برقم (٥٩٣).
- (٤) - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى - كتاب السير - باب الإذن بالهجرة - برقم (١٨١٩٠) - ٩/٩ - وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. دون ط. . حديث رقم (٣١٩٠).

1.4.6.المطلب السادس : إسلام حمزة وعمر وتحرك موازين القوى لصالح المشروع الإسلامي :

أ- إسلام حمزة^(١) -رضي الله عنه- كان تحولاً كبيراً لموازين القوى في العلاقة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث كانت رسالته تُوصف بأنها للضعفاء وأقل الناس نسباً وشرفاً وسمعةً، وجاء هذا التحول ليدق ناقوس الخطر لقريش بأن هناك تحولاً في فكر الرموز لديها؛ وهذا قد يعني اختيار هذه الممانعة وتحول قيادات جديدة من جانب قريش إلى جانب هذه الدعوة الجديدة التي كانوا يعادونها لخوفهم على مصالحهم الذاتية ومواقعهم من مواطن صناعة القرار في مكة وبين العرب.

روى ابن سعد^(٢) أن أمة لعبدالله بن جدعان أخبرت حمزة أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه محمد -صلى الله عليه وسلم- إساءاتٍ بذيئة، فلم يتردد في المجيء إلى أبي جهل وهو في مجلس قومه، فضربه بالقوس على رأسه فشجّه شجّةً مُنكرة، وقال له: "أتشتّمه وأنا على دينه؟" فكانت تلك بداية

(١) - ابن إسحاق السيرة النبوية ٥٨/١ .

(٢) - ابن سعد، الطبقات الكبرى (٩/٣). وانظر أبو الحسن الشيباني، الكامل في التاريخ، الطبعة الثانية. ٦٠٢/١ - .
والحاكم، في المستدرک علی الصحیحین: ط. الأولى. - والحديث برقم (٤٨٧٨). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ٢٧٦
من رواية الطبراني بإسنادين مرسلين، ورجال أحدهما رجال الصحيح ورجال الآخر ثقات.

انشرح صدر حمزة للإسلام.

وكان إسلام حمزة-رضي الله عنه-تحولا كبيرا في المشهد لما يحمله من قوة في الشخصية وعمق في النسب والقبيلة واتساع للنفوذ وشعبية بين الناس وهيبه في المجتمع وجرأة في الطرح والحوار؛ وهذا ناقوس خطر كبير بالنسبة لقريش ودولتهم الوثنية التي كان قادة تلك الدولة يُراهنون أن محمداً لن يتبعه إلا الضعفاء والفقراء وصغار القوم، وهذه النظرية سقطت بامتياز؛ فهي الشخصيات الاعتبارية وذات الصيت والوجاهة تقدم على الإسلام وتغير بشكل جذري وتستوعب المغزى من هذه الرسالة وهو صالح البلاد والعباد في الدنيا والآخرة.

وهذا المؤشر جعل قريشاً الندد الأكبر لهذا النور الوليد تُعلن حالة الطوارئ خوفاً من أن تكون خطوة حمزة-رضي الله عنه-بوابة للكثير من قيادات مكة للتحوّل أو على الأقل لمراجعة المواقف، وهذا ما لا تُريده قريش حيث ظلت تحشد على الثبات على المواقف والتركيز على تصفية هذا العدو الذي بدأ يهددها من الداخل ويشقّ صفها ويؤثر على أبنائها وبناتها بشكل غير مسبوق ومن هنا سوف نلاحظ أهمية التحول الإيجابي عند القائد؛ فحمزة أو عمر-رضي الله عنهما أجمعين-بألف رجل من عامة الناس، وهذا ولاشك جعل السطوة والعقاب والتضييق يزداد على أهل الإسلام رغبة في اغتيالهم ودينهم قبل أن يكبر أكثر وتضعب السيطرة عليه من قبل النظام القديم، وهذا ما لم يكن، رغم كل الخطط والمؤامرات والدعم المالي والمعنوي لإتمام هذا الأمر.

ب- إسلام عمر وانفراجة جديدة.

كان إسلام-عمر رضي الله عنه-ضربة أخرى لدولة الجاهلية، فهي هو مشروع نبي الرحمة بدأ يقنع القادة والمؤثرين بالانضمام إليه بعد صبر وتضحيات وتضييق للخناق، لكن الأفكار الجديدة على مستوى قريش وبيئة مكة، ومحيطها بدأت تحرك المياه الراكدة وتصنع التجديد وإعادة الهيكلة الجذرية والمراجعات الفكرية والروحية التي أرادها الله سبحانه من إرسال نبيه الخاتم ﷺ-- إلى البشرية ليهديهم سواء السبيل.

عمر خرج ليقتل الرسول ﷺ بعد أن أحس أنه سوف يُفترق صف قريش ومجتمع مكة، و كان

بالمقابل رسول الرحمة يدعو الله أن يُعزَّز الإسلام بعمر؛ لما يعرف عن هذا الرجل القوي قبل الإسلام. روى البخاري^(١) عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: " ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر بن الخطاب ". ويعبرُ ابن هشام عن هذا، فيقول: " ثم إنَّ لطفَ الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر، حيث أعز الله به الإسلام، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: " إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمةً، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه " (٢).

إنها نعمة كبرى تجلت في إسلام عمر، الذي منح ولاءه ونصرته للمسلمين، وصير بغضه وعداوته وبراءه للكافرين، كيف لا وهو الذي اشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال: "افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن قد كنا ثلاثمائة رجلٍ لقد تركناها - أي مكة - لكم أو تركتموها لنا " (٣).

وسمع المؤمنون بإسلام عمر-رضي الله عنه- وهم في الحبشة، ففرحوا بذلك، ورجع منهم من رجع إلى مكة - ولكن قريشا صبت عليهم ألوانًا، من العذاب والاضطهاد، فلم يزداهم ذلك إلا صلابةً في العود، وثباتًا على الحق، وأملًا في فرج من الله قريب.

(١) - أخرجه البخاري - ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه - برقم (٣٦٨٤) ٤٨/٥. وانظر ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري. دون ط. ١٤ / ١٨٦ حديث رقم (٣٦٨٤) وفيه: "ولقد كان إسلامه في سنة ست أو سبع من المبعث".

(٢) - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير - باب العين - ٧٢٢ - عبد الله بن مسعود الهذلي يكنى أبا عبد الرحمن حليف بني زهرة بدري وكان ممن هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى - برقم (٨٨٠٦). ١٦٢/٩ - وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ص ١٨٨.

(٣) - أخرجه ابن حبان في صحيح ابن حبان - كتاب إخباره - صلى الله عليه وسلم - عن مناقب الصحابة - ذكر وصف إسلام عمر رضوان الله عليه وقد فعل - برقم (٦٨٧٩). وفيه عن ابن عمر، قال: لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمْ تَعْلَمْ قُرَيْشٌ بِإِسْلَامِهِ، فَقَالَ: «أَيُّ أَهْلِ مَكَّةَ، أَنْشَأَ لِلْحَدِيثِ؟» فَقَالُوا: جَيْمِلُ بْنُ مَعْمَرِ الْجَمْعِيُّ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَأَنَا مَعَهُ أَتْبَعُ أَثَرَهُ، أَعْقِلُ مَا أَرَى، وَأَسْمَعُ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: «يَا جَيْمِلُ، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ»، قَالَ: فَوَ اللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيْهِ كَلِمَةً حَتَّى قَامَ غَامِدًا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَنَادَى أُنْدِيَةَ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ ابْنَ الْخَطَّابِ قَدْ صَبَأَ، فَقَالَ عُمَرُ: «كَذَبَ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ وَأَمْنْتُ بِاللَّهِ وَصَدَّقْتُ رَسُولَهُ»، فَتَأَوَّزُوا، فَتَأْتَلَهُمْ حَتَّى رَكَدَتِ الشَّمْسُ عَلَى رُءُوسِهِمْ، حَتَّى فَتَرَ عُمَرُ وَجَلَسَ فَقَامُوا عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «افْعَلُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ، فَوَاللَّهِ لَوْ كُنَّا ثَلَاثِمِائَةَ رَجُلٍ لَقَدْ تَرَكْتُمُوهَا لَنَا أَوْ تَرَكْنَاهَا لَكُمْ» ابن هشام (٣٧٤/١). والأثر ذكره الألباني في صحيح السيرة ص ١٩٢.

وفي لفتاتٍ مرحليةٍ مؤثرةٍ ظهر أثرها على دولة الإسلام القادمة، وكذلك على المشروع القديم كما تقدم يصف الدكتورُ راغبُ السرجاني (١) -وهو من المؤرخين المعاصرين المهتمين بأحداث السيرة النبوية - يصف ردة فعل أهل مكة بعد إسلام عمرَ وحمةً -رضي الله عنهما- فيقول في إسلام عمر: "اجتمع أهل مكة حول سيدنا عمر بن الخطاب وقاموا بضربه، فظلَّ يضرب، وهم يضربون حتى تعب -رضي الله عنه - وأرضاه، وجلس على الأرض، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلفُ بالله: أن لو كنا ثلاثمائة رجلٍ لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

يعني: اصبروا علينا حتى نصلَ إلى ثلاثمائة، ويصدقُ قولَ الملهم عمر -رضي الله عنه - فهذا الرقم الذي ذكره هو عددُ المسلمين في غزوة بدرٍ، مع أن عمر ضُرب منذ أول يوم أسلم فيه، وكأنَّ الله - سبحانه وتعالى - يُعرفه طريقَ الدعوة، وهو لا يزالُ في أول أيام إسلامه، كلُّ الناس التي تحملت همَّ الدعوة تعبوا، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة! ومع أن عمرَ ضربَ في أول يوم من إسلامه إلا أن هذه كانت ردة فعلٍ استثنائيةٍ نتيجةً للمفاجأة، ثم إن مكة رجعت للصواب فعمُر تخاف منه الناس، ويؤكدُ ذلك كلامُ صهيب الرومي رضي الله عنه وأرضاه، يقول: " لما أسلم عمرُ ظهر الإسلام، ودعا إليه علانيةً، وجلسنا حول البيتِ حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به " (٢).

وبالرغم من تحسُّن وضع المسلمين بهذه الصورة، وأصبح أهل الإسلام يظهرون عباداتهم وشرائعهم في مكة، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلن الرد على أذى قريش، ولم يبدأ في مواجهة عنترية مع صور الباطل في مكة، وما زالت الأصنامُ منتشرةً في مكة، بل ما زالت الراياتُ الحمرة للزانيات مرفوعةً في مكة، والخمورُ تشرب، والمشركون يعبدون آلهةً غير الله - عزَّ وجلَّ - والقتالُ ممنوعٌ على المسلمين، وهذا من فقه المرحلة.

ولا بد من مراعاة مراحل الدعوة وزمن التمكين من غيره، فالرسول -صلى الله عليه وسلم - نفسه

(١) - راغب السرجاني - سلسلة السيرة النبوية - إسلام عمر . <https://audio.islamweb.net>

(٢) - السيوطي، الخصائص الكبرى. دون. ط. ٢٢٢/١

كفَّ عن كلِّ هذا في فترة مكة، فالجراً لو حصلت من شباب المسلمين في فترة مكة على المشركين لا تعدُّ شجاعةً ولا جهاداً، إنما تعدُّ تهوراً وتسرعاً وجهلاً بفقهِ المرحلة، وميزانُ المسلمين ثقل بحمزةٍ وبعمرَ لكن بحساب معين ودقيق.

فلا يزال وضع المسلمين في مكة هو التعذيب، ولا يوجد أمر بالقتال، وأيضاً لا توجد مواجهة مع المشركين في مكة، مع كون قوة المسلمين قد زادت؛ لأن هناك الكثير في مكة سيفكر في الإسلام، وسوف يتحفزون بإسلام حمزة وعمر؛ ولأنَّ المسلمين أعلنوا بإسلامهم، وعبادتهم؛ فبدأوا بالصلاة، وقراءة القرآن أمام الناس، ومكة بدأت تنظر إلى حلاوة الإسلام وسمو مبادئه.

وأهل الباطل أصبحوا في موقفٍ صعبٍ، وكاد الموضوع يخرج من أيديهم، فالدعوة تتسلل وتدخل إلى كلِّ بيتٍ حتى بيوت الزعماء منهم.. . . وستحمل الأيام مفاجآتٍ عظيمةً لأهل الأرض جميعاً، سيرون كيف أن هذا الرجل البسيط عمر الذي آمن في هذه البلدة الصغيرة مكة، سيقود جيوش المؤمنين؛ ليكسر شوكتي فارس والروم، وليوحد أطراف العالم في خلافةٍ واحدة، آمن الفاروق في مكة فحدثت تغييرات جذرية في سياسة المؤمنين، منها ما يتعلق ببقية الهجرة إلى الحبشة، آمن عمر بن الخطاب فظهر الإسلام في مكة، وأعلن كثير من المسلمين إسلامهم، بعد أن أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر رضي الله عنه وأرضاه، وقل إلى حد كبير التعذيب الوحشي الذي كانت تقوم به قريش للمؤمنين، وعاش المسلمون في مكة لحظاتٍ عظيمةً من السعادة التي لم تمر بهم منذ زمنٍ طويلٍ، سعادةً بإسلام البطلين العظيمين الجليلين: حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وسعادةً بإحساس الأمان النسبي الذي شعر به المسلمون للمرة الأولى منذ أكثر من خمس سنواتٍ، وسعادةً بشعور العزة والفخر بهذا الدين واتباعه.

هذا التحول جعل المشروع الحضاري الإسلامي يتقدم أكثر إلى الأمام حيث نشر الأفكار الجديدة على المستوى الاعتقادي أولاً، ثم المستويات الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ وعليه فلا ثبات لهذا المشروع ولا عمق من غير قادة لهم الحضور والقوة والعمق والإقدام لأنه عالمي له طابع

الديمومة والانتشار، ومن غير قادة تتوفر لديهم الكثير من الخصائص والسمات فلن ينجح هذا المشروع؛ ولهذا فكان إسلام هذين الرجلين مهماً بالنسبة للرسول -ﷺ- والصحابة لأن أفكار هذه الرسالة بدأت تؤثر بشكل أكبر، وهذا رغم استمرار الضغط والقمع والمصادرة إلا أنه أعطى نوعاً من الارتياح في أوساط الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه رضوان الله عليهم بعد أن اشتد الامتحان وقسى عليهم القريب والبعيد.

1.4.7.1.4.7. المطلب السابع : بناء دولة النبوة من الفكرة إلى التطبيق :

مرت دعوة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- بمخاضٍ طويلٍ في المرحلة المكية^(١) وهي من أشد المراحل التي شهدت اضطهاداً لهذه الدعوة^(٢) وتكليلاً باتباعها ونبههم -عليه الصلاة والسلام-، ورغم

(١) - كما في البخاري - كتاب الجمعة - ٢٥ - باب علامات النبوة في الإسلام - برقم (٣٦١٢) وفيه عن حباب بن الأرت قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسدٌ بؤدة له في ظل الكعبة فُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى عَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ .

(٢) - فقد أخرج البخاري في صحيحه - كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين [ص: ١١٤] فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ - برقم (٣٢٣١) - ١١٥/٤ وكذا مسلم في الصحيح - كتاب الجهاد والسير - ٣٩ - باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين - برقم (٣١٢٤) عروة بن الزبير، أن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته، أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم

كلِّ المحاولات التي بدأها المسلمون في تلك الفترة، والتي بدأت في بداية البعثة سواءً في مرحلتها السرية أو الجهرية التي زاد الضغط فيها، إلا أن كفار قريش وهم من يمثلون دور المعارضة في الفقه السياسي حالياً كانت لهم الغلبة في تلك الحقبة حيث استخدموا كلِّ الوسائل السياسية والعاطفية^(١).

وكذلك العقبات الاقتصادية والتخطيطات الخبيثة لحصار^(٢) الرسول -عليه الصلاة والسلام- وصحبه وتسفيه دعوتهم وإسقاطهم من عيون الناس وتشويه الفكرة المركزية التي كانوا يحملونها وهي توحيد العبودية لله وإفراجه بالانقياد والاتباع بلا شريك.

ورغم أن المرحلة المكية كانت صعبةً من عدة نواحٍ إلا أن النجاح الذي تحقق في تلك الفترة هو -بعد توفيق الله وإرشاد الوحي- صناعةً قاديةً على قدرٍ من القوة والأمانة، يستطيعون أن يدعّموا المرحلة القادمة، ويكونون من أبرز القائدين في فضائها، وهذا هدفٌ استراتيجيٌّ ظفر به - عليه الصلاة والسلام- بشكلٍ أذهل قريشاً فكان من أتباعه حمزة وعمر و أبو بكر وعلي وعثمان وغيرهم من الرجال الأكفاء الأقوياء الذين يراهن عليهم في قادم الأيام، وهذا بجد ذاته أذهل قريشاً وأفقدتهم التوازن؛ فقد كانوا يصمون دعوة رسول الله ﷺ بأنها دعوةٌ لا يلتحق بها إلا العبيد والضعفاء والفقراء؛ أما الوجهاء

أُحْدِ؟ فَقَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيْلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ " ، قَالَ: " فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَحْشَبِينَ " ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أُرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»

(١)- وَعَنْ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - قَالَ: (جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِنَا فِي نَادِيْنَا وَفِي مَسْجِدِنَا فَأَهْمُهُ عَنْ إِيدَانِنَا) (فَقَالَ لِي: يَا عَقِيلُ ، أَتَيْتَنِي بِمُحَمَّدٍ ، فَدَهَبْتُ فَأَتَيْتُهُ بِهِ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ ابْنَ بَنِي عَمِّكَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تُؤْذِنُهُمْ فِي نَادِيهِمْ وَفِي مَسْجِدِهِمْ ، فَأَنْتَ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَ: " فَحَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَقَالَ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ السَّمْسَ؟ " ، قَالُوا: نَعَمْ) (قَالَ: " مَا أَنَا بِأَقْدَرُ أَنْ أَدْعَ ذَلِكَ ، مِنْكُمْ أَنْ تُشْعَلُوا مِنْهَا شُعْلَةٌ ") (فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا كَذَبْنَا ابْنَ أَخِي قَطُّ ، فَارْجِعُوا) (٤). وصححه الألباني في صحيح السيرة ص ٤٤٤ .

(٢)- فقد أخرج البخاري في صحيحه - كتاب المناقب - باب مناقب سعد بن أبي وقاص - برقم (٣٧٢٨)- ٢٢/٥ وفيه : عَنْ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: " إِنِّي لَأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكُنَّا نَعْرُوْهُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا يَضَعُ الْبَعِيرُ أَوْ الشَّاةُ، مَا لَهُ خِلْطٌ " .

وأهل الرأي والراية فهم لا يلتحقون بها، ولكن ما لبثت هذه النظرية أن سقطت بإسلام العديد من رموز مجتمع مكة في ذلك الزمان، مثل حمزة وعمر -رضي الله عنهم- وغيرهم من أبناء سادة قريش، مثل أبناء سهيل بن عمرو -رضي الله عنهم- وغيرهم فبدأ ميزان القوى ينقلب ويتحول لصالح دعوة الإسلام وقائدها محمد -عليه الصلاة والسلام- وهذا جعل التوتر يزداد والقلق على مستقبل مكة يتوسع، فكفاز قريش رغم الحصار والتضييق يرون كرة الثلج تكبر وتكبر، ويدركون خطورة الاختراق الذي حصل في كتلة المجتمع المكّي، والضعف الذي بدأ يزداد في فضاء العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وهذا جعل التدايير تزداد لتعميق تضييق الخناق على هذه الرسالة الجديدة التي بدأ شعاع التغيير ينتشر في كل مكان مظلم من بطحاء مكة.

الوطن البديل

كانت السنة العاشرة للبعثة سمة حاسمة في هذا الملف الخطير، فكانت كل المؤشرات تأخذ رسول -الله صلى الله عليه وسلم- إلى فكرة الوطن البديل لمكة بعد هذا المستوى من الاضطهاد والتضييق والملاحقة التي كان لها آثار سلبية كثيرة على استجابة الناس لرسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وهذا التحدي بدأ يتعاظم لأن عمر الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يتقدم، ومستوى الإنجاز قليل محدود من ناحية الكم، لا من ناحية الكيف؛ والهدف المطلوب أن تكون آخر رسالة من الله إلى البشرية أجمعين {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (١) دون استثناء.

وهذا أمر كبير يحتاج إلى إعادة التفكير بشكل عميق في جدوى الاستمرار في مكة؛ خصوصا أن حدة المؤامرات بدأت تزيد، وبدأت تُطرح مقترحات شنيعة وجريئة مثل فكرة القتل والتصفية الجسدية لقائد هذه الرسالة -عليه الصلاة والسلام- وهذا جعل حدة الصراع تبلغ أوجها؛ لأن التفكير بالقتل والجريمة ينم عن وصول الأمر إلى منتهاه، وتعطيل آلة العقل والتدبير، واللجوء إلى وسيلة البطش والتجبر، وهذا دليل عجز وأول مراحل الفشل عند المخالفين.

إن فكرة الوطن البديل لم تكن فكرة سهلة أبدا؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يطمع

(١) - سورة الأنبياء. آية (١٠٧).

بدايةً على هداية أهله وقومه، و الانطلاق بهم من مكة إلى العالم، لتصبح عاصمةً للمشروع الجديد؛ لكنَّ إرادة الله -تعالى - شاءت أن تتجه مسيرة المشروع الحضاري إلى مكانٍ آخر، وتأتي فكرة إنشاء الوطن البديل، وكان لهذا عدة أسبابٍ منها:

- ١- وجودُ البيئة الحاضنة للمشروع.
- ٢- وجودُ الأشخاص المؤمنين بالفكرة، المستعدين للتضحية من أجلها بكل غال ونفيس.
- ٣- أهمية الموقع من الناحية الجيوسياسية.
- ٤- جذب الأرض المكية في الانصياع للمشروع الجديد.

1.4.8. المطلب الثامن : الوطن البديل .

الوطن البديل له مواصفات كثيرة، بدأ يُشكّلها واقع الأحداث والبيئة الموجودة في ذلك الزمان، بالإضافة إلى طبيعة المشروع وعالميته، فكانت نظرة الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعيدةً، وهي نظرة استراتيجية تحكّم المشروع، وهذا أعطى مؤشراتٍ للرسول القائد عليه - الصلاة والسلام - في أن معاداة قريشٍ له لن تكون الأخيرة ؛ فالصراعُ قائمٌ مع قبائلٍ أخرى، وقومياتٍ مختلفة، مع الفرس والروم وحلفائهم الغساسنة والمناذرة وغيرهم، فهناك من يخافُ على مكتسباته، وهناك من يخافُ على ثقافته المحلية وهناك من يخافُ على مصالحه الذاتية أو القبلية أو نفوذه أو صلاحياته، وهذا كله يجعلُ التغيير - عند هؤلاء - أمراً غير مقبولٍ لهذه التشكيلات القبلية والاجتماعية والسياسية القائمة في ذلك الوقت.

لقد رحل الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى الطائف يبحث فيها عن حلفاءٍ جددٍ يحتضنون المشروع، ويدعمونه، وكانت النتائج ليست في مستوى التوقعات، حيثُ الضربُ والإهانةُ والتعريضُ

حملات التشويه التي كانت قريش حريصةً على استمرارها، في محيط الرسول -عليه الصلاة والسلام- أينما ذهب، وفعلاً كانت رحلة الطائف قاسيةً من حيث النتائج والمخارج^(١).

وفي استراتيجية أخرى بدأ الرسول -صلى الله عليه وسلم- يعمل جدياً على استثمار الحج، وطرح الدعوة على الوفود الكثيرة التي ترد من القبائل إلى هناك، حرص على التواصل معهم ودعوتهم أولاً، وطلب التحالف ثانياً، وساعده في هذا المعرفة العميقة لأبي بكر الصديق بالقبائل وسماتهم وصفاتهم وأحجامهم وشجاعتهم ونقاط القوة والضعف في كل قبيلة وهذا جعل التصور أكثر وضوحاً ودقةً.

إن الوطن البديل لا بد أن لا يكون أرضاً دون رجال أشداء أقوياء لهم المنة والقوة؛ وهذا جزء من المشاورات التي كانت بين الرسول عليه الصلاة والسلام وأبي بكر الصديق عن حجم تلك القبيلة أو منعها أو شدتها أو قوتها أو عددها ثم يتم عرض التحالف وقبل ذلك دعوتهم إلى دين الله القويم.

وهنا برز قرب التحالف مع بني شيبان في شمال الجزيرة العربية الذين كانوا أقرب قبيلة إلى مناخ التفاوض مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- بعد رفض الكثير من القبائل إيواء الرسول عليه الصلاة والسلام واحتضان مشروعه، لكن التحدي الكبير لدى بني شيبان هو أنهم حلفاء الفرس؛ ولذلك عرضوا على الرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يحالفوه ويحموه من أي خطر في بلاد العرب، لكن ذلك لا يكون عندما يكون الخطر من قبل بلاد الفرس، وكان رد الرسول --عليه الصلاة والسلام عليهم -بعد شكرهم على وضوحهم وصراحتهم: " ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أريتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى ويورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم وعرشكم نساءهم، أتسبحون الله تعالى في أرضهم وتقصدونونه؟

فقال النعمان: " اللهم فلك ذلك يا أحمأ قريش، فتلا عليهم رسول الله -ﷺ-: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا

(١) - نقول ذلك ونحن مدركون أن هذا الذي حدث قضاء قضاءه الله عز وجل، لتستفيد منه الأمة بعد ذلك، وليكون البذل والتضحية، وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، ولأن الشدائد تخلق الرجال، ولأن الأهداف السامية تحتاج إلى صبر ومثابرة، ولأن العراك بين الحق والباطل سنة كونية، ولكن قصدنا هنا بالمخارج القاسية، أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- خرج من مكة وهو يتمنى في الأرض الجديدة (الطائف) أن يجد عندهم ما لم يجده عند أهله في مكة، فوجد الصد الشديد والسخرية، والإيذاء.

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا { (١) ثم نهض (٢).

1.4.9. المطلب التاسع : بناء الدولة والمشروع الحضاريّ .

إن قيام أيّ دولة تريد أن تُنتج مشروعًا حضاريًا على عدة مستوياتٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وعلميةٍ وفكريةٍ وسلوكيةٍ يحتاجُ إلى حالةٍ طبيعيةٍ من العيش الكريم والأمن والأمان والاستقرار والنظام الذي يحكم الجميع، وهذا لم يكن موجودًا في فترة البعثة التي سبقت الهجرة، بل إن الكثير من الأفكار والمشروعات ظلت معطلةً بسبب حالة الخوف والتضييق والحرب المادية، والنفسية على الإسلام.

وهذا جعل التفكير في وطنٍ جديدٍ يُعطي الأمان لهذا لحملة هذا الدين، والدعم والمؤازرة، بالإضافة إلى الحماية من أيّ هجوم أو محاربة؛ حيث كانت النظرة الاستراتيجية للرسول القائد -عليه أفضل الصلاة والسلام- أن هذا المشروع الجديد من الناحية السياسية سوف يُقلق دُولًا، وكياناتٍ سياسيةً كثيرةً داخل جزيرة العرب وفي محيطها، وهذا جعله يتنبأ بصراعاتٍ قادمةٍ مع قريش والروم والفرس وحلفائهم، وهذا أحد أهم أسباب عدم تقبله لعرض بني شيبان الذين يسكنون الشمال الشرقي من جزيرة العرب؛ لأنهم سوف يحمونه من الجميع إلا من الفرس حلفائهم الرئيسيين، وهذا البعد كان

(١) - الأحزاب آية رقم (٤٥) .

(٢) - لم أعر على الأثر إلا في كتاب : المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ط. الخامسة. من أثر علي بن أبي طالب برقم (٣٥٦٨٤). ونقل الأثر الحافظ ابن كثير في ثلاث صفحات كبار من تاريخ "البداية" (١٤٢/٣ - ١٤٤) بسياق أبي نعيم -، وقال : "هذا حديث غريب جدا، كتبناه، لما فيه من دلائل النبوة، ومحاسن الأخلاق، ومكارم الشيم، وفصاحة العرب". وذكر الشيخ الألباني الأثر في السلسلة الضعيفة، وحكم عليه بالضعف. انظر :، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة. ط١. برقم (٦٤٥٧)

مهمًا في تأسيس الدولة الجديدة التي تحتاج إلى حاضنة حقيقية لهذا المدد الحضاري النهضوي الواعد الذي سوف يُغير العالم خلال فترة قصيرة من تدشينه.

إن الهدف الحضاري لأيّ أمةٍ ينتهي إلى الإنتاج والتقدم والرخاء والرقى والقوة والمنعة، وهذه التفاصيل تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ من المخاض أولاً، وإلى وقتٍ أطولٍ في النضج وإنتاج هذه الأفكار لعالم السلوك والعلاقات يتناسب مع الحكمة الإلهية من هذه الرسالة الخاتمة للبشرية.

وكلُّ ما سبق جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يدرسُ الطريق الأمثل والأفضل والأكثر جدوى^(١)؛ لأنّ بناء الدولة الجديد يحتاج إلى قوةٍ حاضنةٍ واستقرارٍ بين مكوناته البشرية والمادية وموقعٍ استراتيجيٍّ وفهمٍ للأتباع لمغزى هذه الرسالة ومقاصدها الدينية والدينية، بالإضافة إلى عمقٍ روحيٍّ وإيمانيٍّ يتحملُ الكثير من المشقة والعنت في سبيل هداية الناس وإيصال الرسالة إلى آخر مدًى ممكن، وهذه التبعات تحملها الصحابةُ جميعاً رجالاً ونساءً في سنوات التأسيس الأولى رغبةً في وصول هذا المشروع إلى مرحلة العطاء التي سوف تكون بعد زوال الكثير من الموانع والتحديات التي واجهها في مكة.

ولهذا وجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- ضالته في الأنصار بعد دراسة عميقة ومتأنية، حيث كانت فيهم الكثير من المميزات التي تسمح بانطلاق الإسلام من أراضيهم ومن ثقافتهم المحلية السهلة والمرنة والداعمة، وهذا ما سوف نراه في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وما تلاها من أحداثٍ مهمةٍ وصولاً إلى الهجرة، وبداية تأسيس الدولة وانطلاق الموكب الحضاري الإسلامي من أرض يثرب إلى كلِّ العالم؛ ولعلنا قبل ذلك أن نضع هذا الوصفَ اليسيرَ والمعبرَ لفرحة الأنصارِ بقدم النبي -ﷺ- والذي ينمُّ عن وجودٍ أبرز معالم البيئة الحاضنة القادمة، ويثبت الهدف الحقيقي والواقعي من الهجرة: "وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: "جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله صلى الله

(١)- ولقد اختار الله عزو جل لنبيه المدينة المنورة موطنًا جديدًا بفضلته ومنه .

عليه وسلّم؛ فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله" (١).

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ لم تر المدينة يوماً مثله، ولبسَ الناسَ أحسنَ ملابسهم كأنهم في يوم عيدٍ، ولقد كان حقًّا يومَ عيدٍ؛ لأنه اليومُ الذي انتقل فيه الإسلامُ من ذلك الحيزِ الضيقِ في مكةَ إلى رحابةِ الانطلاقِ والانتشارِ بهذه البقعةِ المباركةِ المدينة، ومنها إلى سائرِ بقاع الأرضِ.

لقد أحسنَ أهلُ المدينةِ بالفضلِ الذي حباهم اللهُ به، وبالشرفِ الذي اختصهم به أيضاً، فقد صارت بلدُهم موطناً لإيوائِ رسولِ -اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ -وصحابتِهِ المهاجرين، ثم لنصرةِ الإسلامِ، كما أصبحت موطناً للنظامِ الإسلاميِّ العامِّ التفصيليِّ بكلِّ مقوماتِهِ، ولذلك خرج أهلُ المدينةِ يهللون في فرحٍ وابتهاجٍ، ويقولون: يا رسولَ الله، يا محمدُ، يا رسولَ الله.

روى الإمامُ مسلمٌ بسندهِ قال: " عندما دخلَ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ -المدينةَ، صعَدَ الرجالُ والنساءُ فوق البيوتِ، وتفرَّقَ العلماءُ والخدمُ في الطرقِ ينادون: " يا محمدُ، يا رسولَ الله، يا محمدُ، يا رسولَ الله" (٢).

وبعد هذا الاستقبالِ الجماهيريِّ العظيمِ الذي لم يَرِدْ مثلهُ في تاريخِ الإنسانيةِ سارَ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ -حتى نَزَلَ في دارِ أبي أيوبَ الأنصاري -رضي اللهُ عنه - فغن أنسٌ -رضي اللهُ عنه - في حديثِ الهجرةِ الطويلِ وفيه: " فأقبلَ يسيرُ حتى نَزَلَ جانبَ دارِ أبي أيوبَ، فإنه ليحدِّثُ أهلهُ إذ سمعَ به عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ وهو في نخلٍ لأهلهِ يخترِفُ لهم، فعجلَ أن يضعَ الذي يخترِفُ لهم فيها، فجاء، وهي معه فسمعَ من نبيِّ -اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ -ثم رجعَ إلى أهلهِ فقال نبيُّ اللهُ صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ: " أي بيوتِ أهلنا أقربُ؟" فقال أبو أيوبَ: أنا يا نبيَّ اللهُ هذه داري وهذا بابي، قال: " فانطلقَ فهيئْ لنا مَقِيلاً... " (٣). ثم نزلَ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ - على أبي أيوبَ حتى بنى

(١) - أخرجه البخاري - في صحيحه - كتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ - برقم (٣٩١١) ٦٢/٥.

(٢) - أخرجه مسلم - صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - ١٩ باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرجل - برقم (٢٠٠٩) - ١٢٦٢/٣.

(٣) - رواه البخاري في الصحيح - كتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبي، وأصحابه إلى المدينة - برقم (٣٩١١) ٦٢/٥.

مَسْجِدَهُ وَمَسَاكِنَهُ.

وبعد وصول رسول-الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سالماً إلى المدينة بدأ معها رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات، وقد تغلب عليها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للوصول للمستقبل الباهر للأمم، والدولة الإسلامية التي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيةً رائعةً، على أسسٍ من الإيمان والتقوى، والإحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم. (١)

1.4.10. المطلب العاشر : وضع المدينة المعقد ومشروع التوحيد والاستيعاب .

عندما قدم رسولُ الله -ﷺ- المدينة مهاجرًا لم تكن (يثرب) (٢) وهو اسمُ المدينة (٣) قبل الإسلام

(١) - الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث. بتصرف يسير (ص: ٢٧٨)

(٢) - لعل ما ذكره الواقدي في هذا الأثر يُبين بعض ذلك في كون يثرب قبل الإسلام أخلاطاً متناوشين : قال الواقدي: حدثنا ابن أبي حنيفة عن داود بن الحصين قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، فمر في أهل يثرب على يمينه نفر معاذ بن عفراء، وأسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن ساعدة، فعرض عليهم الإسلام فأسلم معاذ، وقال رافع بن مالك: دعني أستخير، فكتب على بعض سهامه محمد رسول الله وضرب بما فخرج المكتوب عليه ذلك ثلاث مرات فأسلم، ثم أسلم الباقون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تمنعون لي ظهري حتى أبلغ رسالة ربي. فقالوا: إنما نحن أعداء متباغضون وإنما كان بعثت العام الأول وأن تقدم، ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع وموعدك الموسم من العام المقبل". وانظره في العسكري، الأوائل، ص ٣٤

- وأوضح من ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة، قالت: كان يوم بعثت يوماً قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد افترق ملاؤهم، وقتل سراتهم".

(٣) - قال ابن المطهر في كتابه: البدء والتاريخ ١ / ٢١٦: "وسميت المدينة لاجتماع الناس فيها، وهي تسمى يثرب وسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم - طيبة، وسميت المحجفة بسبل أتى فيها فجحف من فيها".

كما كان وضع مكة المكرمة، فمكة كنت ترى فيها وحدة^(١) الأفكار والمعتقدات وانسجام الصف وتداخل الناس، حيث كان وضع المدينة أكثر تعقيدا.

بسبب التنوع الكبير^(٢) للناس، ففيها الأوس والخزرج، وهما أكبر القبائل بها، وهناك اليهود، وهم ثلاث فئات: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عوف بالإضافة إلى تكتل المنافقين الذين سيظهرون بعد ذلك بقوة على مسرح الأحداث^(٣)، وثمة بعض الأعراب، والقبائل التي ترد على المدينة بغرض التجارة أو نحوها، ناهيك عن المهاجرين القادمين من مكة، وهم قوم عاشوا القهر، والتعذيب والاضطهاد، والمهانة في مكة، ويتشوقون للعزة والجهر بالدعوة والتبشير بالإسلام.

هذا التنوع العرقي والثقافي والديني جعل من الضرورة بمكان أن يوطد النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - لإقامة الدولة، بإطلاق المؤاخاة^(٤) الواحدة، حيث صهر الأوس والخزرج في بوتقة الأنصار، ودمج المهاجرين معهم عبر مشروع المؤاخاة الشهير.

والذي كان من أروع^(٥) نماذج المؤاخاة البشرية عبر التاريخ، وكانت الاستراتيجية^(٦) المعمول بها مع

(١) - حتى لو كانوا متوحدين على الضلالة، فقد كان المجتمع لا يتجاوز صنفين من الناس، مسلمون ومشركون.

(٢) - قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/٢٢٤: " لما خرب بيت المقدس في إحدى المرتين وتفرقت بنو إسرائيل جاءت قريظة والنضير وهما من صريح ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران حتى نزلوا يثرب في الفترة وكان نزول الأوس والخزرج إياها زمن سيل العرم لا شك ويقال أن مسقط يهود إليها من عهد موسى بن عمران".

(٣) - نقل السيوطي في كتابه الخصائص الكبرى طرفا من تأمر المنافقين مع اليهود على المسلمين ١/٣٧٧: وفيه " فلما سمع المنافقون ما يراد بإخوانهم وأولياهم من أهل الكتاب أرسلوا إليهم، فقالوا لهم: إنا معكم محيانا ومماتنا، إن قوتلتم فلکم علينا النصر، وإن أخرجتم فلن نتخلف عنكم، فلما وثقوا بأمان المنافقين عظمت غرتهم ومناهم الشيطان الظهور، فنادوا النبي { صلى الله عليه وسلم } وأصحابه إنا والله لا نخرج، ولئن قاتلتنا لنقاتلنك". وصدق الله إذ يقول: "لَأَمَّ تَرَّ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ { سورة الحشر ١١".

(٤) - هذه المؤاخاة اتخذت صورا متعددة فكانت بين المهاجرين والأنصار أخوة - كما سيأتي - لم تر الدنيا مثلها، وكانت المواطنة بين الأوس والخزرج المصالحة والتسامح فيما مضى، وكانت المواطنة مع اليهود بالعهد والمواثيق، فجعل المشروع الإسلامي لكل فصيلة استراتيجية تناسبه، وتعمل على صلاحه، وهدايته وسلامة المجتمع، ولم تكن هذه المواطنة رفعا لباطل، أو إهدارا لحق، كما يحاول بعض الوطنيين أو القومييين اليوم ممن يحملون كذبا لواء الوطنية؛ حتى أحلوا الحلال وحرّموا الحرام بحجة المواطنة، بل هي مواطنة تجمع الناس وتلتزم الشرع وتحفظ البلاد والعباد.

(٥) - ساق البخاري في باب إخوان النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حديثنا برقم (٣٧٨٠) وفيه - - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

اليهود هو توقيع المعاهدات التي كفلت لهم الحرية الدينية والاستقلال السياسي وكانت هذه المعاهدات لمحاولة تلافي الحرب بقدر الطاقة، لا سيما في بدايات نشأة الدولة، والمشروع الحضاري الإسلامي^(٢). ولإعطاء الدعوة المحمدية الفرصة للوصول إلى هؤلاء المخالفين، أي بإعلاء صوت الحوار، والإقناع بالحجة والبيّنة، وهداية العقول؛ فلم يكن ثم مجال للسيوف، والله يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (٣)، ويقول تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (٤)، وهذا قد حصل حقيقة لبعض الناس، في أول ميلاد الدولة بالمدينة، فهناك مَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ مِنَ الْيَهُودِ، مثل عبد الله بن سلام^(٥)، و

بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَا لَا فَأَقْسِمُ مَا لِي نَصْفَيْنِ وَلِي امْرَأَتَانِ فَاظْطُرُّ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَسَمَّيَا لِي أَطْلُقُهَا فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجَهَا قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ أَيْنَ سَوْفُكُمْ فَدَلُّوهُ عَلَى سُوقِ بَنِي قَيْنِقَاعَ فَمَا انْقَلَبَ إِلَّا وَمَعَهُ فَضْلٌ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ ثُمَّ تَابَعَ الْعَدُوَّ ثُمَّ جَاءَ يَوْمًا وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَهَيْمٌ قَالَ تَزَوَّجْتُ قَالَ كَمْ سَفُتَ إِلَيْهَا قَالَ نَوَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ وَزَنَ نَوَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ .

(١) - قال صاحب نور اليقين ص ٧٣: "كان يصاد المسلمين في المدينة ففتان: اليهود والمنافقون، ولكن الرسول قَبِلَ من هؤلاء ظواهرهم، وعقد مع أولئك عهدًا مقتضاه ترك الحرب والأذى، فلا يُحَارِبُهُمْ ولا يُؤْذِيهِمْ، ولا يعينون عليه أحدًا، وإن دهمه بالمدينة

عدو ينصرونه، وأفرم على دينهم. " انظر: الباجوري، في نور اليقين في سيرة سيد المرسلين: ط. ٢. ص ١٢٣

(٢) - هذا ليس من منطلق المكر كما يُصَوِّره بعضُ المعادين للإسلام اليوم، بل من منطلق الحفاظ على الأتباع والدعوة وهذا هو المنطق والحكمة، ثم إن الدعوة في كل مراحلها لم تضع السيف على رقبة احد ليسلم بل كانت تقاتل من يقف أمامها في سبيل نشر الحق والرسالة أما من لم يفعلوا ذلك، فقد تركتهم لاختيارهم، وهذا الذي فعل مع اليهود من معاهدات لهو دليل صدق على ذلك، واما إجلاء اليهود وإخراجهم فإنما كان لنقضهم المواثيق وخيانتهم ومحاولتهم القضاء على المسلمين.

(٣) - الإسراء جزء آية (١٥)

(٤) - سورة العنكبوت آية ١٨

(٥) - أخرج البخاري في الصحيح - كتاب مناقب الأنصار - باب كيف آخى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِرَقْم ٣٩٣٨ - ٦٩/٥ - حَدَّثَنِي حَامِدُ بْنُ عُمَرَ عَنْ بَشْرِ بْنِ الْمُفْضَلِ حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ حَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ فَقَالَ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ قَالَ أَحْبَبْتَنِي بِهِ جِزْبِلَ أَنْفًا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ ذَلِكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ قَالَ أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيَاذَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدُ وَإِذَا سَبَقَ مَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ الْوَلَدُ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهِتَ فَاسْأَلُهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَخْلَعُوا بِإِسْلَامِي فَجَاءَتْ الْيَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ قَالُوا خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالُوا أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَالُوا شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَتَنَفَّصُوهُ قَالَ هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ

مخبريق^(١) بنى النضير - رضي الله عنهما، وهناك مَنْ حَارَبَ فيما بعد حين نقضت يهودُ المواثيقَ،
والعهدَ التي أبرموها مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعد ذلك.

أما عن المنافقين، ذلك التكتُّلُ البغيض، الذي عاش في المدينة يُظهِرُ الإسلامَ، ويبطن الكفر
فاستخدَمَ معهم الرسول - كما مرَّ في الهامش - سياسةَ الاستيعابِ الكاملِ، والتحذيرِ مِنْ شَرِّهِمْ،
ومكرهم في نفس الوقت.

والتأكيد بوضع أعمالهم، ونواياهم تحت المجهر فلم يُقتلَ أحدٌ منهم، لكنَّ أعمالهم وتوجهاتهم لم
تكن بغائيةً عن الحبيبِ القائدِ اللبيبِ الفطن، المؤيِّدِ بالوحي، بل كانت ظاهرةً لكلِّ أحدٍ، والله
فاضِحُها. وكان زعيمُهم عبدُالله بن أبيِّ بنِ سلول - هذا الخصمُ الألدُّ على قدرِ ما كان عليه مِنْ
بُغْضٍ للإسلام، وسبِّ وطعنٍ للرسول، وإيذاءٍ للمسلمين، وتقليبٍ للناس على الدعوة - كانت تعامله
الدعوةَ مُتَمَثِّلَةً في قائدها محمد - ﷺ - معاملةً بالعكس من ذلك، مِنْ بَدَلِ النُّصْحِ، وصُنْعِ المعروفِ،
وقبولِ الاعتذارِ المصطنع منه ومن أمثاله.

حتى في مرضه الذي مات فيه، عاده الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وصلى عليه بعد وفاته، وكفَّنه
ببُرْدَتِهِ، وبعد ذلك نزلت آية المنع من الصلاة عليهم^(٢).

لقد أوتى الرسولُ القائدُ - عليه الصلاة والسلام - فصاحةَ القولِ، وهمةً عاليةً، مع حكمةٍ بالغةٍ،

(١) - قال ابن حجر في ترجمته في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة. ط. الأولى - برقم (٧٨٥٥) : " مخبريق النضري
الإسرائيلي من بني النضير ذكر الواقدي أنه أسلم واستشهد بأحد. .. كان عالماً وكان أوصى بأمواله للنبي - ﷺ -... شهد أحداً
فقتل بها".

(٢) - وقد ساق مسلم في صحيحه - كتاب فضائل الصحابة - باب في فضائل عمر - برقم (٢٤٠٠) ١٨٦٥/٤ فقال : "
عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : لَمَّا تُوتِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولَ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَسَأَلَهُ
أَنْ يُعْطِيَهُ فَمِيصَّةً يُكْفِّرُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَرُ
فَأَخَذَ بِنُجُوبِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصَلِي عَلَيْهِ وَقَدْ هَمَّكَ اللَّهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -
صلى الله عليه وسلم - : « إِمَّا حَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ
... » .

وذكاءٍ سياسي^(١)، كل أولئك جعله يُوحِّدُ الصفوفَ، وَيَتَّقِي الشُّرُورَ في بداياتِ تَكُونِ الدولةِ، وهي استراتيجية خطيرة، ذاتُ بعدٍ هامٍ في هذه المرحلة؛ لِيُبَعِّدَ عن الصراعِ والفُرْقَةِ الجالِبَةِ للضعفِ والانقسامِ، فطاقَةُ المجتمعِ المدني الذي بَدَأَ يَتَكَوَّنُ لا بد أن تُوجَّهَ للبناءِ العقدي والسلوكي والعمرانِ، والتنمية، وصياغةِ أُسُسِ المنعَةِ، والقوةِ، والتمكينِ.

ولقد واجهتُ الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- في هذا الفترة من بداية مشروعِهِ إشكالياتٍ ثقافيةً كثيرةً، مثلُ التعصبِ القَبَلِيِّ^(٢)، والثأْرِ، والاصطفافِ خَلْفَ العصبِيَّاتِ بأنواعها، دونَ النظرِ عمَّن يكون صاحبُ الحقِّ، ناهيك عن قضيةِ العُنُصْرِيَّةِ والازدراءِ^(٣) ضدَّ المسلمين، و العبيدِ أو ضدَّ النساءِ، وهذا جعلَ الجهودَ المبذولةَ والتغييرَ المنشودَ لا بدَّ أن تتوازى مع هذه الأخلاطِ المتنوعةِ والعاداتِ المتمكنةِ في تلكِ النفوسِ، في محاولةٍ لتغييرِ ثقافةِ المنطقةِ للاحتكامِ إلى الوحيين، أعني الرسالةِ السماويةِ: قرآنا وسنة، تلك التي جاءتْ تحملُ الحضارةَ والنورَ والحقَّ والعدلَ والمساواةَ، والسلامةَ النفسيةَ، والمجتمعيةَ، و المصالحَ الإنسانيةَ، والحريةَ، والكرامةَ للجميعِ، بعيدًا عن قيمٍ أو أفكارٍ تكوَّنتْ في عصورِ الجاهليةِ.

(١) - ومن قبل ذلك وحيا ومنهجا، يسدد اجتهاده -ﷺ- ويواصل توجيهه وإرشاده.

(٢) - احتاج هذا التعصب في علاجه إلى فترة من الزمن، وبخاصة أنه قد كان يُغذيه فصيلُ المنافقين المستترين في المدينة، بل وقع فيه بعض الصحابة البررة؛ لحداثة عهدهم بالإسلام، وقد جاء في صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب ما يُنهي من دعوة الجاهلية - برقم (٣٥١٨) ١٨٣/٤ عن عمرو عن جابر قال غزونا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد ثاب معه ناسٌ من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجلاً لعباً فكسع أنصاريا فغضب الأنصاري غضبا شديداً حتى تداعوا وقال الأنصاري يا لأنصار وقال المهاجر يا للمهاجرين فخرج النبي -ﷺ- فقال ما بال دعوى الجاهلية ثم قال ما شأنهم فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري قال فقال النبي -ﷺ- دعوها فإنها خبيثة".

(٣) - ومن هذا الازدراء ما ذكره ابنُ وهب المصري في كتابه الجامع في الحديث : د. ط. - باب الأسماء - برقم (١١٤) ١٨٢/١. فقد روى بسنده إلى أبي هريرة قال : مر رسول الله عليه السلام على عبد الله بن أبي بن سلول وهو في ظل أجمة فقال : قد غرَّبَ علينا ابنُ أبي كبشة. فقال ابنه عبد الله بن عبد الله : " والذي هو أكرمك، ونزل عليك الكتاب، لو شئت لآتينك برأسه ؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا، ولكن برأبأك " .

وأوضح منه ما ذكره القرآن، من وصفِ ابنِ سلول لرسول الله في قوله تعالى : ﴿يُثْبِتُونَ رَبَّنَا لِيُنزِلَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِكَ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة (المنافقون آية ٨) يقصد بذلك رسول الله.

لقد أخذت إعادة البرمجة-إن صح التعبير-وقتها^(١) لتعديل الكثير من العادات السيئة، والأفكار الخاطئة، والممارسات المغلوطة، وبدأ الانسجام يدبُّ في المجتمع المدني، حيث خَلَفَ حالةً من الاستقرار، والتنمية، والارتقاء بكافة المجالات بعد ذلك.

1.4.11. المطلب الحادي عشر: الأسس الرئيسة للدولة الجديدة :

١- المؤاخاة أمام العنصرية والتصنيف :

قد حفظ لنا تاريخ الإسلام، وواقع الحياة مع بداية دخول الرسول المدينة - أن من أوائل القيم التي أراد الرسول ﷺ - أن يعرّسها في فضاء دولة الإسلام الجديدة قيم المساواة والحب والتراحم والوحدة، ومن ثمّ أطلق مشروع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهذه القيم - في الحقيقة - كانت استكمالاً للمشروع الذي أطلقه بين الصحابة في مكة^(٢) قبل الهجرة، حيث حرص على غرس هذه القيم

(١) - هذا الوقت على مستوى المجموع الكلي لأفراد المجتمع، وإلا فقد كان الواحد منهم متى شاء الله تعالى هدايته انشرح صدره للإسلام في لحظة، وقام من حينه داعياً لي الله ورسوله.

(٢) - في المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم في مكة خلاف بين العلماء، قال أبو عمر، وأقره في العيون، والفتح، ونقله في كتاب الصيام عن أصحاب المغازي: " كانت المؤاخاة مرتين: الأولى: بين المهاجرين بعضهم بعضاً قبل الهجرة على الحق والمواساة فأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة". انظر: الصالحى، في سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، دون ط ١ - ٣٦٣/٣ .

والراجح عندي صحة وقوعها ؛ لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً، ولتتألف قلوب بعضهم على بعض،، وقد قال الحافظ رداً على من أنكر المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم : " وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوة، فواخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاة -صلى الله عليه وسلم- لعلي- رضي الله عنه- لأنه هو الذي كان يقوم بعلي من عهد الصبا قبل

العظيمة التي سوف يُبنى عليها الكثير والكثير، من سُبُل قوة الدولة واتساعها وعمق تأثيرها وانتاجها الحضاري في جميع الحقول والمسارات.

ولم يكن مبدأ التآخي جديداً في الحياة الإسلامية، بل كان عامماً بين المسلمين قائماً منذ بداية الدعوة في عهدِها المكِّي، ولم يكن مخصوصاً بالعهد المدني، لكن لما أصبحت دولة تقوم باسم الإسلام لزم الأمر زيادة تأكيد على هذه الأسس التي تقوّي الأواصر، وتؤلف بين أفراد المجتمع، وإلا فتعاليم الإسلام داعية إلى هذا التآلف، وإلى تلك الإخوة، فالله يقول: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} (١). وقد نهى الرسول -ﷺ- عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين، فقال: " لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام" (٢).

وقال -صلى الله عليه وسلم-: " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة، فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" (٣).

لكن ينبغي التنبيه على قضية ذاتِ بالٍ، وهي أنّ التآخي لا بد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتّم اللقاء عليها، و الإيمانُ بها، فالتآخي بين شخصين يُؤمّن كلُّ منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى، خرافةٌ ووهمٌ، وبخاصة إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوكٍ مُعين في الحياة العملية هذا باستثناء أمورٍ استثناها الشرع الحكيم، كإباحة الزواج من كتابية مثلاً، فلا شك أنه تقوم علاقة في

البعثة واستمر، وكذلك مؤاخاة حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة لأن زيدا مولاهم، فقد ثبتت إخوتهما وهما من المهاجرين، وفي صحيح البخاري - ٦٤ - كتاب المغازي - باب عمرة القضاء - برقم (٤٢٥١) - ١٤١/٥ في عمرة القضاء بعد أن انقضى الأجل: " فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِي يَا عَمَّ يَا عَمَّ فَتَنَاولَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِقَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ دُونَكَ ابْنَةُ عَمِّكَ حَمَلَتْهَا فَأَخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعَفَرٌ قَالَ عَلِيٌّ أَنَا أَخَذْتُهَا وَهِيَ بِنْتُ عَمِّي وَقَالَ جَعْفَرٌ ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي وَقَالَ زَيْدٌ ابْنَةُ أُخِي".

(١) - سورة الحجرات آية

(٢) - أخرجه مسلم، في صحيحه - كتاب البرِّ والصَّلةِ والأَدَابِ - باب باب ما يُنْهَى عَن التَّحَاوُسِ والتَّدَابُرِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } - برقم (٢٥٥٩) / ٤ / ١٩٨٣.

(٣) - أخرجه البخاري، في صحيح البخاري - ٤٦ - كتاب المظالم والغصب - باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسلمه - برقم (٢٤٤٢) / ٣ / ١٢٧.

القلبِ تجمعُ بينهما، وهذا مما أذن فيه الشارحُ، والله أعلم.

ومن أجل ذلك جعل رسول الله -ﷺ- أساس الأخوة التي جمع عليها أفئدة أصحابه العقيدة الإسلامية التي جاءهم بها من عند الله تعالى، التي تضع الناس كلهم في مصاف عبودية الخالصة لله -تعالى- دون اعتبارٍ لأيِّ فارقٍ إلا بالتقوى والعمل الصالح؛ إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون، والإيثار بين أناسٍ شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كلٌّ منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه. (١)

لقد كان المجتمع العربي في تلك الفترة مجتمعاً، تنتشر فيه أمراض التصنيف والعنصرية، والتقسيم الطبقي، وهذا جعل المجتمع يعيش كأنه جُزُرٌ معزولة، فالعلاقة بين الأسياد والعبيد، والأشراف، وغير الأشراف بالغة التوتر ومقدمة الصراع.

وأى مجتمعٍ ذي قوةٍ ومنعةٍ إنما يختلف عن غيره بقيام مبدأ التناصر، والتعاون فيما بين أشخاص هذا المجتمع، وفي كل نواحي الحياة ومقوماتها، فإن كان هذا التعاون والتناصر قائماً وفق نظام العدل والمساواة فيما بينهم، فذلك هو المجتمع العادل السليم، وإن كان ذلك قائماً على الحيف والظلم، فذلك هو المجتمع الجائر المنحرف، الذي لا يمكن أن ينعم أهله بالاستقرار.

وحين يصبح المجتمع لا يعرف المساواة (٢) ولا العدل ولا الحرية، فالمقابل لذلك هو الاغتيال، والسلب، والاثارت، وطبعي أن تغيب السكينة وينعدم الانسجام والتجانس، تلك الأمور الجالبة للقوة والمنعة والتمكين في المجال السياسي الخاص بإدارة الأمم والشعوب.

من أجل هذا وغيره اتخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار (٣) أساساً لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام

(١) - الصالحى، سبل الهدى والرشاد، ص ٦٧

(٢) - الحروب التي كانت تدور في المجتمع العربي قبل الإسلام لأنفه الأسباب دليل على انتشار الظلم، وضياع العدل، والمساواة مثل حرب البسوس، وداحس والغبراء، وحرب الفجار وحرب يوم بعاث.

(٣) - في صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب ٥٠ - باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم - برقم (٢٥٢٨) - ١٩٦٠/٤: عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «آخى بين أبي عبيدة بن الجراح، وبين

اجتماعي في العالم، ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام، وقوانين شرعية ملزمة^(١)، ولكن هذه المبادئ لم يكن لها لتقوم مالم يكن ثم مجتمع، مترابط، فهذه القيم لا تعمل في فراغ.

فتأسست وقامت على تلك الأرضية الأولى الأخوة الإسلامية، ولولا هذه الأخوة العظيمة التي تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية، لما كان لتلك المبادئ أثر تطبيقي، وإيجابي في شد أزر المجتمع الإسلامي ودعم كيانه.

لقد أطلق الرسول -ﷺ- مشروع المواخاة في المدينة، وتمت المواخاة بين قرابة خمسين نفرًا من المهاجرين، ومثلهم من الأنصار^(٢)، حيث يتقاسمون المال والسكن^(٣)، والأصول، والتجارة، ونحوها، وامتد الأمر الى أن يدخل المتآخون في حساب الإرث.

أبي طلحة». وفي صحيح البخاري- كتاب الصوم - باب مَنْ أَقْسَمَ عَلَىٰ أَخِيهِ لِيُفْطِرَ فِي التَّطَوُّعِ، وَلَمْ يَرَ عَلَيْهِ قَضَاءً إِذَا كَانَ أَوْفَقَ لَهُ - برقم (١٩٦٨): " عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ". ٣٨/٣. وفي صحيح البخاري- كتاب مناقب الأنصار - باب إِخَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَالْأَنْصَارِ - برقم (٣٧٨١) - ٣١/٥: " عَنْ أَنَسِ بْنِ رَضِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمْتَ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَبِي امْرَأَتَانِ فَإِنْ ظُنَرْتُ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأَطْلُقُهَا، حَتَّىٰ إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ، فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّىٰ أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سِتْمِنٍ وَأَقِطَ".

(١) - فنزل القرآن يورثهم من بعضهم بلا قرابة، كما في سنن أبي داود - كتاب الفرائض - ١٦ - باب نَسَخِ مِيرَاثِ الْعَقْدِ بِمِيرَاثِ الرَّجْمِ. (١٦) برقم (٢٩٢٢)، ٨٨/٣ - وفيه: " عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيهِمْ﴾ [النساء: ٣٣]، قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة تُورث الأنصارَ دون ذوي رحمة، للأخوة التي آخى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينهم، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ٣٣] قال: نسختها ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيهِمْ﴾ من النَصْرِ والنصيحة والرِّفَادَةِ، ويوصي له، وقد ذهب الميراث".

(٢) - هارون، تهذيب سيرة ابن هشام - دون ط. ١٥٢/١ - وانظر فيه السهيلي، في الروض الأنف ٣٥٠/٢

(٣) - إن تاريخ البشر ليقف عاجزا أمام حرص الصحابة على تحقيق هذه الإخوة حتى بعد تغير الأحوال وتبدلها، وتأمل ما يذكره السهيلي في الروض الأنف ٣٥١/٢: تحت عنوان: بِإِلَّاءِ يُوصِي بِدِيَوَانِهِ لِأَبِي رُوَيْحَةَ " فَلَمَّا دَوَّنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الدَّوَاوِينَ بِالشَّامِ وَكَانَ بِإِلَّاءِ قَدْ حَرَجَ إِلَى الشَّامِ، فَأَقَامَ بِهَا مُجَاهِدًا، فَقَالَ عُمَرُ لِبِلَالٍ إِلَى مَنْ تَجَعَلُ دِيْوَانَكَ يَا بِلَالُ؟ قَالَ مَعَ أَبِي رُوَيْحَةَ لَا أَفَارِقُهُ أَبَدًا، لِلأخوة التي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَدَ بَيْنَهُ وَبَيْنِي، فَضَمُّ إِلَيْهِ وَضَمُّ دِيْوَانِ الْحَبَشَةِ إِلَى حَتْمِمْ، لِمَكَانِ بِإِلَّاءِ مِنْهُمْ فَهُوَ فِي حَتْمِمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ بِالشَّامِ".

لقد أيقن الرسول القائد -ﷺ- أن التحديات الخارجية للدولة الوليدة سواء على جبهة قريش أو اليهود أو العدو الأبعد (فارس والروم) -تحتاج إلى جبهة داخلية قوية منسجمة في جميع الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والذاتية، ومتوحدة نحو رسالة واحدة، وهي توحيد الله سبحانه، ونبذ الشرك ثم عمارة الأرض، والاستخلاف فيها، عبر منهج حضاري متكامل، هو الأهم في تاريخ البشرية. ولهذا كان من أهم القيم التي عُرسَت في تلك الفترة، حيث ذوّب الفروقات الطبقيّة والاقتصادية والعرقية، وقربّت الجميع في رباطٍ واحدٍ؛ فأصبحوا يتشاركون في التجارة والزراعة والدعوة والجهاد والعمل والرسالة الكبرى في خدمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

إنه المشروع الذي استوعب الجميع من أنصاره مهّمًا اختلقت عرقياً لهم، فجمع بلاً الحشّيّ وضهباً الروميّ وسلمان الفارسيّ، وأبا بكر الصديق المهاجر وسعد بن معاذ الأنصاريّ -ﷺ- . وهذا كله جعل مجتمع المدينة في فترة قصيرة مجتمعاً قوياً، رُغم التحركات السلبية للمنافقين وبعض المناورات من اليهود المتناخمين لحدود الدولة الجديدة، وجعله أيضاً جاهزاً للتحديات الكبيرة التي تمخّضت بعد ذلك حيث الصراع مع قريش واليهود وبعض القبائل العربية الأخرى.

فكانت غزوة بدرٍ أول تلك المواجهات التي لم يكن النصر فيها لغير أولياء الله، ثم قوت الجبهة الداخلية، وتم تجاوز جميع الأمراض الفكرية والاجتماعية التي كانت موجوداً قبل ذلك مثل: العنصرية، والتقسيم، والعصبية، والثأر، والتفاخر الممجوج، والاستعراض بالمال، والجاه والمنصب، فرسالة الاسلام التقوى والإيمان، هما الميزتان المهمتان للإنسان في المجتمع الإسلامي، وليس العرق والقبيلة أو الخطوة والمنصب، أو المال والنفوذ و اللون، وهناك كان هدم لقيم الجاهلية البالية، وغرس للقيم الإسلامية الباعثة على التحضر والسمو والارتقاء بمستوى رسالة عالمية، هي أهم وأكمل وأعظم رسالة، من الله للبشرية.

1.4.12. المطلب الثاني عشر : ٢- الشورى .

كانت نزعة العربي قبل الإسلام إلى الفردية^(١) أكثر منها إلى الجماعية، وإلى الاستئثار بالقرار أكثر من المشاركة به، وكان المجتمع يميل إلى الطبقية^(٢) أكثر من المساواة، وإلى التناحر أكثر من التقارب،

(١) - نعم كانت النزعة الغالبة هي الفردية باختلاف بعض الإمارات التي كانت فيها مَدَنِيَّةً، كإمارة الغساسنة أو الحيرة أو كندة؛ وهذه النزعة الفردية كانت موجودة ؛ لأن طبيعة الشخصية العربية - وبخاصة التي كانت تعيش بالبادية - لا تقبل أن يُفرضَ عليها قيودٌ معينة، ولا شك أنه كان للبيئة الأثر الكبير في تكوين هذه الشخصية، حيث الترحال، و حياة التنقل، حتى الأماكن التي كان فيها بعض التحضر كانت أيضا متأثرة بطبيعة الشخصية العربية التي ترفض أن يتسلط عليها أحد تحت أي مُسمى.

(٢) - قال جواد علي : " كان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف من ذهب وفضة، و يشرب بآنية من ذهب وفضة ومن بلور، ويأكل على طريقة الروم، والفرس بسكاكين، وشوك مصنوعة من ذهب أو من فضة، على حين كان أكثر أهل مكة فقراء لا يملكون شيئاً، وكانوا يلبسون الحرير، و يتحلون بالحوام المصنوعة من الذهب، تزينها أحجار كريمة.... وكان استعمال الأغنياء لآنية من الفضة والذهب في أكلهم وشربهم معروفاً بمكة". انظر جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، وفيه:

بل كانت الطبقية متوفرة حتى في عباداتهم فتجد الأغنياء بدلاً من أن يخرجوا لعبادة الآلهة في أماكن العامة، يصنعون لأنفسهم آلهة يعبدونها في بيوتهم. ويذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/٢٧٧ في قصة عمرو بن الجموح : " وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ بَنِي سَلَمَةَ وَشَرِيفًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَ فِي دَارِهِ صَنَمًا مِنْ حَشَبٍ يُقَالُ لَهُ مَنَاةٌ كَمَا كَانَتْ الْأَشْرَافُ يَصْنَعُونَ تَتَّخِذُهُ إلهًا تُعَظَّمُهُ وَتُطَهَّرُهُ ". (٧ / ١٢٤ - ١٢٦ / ١٤) .

وإلى الكبت أكثر من الحرية^(١).

لقد عانت المنطقة والعالم من هذه الإشكالية الكبرى، في صياغة القرار العام والسياسي بشكل ظاهر، ذلك الأمر الذي أثر بشكل كبير، وظاهر في حياة الناس ومعادهم ومصالحهم ومسار أعمالهم وعلاقاتهم وتفصيل الحياة. ولهذا كان من أبرز القيم^(٢) الجديدة للدولة الإسلامية الجديدة المنطلقة من يثرب قيمة الشورى^(٣)، وتفعيل القرار الجماعي، والاستفادة من الكثير من الطاقات، والخبرات

(١) - لا نقصد بالكبت عدم وجود حريات ألبته بل نقصد به أن المجتمع العربي لم يكن ذا طابع مدني يعرف الشورى والحوار، والمناقشات، والرأي، والرأي الآخر، بل كان ينزع إلى القرار السيادي منه إلى القرار الشوري وإن كان من كبير القبيلة، وإلا فقد كانت الحريات الشخصية تمارس على المستوى السلوكي بشكل كبير، فذكر التاريخ أصحاب الرايات، كما روى البخاري - باب من قال لا نكاح إلا بولي، حديث رقم (٥١٢٧) وفيه: " وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لَا يَمْتَنِعُ بِمَنْ جَاءَهَا وَهِيَ الْبُعَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ فَإِذَا حَمَلَتْ إِخْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا هُمْ الْقَافَةَ ثُمَّ أَحْفُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرُونَ فَالْتَأَطُّ بِهِ وَدُعِيَ ابْنُهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ "

- وحفظ الشعر العربي افتخار هؤلاء الأعراب بشرب الخمر، وأنهم حين يشربونها يكونون أسخى الناس ومنه قول عمرو بن كلثوم

: أَلَا هِيَ بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي حُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ الْحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

(٢) - ولا يفوتني أن أشير إلى أن هذه القيمة الشورية لم تكن لتؤتي ثمارها، ولم يكن للمشروع الإسلامي أن يطلقها قبل أن يمهّد الطريق لمبادئ التعامل بهذه الشورى، فلا شورى وسط أناس لا تحكمهم قوانين، ولا هدف، بل يعيشون من أجل نزوات، و مآرب دنيوية، إلا أن تكون شورى الثعالب، والذئاب فيأكلون فرائسهم في أقرب فرصة تواتيهم، و من تأمل ما فعلته شورى مكة في دار الندوة إبان هجرة النبي إلى المدينة يدرك أنها كانت شورى بلا مبادئ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من مسند ابن عباسٍ برقم (٣٢٥٤) وقال الشيخ أحمد شاکر في إسناده نظر، قَالَ ابن عباس : تَشَاوَرْتُ فَرِيْشَ لَيْلَةَ بَمَكَّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا أَصْبَحَ فَأَتَيْتُوهُ بِالْوَتَاقِ يُرِيدُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ أَفْتَلُوهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ أَخْرَجُوهُ فَأَطَّلَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ فَبَاتَ عَلَيَّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لَحِقَ بِالْعَارِ ، فَأَي شورى هذه التي تقضي بقتل القيم والمبادئ ؛ لقد انطلق المشروع الحضاري بمبدأ الشورى بعد أن وضع الأسس التي على أساسها يتشاور الناس، والمبادئ الحاكمة لهذه الشورى، وإلا فما يحدث في عالم اليوم من قهر وظلم واستعباد ما هو إلا نتاج شورى ذئاب العالم، وثعالبه، الذين لا تحكمهم قيم، ولا يعرفون مبدأ ؛ اللهم إلا المبادئ التي تحمي وجودهم، ويوم أن تأتي هذه المبادئ على مصالحهم، ووجودهم يدوسونها ويأكلونها كصنم العجوة، وما في الشر أعظم من هذا !

(٣) - وهناك أدلة شرعية متعددة في ترسيخ مبدأ الشورى، ومنها في القرآن : آل عمران (١٥٩): ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِكُمْ فَطَّاعُوا الْقُلُوبَ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾. وقوله الشورى (٣٨):

الموجودة في الفضاء الإنساني في مجتمع المدينة، ثم جعل هذه القيمة ركيزة أساسية لجميع القرارات والتوجهات والسياسات صغرت كبرت، وهذا جعلها أمة قوة، فاعلة حيث استثمرت جميع الطاقات والقدرات الكامنة لها^(١).

وهذه القيمة الجديدة التي كانت موجودة بشكل ضئيل محدود في الدول، والمجتمعات المحيطة بالمجتمع الإسلامي الحديث التشكّل، لم يكن وجودها قبل الإسلام، بالمفهوم الذي عرفه الإسلام للشورى، وهو الاستفادة من كل الطاقات والخبرات، بل كانت محصورة في الوجهاء والأغنياء، وأصحاب النفوذ، والسلطة، و ليست مفتوحة للعامة.

ولو أخذنا لقطة من شورى المجتمع الجاهلي في دار الندوة - مثلا - في مكة لأدركنا أن الحضور في هذه المجالس كان نخبويًا، ولا يُسمح للكثير من العامة بالدخول، أو الحضور إلى هذه النقاشات، والحوارات التي تتم، وكان النسب والمال والعلاقات والقوة والنفوذ، كل أولئك كان له الدور الكبير في

﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. وما أخرجه الترمذي في سننه - كتاب الجهاد - باب ٣٤ ما جاء في المشورة - برقم (١٧١٤) وفيه قال أبو هريرة : " قال ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله - ﷺ - . ومنه ما رواه أبو داود في سننه - كتاب الأدب - باب في المشورة - برقم (٥١٢٨). و صححه الألباني في تعليقه على السنن، وهو قوله : "المستشار مؤتمن". وعند الطبراني في المعجم الأوسط . برقم (١٦١٨). ١٧٢/٢ عن علي قال ، قلت يا رسول الله : " إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهي فبم تأمرنا، قال: شاوروا فيه الفقهاء والعابدين ولا تمضوا فيه رأي خاصة .. وقال فيه الهيثمي : رجاله موثقون من أهل الصحيح، وقال صاحب كنز العمال: برقم (٤١٨٨) : " الحديث عن هذه الطريق حسن صحيح. " وتعقب الألباني ذلك في السلسلة الضعيفة وحكم عليه بالضعف برقم(٤٨٥٤). وروى ابن أبي شيبة في المصنف - كتاب الأدب - ١٤٠- باب في المشورة من أمر بها. - برقم (٢٦٨٠٠). ٨/٩، وفيه عن الحسن البصري " ما تشاور قوم إلا هُتدوا لأرشد أمرهم ". وقال ابن حجر في الفتح : سننه قوي ٣٤٠/١٣. وفي البخاري كما في الصحيح - كتاب تفسير القرآن - باب { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : برقم (٤٧٥٧) : " أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَنْاسٍ أَبْنُوا [أهملوا] أهلي، وإيم الله ما علمت على أهلي من سوء ". وقوله كما في مسلم في الصحيح - كتاب الحج - باب في نقض الكعبة برقم (١٣٣٣) ٩٧٠/٢ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ، أَنْقُضُهَا ثُمَّ أَنْبِي بِنَاءَهَا؟ ". وما رواه ابن ماجه في سننه - كتاب الأدب - باب المستشار مؤتمن - ١٢٣٣/٢ : " إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَحَاهُ، فَلْيَشِرْ عَلَيْهِ ". وحكم عليه الأرنؤوط بأنه صحيح لغيره .

(١) - وصدق حافظ إبراهيم، و هو يمدح عمر بن الخطاب بقصيدة طويلة، وبآخرها يذكر فضل الشورى في الناس :

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به **** رغم الخلاف ورأي الفرد يُشقيها

السماح أو عدم السماح لورود هذه المجالس، والمشاركة في صنع القرار السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، لقريش.

بينما كانت الشورى على المستوى الإسلامي تكفل حق الاعتراض، وتجعله متاحاً من الجميع، والحرية واسعة في هذا الباب، ما دام أن هذا الاعتراض إنما كان في طلب الحق أو ردّ باطل، أو أمرٍ معروفٍ، أو نهي عن منكر، أو رفع استشكل، ودفع مظلمة، أو ما يُشبه ذلك، مما يعود بالنفع على الفرد أو الجماعة، ولا يخالف مبادئ الإسلام الراقية، تلك التي تصبُّ في مصالح الناس في معاشهم ومعادهم.

وقد كانت الشورى تُمارَس أمام الجميع بشكلٍ واسعٍ مفتوح، سواء أكانت في المسجد أو الطرق أو ساحة الميدان.

ومن أبرز مواقف الشورى، وما أكثرها، قصة اختيار موقع الجيش^(١) في غزوة بدر والاعتراض الدقيق الذي كان من قبل الحُبَاب بن المنذر -رضي الله عنه - على الموقع، وطرح مكاناً آخر للحرب؛ لقطع الإمداد المائي على العدو.

ومنه استشارة النبي -ﷺ- لعمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - حول الأسرى في بدر^(٢) فكان رأي أبي بكر أن يُقبل منهم الفداء، ورأى عمر أن يُقتلوا تمكيناً للإسلام، وردعاً

(١) - ذكروا: أَنَّ الحُبَابَ بْنَ المُنْدِرِ بْنِ الجُمُوحِ قَالَ يَا رَسُوْلَ اللهِ اَرَأَيْتَ هَذَا المَنْزِلَ اَمَنْزِلًا اَنْزَلَكُهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا اَنْ نَتَقَدَّمَهُ وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ اَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيْدَةُ؟ قَالَ بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيْدَةُ فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللهِ فَاِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ فَاهْتَضُّ بِالنَّاسِ حَتَّى تَأْتِيْ اُدُنَى مَاءٍ مِنْ القَوْمِ، فَتَنْزِلُهُ ثُمَّ نَعُوْرَ مَا وَرَاءَهُ مِنْ القُلْبِ ثُمَّ نَبِيْ عَلِيْهِ حَوْضًا فَتَمْلُؤُهُ مَاءً ثُمَّ نُقَاتِلُ القَوْمَ فَتَشْرَبَ وَلَا يَشْرَبُوْنَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَقَدْ اَشْرَتِ بِالرَّأْيِ. فَهَضَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ النَّاسِ فَسَارَ حَتَّى اِذَا اَتَى اُدُنَى مَاءٍ مِنْ القَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ اَمَرَ بِالقُلْبِ فَعُوْرَتْ وَبَنَى حَوْضًا عَلَي القَلْبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمَلِئَ مَاءً ثُمَّ قَدَفُوا فِيهِ الْاَنْبِيَةَ ". انظر السهيلي . الروض الأنف ٢/٦٢ - وحكم عليه الألباني بالضعف في السلسلة الضعيفة برقم (٣٣٤٨).

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد والسير - ١٨ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (برقم) ١٧٦٣ (٣/١٣٨٣): " قال ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله -ﷺ- لأبي بكر وعمر ماذا ترون في هؤلاء الأسارى فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم، والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى

لغيرهم، وكذلك ما يُعدُّ من باب الأخذ بمشورة النساء، ومنه ما أشارت به أم سلمة^(١) في قضية تأخر الصحابة عن امتثال أمر النبي في التحلل من الإحرام بعد صلح الحديبية، وعودتهم دون عمره. ومنه الأخذ برأي سلمان الفارسي^(٢) - رضي الله عنه - في غزوة الخندق، حيث حلَّ مشكلات الأحزاب الذين أرادوا أن يحاصروا المدينة، باقتراح حفر الخنادق حول المدينة؛ ليتترس بها المسلمون. ومن ذلك استشارته - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في أمر المناداة للصلاة، فعن ابن عمر، كَانَ يَقُولُ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَاةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوْقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوْلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُنَادِي بِالصَّلَاةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا بِلَالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلَاةِ»^(٣).

وكذلك استشار النبي أصحابه في الفرية التي افتراها المنافقون على أمنا عائشة - رضي الله عنها في حادثة الإفك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى يستشيرهما في فراق أهله فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم

الإسلام فقال رسول الله - ﷺ - ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن علينا من عقيل وتمكني من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال أبو بكر".

(١) - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى - ط: الثالثة - كتاب الحج - حديث رقم (١٠٣٦٨) ٢١٥/٥ في قصة الحديبية، و قد شعر المسلمون بالظلم والشديدين في عقد هذا الصلح، فأمر الرسول الناس بأن يلحقوا، وينحروا، ليرجعوا فلم يستجب الناس، لعله يكون لهم مخرج آخر، فدخل الرسول على أم سلمة، فقالت أم سلمة: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَلْمُهُمْ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ دَخَلَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ مِمَّا رَأَوْكَ حَمَلْتَ عَلَى نَفْسِكَ فِي الصُّلْحِ وَرَجَعْتَكُ وَمَ يُفْتَحُ عَلَيْكَ فَاحْرُجْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى تَأْتِيَ هَدْيَكَ فَتَنْحَرَ وَتَحِلَّ فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْكَ فَعَلَتْ ذَلِكَ فَعَلُوا كَالَّذِي فَعَلْتَ فَحَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مِنْ عِنْدِهَا فَلَمْ يُكَلِّمَ أَحَدًا حَتَّى أَتَى هَدْيَهُ فَنَحَرَ وَحَلَقَ فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ قَامُوا فَفَعَلُوا فَتَحَرُّوا وَحَلَقَ بَعْضٌ وَقَصَرَ بَعْضٌ".

(٢) - قال ابن هشام: يقال إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله - ﷺ - وحدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا: "سلمان منا". وقالت الأنصار: "سلمان منا". فقال رسول الله - ﷺ -: "سلمان منا أهل البيت". انظر السيرة النبوية ٤/١٨٢. وأشار إليه الألباني بالضعف في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٧٠١٦).

(٣) - أخرجه البخاري - كتاب الأذان - باب بدأ الأذان - برقم (٦٠٤).

فَقَالَ أُسَامَةُ أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلَّ الْجَارِيَةَ تَصَدَّقَكَ" (١).

ولقد سار الصحابة رضي الله عنهم على هذا المبدأ فما هو عمر كما يروي عن ابن عباس قال أتني عُمَرُ بِمَجْنُونَةٍ قَدْ زَنَتْ فَاسْتَشَارَ فِيهَا أَنَسًا فَأَمَرَ بِهَا عُمَرُ أَنْ تُرْجَمَ فَمَرَّ بِهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَقَالَ مَا شَأْنُ هَذِهِ قَالُوا مَجْنُونَةٌ بِنِي فُلَانٍ زَنَتْ فَأَمَرَ بِهَا عُمَرُ أَنْ تُرْجَمَ. قَالَ فَقَالَ ارْجِعُوا بِهَا ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ رُفِعَ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَبْرَأَ وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَعْقِلَ قَالَ بَلَى. قَالَ فَمَا بَالُ هَذِهِ تُرْجَمُ قَالَ لَا شَيْءَ. قَالَ فَأَرْسَلَهَا. قَالَ فَأَرْسَلَهَا. قَالَ فَجَعَلَ يُكَبِّرُ" (٢) ..

أمثلة كثيرة، ومتنوعة من الشورى، تم فيها طرح الأفكار للتلاؤح، والتحاور في الفضاء العام، لیتَمَّ صقلها وتقويتها والاستفادة من التنوع البشري، لصالح القرار السليم، والرشيدي، فليس ثمة الفردية، ولا الاستثناء، أو الأنانية، وهذا يُبرز حقيقة القيم التربوية، والحضارية التي أرساها المشروع الحضاري الإسلامي، إذ أصبحوا أمام مجتمع يستفيد من جميع مكوناته البشرية، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، وهذا من أهم علامات الأمة التي تملك على بواعث حضارية كبيرة، وقوي يؤثر بقوة في المحيط عكس الأمة المنكفئة، والمنغلقة على نفسها، والتي تعطل الطاقات، وتخنق الآراء وتضيق على الحريات.

وكلُّ مَا سَبَقَ مِنْ شُورَى وَمِشَارَكَةٍ شَعْبِيَّةٍ فِي اتِّخَاذِ الْقَرَارِ، وَصِنَاعَةِ الْمَصِيرِ، وَحَلِّ الْمَشْكَالَاتِ كَانَ مِنْ نَبِيِّ مُرْسَلٍ مُعَزَّزٍ بِالْوَحْيِ، مَعْصُومٍ مِنَ الْخَطَا، لَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ تَكُونَ الشُّورَى مِنْ سَمَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَنْ ثَمَّ يَتَحَقَّقُ التَّوَازُنُ الْبَشَرِيُّ، وَتُكْفَلُ الْعَدَالَةُ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَلَا يَحْسُ أَحَدٌ أَنَّهُ مُهْمَّشٌ أَوْ مُحْتَقَرٌ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ فِي عَالَمِنَا لَدَيْهِ خَبْرَاتٌ وَمَعَارِفٌ، وَأَفْكَارٌ مُتَنَوِّعَةٌ فِي مَجَالِهِ، وَيَصْبِحُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِنصَافِ الْإِنْتِفَاعُ بِهَا وَاسْتِمَارِهَا.

(١) - أخرجه البخاري - كتاب الشهادات - باب تعديل النساء بعضهن بعضاً - برقم (٢٦٦١).

(٢) - أخرجه أبو داود في السنن - كتاب الحدود - ١٦ - باب في المجنون يسرق أو يصبى حداً. (١٦) - برقم (٤٤٠١) .
وصححه الألباني في تحقيق السنن .

وليس من المعقول أن تنحصر الشورى في أصحاب الوجاهة^(١)، أو المال، أو تبقى - فقط - لأهل السلطان، أو يكون خاصا بالفئة المثقفة^(٢) فقط، بل هي من سمات الحرية الإنسانية التي جاء بها المشروع الحضاري الإسلامي للجميع، فالكل له الحق في إبداء الرأي، وطرح التصورات، ونقد

(١) - الباحث يعترف بنوع من النخبوية أيضا في الشورى الإسلامية (شورى أهل الحل والعقد) والمقصود بهم المجتهدون ، قال السبكي كما في المنهاج : " أهل الحل والعقد والمراد به المجتهدين ". الإجماع في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي ، لعلي بن عبد الكافي السبكي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ ، ٢/٢٣٤٩ . واتباع رأي أهل الحل والعقد واجب لأنه من باب احترام التخصص من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن رأي الشورى النخبوي هذا في الإسلام لا يملك أن يهدر رأيا في صالح الجماعة المسلمة، أو الديانة، مهما كانت صفة صاحبه أو مكانته. بل الواجب أن يستمع إلى كل رأي، بغض النظر عن : (من هو قائله أو صاحبه)، ثم تُدرَس المسألة من ناحية الصالح العام، ومراعاة مقاصد الشريعة، ومنها أهم ما يبين وهما :

الأولى : امتثال المنهج الرباني في الأمر والنهي.

والثانية : البحث عن جلب المصالح ودفع المفاسد.

وكيف لا يُقبل الرأي من ضعيف أو من غير عالم، أو غير وحيه أو حتى من مُحتَرِّ في مهنة أو ذات يد، لو فُرض أن في مجتمع المسلمين مثل هؤلاء .

والتاريخ الإسلامي زاخر بالمواقف التي استفاد منها الرسول والصحابة - رضي الله عنهم - برأي من ليسوا بمسلمين، ومشورتهم، ناهيك عن ضَعْفَةِ المسلمين ، وتأمل موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الهجرة فقد استعان بهاد يده على الطريق خبير بها، وهو عبد الله بن أريقط، فاستأجر رجلا من بني الدليل بن بكر وهو من بني عبد بن عدي - هاديا خريتا، وانظر : **الروض الأنف ٤/١٣٢** .

وكان مُشْرِكًا، فهو كافر بالله، ولكنه لم يكن كافرا بالشرف والمروءة، وقد استأمنه النبي - عليه الصلاة والسلام - . وهذا دليل على أنه لا بأس من الاستعانة بأهل الخبرة، ولو كانوا على غير ديننا إذا لم يوجد أحد على ديننا. وتأمل مواقف كثيرة من القرآن يعترف فيها (الحكمة التي هي ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها)، أقول تأمل القرآن في مواطن متعددة، يعترف بالقول و يرضاه ما دام حقا، كما في قصة بلقيس ملكة سبأ، فقد صدق القرآن قولها حين قالت : { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا آيَةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً. ... } النمل (٣٥)، فقال الله : { وكذلك يفعلون } .

(٢) - نعم هناك تفریق في الإسلام بين المثقف وغير المثقف، والعالم وغير العالم، وهذا أمر طبيعي وفطري وشرعي وقانوني، في كل الدول التي تحترم عقول أصحابها، وتقدر المبادئ ؛ لأنه لا يمكن أن يكون العالم كالجاهل من ناحية الفهم والخبرة، وهذا يرجع كما ذكرنا إلى فكرة احترام التخصص، وأنا طارح سؤال يوضح القضية، هل يُقبل أن نستشير قلبي الحظ من العلم أو الجهلة في حكم شرعي أو استنباط رأي في مسألة دينية ؟ والجواب لا، بل لا بد من سؤال أهل التخصص والفن.

وكل من يُحْسِنُ في فن أو مجال، فهو من أهل الحل والعقد في هذا الفن ، وهي مسألة محسومة، ومقررة في الأصول الشرعية في الإسلام، وتكلم عنها علماء الأصول : من هم أهل الحل والعقد، وما دورهم، وما دور غيرهم، فهذه مسألة، وأما مسألة الشورى في أمور الناس، والاستماع إلى جميع الآراء للاستفادة منها فهذه قضية أخرى.

الظواهر والمشاركة في صنع القرار، ثم يأتي دور دوائر صناعة القرار التي تقوم بالتمحيص، والمقاربة، ودراسة الأمر، ثم اتخاذ القرار المبني على دراسة مستفيضة، وفهم عميق، ووعي دقيق.

1.4.13. المطلب الثالث عشر : الإنتاج والتنمية .

من القيم الجديدة التي أرادت دولة الإسلام الجديدة زراعتها في المجتمع حديث التشكل، والبناء قيمة العمل^(١)، والبناء، والتنمية، والفاعلية، والإنتاج. والاهتمام بالدعائم الحضارية أصبح ضرورة؛ لبناء الدولة، فتم تشجيع الزراعة^(٢).

(١) - من يتأمل بوضوح خط سير التشريع الإسلامي يجده من أرقى المشاريع الحضارية في الوجود، بل هو أرقاها بالفعل، فقد اهتم في البداية بتأهيل الإنسان، وتنقية فكره من الخرافات، وتصحيح عقيدته، ثم العمل بمقتضى ذلك، وتحمل كل فرد مسؤوليته عن أفعاله أمام الله، وقد رأينا فكرة العمل، والدعوة إليها فكرة وُلدت في المجتمع المكّي قبل المجتمع المدني لكنها كانت دعوة إلى العمل العام الذي هو تطبيق للعقيدة الصحيحة، بمعنى أن كل فرد آمن بالله لا بد أن يعمل بمقتضى هذا الإيمان، وأنه لا واسطة ولا مجاملة بل لا بد أن يأخذ الكل حظه من الاستقامة التي تنجيه بين يدي الله غدا، فرأينا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أول الفترة الجهرية، كما يروي يقول أبو هريرة رضي الله عنه قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بَنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . أخرجه البخاري في الصحيح : ٥٥ كتاب الوصايا: ١١ باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب - برقم (٢٧٥٣) - ٦/٤ .

- فلما تم الانتقال إلى المدينة، وبدأ المشروح الحضاري في البناء، والتعمير، وعمارة الأرض نزلت التشريعات التي تدعم مقومات الحضارة الإنسانية بكل جوانبها.

(٢) - بدأ الإسلام يشرع الطرق المتاحة للزراعة، وأنواع المزارعات بين أصحاب المجتمع؛ ليعطي كل ذي حق حقه؛ فقد روى البخاري في صحيحه - كتاب المزارعة - في باب الْمَزَارَعَةِ بِالسَّطْرِ وَنَحْوِهِ برقم (٢٣٢٧) ١٠٤/٣ قال حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مِقَاتٍ

والصناعة والتجارة^(١)، وأصبحت ثقافة العمل أساساً يُرسّخه الدستور^(٢) الإسلامي.

ورُفعت منزلة العلم عالية^(٣)؛ فأصبح العلماء، وطالبو العلم من عِلية القوم، وقُدِّر كلُّ إنسان يقومُ

أَحْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَحْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ سَمِعَ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ قَالَ كُنَّا أَكْثَرَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مُذَرَّعًا (المزدرع كما ذكر العيني في عمدة القاري ٤٤٥/١٨ هي : مكان الزرع ويجوز أن يكون مصدرا أي كنا أكثر أهل المدينة زرعا) كُنَّا نُكْرِي الْأَرْضَ بِالتَّاحِيَةِ مِنْهَا مُسَمًى لِسَيِّدِ الْأَرْضِ قَالَ فَمِمَّا يُصَابُ ذَلِكَ وَتَسْلَمُ الْأَرْضُ وَمِمَّا يُصَابُ الْأَرْضُ وَيَسْلَمُ ذَلِكَ فَهَيْهِنَا وَأَمَّا الذَّهَبُ وَالْوَرِقُ فَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ وَقَالَ قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ مَا بِالْمَدِينَةِ أَهْلٌ بَنَتْ هَجْرَةَ إِلَّا يَزْرَعُونَ عَلَى الثُّلُثِ وَالرُّبْعِ وَرَارِعَ عَلِيٍّ وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْقَاسِمُ وَعُرْوَةُ وَأَبُو بَكْرٍ وَأَبُو عُمَرَ وَأَبُو عَلِيٍّ وَابْنُ سِيرِينَ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَسْوَدِ كُنْتُ أَشَارِكُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ فِي الرَّزْعِ وَعَامَلَ عُمَرُ النَّاسَ عَلَى إِنْ جَاءَ عُمَرُ بِالْبَدْرِ مِنْ عِنْدِهِ فَلَهُ الشُّطْرُ وَإِنْ جَاءَوا بِالْبَدْرِ فَلَهُمْ كَذَا وَقَالَ الْحَسَنُ لَا بَأْسَ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ لِأَحَدِهِمَا فَيُنْفِقَانِ جَمِيعًا فَمَا خَرَجَ فَهُوَ بَيْنَهُمَا وَرَأَى ذَلِكَ الرَّهْرِيِّ وَقَالَ الْحَسَنُ لَا بَأْسَ أَنْ يُجْتَنَى الْفُطْنُ عَلَى التَّصْنِيفِ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَابْنُ سِيرِينَ وَعَطَاءُ وَالْحَكَمُ وَالرُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ لَا بَأْسَ أَنْ يُعْطِيَ التَّوْبُ بِالثُّلُثِ أَوْ الرَّبْعِ وَخَوَّهُ وَقَالَ مَعْمَرٌ لَا بَأْسَ أَنْ تَكُونَ الْمَاشِيَةُ عَلَى الثُّلُثِ وَالرُّبْعِ إِلَى أَجْلِ مُسَمًى .

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب مناقب الأنصار - باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف، وبين سعد بن الربيع الأنصاري، برقم (٣٩٣٧) ٦٩/٥ وفيه : " فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ذُلِّي عَلَى السُّوقِ .. ". فآثر التجارة على الصدقة، وبهذا جاء الإسلام.

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب البيوع - باب : بَابُ كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ - برقم (٢٠٧٢) ٧٥/٣ : " عن المقدم عن النبي { صلى الله عليه وسلم } قال ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده . "

(٣) - وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١] وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] وَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي - كتاب العلم - باب : العلم قبل القول والعمل . ٢٣/١ : لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَاَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ « وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَثَةُ الْعِلْمِ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ إِنَّمَا يُحِصِي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ ﴾ [فاطر: ٢٨] وَقَالَ : ﴿ وَمَا يَغْفُلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] وَقَالَ : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » [ص: ٢٥] وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ " وَقَالَ أَبُو دَرٍّ : « لَوْ وَضَعْتُمْ الصَّمْصَمَةَ عَلَى هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى فَمِّهِ - ثُمَّ طَنَنْتُ أَبِي أَنْفِدُ كَلِمَةً سَمِعْتَهَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لِأَنْفِدْتُهَا » وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ كُونُوا رَبَّاتِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] " حُلَمَاءُ فَهَاءُ، وَيُقَالُ : الرَّبَّاتِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصَغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ . "

ووصل من كمال هذه الشريعة، واهتمامها بالعلم أن شرعت ما يبين تفضيل الكلب المعلم على الكلب غير المعلم، فمال حال الإنسان، فجاء التشريع بكل أكل صيد الكلب المعلم، وعدم حل صيد الكلب غير المعلم، قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَجَلُ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُوهُنَّ بِمَا عَلَّمْتُمُ اللَّهُ فَكُلُوا بِمَا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤].

بمهنة معينة، وحُورب التواكل^(١)، واهتمَّ بمنْ تخصصَّ في شيءٍ ما، ما دام أنه يُفيدُ المجتمع، ولا يخالفُ المبادئ الشرعية. وشُرِّعت العبادات والقوانين التي ترسخ لمبادئ هذه الأعمال، و تشجيع المبادرة في كل مجال من مجالات الخير. ففتح أبواب الأعمال الخيرية عبر برنامج الزكاة^(٢) في الإسلام، وبرنامج التطوع بالصدقات^(٣) والتشجيع على الأوقاف^(٤)، ونشر فكرة التكافل، وإعالة المحتاجين، وغير ذلك.

(١) - وما يدلُّك على محاربة الإسلام للبطالة، وتقدير جميع الأعمال التي تُغني الفرد عن السؤال، وتنفع المجتمع ما رواه ابن ماجه في سننه - باب بيع المزايدة - برقم (٢١٩٨). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: "لَكَ فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟" قَالَ: بَلَى، جِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضُهُ وَنَبْسُطُ بَعْضُهُ، وَقَدْخُ نَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ، قَالَ: "اِئْتِنِي بِحِمَا" قَالَ: فَأَتَاهُ بِحِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: "مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟" فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: "مَنْ يَرِيدُ عَلَيَّ دِرْهَمٍ؟" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدَّرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا لِلْأَنْصَارِيِّ، وَقَالَ: "اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قُدُومًا فَأْتِنِي بِهِ" فَفَعَلَ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَشَدَّ فِيهِ غُودًا بِيَدِهِ، وَقَالَ: "أَذْهَبْ فَاحْتَطِبْ، وَلَا أَرَاكَ حَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا" فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ، فَقَالَ: اشْتَرِ بِنَعْضِهَا طَعَامًا وَبِنَعْضِهَا تَوْبًا ثُمَّ قَالَ: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ وَالْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ، أَوْ لِذِي دِمٍ مُوجِعٍ. حسنه الترمذي.

٢- لقد كان برنامج الزكاة في الإسلام علامة رقيّ تشريعي؛ إذ حرص الإسلام على ترابط المجتمع، وتماسكه بإيجاب حق في مال الغني للفقير، فلا يحقد الفقير على الغني، بل يرحم الغني الفقير، وقد أوجب الإسلام الزكاة في العام الثاني، حين أصبح لدى المهاجرين والأنصار مال من جراء التجارة، وغيرها، وجعلها ركنا من أركان الإسلام: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ». انظره في كتاب الجمع بين الصحيحين برقم (١٣٩٣).

(٣)- وبرنامج الصدقات أروع، وأشد؛ لأنه دلالة واضحة على النفقة على أبناء المجتمع بحب، وإخلاص لا يريدون عرضًا بل يريدون الأجر والثواب وحب الخير للناس، إن التزام كثير من الناس القوانين الوضعية في العالم اليوم، إنما هو من خوف العقاب، أما الإسلام فقد شرع من القوانين ما تجعل الناس يمتثلون للأوامر بحب وصدق، ويستوي عندهم السر والعلانية، وربما كان السر أفضل عند الكثيرين منهم، ومثال ذلك ما فتحه الإسلام في باب التطوع بالنفقات لله سبحانه وتعالى والأمثلة لا تحصى، فأبو بكر يخرج من ماله كله، وعمر يخرج من نصف ماله كله، وعثمان يجهز جيش العسرة، وغيرهم كثير، وهذا أبو الدحداح كما روى الطبراني، في المعجم الكبير برقم (٧٦٤): عن سعيد بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضًا حسنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو منصور ثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن أبي الدحداح: يا رسول الله إن الله يريد ما القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح قال: أرني يدك فناوله يده فقال: إني قد أقرضت ربي حائطي وفي حائطي ستمائة نخلة ثم جاء إلى الحائط فنادى يا أم الدحداح وهي في الحائط فقالت: لبيك فقال: اخرجي فقد أقرضته ربي". ورمز له الشيخ ناصر الدين الألباني بالصحة في تحريجه (كتاب مشكلة الفقر) برقم (١٢٠).

(٤) - ما رواه أبو داود بسند صحيح في سنن أبي داود، كتاب الآداب - باب كيف الاستئذان - برقم (٥١٧٩). أن عمر قال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً بخَيْرٍ، لم أصب شيئاً قط هو أنفس عندي منه؟، فقال: "إن شئت حبست أصلها، وتصدقت

وهنا نبيّن بعضَ صورٍ مِنْ مظاهرِ التنميةِ التي شرعت الدولة الجديدة في تنفيذها؛ لتؤكد أن الإسلام دين عمارة للأرض^(١)، وبناء للإنسان، ونشر للخير والسلام، والمحبة ورقي للعالمين، وأنه دين، ودولة، وفكرة، وخلق، وعلمٌ وعملٌ. وفي هذا السياق بدأت تتحقق نهضة، وتقدم في الكثير من المجالات الصحية، والإنسانية والفكرية والحضارية والتنموية؛ فتحول الإنسان، إلى إنسان آخر بعد سنوات قليلة، بانطلاق رسالة الإسلام التي جلبت للجميع الخير والسلام والتنمية والتقدم.

كيف لا، وقد أوضح جعفر^(٢) -رضي الله عنه - رسالة الإسلام وقيمته، حين وقف بين يدي النجاشي؛ فحريٌّ بأصحاب هذه المبادئ لأن تكون لهم حضارة، ودولة.

بها"، قال: فتصدق بها، لا يباع أصلها، ولا توهب، ولا تُورث، قال: فتصدق بها في الفقراء، والضعيف، والرقاب، وفي السبيل، وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف، أو يُطعم صديقاً، غير مُتموّل فيه. الألباني، صحيح أبي داود - مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت. دون. ت.

(١) - ﴿وإِلَى نُومُدَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ سورة هود. (آية ٦١)

(٢) - أخرجه أحمد في مسنده - مسند جعفر بن أبي طالب حين دخلوا على النجاشي في الهجرة - برقم (١٧٤٠): " فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُّ من الضعيف، فكاننا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله، لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً". وحكم عليه الشيخ شاکر في تحقيقه للمسند بأن إسناده صحيح .

1.4.14. المطلب الرابع عشر : التمنية السكانية.

من قواعد التشريع الإسلامي الكلية أنه جاء بحفظ الضرورات الخمس، ونظر إلى المصالح المعتمدة التي تُقيم الحياة السليمة، والمصلحة المعتمدة^(١): هي التي اعتبرها الشارع فشرع الأحكام من أجلها، وأعظم المصالح هي التي تصون، وتزكي الضرورات الخمس، وهي: الدين^(٢)، والنفس^(٣)، والمال^(٤)، والعرض، والعقل، ومن ثمَّ حث الإسلام على الزواج^(٥)، فهو مناسبٌ لفطرة البشر^(٦)، إذ من كل

(١)-الجديع ، تيسير مصطلح الحديث. دون ت. ص ٦٦

(٢)-أخرج البخاري في صحيحه - كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام - ٩١/٤ «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ حِمِيهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ .»

(٣) - في البخاري- كتاب الأيمان والنذور - باب اليمين الغموس - برقم (٦٦٧٥) ١٣٧/٨ : " عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " الْكِبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ "

(٤)- أخرج مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - ٦٢ - باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق، كان القاصد مُهدرَ الدَّمِ فِي حَقِّهِ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ فِي النَّارِ، وَأَنَّ مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ - برقم (١٤٠) : " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتَنِي؟ قَالَ: «فَاتِلْتَهُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتَهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ»

(٥)- الحميدي في الجمع بين الصحيحين برقم (٢٢٨): قوله " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ؛ فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم".

شيء خلق الله زوجين، فالرجل والمرأة يأنس كلُّ منهما بصاحبه، في حياةٍ شريفةٍ مقدَّسةٍ، ملؤها الوُدُّ والسكُنُّ والتراحُمُ^(٢)، وحضُّ الشارعِ على تكثيرِ الذرية، والتأكيدِ على صلاحهم وبركتهم، ونفعهم، وقد دَعَا الرسولُ - صلى الله عليه وسلم - إلى تَزْوِجِ الولودِ الودودِ^(٣)، ثم حضَّ الإسلامُ على تربيةِ النساءِ، وصلاحهم، فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(٤)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُؤَادُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٥).

(١) - أخرج البخاري في الصحيح - كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح - برقم (٥٠٦٣) ٢/٧: أَنَسَ بِنُ مَالِكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَرْوَاحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوبًا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فِرَائِي أَصْلِي اللَّيْلُ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أُعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

(٢) - كالروم آية (٢١): " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً".

(٣) - أبو داود - في سنن أبي داود - كتاب النكاح - بابُ النَّهْيِ عَنِ تَزْوِيجِ مَنْ لَمْ يَلِدْ مِنَ النِّسَاءِ - برقم (٢٠٥٠) - ٢٢٠/٢ ، وفيه : " عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، وَإِنَّمَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا، قَالَ: «لَا» ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاها، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاتِّرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ» وحسنه الألباني.

(٤) - سورة طه (١٣٢).

(٥) - سورة التحريم آية (٦). قال زيد بن أسلم لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله هذا نقي أنفسنا فكيف نقي أهلينا قال تأمروهم بطاعة الله .

1.4.15. المطلب الخامس عشر: التنمية المعنوية:

لا يمكن أبدًا أن يكون التشريع الإسلاميّ جاء لتعمير الأرض، والبناء، والعمل، وترك الإنسان دون بناء، بل قد جاء ببناء الإنسان؛ ليقدر هذا الإنسان على التعمير، فجمعت وسطية الإسلام بين الروح والمادة، وإن كانت رسالة الإسلام الأولى اهتمت بجانب العقيدة في مكة، فقد جاءت التشريعات بالمدينة لتكميل بناء هذا الإنسان في مجتمع المدينة، فركز الرسول القائد-عليه الصلاة والسلام- على بناء الجانب المعنوي^(١)، والنفسي للمسلم عبر التركيز على قيمة تقدير الذات، والرفعة، والثقة، والاعتزاز بالنفس، وبالدين^(٢) من غير غرور أو تكبر، بالإضافة إلى غرس أهمية ثقافة

(١) - أعيد هنا التنبيه على أن عملية البناء المعنوي كانت منذ بدء الدعوة، بل هي مع الإسلام أينما كان ووقتما كان، لكن الفرق في نظري بين البناء المعنوي في مكة وبين البناء المعنوي في المدينة أن الأول كان يقدم بشكل عام، وأوامر كلية، لبناء الإيمان وسلامة العقيدة، وأما البناء المعنوي في المدينة فكان بالتزام الأوامر الشرعية الخاصة التي كانت تنزل متفرقة بحسب الموقف والاحتياجات، وبحسب الوحي، وإرادة الله، وقد كانت هذه التعبئة المعنوية في المدينة لها دورها العظيم في صقل الشخصية المسلمة على جميع المناحي النفسية والإنسانية والعلمية والاجتماعية والتربوية وغير ذلك.

(٢) - وإلا فالاعتزاز بالدين والمبادئ التي جاء بها والتمسك به معان رسخها الرسول بين أصحابه في مكة وهم بين معذب ومطروء، وانظر ما يرويه البخاري - كتاب المناقب - باب علامات النبوة - عن خباب بن الارت - رضي الله عنه - قال: شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسدٌ ببرد له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه...والله ليتمن الله - تعالى - هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون" - ٢٠١/٤.

الإحسان، والرأفة، والتجرد، لله رب العالمين.

1.4.16. المطلب السادس عشر: التنمية العلمية.

نمى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منذ اليوم الأول لقيام دولة الإسلام أهمية العلم؛ لرفعة الأمم، والشعوب وأن الجاهل والخرافة للذين سادوا في المجتمع قبل الإسلام قد ألحقا بالناس أضرارا كبيرة، وخطيرة، ومتنوعة^(١).

وحيث جاء الرسول بالمشروع الإسلامي الحضاري الجديد، جعل العلم أحد أهم دعائمه، وأن الأمم لا ترتقي، وتقوى أو تنتصر إلا بالعلم، وكانت وسائل الشرع للفت الانتباه، وإقناعهم بأهمية العلم رائعة ورائدة.

فكانت البداية مع أول آية نزلت على الحبيب - ﷺ - هي اقرأ^(٢)، ولم يكن هذا أمرا عفويا بل هو مقصود؛ ليعلم الجميع أن شعار الإسلام هو القراءة النافعة التي تقود إلى العلم والإيمان.

وتأتي أي القرآن لتمدح العلم والعلماء^(٣)، وتذم الجهل والجهلاء، إذ إنهما سبب كل شقاء، وشتر

(١) - رأينا هذه العادات منتشرة في كل شيء في جانب الديانة والاعتقاد، والخرافات والسحر والشعوذة، والسلوك، والعلاقات الاجتماعية، والأنكحة، والظلم، والسلب وشرب الخمر. .. إلخ. لكن كانت هناك أيضا عادات كالنجدة والكرم والإنصاف من البعض إلخ.

(٢) - سورة العلق آية (١). ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

(٣) - ﴿وقل رب زدني علما﴾ [طه: ١١٤]. وما نعلم أن الله عز وجل أمر نبيه أن يزداد من شيء إلا من العلم، فدل على أنه أفضل شيء؛ لأن الله عز وجل لا يختار لنبيه إلا الأكمل والأفضل، وموسى - عليه السلام - يلتبس من العبد الصالح مرافقه ليتعلم منه،

في الأعم الأغلب، وجعل المشروع الحضاري مكانة العلماء سامقة، وفضلهم كبيراً، وقرن شهادتهم بشهادته - سبحانه وتعالى - مع الملائكة تكريماً وتشريفاً، وسجل التاريخ من سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - مواقف مشرفة، تدل على حرص الإسلام على مصلحة الناس، ونفعهم، ومن ذلك أمر كل واحد من أسرى غزوة بدر أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، ويكون ذلك سبباً في عتق رقبة المعلم^(١).

وغيرها من المبادرات التي كان الهدف منها تكريس قيمة (اقرأ) وتعميقه، و جعلها مساراً هاماً وحيوياً، للمشروع الحضاري الإسلامي الذي وجهه الله للعالمين في كل الأقطار.

فقد انتشر الكتاب في المدينة حتى وصول عددهم إلى ستين كاتباً، وكانت الشفاء بنت عبد الله تعلم

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي إِذْ قَالَ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْعِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَخَرَجْنَا لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِبِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٥-١٧]، فذكر الله عز وجل في افتتاح القصة أنه فضل سيدنا سليمان عليه السلام بشيئين: الشيء الأول: العلم، الشيء الثاني: الملك. لكنه قدم العلم على الملك؛ لأن العلم هو رأس كل خير، فلا بد أن ينضاف إلى الملك العلم، وإلا صار شهوةً وأداةً للظالمين والظلم والطغيان، فافتتح الله - عز وجل - منته على داود، وسليمان بالعلم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما حُيِّرَ سليمانُ بن داود - عليهما السلام - بين العلم والمال والملك، فاختار العلم فأعطى المال والملك معه، ومهما كان مقام الإنسان عالياً، ومنصبه سامياً، فإنه لا يستغني عن التعليم، فهذا نبي الله داود - عليه السلام - مع حصوله على الملك والنبوة لم يستغن عن تعليم الله إياه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُ اللَّهُ الْكِبْرَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وشهد الله تعالى لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيراً كثيراً، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة إصابة الحق والعمل به، وهي العلم النافع، والعمل الصالح - انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٥٢).

وأخبر النبي ﷺ: أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بَعْدَ خَيْرٍ رِزْقَهُ الْعِلْمَ النَّافِعَ، انظر: الحميدي - الجمع بين الصحيحين - برقم (٢٨٩٧): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"، والعلم ميراث النبي - صلى الله عليه وسلم - فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَحَدٌ بِحَظٍّ وَافٍ". ورواه الترمذي (٢٦٨٢) وصححه الألباني في: صحيح سنن الترمذي. المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ). دون ط. القاهرة. دون ت. إلى غير ذلك من الأدلة المتكاثرة.

(١) - كانت هذه إحدى صور الفداء؛ إذ كان بعض الأسرى من الفقراء، فرأى النبي أن بعض الأسرى يعرفون القراءة والكتابة، والأمة الإسلامية في ذلك الوقت لم تكن قد تعلمت بعد، ومن يقرأ ويكتب إنما هم قليل، فكان يفتدي هؤلاء المشركين بأن يعلم كل منهم عشرة من غلمان المدينة المنورة. ويوضح هذا الأمر دقة النبي وبُعد نظره وعمق فهمه، فهو يريد أن يعلم الأمة القراءة والكتابة من أول أمرها، فقد استثمر هذا الحدث العظيم؛ وهو وجود سبعين أسيراً من المشركين، بعضهم يعرفون القراءة والكتابة في أن يعلم الأمة.

النساء^(١)، وقد تعلّم بعض الصحابة الكتابة من اليهود، وقد كانوا هم الكتّاب في المدينة، وأصبح بعض الصحابة يُتقن لغاتٍ أُخرى كما حدث مع زيد بن ثابت الأنصاري^(٢) حين طلب إليه الرسول -ﷺ- أن يتعلّم اللغة العبرية من أجل أن يقرأ الرسائل التي تأتي بها، وترجم إلى اللغة العربية.

وقد برز في ذلك الوقت انتشار الثقافة الحقوقية من كتابة الوصايا، والأوقاف وكتابة الدين، والحقوق التي للإنسان، أو عليه، وبهذا شهدت دولة الإسلام في المدينة حركةً علميةً وفكريةً كبيرةً، بل خطى المشروع الحضاري خطوات أوسع من ذلك من جهة الأدب؛ فشجّع على الأدب بما يخدم القيم الرفيعة، والأهداف النبيلة، وسُمح بأن يُنشد^(٣) الشعر في المسجد النبوي في حضرة رسول -ﷺ-.

(١) - أخرجه أحمد في "المسند" - مسند الشفاء - برقم (٢٧٠٩٥) قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة، فقال لي: «ألا تُعلِّمين هذه رُقية التَّمَلَّة كما علَّمْتِهَا الْكِتَابَةَ».

(٢) - فقد روى الترمذي - سنن الترمذي - كتاب المناقب - باب ما جاء في تعليم السريانية - برقم (٢٧١٥) ٥/٦٧ - بسنده عن زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلّم له كلماتٍ من كتاب يهود وقال إني والله ما أمرت يهود على كتابي، قال فما مرّ بي نصف شهر حتى تعلّمته له". قال الألباني في تخريج سنن أبي داود (٣٦٤٧) : حسن صحيح.

(٣) - فقد أنشد الشعر حسان، وكعب ومنه قول كعب في قصيدته (بحر البسيط) التي بدأ فيها بقوله

بَأْتَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَسْئُولٌ .. مُتَيِّمٌ عِنْدَهَا لَمْ يَعُدْ مَعْلُولٌ

وَمَا سَعَادُ عِدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ طَعُنُوا .. إِلَّا أَعْرُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْخُولٌ

وقد روى الأثر البيهقي في السنن الكبرى - كتاب المكاتب - باب من شبب فلم يسم أحدا - برقم (٢١٦٧٢) - ١٠/٥٥٤ . و الحديث المروي في الصحيحين كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - باب فضائل حسان بن ثابت - ص ٧٧٨ : وفيه قول حسان حين أنكر عليه عمرُ إنشاد الشعر بالمسجد : " كُنْتُ أَنْشِدُ فِيهِ، وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ " . يعني رسول الله.

1.4.17. المطلب السابع عشر : التنمية الاجتماعية.

كان مجتمع المدينة قبل الإسلام مجتمعًا جاهليًا، يسوده الكثير من الإشكاليات الاجتماعية، مثل: انتشار الدِّعارة، وما يُسمى بدواتِ الرايات، وكان الزنا من أكبر الإشكاليات الاجتماعية. حيث انتشر الأمراض، واختلاطُ النُّطفِ والأنساب؛ ولذلك كان الإسلامُ قاطعًا في ذلك، فلم يرضَ إلا بالتحريم والتجريم، لتلك الأعمال التي تأبأها النفوسُ السويَّةُ. وقد أثبتت الدراسات والأبحاث العلمية أنَّ أخطرَ أمراضِ البشرية المعاصرة سببها الخمرُ والممارساتُ الجنسيةُ الشاذَّةُ وغيرُ المشروعة، كالزنى وغيره من أنواعِ الفسادِ الأخلاقي، ولعلَّ كارثةَ الإيدز أو مرضِ (السيدا) هو أفدحُ كارثةٍ مُرعبةٍ تُهدِّدُ حياةَ البشرية، والتي سببها الممارساتُ الجنسيةُ الشاذَّةُ^(١). فشرعَ الإسلامُ في مشروعه الحضاري، مراعاةً للطبيعةِ البشريةِ علاقةً مقدسةً، هي الزواج^(٢)، وأمر بالمودة والرحمة بين الأزواج، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ

(١) - سيأتي في المبحث القادم حديث آخر عن التنمية الصحية في المشروع الحضاري الإسلامي، وأن الإسلام اتخذ وسائل ومظاهر متعددة للحفاظ على الصحة البشرية.

(٢) - فقد جاءت آثاؤ متكاثرة تدعو إلى الزواج ومنها عند البخاري برقم (٥٠٦٣) أنه جاء : " ثَلَاثَةٌ رَهَطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُوهَا فَعَالُوا وَأَيُّنَ حُنُّ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاهُمْ لَهُ لِكَيْتِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأُرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي "

مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾.

وهذا من عظمة هذا الدين؛ أنه شرع من العبادات، والتشريعات ما يوافق صلاح النفوس، والفطر السليمة، ومنع ما يُضاد ذلك، وأوضح أسباب المنع والتحريم.

ولم يكتفِ الإسلامُ بما شرعَ من هذه الناحية الشخصية، بل قد جعلَ من أهم أركانه زكناً يقوم بأمر التكافل الاجتماعي في مجتمع الدولة الإسلامية، وهو ركنُ الزكاة^(٢)، ووسَّع الدائرة، ففتح باب الصدقات^(٣)، ولم يُمانع أن يكونَ في هذه الصدقات نصيبٌ لغير المسلمين ممن يستحقون؛ فانطلق قطارُ التكافل الاجتماعي، والتراحم بين أفراد المجتمع، وشجَّع على الإحسانِ للآخرين، وإعطاء الأجر الكبير على هذه المبادرات المجتمعية الخيرة.

وحمل القرآنُ على الذين يَكْنِزُونَ الذهبَ والفضَّةَ والمالَ، وَيَحْرِمُونَ الْآخِرِينَ مِنَ التَّمَتُّعِ بما يحتاجونه من طعامٍ وشرابٍ، وسمى الفقراءَ بالمحرومين، وأثنى على الذين يجعلون جُزءاً من مالهم، لحلِّ مشاكل المحرومين فقال - تعالى - { وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ }^(٤).

كما شجَّع الإسلامُ التواصل، والتواصي بصلَّة الأرحام^(٥)، وحقوق الجار، وكلُّ ذلك كان من التشريعات العظيمة التي أسهمت في تطوُّر المجتمع ورقَّيته، وتقارب أفرادها، من بعضهم البعض، كالبنيان المرصوص فعن أبي موسى قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد"

(١) - سورة الروم آية (٢١).

(٢) - في صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُني الإسلامُ على خمسٍ» برقم (٨) - ١١/١: " عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «بُني الإسلامُ على خمسٍ، على أن يُوحَّدَ اللهُ، وإِقَامَ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ»

(٣) - وردت أدلة كثيرة من الكتاب والسنة تدعم ذلك، منها ما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف - حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفَقْ أَنْفَقْ عَلَيْكَ وَقَالَ: يَدُ اللهِ مَلَأَى، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَخَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ". وفي سنن البيهقي الكبرى - كتاب الإيمان - : باب: صَاحِبُ الْمَالِ لَا يَمْتَنِعُ الْمُضْطَرُّ فَضْلاً، إِنْ كَانَ عِنْدَهُ - من حديث ابن الزبير، برقم (١٩٦٦٨) - ٣/١٠ وفيه قال النبي : " لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْتَبِعُ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ ". وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم : (٥٣٨٢).

(٤) - سورة الذاريات (١٩ آية).

(٥) - وفي وجوب صلة الرحم أوامر شرعية متعددة منها ما رواه البخاري في صحيحه - كتاب الأدب - باب إثم القاطع برقم ٥/٨ - برقم (٥٩٨٤) : " «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ».

بعضه بعضاً". وشبَّك بين أصابعه^(١)، حتى أصبح الناس في المشروع الحضاري الإسلامي كالجسد الواحد، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى" ^(٢).

وهذا ما أرادَه الإسلام، فكان التشجيع والتشريع على صلاة الجماعة خمس مرات يومياً وكان لهذا التشريع أبعاداً اجتماعية مهمة، فبيئ المجتمع المسلم قوياً ومتكاملاً، يعلم فيه العالم الجاهل، ويساعد القوي الضعيف، ويدل العارف التائه.

وكان لهذه التشريعات الإسلامية في الدولة النبوية في المدينة دوراً كبيراً، في نشوء مجتمع مثالي، ينتشر فيه الحب، والسلام، والإخاء، والتراحم، والعطاء، والعمل المتعدي نفعه للآخرين، وخدمة المجتمع بكل تفان وإخلاص، ورفع شعار: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدُوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ^(٣).

كما حرَّم الإسلام الميسر (القمار)^(٤)؛ و الخمر^(٥) لضررها الاجتماعي، والإنساني الكبير، ولحماية المجتمع من الانفلات العقلي، والإفلاس المالي، والمشاكل الزوجية والاجتماعية الخطيرة، المترتبة

(١) - ففي كتاب الجمع بين الصحيحين برقم (٤٤٢).

(٢) - أخرجه مسلم - في صحيحه - كتاب البر والصلة والآداب - باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم - برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير.

(٣) - (المائدة ٢).

(٤) - كما في سورة المائدة (٩٠): ﴿ إِنَّمَا الخُمُرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .. والخمر رأس كل خطيئة وسبب كل بلاء، فعند عبد الرزاق الصنعاني، في المصنف، برقم (١٧٠٦٠) خطب الناس عثمان بن عفان، فقال: اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إن رجلاً ممن كان قبلكم كان يتعبد، ويعتزل النساء فعلقته امرأة غاوية فأرسلت إليه أني أريد أن أشهدك بشهادة، فانطلق مع جاريتها فجعل كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، وعندها باطية، فيها خمر، فقالت إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي أو لتشرب من هذا الخمر كأساً أو لتقتل هذا الغلام و إلا صحت بك وفضحتك فلما أن رأى أن ليس بدُّ من بعض ما قالت قال اسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته، فقال زيدني كأساً، فشرب، فسكر، فقتل الغلام ووقع على المرأة فاجتنبوا الخمر فو الله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر في قلب رجل إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه". حكم عليه الألباني بأنه صحيح موقوفاً في سنن النسائي برقم (٥٦٦٦).

(٥) - أخرج البخاري في صحيحه - كتاب الصلاة - باب تحريم تجارة الخمر في المسجد - برقم (٤٥٩) - ٩٩/١ : عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا أَنْزَلَتِ الآيَاتُ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي الرِّبَا، «خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَرَأَهُنَّ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ حَرَّمَ تِجَارَةَ الخَمْرِ».

على هذه العادات الجاهلية التي كانت تنتشر في ذلك الوقت.

وأمرض الخمر والمخدرات، والقمار فضلا عن ضررها الصحي؛ فإنها تعتبر من أفدح أنواع الأمراض وأخطرها على سلامة المجتمع، فتضرر بالوضع الاقتصادي، والأمني، فكثير من جرائم القتل والاعتصاب، وحوادث السيارات سببها الخمر والمخدرات، وكم تبدل الدول والحكومات من جهود وأموال لمكافحة الخمر والمخدرات دون جدوى.

ولضمان السلامة الاجتماعية حث الإسلام في تشريعاته على العدل والإنصاف مع الجميع، وقد أعلنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أول يوم يؤسس فيه دولته أن العدل والانتصاف من الجميع هو أساس مشروعه الخاتم، وقد طبق ذلك في أوضح صور العدالة والنزاهة التي لم ترى البشرية مثلها فقال^(١): " وَ أَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا "

وكانت رسالة الأخلاق، والسلوك بارزة وعظيمة، في رسالة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فلا يستقوي القوي على الضعيف، ولا يتعامل مع الناس بناء على قبائلهم أو شرف نسبهم، أو مالههم أو جاههم، أو علاقاتهم، بل بناء على الحق والعدل والتقوى، تلك القيم التي يجب أن تسود في الجميع، وبين أفرادها، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٢).

وبهذا أصبحت المدينة المنورة نموذجًا حضاريًا عظيمًا، من الناحية الاجتماعية، وبدأت هذه الشجرة المباركة تُؤتي أكلها، فانتشر الكثير من هذه القيم، والسلوكيات والأخلاق في المدن التي يدخلها الإسلام، بل أصبحت من أهم روافد الدعوة إلى الله^(٣).

(١) - فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود. ص ٥٢٧.

(٢) - الحجرات (١٣).

(٣) - وقائع التاريخ تثبت أن المسلمين حينما فتحوا البلاد، لم يتدخلوا قط في شؤون دينها، ولم يُرغموا أحدا قط على تغيير عقيدته، ولم يثبت التاريخ واقعة واحدة أكره فيها فرد غير مسلم، أو أسرة غير مسلمة، أو بلدة غير مسلمة، أو شعب غير مسلم، على الدخول في الإسلام، وقد أثبت التاريخ أن كثيرا من البلاد الإسلامية التي نعرفها اليوم لم يدخلها جيش المسلمين، ولكنها دخلت في الإسلام بتأثير التجار وغيرهم من الناس الذين لم يكونوا علماء ولا دعاة محترفين، وإنما أحبهم الناس لما رأوا فيهم من صدق الإيمان، وحسن الخلق، وحب الخير للناس، فكانوا أسوة حسنة، فأحب الناس دينهم بحبهم، ودخلوا فيه أفرادا وجماعات، وهكذا دخل الإسلام في ماليزيا واندونيسيا والفلبين وغيرها: بوساطة تجار حضرموت وأمثالهم ممن جاءوا من جنوب اليمن، ضاربين في الأرض، مبتغين من فضل الله.

فالبشرية كانت تتشوّف لبصيص أمل يُنقذها من تردي الأخلاق الاجتماعية، ويُركي فيها مكارم الأخلاق، ويُقيم العدل، ويرفع الظلم، وتلك رسالة الإسلام العظمى في مشروعه الحضاري، بعد أن عانت من التيه والضياع وانتشار الظلم والفوضى.

وهناك بلاد كثيرة في إفريقيا انتشر فيها الإسلام عن طريق الطرق الصوفية، وعن طريق الاحتكاك بالمسلمين، والتأثر بسلوكياتهم وأدابهم وأفكارهم، وحتى البلاد التي دخلتها الجيوش: كان وجودها محصورا في العواصم والثغور، لا في كل المدن والقرى. ولم تدخل الجيوش الإسلامية التي فتحت الهند الكبرى، إلا في دائرة محدودة، ولكن انتشار الإسلام في القارة الهندية، كان أبعد وأوسع بكثير مما دخلته الجيوش، وامتدت دعوته شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، حتى كان من تأثيرها: وجود دولتين إسلاميتين كبيرتين هما: باكستان وبنجلاديش، ووجود أكبر تجمع إسلامي للمسلمين في الهند بعد إندونيسيا، برغم شكوى كثير من العلماء والناقدین من تقصير المسلمين خلال حكمهم الطويل للهند، من توصيل الدعوة للهندوس، فقد أتى المشروع الحضاري الإسلامي ثماره المرجوة، ودخل آلاف الناس في هذا الدين احتراماً لقيمه، وحبا في أخلاق أتباعه.

انظر أدلة كثيرة وشهادات غريبة منصفة على فكرة انتشار الإسلام بقيمه، وأخلاق أصحابه في كتاب: **الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية**، لمحمد مسعد ياقوت، ص ٢٩ وما بعدها.

1.4.18. المطلب الثامن عشر : التنمية الصحية .

بعد قيام دولة النبوة في المدينة كان الملف الصحي من أهم الملفات التي جرى عليها الكثير من العمل لتنمية الجانب البدني للناس، فكان الكثير من الأحاديث تُوجّه إلى البحث عن الاستشفاء، إذا أُصيب بمرضٍ، انطلاقاً من حرص الإسلام على حماية الضرورات الخمس للمجتمع الإنساني، ناهيك عن توفيرها للمجتمع الإسلامي، ومنها حماية النفس.

فقد كان من خصائص الفكر والتشريع الإسلاميين الاتزان والاعتدال، والتوازن إزاء الجسم، والعقل والروح والنفس جميعاً، وكانت عنايته بالجسم ورعايته للصحة البدنية فائقةً، انطلاقاً من قوله: " المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف " (١).

وتلك قوة شاملة للقلب والجوارح وغيرها من وسائل القوة، التي يتحقق بها عز المؤمن؛ لذا شرع للبدن حقوقاً طبيعية أوجبها على الفرد نفسه، وعلى الدولة والهيئة الاجتماعية في حال عجز الفرد عن أداء واجباته تجاه البدن، فللبدن حق الطعام، واللباس والعلاج والسكن، إضافة إلى الراحة والنوم والوقاية... إلخ.

ويتحدّث القرآن عن الطعام والغذاء والعناية بحاجة الجسد، فيثبت أنّ توفير الأمن الغذائي حق للإنسان، وأتته جزءاً من نظام الوجود، وقد بينت الآية الكريمة هذا المعنى بنصّها الذي تحدّث عن

(١) - الحميدي، الجمع بين الصحيحين من حديث أبي هريرة برقم (٢٦١٢) - ٢٠٧/٣.

الأرض، والرزق فيها، فقال تعالى: ﴿وقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ﴾^(١)، وحين نَبَّهَ آدَمَ عَلَى نعيمِ العَيْشِ فِي الجَنَّةِ قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(٢).

فَوَضَعَ القَوَانِينَ وَالأنظْمَةَ اللّازِمَةَ لِتَوْفِيرِ الحَاجَةِ الغِذَائِيَّةِ لِلإنسَانِ، كَأَحكَامِ الزَّكَاةِ الَّتِي فُرِضَتْ فِي المَوَادِّ الغِذَائِيَّةِ، وَالقمحِ وَالشعيرِ وَالتَّمْرِ وَالزَّيْبِ وَالأغْنَامِ وَالأبقارِ وَالإِبِلِ، كَمَا فُرِضَتْ فِي النَقْدِ وَاسْتُحِبَّتْ فِي بَاقِي الحبوبِ وَالثَّمَارِ.

فَالتَّشْرِيعُ الإِسْلَامِيُّ بِمَشْرُوعِهِ الحِضَارِيِّ اعْتَنَى بِالثَّقَافَةِ الغِذَائِيَّةِ وَالتَّربِيَةِ الصَّحِيَّةِ، فَتَجَدُّ الحَثُّ عَلَى تَنَاوُلِ الأَطْعَمَةِ، وَالأغْذِيَّةِ الَّتِي تَحْقِيقُ نَمُوَ الجِسْمِ نَمُوًّا صَحِيًّا، وَتَوْفُّرُ لَهُ المِنَاعَةُ ضَدَّ الأَمْرَاضِ وَعَوَامِلِ الضَّعْفِ، وَبِمَكْنُنَا أَن نَذَكَّرَ جُزْءًا مِنْ مَظَاهِرِ عِنَايَةِ الإِسْلَامِ بِالصَّحَّةِ البَدْنِيَّةِ، وَمِنْهَا مَا يَأْتِي:

١ - العِنَايَةُ بِالتَّغْذِيَّةِ، وَحَثُّ الأَبْوِينَ لِاسِيْمَا المَرَأَةِ الحَامِلِ وَالمَرَضِعِ عَلَى تَنَاوُلِ بَعْضِ الأَغْذِيَّةِ لِلحِفَافِ عَلَى صَحَّةِ الحَمَلِ، وَإِكْسَابِهِ الصِّفَةَ الجَمَالِيَّةِ، وَالتَّأَكِيدُ عَلَى العِنَايَةِ بِغِذَاءِ الصَّبِيِّ، لِمَا لِلتَّغْذِيَّةِ مِنْ أَثَرٍ فِي صَحَّةِ الحَمَلِ وَسَلَامَةِ بِنِيَّةِ النَّاشِئَةِ، وَجَمَالِ الصُّورَةِ.

وَهَنَّاكَ عَشْرَاتُ التَّوَصِيَّاتِ^(٣) تَتَنَاوَلُ الفَوَاكِي وَالحِضْرَاوَاتِ وَأَنْوَاعَ اللِّحْمِ وَالبَقُولِ، دَاعِيَةً إِلَى الإِهْتِمَامِ بِتَغْذِيَّةِ البَدَنِ، وَالحِفَافِ عَلَى التَّوَاظُنِ الغِذَائِيِّ وَالبِنِيَّةِ البَدْنِيَّةِ.

٢ - تَحْرِيمُ المَأْكُولَاتِ وَالمَشْرُوبَاتِ وَالمَمَارَسَاتِ الضَّارَّةِ بِصَحَّةِ الجِسْمِ، وَلَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِ مَا فِي المَنْهَاجِ الإِسْلَامِيِّ وَفَقْهِهِ البِنْيَوِيِّ لِحْفَظِ النَفْسِ وَتَوْفِيرِ الأَمْنِ الصَّحِّيِّ هُوَ تَحْرِيمُهُ لِالأَطْعَمَةِ وَالأَشْرَبَةِ وَالمَمَارَسَاتِ الضَّارَّةِ بِالجِسْمِ؛ فَقد حَرَّمَ الإِسْلَامُ الحَمْرَ وَالمَخْدَرَاتِ وَالزَّنا وَاللِّوَاطَ وَالمَسَاحِقَةَ وَالمَسْمُورَةَ الفَوَاحِشَ الجِنْسِيَّةِ، وَالدَّمَ وَالحَمَّ الخَنْزِيرِ وَغَيرَهَا، كَمَا حَرَّمَ كَلَّ مَا مِنْ شَأْنِهِ الإِضْرَارُ بِالبَدَنِ عَمَلًا بِقَاعِدَةِ عَظِيمَةٍ هِيَ: "لَا ضَرَرَ وَلَا ضَرَارَ"^(٤). تَلِكِ القَاعِدَةُ العَظِيمَةُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي كَلَامِ الرِّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -.

٣ - النِّهْيُ عَنِ الإِسْرَافِ، فَمِنْ المَمَارَسَاتِ الخَطِرَةِ عَلَى صَحَّةِ الجِسْمِ الإِسْرَافُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

(١) - سُورَةُ فَصَّلَتْ (١٠)

(٢) - سُورَةُ طه (آيَةُ ١١٨ - ١١٩).

(٣) - وَمِنْهُ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِسَنَدِ صَحْحِهِ الشَّيْخُ شَاكِرٌ، وَفِيهِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الحَبَّةِ السُّودَاءِ، فَإِنْ فِيهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ. إِلَّا السَّامَ".

(٤) - الأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ - كِتَابُ الأَحْكَامِ - ١٢ - بَابُ مَنْ سُرِقَ لَهُ شَيْءٌ فَوَجَدَهُ فِي يَدِ رَجُلٍ اشْتَرَاهُ - بِرَقْمِ

(٢٣٣١). ٤٢٢/٣ - مِنْ حَدِيثِ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ. صَحْحُهُ الشَّيْخُ الأَلْبَانِيُّ فِي الكِتَابِ المَذْكُورِ.

والجنس... وأكثر الأمراض الجسدية سببها الشراهة والانسياق وراء الشهوة، والإسراف في تناول الأطعمة والأشربة؛ لذلك نهى القرآن عن الإسراف في الطعام، والشراب وغيره، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١). ووَرَدَ عن الرسول الكريم -ﷺ- قوله: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه"^(٢).

٤ - الحفاظ على الطهارة والنظافة: فجاء المشروع الإسلامي بأذكي التشريعات التي تدعم طهارة البدن بعد طهارة القلب والاعتقاد، فأمر بالطهارة والدعوة إلى النظافة، قد وضع منهاجاً واسعاً لحماية الإنسان والبيئة من التلوث والقاذورات، ومصادر الأضرار بالصحة.

ورُسِّحَ قانونُ الجمال بقوله -عليه الصلاة والسلام-: "إن الله جميل يحب الجمال"^(٣)،

وقوله "من كان له شَعْرٌ، فليُكْرِمهُ"^(٤). إلى غير ذلك من الآثار والتوجيهات.

وبالجملة قد كان العمل في ملف التنمية الصحية يسيراً على جانبيين :

الأول: التوعية والعلاج الوقائي.

والثاني: معالجة الأمراض الحادثة.

فتم إنشاء أول مشفى في الإسلام -إن صح التعبير -الذي أسسته رُفَيْدَةُ الأَسْلَمِيَّةُ^(٥)، وهي خيمة يُعالج فيها الناس، ومُنَّ عُولَجٌ فيها سعدُ بنُ أبي وقاصٍ - رضي الله عنه - بعد إصابته في غزوة الخندق، وقد زاره فيها الرسول الأمين -ﷺ-.

فاهتم الإسلام بالوعي الصحي الوقائي؛ فكانت الكثير من التشريعات والتوجيهات النبوية تسير وتُرشد إلى نظام الأكل السليم، والابتعاد عن كل ما يضر البدن، كما سبق ذكره، ووجه أنظار أبناء

(١) - سورة الأعراف: ٣١

(٢) - رواه الإمام أحمد في المسند - من مسند المقدم بن معدي كرب برقم (١٧١٨٦) ، وصححه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ط. ٢ برقم (٥٦٧٤) -

(٣) - الحميدي، الجمع بين الصحيحين برقم (٣١٣) من حديث عبد الله بن مسعود. - ١٣٢/١.

(٤) - أبو داود، سنن أبي داود - أول كتاب البيوع - باب في الرجل يأكل من مال ولده - برقم (٤٢٦١) - ٣٩٠/٥ - من حديث أبي هريرة وحسنه الأستاذ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على السنن.

(٥) - وفي ذلك يذكر ابن الأثير في كتابه: أسد الغابة في معرفة الصحابة: دون ط. ٤٤٢/١ : "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصاب سعدا السهم أمر أن يجعل في خيمة رفيده الأسلمية في المسجد ليعودَه من قريب "

المجتمع إلى المأكولات، والمشروبات النافعة على المستويين الغذائي والدوائي، فرغب في العسل، والحبة السوداء وغيرهما.

وأما بالنسبة لعلاج الأمراض فقد أُرشد إلى طُرُقٍ علاجيةٍ متنوعةٍ، وبِيسيرةٍ، جاء بها الإسلام، ومنها الحجامة، وعلاج الأمراض بشرب العسل، والرقية الشرعية، وأكل الزيتون وغيره. وأخذ أسلوبًا رائدًا بأن شرعَ عباداتٍ تُسهم بشكلٍ كبيرٍ في ذهابِ أنواعٍ شتى من الأمراض، كما في الصيام، ولو كان القولُ المأثور: "صوموا تصحوا" ^(١) حديثًا لما بُعدنا كثيرًا عن حقيقة معناه؛ لأن الصيام سببٌ كبيرٌ في التخلُّص من كثير من الأدوية، فأوجب صومَ رمضان، وشرعَ التَّنْفُلَ بصيام أيام البيض والاثنين والخميس وغير ذلك.

لقد زخر المشروع الحضاري الإسلامي بكثيرٍ من التشريعات التي كان لها أثرٌ كبيرٌ على صحة الإنسان، وحياته و معاشه، ومن ثمَّ المجتمع، ومستقبل أمته، ودينه. فلم يكن الإسلام ليهتم بجانب الروح؛ ويُهمل جانب الجسد، ولا بقوة إيمان القلب، ويترك قوة الجسد، بل اهتم كثيرًا بالبناء الجسدي، والصحي للشخصية المسلمة؛ لأن لهذا البناء أثرًا كبيرًا على عمارة الأرض، ومشروعه النهضوي والحضاري للعالم. ومن يُطالع أنظمة هذه الشريعة الإسلامية يُدرك بما لا يدع مجالًا للشك أنها اهتمت بالإنسان، ودعمت الأشياء التي تحفظ عليه جسده وعقله وروحه، وقوته، وماله وطهارته، وحيويته، فانظر حين يأمرُ الحبيب - ﷺ - بالحفاظ على ما أسماه سنن الفطرة ^(٢)، مثل: الحتان والاستحداد وتقليم الأظفار وبتف الإبط وقص الشارب - تدرك أن الإسلام جاء بثورةٍ صحيةٍ شاملة.

(١) - يعلق الشيخ الألباني على الأثر ويحكم عليه بالضعف، ويقول: " لا شك أن الصوم الشرعي فيه كل الفوائد، لكن هذا الحديث وبهذا اللفظ لم يصح كما كنا بينا ذلك في سلسلة الأحاديث الضعيفة - برقم (٢٥٣).

(٢) - الحميدي، الجمع بين الصحيحين برقم (٢٢١٤) - ٢٦/٣ - من حديث أبي هريرة، قال: " سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: " الفطرة خمسٌ الحتان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار وتفق الأباط".

1.4.19. المطلب التاسع عشر: التنمية الاقتصادية والتجارية .

كان من أسس التنمية الاقتصادية في الدولة الجديدة نشر ثقافة العمل والكسب، والترغيب فيهما، والحث عليهما، وأن العبادة لا تعني الانقطاع عن عمارة الأرض والعمل والإنتاج، بل إن مشروعها الحضاري يركز بعد تحقيق التوحيد على دعامة العمل؛ لعمارة الكون وحدث الاستخلاف، وجعلت قيمة الإنسان ليس في حسبه ولا نسبه فقط، ولا فيما يملك بل في عمله وما يُنتج من نافع مُفيد، سواء أكان هذا النفع ذاتيًا أو متعديًا إلى غيره.

وقد كان فئامٌ كثيرون من العرب قديمًا يزهدون -أو لا يحبون- بعض الأعمال، فمثلاً: قد كانت الأعراب لا يرغبون في الزراعة، وبعض أهل المدن لا يحبون الرعي، فجاءت التوجيهات الشرعية في دولة الإسلام تدعو إلى كل عمل شريف، ومفيد؛ لتصحيح تلك الأفكار التي كانت سائدة عند البعض. مثل حديث: " كان زكريا نجارا " .⁽¹⁾ وحديث «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْعَنَمَ»، فَقَالَ

(1) - الحميدي، الجمع بين الصحيحين برقم (٢٧١٢) من حديث أبي هريرة.

أصحابه: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيضَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(١).

كما تمَّ تشجيعُ التجارة، وذكُرَ فضلُها، وأهميتها في مواطنٍ كثيرةٍ، وشرع الاهتمامُ بالأسواق، ووضع بعض اللوائح أو القوانين المنظمة لها.

وكانت التجارة في تلك الفترة أكثرها في اليهود، وكان من أشهر الأسواق قبل الإسلام سوق بني قينقاع، حيث كان اليهود يُسيطرون على التجارة، والمال، ويُقرضون الناس بالربا، ولهذا كان لهم نفوذ ماليٌّ، وسياسيٌّ كبيرٌ، مما جعل من الضروريِّ تغييرَ هذه المعادلة، ليأخذ المشروع الإسلامي حقه في البيئة الجديدة.

ورغم أنَّ الأوسَ والخزرجَ كان لهم سوقٌ صغيرٌ، اسمه سوقُ مُزاحِم^(٢)، إلا أنَّ تركيزهم الأكبر كان على الزراعة، وقد جاء هذا التحول، وبدأت تحدث المعادلة، بعد هجرة المهاجرين إلى المدينة، وكانت قريش تحترف مهنة التجارة كما لا يخفى وقد جعلها منة على أهل مكة " رحلة الشتاء والصيف"، فلما دخلوا المدينة مع الإسلام اشتغلوا بالتجارة أيضاً، ونجحوا فيها نجاحاً مذهلاً؛ لأنهم مع احترافهم المهنة، التزموا جانب الأمانة، والصدق، وعدم المراباة، فثمرت تجارتهم، وربحت.

فأخذت أنشطة المسلمين التجارية تزداد، بالتزامن مع استقرار المعاش، وتزايد عدد سكان المدينة المنورة، وزيادة الوافدين الجدد إلى هذا الدين الجديد، وأمام مضايقاتٍ وُحِدَ اليهود التجارية، وبسبب التباين في المبادئ التي تقوم عليها تجارة كلِّ من الفريقين، فتجارة تقوم على السُّحت والربا، وهي تجارة اليهود، وأخرى تقوم على تقصِّي أشدِّ درجات الطُّهر والنقاء والبُعد عن دَنَس الشبهات والمحرمات في الأرزاق، وهي تجارة المسلمين.

وكان لابد من أن ينحى النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - في رؤيته الإصلاحية للنشاط التجاري الإسلامي الناشئ منحىً جديداً، فيه تصحيحٌ لمسار النشاط التجاري عموماً، ووفق خطواتٍ إصلاحية ذات طابعٍ استقلالي، عن الروح التجارية الخائنة التي كانت تشوب تجارات ومبايعات اليهود في سوقهم؛ فأنشأ السوقَ الإسلامية، ليحرر مالَ المسلمين من الخبائث والمعاملات الظالمة، وهذا ما يطلق عليه في الاقتصاد بـ"البنية الاقتصادية الأساسية"، وحتى يؤكد للناس شمولية الإسلام؛ فهو دينٌ

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الإجارة - باب رُعي الغنم على قَرَارِيضَ - برقم (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة.

.٨٨/٣

(٢) - انظر السهمودي، في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى - دون. ط - ٣٣/٤

جاء يعمرُ الدنيا، ويعمل للآخرة، يُعطي للنفسِ حظَّها من الدين كما يُعطيها حظَّها من الدنيا. (١)

وكان موضعُ السوق هو بقيع الزبير^(٢)، وقد دخله الكثيرُ من الصحابة، بيعًا وشراءً، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام-رضي الله عنهم-.

بل أصبح الصحابةُ يُعلِّمون الآخرين التجارة، والبيع والشراء؛ لأنها مهارة لهم كما سبق ذكره، وأردوا أن تشيع وتنتشر لِمَا فيها من الخير على الفرد والمجتمع والدولة، فازدهرت أسواقُ المدينة، وصارت حركة التجارة نشطة وقوية، وكذلك اتسعت حركة القوافل التجارية مع بلاد الشام، وغيرها من البلاد. وكان الكثيرون من صحابة الرسول -عليه الصلاة والسلام- يعملون في التجارة، ويجمعون بينها، وبين الدعوة، وخدمة الإسلام، وواكب كل ذلك تشريعات بمثابة قوانين، وأنظمة تمنع الغش، والغرر والتدليس، وكانت التشريعات تحث على العدل، والإنصاف في البيع والشراء.

وظهر في الدولة الإسلامية بعضُ الوظائف كالوساطة بين البائع والشراء، وهي (السمسرة) في ذلك الوقت بالإضافة إلى الكثير من الأعمال التجارية التي شملت الأطعمة والألبسة، والحيوانات والمنتجات الزراعية، والتمور ونحوها.

وشهدت المدينة حركة تجارية كبرى وانتعاشًا اقتصاديًا شمل الجميع، فبدأ الأعراب، وغيرهم يقصدون أسواق المدينة، لِمَا لها من قوة ورواج.

(١) - فكانت خطوته تلك، فيها معالم كثيرة يجب على المسلمين عامةً وأرباب التجارات خاصةً أن يعوها، وهي أنه- صلى الله عليه وسلم- لما أسس مجتمعه الجديد أسس أول ما أسس فيه مسجدًا ثم سوقًا، وهذا يعني لنا أمورًا ومدلولات كثيرة، منها أن العبادة وحدها لا تكفي فالدين الإسلامي ليس مجرد طقوس ونسك ورهبانية فقط وانقطاع عن الناس فلا بد من تلبية حاجات المجتمع الاقتصادية فكان إنشاء السوق.

(٢) - انظر السمهودي، في وفاء الوفا - ٣٣/٤

1.4.20. المطلب العشرون: التنمية الزراعية .

تكمن أهمية الزراعة لأي مجتمع في أنها توفر الكثير من الاحتياجات الغذائية، والأساسية للإنسان، ولهذا تم التشجيع والتشريع في هذا الباب التنموي الضروري، وعمل كثر من أهل المجتمع المدني بالزراعة^(١). لتحقيق قضية الاكتفاء الذاتي، فضلا على أن جزءا كبيرا من القوة الاقتصادية يرتبط ارتباطا قويا بالاستقرار السياسي والتنمية لكل دولة.

وقد أقطع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعض الصحابة - رضي الله عنهم - أراضي زراعية، ومنهم

(١) - أخرج البخاري في صحيحه ما يدعم فكرة حض الرسول الصحابة - رضي الله عنهم - على الزراعة، كتاب الزراعة - باب ما كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يؤاسي بعضهم بعضا في الزراعة والتمرة - برقم (٢٣٣٩) - ١٠٧/٣ ، قال البخاري : - حدثنا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا الأوزاعي عن أبي النجاشي مؤلى رافع بن خديج سمعت رافع بن خديج بن رافع عن عمه ظهير بن رافع قال ظهير لقد نأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر كان بنا رافعا قلت ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق قال دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما تصنعون بمحافلكم قلت نؤاخرها على الرُّبْعِ وَعَلَى الْأَوْسُقِ مِنَ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ قَالَ لَا تَفْعَلُوا ارزعوها أو أرزعوها أو أمسكوها قال رافع قلت سمعا وطاعة ."

الزبير^(١) وعلي بن أبي طالب^(٢)، ووضع قانونا يشجع على الزراعة فقال: "من أحيأ أرضاً ميتةً فهي له، وليس لعرق ظالم حق".^(٣)

وكان الهدف من ذلك - كما لا يخفى - الحث على العمل، والإنتاج، والتنمية، تشجيع الزراعة، والتنمية المحلية، ولما كان المشروع الحضاري الإسلامي يجمع بين ثقافة الدين والدولة، والدنيا والآخرة، العمل والعمارة، والإيمان والطهارة، أقول: لما كان هذا المشروع يجمع بين هذين المادتين والروح لم يكن ليترك كل عمل يفيد ولا يضر، ويربح ولا يفسد، ما دام أنه حلال، ووضع الكثير المحفزات في هذا المجال التنموي والحياتي.

وتأمل ما يدعو إليه هذا الحديث، وما يحمل في طياته سطوراً من دعوة إلى العمل، والإنتاج، والبذل، والبذر، والنشاط، وترك التواكل.. إلخ.

فيما يرويه أنس بن مالك قال^(٤): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ".

إن هذا الحديث يُعلِّمنا فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - دروساً عظيمة، ومن أهمها الإيجابية في حياة المسلم، إذ لا بد أن يكون المسلم إيجابياً يشارك في هذه الحياة بكل ما يستطيع، وبقدر ما يمكنه، ولو كان ذلك في آخر لحظات الحياة .

(١) - كما في البخاري - كتاب فرض الخمس - باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة فلؤبهم وغيرهم من الخمس ونحوه رواه عبد الله بن زبير عن النبي صلى الله عليه وسلم - برقم (٣١٥١) - ٩٥/٤ - من حديث عروة بن الزبير، وغيره كثير.

(٢) - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٣٧٠٣).

(٣) - أخرجه أبو داود في سنن أبي داود - كتاب الخراج والفيء والإمارة - باب في إحياء الموات - برقم (٣٠٧٣) - ٦٨٠/٤ - وصححه الألباني في الإرواء - برقم (١٥٥١).

(٤) - أخرجه أحمد في المسند - من مسند أنس بن مالك - برقم (١٢٩٨١). وصححه الألباني في الجامع الصغير - برقم (٢٣٠٤).

1.4.21. المطلب الواحد والعشرون: تنمية التعدين .

ويُقصد بالتَّعدين هو استخراج المعادن من باطن الأرض، والاستفادة منها في الكثير من الأعمال والحِرَف، وكان من أبرز المعادن في تلك الفترة الذهب والفضة، وقد اشتهر التعدين عند العرب، قبل الإسلام، وتم التشجيع عليه، بعد الإسلام^(١)، وكانوا يُسمُّون المناجم في تلك الفترة (معدن). ولقد أقطع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بلال بن الحارث المزني منطقة^(٢)، بين المدينة وينبُع، كنوع من التشجيع، والدَّعم للعمل في هذه المجالات، وتنمية التعدين في المجتمعات الإسلامية. وكان هناك عدَّة مناجم، تمَّ العمل بها في تلك الفترة، كما ظهرت أحكام الزكاة في الرِّكاز أيضًا،

(١) - ابن حجر العسقلاني، في الإصابة في تمييز الصحابة، دون ط. ٤ / ٤٤ .

(٢) - رواه أبو داود في السنن - أول كتاب الخراج والفيء والإمارة - باب ما جاء في إقطاع الأرضين - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن غير واحد برقم (٣٠٦١) / ٤ - ٤٦٤ - : " عن غير واحد: أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقطع بلال بن الحارث المزني معادن القبليَّة، وهي من ناحية الفُرع، فتلك المعادن لا يؤخِّدُ منها إلا الزكاة إلى اليوم ". وعلق المحقق الأستاذ الأرنؤوط بقوله : " إقطاع النبي - صلى الله عليه وسلم - بلال بن الحارث المزني صحيح، وأما ذكر الزكاة في هذه المعادن فليس يصح ".

كجزءٍ من المنظومة الاقتصادية الخاصة بالدولة الإسلامية الناشئة، تلك التي تَهْدَف إلى تنظيم أعمالها، وتنويع مصادر دخلها، وتشجعُ ابناءها على العمل والإنتاج وعمارة الأرض والاستخلاف بها.

1.4.22. المطلب الثاني والعشرون: تنمية الصناعات:

لقد كان النشاط الصناعي في تلك الفترة في تنامٍ مُطردٍ، وذلك مثل أعمال الحِدادة^(١)، والصياغة^(٢) والدبابة^(٣)، والحياكة^(٤)، والخرازة، والنسيج^(٥)، وكان العرب قبل الإسلام يستعيبون العمل في الكثير من الأعمال الصناعية، لكن جرى العمل من قبل المشروع الحضاري الإسلامي على

(١) - رواه عبد الرزاق في مصنفه - برقم (٩٧٧٥/٥) ٤٧٤/٥ في حديث أبي لؤلؤة المجوسي ، قاتل عمر - رضي الله عنه - والحداذة كانت مشهورة حتى ضرب الحبيب بما المثل كما في صحيح البخاري - كتاب فضائل المدينة - - باب فضل المدينة وَأَمَّا تَنْفِي النَّاسِ - برقم (١٨٧١): " أَمْرٌ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرُبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَثَ الْحَدِيدِ " .

(٢) - جواد علي، في المفصل في تاريخ العرب ٥٠/٧

(٣) - ابن حجر، في الإصابة في تمييز الصحابة: ٢٨٦/٤ .

(٤) - أخذ هذا مما أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب الجنائز - ٢٢ باب الكفن في القميص الذي يُكْفُ أو لا يُكْفُ - والكف نوع من الخياطة. ٧٦/٢ - كنز العمال - برقم (١٨٥٢٠) .

(٥) - ابن عبد البر، في الاستيعاب في معرفة الأصحاب ؛دون. ط.. ٢١٦ /١

تشجيع هذه الأعمال، وتغيير الكثير من القناعات السلبية، في دخول الناس لهذه الأعمال، مثل قول الله تعالى: { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } (١).
 وَعَنْ الْمُقَدَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ". (٢)
 وقد كانت تلك الأعمال الصناعية، والحرف يقوم بها الرجال، والنساء، بحسب ملاءمة هذه الصناعة لكل واحد منهما.

1.4.23. المطلب الثالث و العشرين:

بناء القدرات العسكرية والدفاعية للدولة الجديدة .

مع قيام الدول الجديدة يكون هناك عدة تحديات داخلية، وخارجية، ومن أبرز التحديات الخارجية هو وجود مقاومة لهذا المشروع الجديد، من قبل الدول أو الكيانات القريبة؛ لأن هذه الدول المتحدية تعدد الكيان الجديد خطرًا عليها، وعلى نفوذها أو علاقاتها (٣).

ومؤسس دولة الإسلام، أعني الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يكن ليهمل هذه النقاط، حيث إنه ليس قائدًا روحياً فقط، بل كان خبيراً بأسس بناء الدول والممالك، بعد خبرته ببناء الشخصيات، والنفوس، فهو نبيُّ يُوحى إليه، ومن ثم شرع في بناء القدرات العسكرية لدولة التوحيد الناشئة؛ لأنه

(١) - سورة الأنبياء ٢٠

(٢) - رواه البخاري في الصحيح - كتاب البيوع - باب كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ - (٢٠٧٢) ٣/٥٧.

(٣) - فقد لعبت النصارى - مثلاً - دورها في العصر المدني بمواجهة الإسلام، فاتخذت المواقف العدائية ضده على شتى المستويات، بدفع من الدولة والكنيسة البيزنطية في معظم الأحيان، وبمعزل عنهما في بعض الأحيان، وبمرور الوقت، واتساع نفوذ الإسلام شمالاً، ووصول أنباء انتصاراته على الوثنية واليهودية إلى قبائل الشمال، بدأ المعسكر البيزنطي يفتح عينيه على الخطر المحقق بوجوده من جهة الجنوب، انظر العمري: في غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية - ط. الأولى - ص ٥٤

يعلم أنّ الصراع لن يكون فكريًا أو عقديًا - فقط - بل سيكون هنالك مُغالبةً عسكريةً قادمةً، لا سيما أن القائد - عليه الصلاة والسلام - كان على قناعةٍ أنّ مشروعَه يَمْتَلِكُ مِنَ الأَدْوَاتِ العَقْلِيَّةِ، والمبادئِ القِيَمِيَّةِ، والعقدِيَّةِ، والأخلاقِيَّةِ ما يَضمُنُ له السيادةَ، والريادةَ، مما سيحمل المُخالفين له في كل مكان والرّادّين للحقّ الذي جاء به، أن يَعتبروه حَطرًا عليهم، يجبُ التخلُّصُ منه، أو تحقيقُ الأزماتِ، وافتعالها له، فاجتمع أمران ضروريان يحتمان البدء في بناء القدرات العسكرية:

الأول: أنّ أيّ كيانٍ لا يملكُ قدرةً على حماية نفسه، هو كيانٌ مهددٌ بالفناء.

الثاني: وجودُ البيئَةِ المُتَحَفِزَةِ ضدَّ هذا المشروع الجديد، تلك التي ستبذلُ وسعها للقضاء عليه في مهده.

والناظرُ الخبيرُ في بناءِ الدولِ - وبخاصةِ دولةِ الإسلامِ الأولى - يدركُ أنّ القدراتِ والإمكاناتِ الحربيَّةِ سوفُ يكونُ لها مجالاتٌ متنوعةٌ تعملُ فيها، منها القدرةُ على الدفاعِ عَن المَدِينَةِ (مَهْدِ الدولة)، والمساعدةُ في بناءِ القدرةِ الاقتصاديةِ للمسلمين، المُتمثلةِ في القوافلِ التجاريَّةِ، بالإضافةِ إلى الهدفِ الاستراتيجيِّ القادم، وهو فتحُ مكةَ لأهميةِ الحَرَمِ المَكِّيِّ للمسلمين^(١)، واستحالةِ بقاءِ مكةَ تحتَ سَيْطَرَةِ قريشٍ، الخصمِ اللدودِ للمشروعِ الإسلاميِّ الجديدِ، فمكةُ بجرمها جُزءٌ مِنَ العَقيدةِ في هذا المشروعِ، وهذه البلادُ هي بلادُهم بالأصل، طُردوا منها، فَلَا عَتَبَ عليهم، ولا لَوْمَ أن يُفَكِّروا في الرجوعِ إليها.

و المُتصفحُ تاريخَ إنشاءِ دولةِ الإسلامِ يجدُ أنّ البداياتِ الواضحةَ للعملِ العسكريِّ هي ما عُرِفَ بـ "السَّرَايَا"^(٢)، ولكي نَعْرِفَ ما هي السريةُ أنقلُ أنه قد جَرَتْ عادةُ المُحدِّثينِ وأهلِ السِّيَرِ، واصطلاحاً هم غالبًا أن يُسْمُوا كلَّ عَسْكَرٍ حَضَرَهُ النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - بنفسِه غزوةً، وما لم

(١) - فالحرم المكي هو قبلة المسلمين قال تعالى: ﴿فَلْيُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. البقرة ١٤٤، ومكة هي البلد الأمين: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. التين (٣).

(٢) - قال ابن حجر كما في الفتح: ٥٦/٨: "والسرية بفتح المهمله وكسر الراء وتشديد التحتانية هي التي تخرج بالليل والسارية التي تخرج بالنهار وقيل سميت بذلك لأنها تخفى ذهابها وهذا يقتضى أنها أخذت من السر ولا يصح لاختلاف المادة وهي قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه وهي من مائة إلى خمسمائة فما زاد على خمسمائة يقال له منسر بالنون والمهمله فإن زاد على الثمانمائة سمي جيشا وما بينهما يسمى هبطة فإن زاد على أربعة آلاف يسمى جحفلا فإن زاد فجيش جرار والخميس الجيش العظيم وما افترق من السرية يسمى بعثا فالعشرة فما بعدها تسمى حفيرة والأربعون عصبة والى ثلاثمائة مقنب بقاف ونون ثم موحدة فإن زاد سمي جمرة بالجيم والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر".

يَحْضُرُهُ بَلْ أَرْسَلَ بَعْضًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْعَدُوِّ سَرِيَّةً، وَبَعَثْنَا" (١).

وهي أصغرُ من الجيش، ويكون عددُ المقاتلين (٢): - "ما بين خمسةِ أنفُسٍ إلى ثلاثمائة" وقال غيره: "أربعمائة".

وقد اختلفت أعمالُ السرايا وتنوعت، فمنها ما خرجَ بِقصدِ الاستطلاع، ومعرفةِ الأخبار، ومنها تَتَبَعَ بعضَ قوافلِ المشركين التجارية؛ رغبةً في استردادِ ما نُهَبَتْهُ قريشٌ منهم في مكة. ولعلَّ من أهدافِ انطلاقِ السرايا في الإسلام استعراضَ القوةِ في المُحيط، ومحاولةِ إرسالِ الرسائلِ لكلِّ طامعٍ بمدى قوةِ المسلمين وتنظيمهم، فيُفَكِّرُ العدوُّ مراتٍ قبلَ أن يُقررَ الاعتداءَ على هذا الكيانِ الناشئ، لأنَّه أصبحت له قوةٌ ردع.

وهذا التخطيطُ في إعدادِ القوةِ كانَ بأمرِ سَمَويِّ أَوْحَاهُ اللهُ إلى نبيِّه - صلى اللهُ عليه وسلم - فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُزْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٣). تحسبًا لغدرِ الغادرين، وكثرةِ المُتربصين، مثلِ قريشٍ وبعضِ قبائلِ العرب، والفرسِ والروم، والعدوِّ الداخليِّ وهم المنافقون، وقد كان الصراعُ - بالفعل - مع هذه التكتلاتِ والأيديولوجياتِ التي كانت مناوئةً لدولةِ الإسلام، فكان التدافعُ الذي قدَّره اللهُ بين الحقِّ والباطل، ليقومَ الناسُ بالقسطِ، وليتخذَ اللهُ من المؤمنين شهداءً، وليُمحصَ الذين آمنوا، ويمحقَ الكافرين، وهذه سنةُ اللهِ في خلقه.

لقد امتدتْ استراتيجيةُ السرايا في الدفاعِ عن المشروعِ الجديد، وتتابعتْ؛ لتصلَ في العامِ الأولِ إلى سبعِ سرايا تقريباً، إلى أن جاءَ أولُ لقاءٍ عسكريٍّ حاسمٍ بينَ مُعسكرِ الكُفْرِ، والإيمانِ، وهو غزوةُ بدرٍ، وكانت دفاعاً عن المدينة، في السنةِ الثانيةِ من الهجرة، لقد حَقَّقَتْ تلكمَ التحركاتُ أهدافها، التي من أهمها (٤): -

- كسبُ بعضِ القبائلِ وتحجيمِ دورِ الأعراب، فقد وادَعَ رسولُ اللهُ - صلى اللهُ عليه وسلم - قبيلةَ جهينة وحالفها وكذلك بعضَ القبائلِ الضاربةِ في تلكَ المنطقة، من أجلِ تحييدها في الصراعِ الدائرِ بين

(١) - الحكمي، في مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة - دون ط. ص ١٥

(٢) - نقله ابن سيده في المخصص - كتاب الخيل ١١٧/٢. وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر في (سري): "السريَّة وهي طائفةٌ من الجيش يبلغُ أفضاها أربعمائة تُبعثُ إلى العدوِّ وجمعها السرايا سُمُّوا بذلك لأنهم يكونون حُلَاصَةَ العسكرِ وخيارهم من الشَّيءِ السريِّ النَّفيسِ. وقيل سُمُّوا بذلك لأنهم ينفذون سرّاً وخُفياً وليس بالوجهِ لأن لَامَ البسرِّ راءٌ وهذه بَاءٌ.

(٣) - سورة الأنفال ٦٠.

(٤) - انظر الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ١٥٥/٥

مكة والمدينة بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج، فقد استطاعت تلك السرايا أن تُلْفِت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية إلى تغيير في الموازين، تجاه قوة المسلمين، وقدرتهم على الجهاد.

- كانت إعدادًا عسكريًا لما سوف يستقبله الصحابة من فتوحاتٍ وغزواتٍ قادمةٍ، وكانت السرايا شاهدًا حقًّا على إخراج جنودٍ وقادةٍ، قامت بعد ذلك على أيديهم نُصرةُ هذا الدين.

- والهدفُ الرئيسُ الذي تحقق هو ضربُ مركزِ العدو (قريشٍ)، حيثُ إنَّ قريشًا أدركت أن جانب المسلمين أصبح من المنعةِ بمكانٍ، وأنَّ طريقَ تجارتها باتَ مُهددًا من قِبَل المسلمين، وأنَّ عليها أن تَفِيءَ إلى رُشدِها، وتُدعِنَ لأمرِ ربِّها، أو تمتنع - في أقل تقدير - من الوقوفِ في وجه تلك الدعوة المباركة الآخذة في الانتشارِ والقبول.

- ومن أهمِّ الأهدافِ أنه كان لتلك السرايا والبعوثِ الأثرِ البالغِ على العُصبةِ المؤمنة، إذ رفعت الروحَ المعنويةَ للمجاهدين بمنحهم أملًا يقينًا بالنصرِ أو الجنة، وفي ظلِّ هذه الغايةِ يبذلُ المسلمُ كلَّ طاقاته النفسيةِ والجسديةِ والماليةِ، من أجلِ إحدَى الحُسنيينِ، فضلًا عن أن القرآنَ بشرهم بالتمكينِ، قال تعالى: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٥-٥٦).

- وثم مَلْمَحُ أفاده أهلُ السَّيرِ له أهميته القصوى في تحقيق أهداف السرايا، هو أن أبطالَ جميع السرايا قبلَ غزوة بدرٍ كانوا من المهاجرين، ولم يكن فيهم أنصاريٌّ واحدٌ، كما ذكر المؤرخون، قال (١) ابن سعد -رحمه الله-: " والمجتمعُ عليه أنهم كانوا جميعًا من المهاجرين ولم يبعث رسولُ -الله صلى الله عليه وسلم- أحدًا من الأنصارِ مبعثًا؛ حتى غزَا بهم بدرًا ". وذلك لأمرين:

الأول: أنَّ الاتفاقَ مع الأنصارِ كان على أن يمنعوا الرسولَ، ويحموه من المشركين داخلَ بلادهم.

الثاني: (٢) أن يزيكي الرسولَ -ﷺ- روحَ ردِّ الحقِّ المسلوبِ للمهاجرين من قريشٍ؛ لأنهم الذين أُخْرِجُوا من ديارهم.

فقرة : 1. معركة بدرٍ والتحولُ الكبيرُ في الصراع :

(١) - ابن سعد، الطبقات الكبرى ٦/٢.

(٢) - انظر الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة - ١٥٤/٥

كانت السنة الثانية للهجرة^(١) تحمل حدثاً تاريخياً هاماً، وهو التحول الكبير في أدوات الصراع بين المسلمين بدولتهم الجديدة، وبين قريش، وأحلافهم، والنظام القديم الذي له الكثير من الطموح في القوة والنفوذ والسيطرة، تلك الطموح لا تقف عند الريادة والسيطرة السياسية بل تطمح أيضاً أن تسيطر على الخطوط التجارية، ومفاصل الاقتصاد في الجزيرة العربية، وهذه أمور مترابطة ببعضها، ولا شك.

وما كانت تلك القافلة التجارية التي حاول المسلمون اعتراضها^(٢)، والتي كانت بقيادة أبي سفيان^(٣) إلا بداية اللقاءات العسكرية الحقيقية، فالمسلمون لا يريدون أي نفوذ لقريش في محيط المدينة، وأيضاً يريدون أن يستعرضوا قوتهم؛ لأنهم على علم بأن هناك من هو مُتربص بهم، فكان اللقاء العسكري الحاسم قادمًا لا محالة، فكانت غزوة بدر.

وإذا كانت السرايا قد أتت ثمارها فإن غزوة بدر كانت الصخرة التي تحطمت عليها هيبة قريش، وكبرياؤها إذ قتلوا يومئذ سبعين وأسرنا سبعين^(٤) فيهم صناديد الكفر، وعتاة مكة، وفراعين الأمة^(٥) كأبي جهل، وأمّية بن خلف، وغيرهم^(٦)، لقد تركت غزوة بدر بنفوس أهل مكة المشركين كمدًا

(١) - قال النووي: "كانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة" شرح النووي على صحيح مسلم . الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤هـ-١٩٩٤م - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم-(١٧٩٣)- وانظر العيني في: عمدة القاري بشرح صحيح البخاري - (باب إذا وكل المسلم حربيا في دار الحرب أو في دار الإسلام جاز - برقم (١٠٣٢)).

(٢) - قال أبي بن كعب: "لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاهما إلا في غزوة تبوك غير أنني تخلفت عن غزوة بدر ولم يُعاتب أحد تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد". صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قصة غزوة بدر - برقم (٣٩٥١). ٧٢/٥.

(٣) - قال ابن إسحاق: "ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مُقبلاً من الشام في غير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون". السيرة النبوية ١٥٥/٣

(٤) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد والسير - ١٨ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم - (١٧٦٣). ١٣٨٣/٣.

(٥) - قيلت في حق أبي جهل، ويروى مرفوعاً إلى النبي: "هذا فرعون هذه الأمة". أخرجه أحمد في المسند - مسند ابن مسعود - برقم (٣٨٢٥) وحكم عليه الشيخ شاکر بالضعف.

(٦) - انظر ابن كثير في البداية والنهاية ٣/٤٩٩-٣٥٤

وأحزاناً وآلاماً بسبب هزيمتهم، ومن فُقدوا وأسروا^(١)، فهذا أبو هلب لم يلبث أن أُصيب بَعلةٍ ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له، وأسر له ابنٌ آخر، وما من بيتٍ من بيوت مكة إلا وفيه مناحةٌ على قتل عزيزٍ أو قريبٍ، أو أسرٍ أسيرٍ، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذِ بالثأرِ، حتى إن بعضهم حرّم على نفسه الاغتسال^(٢)، حتى يأخذَ بالثأرِ ممن أذلوهم، وقتلوا أشرافهم " (٣)

وأثارتِ الدُعر في نفوسِ اليهودِ بالداخلِ، وعمِلَ أعداءُ الخارجِ للمشروعِ الإسلاميِّ حساباً، إنها أحدثتِ تقويةً للواقعِ السياسيِّ وترسّخَ الإحساسِ العامِّ بالثقةِ والعِزةِ والثباتِ بعدَ سنواتٍ من الظلمِ والتنكيلِ والقهرِ والاستضعافِ، وهذا أعطى المشروعَ الإسلاميَّ ودولتهِ الحديثةَ قوةً وزخماً، يُضاف إلى هذا أنه أولُ اختبارٍ لإشراكِ الأنصارِ في قنواتِ القتالِ الخارجيةِ، وكان حلّقاً عملياً مُفيداً، يُعتمد عليه، ولم يُخيبِ الآمالَ فيه، وبدراً كانتِ نقلةً نوعيةً في الصراعِ لا سيما أن النصرَ قد جاءَ - بعدَ وازعِ الإيمانِ - مُعتمداً على إمكاناتٍ بشريةٍ وعُدديّةٍ أقلِّ من إمكاناتِ قريشٍ بكثيرٍ. لكنها شاهدتِ صدقِ على إيمانِ هذهِ الثلةِ من الصحابةِ، وصدقِ اتباعهم، وأن اللهَ بالغَ أمره، ولو كره الكافرون.

وإذا كان المسلمونَ قد مُهبتِ أموالهم، وأخرجوا من ديارهم، فإنهم بديرٍ، حقّقوا مغنمَ كبيرةً عوضتِ جزءاً مقبولاً ممّا أُخذَ منهم، فضلاً عن الأجر؛ ولذا حثّهم الرسولُ قبل أن يتحول اللقاءُ إلى قتالٍ، على الخروجِ للقاءِ العيرِ قائلاً: " هذه عيرُ قريشٍ فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلَّ اللهُ يُنفلكمُوها " (٤).

فقرة 2. غزوة أحد . الهزة والهزيمة :

كانتِ غزوةُ أحدٍ هي الغزوةُ الثانيةُ^(٥) للمسلمين، في إطارِ حروبهم الدفاعيةِ التي يخوضونها في للدفاع عن مشروعهم الوليدِ ودولتهم الناشئة، وكانت تلك الغزوةُ مليئةً بمشاعرِ الانتقامِ وردِّ الاعتبارِ

(١) - السهيلي، بالروض الأنف ١٠٠/٣ قالت قريش لبعضها: " ناحت قريش على قتلائهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فنبلع محمداً وأصحابه فيشمتوا بكُم".

(٢) - هو أبو سفيان بن حرب، نذر ألا يمسه من ماء جنابة حتى يغزو المسلمين. انظر السهيلي، الروض الأنف ٢٢١/٣

(٣) - الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر ٨١/٦

(٤) - صححه الألباني في تعليقه على كتاب: فقه السيرة - محمد الغزالي. ط ٧. ١٩٩٨. ص ٢١٨

(٥) - قال ابن الأثير في: جامع الأصول في أحاديث الرسول-دون. ط. ٩١/١٢: " وفي السنة الثالثة كانت غزوة أحد، وحُرِّمَت الخمر".

من قبيل قريش، التي هُزمت في بدر^(١)، وتريد أن تُعيد مكانتها وقوتها وهيبتها بين العرب عبر هذه المنازلة العسكرية الجديدة.

وكما هي العادة كانت القوة العددية لقريش في هذا النزال، حيث كان عدد المشركين ثلاثة آلاف جندي^(٢)، وعدد جيش المسلمين، لا يتجاوز الألف^(٣)، ولما انسحب عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين ومن معه تقلص هذا العدد إلى الثلثين ليصل إلى سبعمائة مقاتل^(٤). كانت المعركة في بدايتها في صالح المسلمين^(٥)، وفعلا مالت الكفة إليهم، رغم النقص في العدة والعدد، وبدأ جنود المشركين ينسحبون من أرض المعركة، ويُقتل منهم.

(١) - قال السهيلي في الروض الأنف ١٤٠/٣: "لَمَّا أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَصْحَابِ الْقَلِيبِ، وَرَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ بِعِيْرِهِ مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، فِي رَجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، بَمَنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيْرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمُ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمُ فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ فَلَعَلَّنَا نَذْرُكَ مَعَهُ نَأْتَرْنَا بِمَنْ أَصَابَ مِنَّا، فَفَعَلُوا، وَفِيهِمْ نَزَلَ قَوْلُهُ - اللَّهُ تَعَالَى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ (الأَنْفَالُ ٣٦).

(٢) - الحلي: السيرة الحلبية ٤٨٩/٢: "جمع أبو سفيان قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحباب وخرج معه أبو عامر الراهب في سبعين فارسا من الأوس قال في الأصل والأحباب الذين حالفوا قريشا وهم بنو المصطلق وبنو الهون ابن خزيمه اجتمعوا عند حبشي وهو جبل بأسفل مكة وتحالفوا على أنهم مع قريش يدا واحدة على غيرهم ما سجدى ليل ووضح نهار وما رسا حبشي مكانه فسموا أحبابش باسم الجبل وقيل سموا بذلك لتحبشهم أي تجمعهم وفيهم مائتا فارس أي وثلاثة".

(٣) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٢١٥: "وكان الجيش متألفا من ألف مقاتل فيهم مائة دارع، ولم يكن فيهم من الفرسان أحد".

(٤) - الصلابي، السيرة النبوية: دروس وعبر ١٤٥/٦: "انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضا على قرار القتال خارج المدينة، قائلا: أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا. وكان هدفه الرئيس من هذا التمرد أن يحدث بلبلة واضطرابا في الجيش الإسلامي؛ لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على خيانة عظيمة، وبغض للإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الجيش؛ ليظهر الخبيث من الطيب حتى لا يختلط المخلص بالمغرض، والمؤمن بالمنافق، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٧٩).

(٥) - أخرجه أحمد في المسند - مسند ابن عباس - برقم (٢٦٠٩) وصححه الشيخ أحمد شاكر، وفيه - عن ابن عباس أنه قال: ما نصر الله تبارك وتعالى في موطن كما نصر يوم أحد، قال: فأنكرنا ذلك! فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله تبارك وتعالى، إن الله عز وجل يقول في يوم أحد ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنَيْهِ﴾ يقول ابن عباس: والحس القتال {حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ} إلى قوله ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنما عنى بهذا الرماة.

حتى رُئيت النساء يهربن إلى أعالي الجبل^(١)، وأيقن المشركون أن النصر للمسلمين آنذ، وتعجل جمع من المسلمين فرحين لحصد الغنائم^(٢) ظنًا منهم أن الحرب قد وضعت أوزارها، ونزل الجنود من فوق جبل الرّماة؛ ليشاركوا أصحابهم في الغنائم.

واستغل ذلك خالد بن الوليد^(٣) أحد أهم قادة جيش المشركين في ذلك الوقت، و قام بحركة تطويق للجيش الإسلامي، من الخلف ليباغت المسلمين من جديد بعدما انكشفوا، فتحوّل هنا النصر إلى هزيمة وأصيب الرسول ﷺ^(٤) - في وجهه وشخ رأسه وكسرت رباعيته، وشاع بين الجند أنه قُتل، فتأثرت معنويات المسلمين كثيرًا^(٥) قُتل في هذه المعركة عدد من فضلاء الصحابة - وكلهم فاضل - مثل حمزة بن عبدالمطلب^(٦) وعبد الله بن حرام^(١).

(١) - قال البراء - رضي الله عنه كما في الجمع بين الصحيحين - برقم (٨٧٠) رأيت النساء يشتردن وقد بدت خلايلهن وأسوفهن رافعات ثيابهن: ".

(٢) - أخرج البخاري في الصحيح - غزوة أحد برقم (٤٠٤٣) : " وأجلس النبي ﷺ - جيشًا من الرّماة وأمر عليهم عبد الله وقال لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتردن في الجبل رفعن عن سوفهن قد بدت خلايلهن فأخذوا يقولون الغنيمّة الغنيمّة فقال عبد الله عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم".

(٣) - ذكر السهيلي في الروض الأنف ٢٧٣/٣ : " فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعب معه أولئك التفر من أصحابه إذ علت عالية من فريش الجبل. قال ابن هشام: كان على تلك الجبل خالد بن الوليد".

(٤) - عبد الباقي في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - غزوة أحد - ٥٧٤/١ : " حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أنه سئل عن جرح النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال: جرح وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه؛ فكانت فاطمة، عليها السلام، تغسل الدم، وعلي يمسك؛ فلما رأت أن الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت حصيرًا فأحرقته حتى صار رمادًا، ثم ألزقته، فاستمسك الدم". وذكر ابن اسحاق في السرة النبوية ١١٥/١ : " فانكشف المسلمون فأصاب منهم العدو، فكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله من أكرم بالشهادة، وكان من المسلمين في ذلك اليوم لما أصابهم فيه من شدة البلاء ثلاثا: فثقت قتل، وثلاث جريح وثلث منهم، قد لقيته الحرب حتى ما يدري ما يصنع، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ -.

(٥) - البغوي في شرح السنة، دون ط. - ٣٨٩/١٣ : " وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنبَأَكُمْ عَمَّا بَعِم﴾ [آل عمران: ١٥٣]، أراد غما بغم: مُتصِلًا، فالغم الأول: الجراح والقتل، والغم الثاني: ما ألقى إليهم من قتل النبي ﷺ - فأنساهم الغم الأول".

(٦) - فقد مثل بحمزة رضي الله عنه تمثيلا شديدا روى أبو داود بسنده في السنن - باب الشهيد يغسل - برقم (٣١٣٦) وصححه الأرنؤوط : " عن أنس - المعنى -: أن رسول الله ﷺ - مر على حمزة وقد مُتِل به، فقال: "لولا أن تجد صفيّة في نفسها لرتكته حتى تأكله العافية حتى يُحشّر من بطونها".

ومثّل بأنس بن النضر^(٢)، وقُتل من المسلمين سبعون، وقد تأثر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - تأثراً كبيراً بمقتل أصحابه وعيّه الذي مثل بجثته وبقر بطنه وجُدِع أنفه وأذناه.

لقد جاءت غزوة أحد؛ لتبين - كذلك - أثر المعاصي في النصر والهزيمة: في الغزوة ظهر أثر المعصية والفسل والتنازع في تحلّف النصر عن الأمة، فبسبب معصية واحدة خالَف فيها الرماة أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - وبسبب التنازع والاختلاف حول الغنائم، ذهب النصر عن المسلمين بعد أن انعقدت أسبابه، ولاحت بوادره، فكيف ترجو أمة عصت ربّها، وخالفت أمر نبيّها، وتفرقت كلمتها أن يتنزّل عليها نصرُ الله وتمكينه؟ لقد ظهّر في غزوة أحدٍ قانونُ الله وسنته في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فقد جرّت سنة الله في رسله وأتباعهم أن تكون الحرب سجّالاً بينهم وبين أعدائهم، فيُدالوا مرةً، ويُدال عليهم أخرى، ثم تكون العاقبة في النهاية للمتقين، ولكن انتفش الباطل يوماً، وكانت له صولاتٌ وجولاتٌ، إلا أن النصر والعُقبى لأهل الطاعة والتقوى، والغلبة للمؤمنين، فدولة الباطل ساعةٌ، ودولة الحق إلى قيام الساعة، وأنا - نحن المسلمين - متى وقّعنا في العصيان تساوينّا مع عدونا وكانت الغلبة للأقوى، واللجنة عزيزة غالية لا تُنال إلا على جسرٍ من المشاق والمتاعب، والنصرُ الرخيصُ السهلُ لا يدوم، ولا يدرك الناس قيمته، ولذلك قال الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

لقد رسّخ المشروع الإسلامي لِحتمية الأخذِ بالأسبابِ المادية والمعنوية مع التوكّل على الله والاعتماد عليه في السلم والحرب، فقد ظاهر النبي -ﷺ- بين درعين^(٤)، ولبس لأمة الحرب، وكافح معه

(١) - في اللؤلؤ والمرجان - من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله تعالى عنه - حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: جيء بأبي، يوم أُحدٍ، قد مُثِّلَ به، حتّى وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- وَقَدْ سُجِّيَ نَوْبًا فَدَهَبَتْ أُرِيدُ أَنْ أَكْشِفَ عَنْهُ، فَتَهَيَّأْتُ قَوْمِي، ثُمَّ دَهَبَتْ أَكْشِفُ عَنْهُ فَتَهَيَّأْتُ قَوْمِي، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- فَرَفَرَ فَسَمِعَ صَوْتَ صَائِحَةٍ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ فَقَالُوا: ابْنَةُ عَمْرٍو أَوْ أُحْتُ عَمْرٍو، قَالَ: فَلِمَ تَبْكِي أَوْ لَا تَبْكِي، فَمَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتَيْهَا حَتَّى رَفِعَ".

(٢) - البخاري - باب قوله تعالى - من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - برقم (٢٨٠٥) : " قَالَ أَنَسٌ فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَتَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمِيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُحْتَهُ بِبَنَانِهِ قَالَ أَنَسٌ كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} الْأَحْرَابُ (٢٣).

(٣) - الأنفال آية ٤٦

(٤) - قال القاضي عياض : " ظاهر النبي -ﷺ- بين درعين هو لباس درع فوق أخرى وقيل معناه طارق بينهما أي جعل ظهر إحداهما لظهر الأخرى وقيل عاون. والظهير العوين أي قوى إحداهما بالأخرى في التوقي ومنه تظاهرون عليهم أي تتعاونون". انظر : مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المؤلف : القاضي عياض - دون. ط. ١/٣٣٠ :

الصحابة، وقاتل عنه جبريل وميكائيل أشد القتال، رغم أن الله عصمه من القتل.

لقد قام هذا الدين، وكلُّ مبدأٍ نبيلٍ على أساسِ التضحية، وليُعلم من خلال هذه الغزوة كيف وصل إلينا هذا الدين، بعد كفاحٍ مريرٍ من الصحابة -رضي الله عنهم- والأسلاف، ذاقوا فيه مرارة المصائب والحن؛ فأنسُ بنُ النَّضْرِ يُصاب في هذه الغزوة ببضعٍ وثمانين جراحةً، ثم مُثِّل به بعدها، فلم يعرفه أحدٌ سوى أخته عرفته ببنانه، وفي سعد بن الربيع سبعون طعنة.

ومن الحقائق التي لا نفرط في ذكرها في هذا المقام أن نُقرر أن الله غالبٌ على أمره، وكلُّ الأمور تجري بتقديره ومشئته، وأن كلا ميسرٌ لما خلق له، لا تياس المسلم أو الداعية من إصلاح المجتمع، ولا تقنط من هدايته، فقد صَبَرَ النبي -ﷺ- على الأذى والجراح، حتى دخل الناس أفواجاً في دين الله، ولو شاء أن يدعو عليهم بالهلاك في أحدٍ لفعل، وتأمل: أبا سفيان في أحدٍ يقود المشركين، وشعاره لواء الكفر: (اعلُ هبل)، وفي فتح مكة يقول: (لا إله إلا الله) ويقال في حقه: "مَن دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ فَهُوَ آمِنٌ".

ووحشيُّ يقتلُ حمزة - رضي الله عنهما-، ثم يُسلمُ ويقتلُ مُدعي النبوة مسيلمة الكذاب، وخالدُ بن الوليد-رضي الله عنه- يقود خيالة الكفر، وقُتِل على يديه فضلاءُ الصحابة، ولما شرح الله صدره للإسلام، أتى يبائع النبي، وقال: يا رسول الله، إني أشترط أن تُغفرَ زلتي، فقال: "يا خالد، أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن التوبة تجب ما قبلها".

وبالجمله قد كانت غزوة أحدٍ مُنعطفًا هامًا، وضروريا للمراجعة والتأمل والحرص الكبير على الاستعداد الدائم والقوي لكل نزالٍ، سواء أكان سياسيًا أو عسكريًا، خصوصا أن الحروب الدفاعية تقع في ظرف حساسٍ، حيث التخوف من القضاء على مشروع المسلمين ودولتهم الناشئة أو ضربهم في مقتلٍ يؤثر عليهم، وعلى رسالتهم نحو العالم.

لقد حرصَ الرسول - صلى الله عليه وسلم - على إخراج الصحابة من هذه الهزة والأزمة والعمل على إعادة الروح المعنوية من جديد والاستفادة من الدرس.

فعسكَرَ الرسول -ﷺ- (١) في حمراء الأسد ثلاث أيام ابتداء من يوم الأحد، لكي يرسل رسائل

(١) - رواه الطبراني في المعجم الكبير - معجم ابن عباس برقم (١١٦٣٢) قال: "لما انصرف أبو سفيان و المشركون عن أحد وبلغوا الرُّوحاء قالوا: لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه و سلم فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد أو بئر أبي عيينة فأنزل الله عز و جل { الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح } وقد كان

يرفع معنويات أصحابه من ناحية، ويهرب العدو من ناحية أخرى، ويُضَمِّد الجراحَ ويُعيدَ التوازنَ إلى الأتباع، ويفتح الجميعُ صفحةً جديدةً فيها استعدادٌ كبيرٌ، ودقيقٌ لما هو قادم. فالثقةُ والإيمانُ العميقان كانا من أهم ما يحتاجه المسلمون في تلك الأزمة التي قُتِلَ فيها، وجرح عددٌ كبيرٌ من المسلمين، وقد بشرهم الحبيب بفوز هؤلاء الشهداء^(١)، لكنّه درسٌ مهمٌ فيه الكثيرُ من الدروسِ المُستفادةِ على المستويين العسكريِّ والسياسيِّ بل والقياديِّ. وسيكونُ له ما بعده من تحولاتٍ هامةٍ في هذا الإطار.

حيثُ تُفرِّزُ الأزماتُ الصادقين من غيرهم والصابرين من غيرهم وتُقوي الإنسانَ وتعدّه لأزماتٍ أو تحدياتٍ أكبرَ في قادم الأيام.

فقرة 3. محاولة اغتيال القائد والقضاء على المشروع:

بعدَ الأزمة التي عاشها المسلمون في غزوة أحدٍ، وخروجهم منها وإصرارهم على مواصلة العملِ من أجل الدعوة لدين الله والصبرِ تجاه أيِّ عارضٍ أو أزمةٍ مهما اشتدّت.

كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- حريصًا على إعادة تقوية الروح المعنوية للصحابة -رضي الله عنهم- وضبط النفس، وبتّ الثقة بنصر الله للمؤمنين، فكلُّ واحدٍ منّا فيه جوانبٌ إيجابيةٌ وجوانبٌ سلبيةٌ، وفي وقتِ الهزيمة، وحدثِ المصيبة تَعَلَّبَ على الإنسانِ بعضُ جوانبه الضعيفة من فشلٍ

أبو سفيان قال للنبي - صلى الله عليه و سلم -: موعذك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا فأما الجبان فرجع وأما الشجاع فأخذ أهبه القتال والتجارة فأتوه فلم يجدوا به أحد وتسوقوا فأنزل الله عز و جل { فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء }".

(١) - في صحيح مسلم - ٣٣ باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (- برقم (١٨٨٧) عن مسروق قال * سألتنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون " فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله، فقال : " أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ لها قناديلٌ معلقةٌ بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً، فقال هل تشتهون شيئاً؟ قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا ".

وإخفاق، فيحتاج القائد المبحث إلى استلال شوكة الشعور بالضعف، والهزيمة^(١).

فالإسلام يُلفت النظر إلى جوانب القوة في الإنسان، ويأخذ بيده لكي لا يسقط فلا يقوم، ولكي ينهض بعد هذه المصيبة في لحظات علو الكافر على المؤمن، ففي مرحلة من مراحل الزمن لا بُدَّ من لفتِ نظرِ المؤمن إلى أنه كما أن فيهم ضعفاً أدى إلى علو الكافر، فإنهم يملكون بإيمانهم وعودتهم لاتباع نبيهم جوانب إيجابية تسمح لهم بالقيام من جديد، وتحقيق النصر.

والله - سبحانه - قدر ذلك لينبه على رسالة التربية لهؤلاء الأشراف بعد أن رفع معنوياتهم، وحفظ لهم أجرامهم، وجهادهم وغدوهم، وجعلهم الأعلون وأوضح سبحانه الخطأ الذي ارتكب ليحذروه ولا يقعوا فيه أبداً فإنَّ اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - شرطٌ أساسٌ في تحقيق النصر على العدو، وليس النصر بالعدد والعُدَّة فقط، لقد كانت هذه التربية، وتلك التوجيهات، والوقفات ضرورةً هامةً، لتصحيح المسار، وإزالة العقبات، ورفع الهمم، وتضميد الجراح، كل ذلك استعداداً لما بعد ذلك.

؛ لأن هناك تحديات أكبر في قادم الأيام، تنتظر الصحابة بل الأمة كلها بعد ذلك، تحتاج إلى رباطة الجأش، والثبات وقوة الشكيمة، وقوة الإيمان وصدق الاتباع.

وقد كانت هذه القراءة^(٢) - بفضل الوحي، والخبرة بالحياة من قبل القائد - هي واقع الأحداث، إذ حاولت قوى الشر القضاء على المشروع، بالخلاص من رأسه، فجاءت محاولة قتل النبي - عليه الصلاة والسلام - .

(١) - نستشرَف جميع هذه المعاني في الحديث الذي أخرجه البخاري - صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام - برقم (٣٦١٢) / ٤ / ٢٠١: "عَنْ حَبَّابِ بْنِ الْأَرْبَتِ، قَالَ: شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْمَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشُقُّ بِأَنْتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيُبَيِّنَنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكْبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتِ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ اللَّذْبَ عَلَى عَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»

(٢) - القراءة بأن التحديات واردة، وأن العدو سوف يحاول اغتنام هذه الحادثة؛ ليحقق مزيداً من النصر على المشروع الإسلامي

لكن نسي هؤلاء الأشرار أو تناسوا أن المناهج المستقيمة لا تموت بموت أصحابها، وأن الله قد حسم القضية مع غيرهم من المعتدين أن الله منج رسوله^(١)، وأنه مكمل رسالته، والله متم دينه، ونوره، كما أن هناك ملمحاً آخر في محاولة التعدي على خاتم الأنبياء هذه المرة، وهو أن هذه الجناية في تلك المرة لم تكن من المشركين الأصليين ككفار مكة، بل كانت من قوم كان أجدر بهم ألا يقدموا على ذلك، فهم أهل كتاب، وقد بدت لهم علامات صدق نبوة محمد - عليه الصلاة والسلام - يوماً بعد يوم، ولو صدقوا لعلموا أن أحبارهم كانوا يوصون به، ويعلمون بأنه مبعوث في هذا الزمان، وقد كانوا يفخرون على جيرانهم من العرب قبل ذلك بأنهم من أهل الكتاب، وأنهم يعتنقون ديناً سماوياً منزلاً من عند الله، وقد اقترب ظهور نبي آخر الزمان الذي بشرت به كتبهم المقدسة، وأنهم يتطلعون أن يكون هذا النبي من بينهم، فلما بعث الله رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - من العرب، غضبوا وطارث عقولهم حسداً من عند أنفسهم أن النبوة لم تكن فيهم!

فأجمعوا أمرهم^(٢) وقرروا أن لا يؤمنوا بهذا النبي العربي، رغم قيام الحجج والبراهين الساطعة على صدقه، بل لم يقفوا عند مرحلة عدم الإيمان به، ورفض دعوته، بل خططوا كثيراً للخلاص منه. إن هؤلاء المعتدين الجدد هم اليهود، والمقصودون هنا بنو النضير وهم إحدى القبائل اليهودية التي تُقيم في المدينة.

حيث ذهب الرسول - ﷺ - إليهم ليستعين بهم في دية القتيلين في حادثة بئر معونة^(٣)، ولكنهم

(١) - مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]

(٢) - في الروض الأنف ٣٧٦/٢: " قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ قَالَ حَدَّثْتُ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حَيْبِ بْنِ أَحْطَبٍ أَنَّهَا قَالَتْ كُنْتُ أَحَبُّ وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ وَإِلَى عَمِّي أَبِي يَاسِرٍ لَمْ أَلْقُهُمَا قَطُّ مَعَ وَلَدٍ هُمَا إِلَّا أَحَدَانِي دُونَهُ. قَالَتْ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ ﷺ - وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ فُبَاءً، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَدَا عَلَيْهِ أَبِي، حَيْبِ بْنِ أَحْطَبٍ، وَعَمِّي : أَبُو يَاسِرِ بْنِ أَحْطَبٍ، فَعَلَسِينَ. قَالَتْ فَلَمْ يَزِجَعَا حَتَّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. قَالَتْ فَأَتَيْتَا كَالَيْنِ كَسَلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى. قَالَتْ فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ فَوَاللَّهِ مَا التَفَّتْ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا يَهْمَا مِنَ الْعَمِّ. قَالَتْ وَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي : حَيْبِ بْنِ أَحْطَبٍ : أَهْوُ هُوَ ؟ قَالَ نَعَمْ وَاللَّهِ قَالَ أَتَعْرِفُهُ وَتُنَبِّئُهُ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ ؟ قَالَ عَدَاؤُهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ ."

(٣) - في ابن هشام ١٨٣/٢: " فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِقِيَّةَ سُؤَالٍ وَذَا الْقَعْدَةَ وَذَا الْحِجَّةَ - وَوَلِي تِلْكَ الْحِجَّةَ الْمُشْرِكُونَ - وَالْمُحَرَّمِ ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَ بَيْرِ مَعُونَةَ فِي صَفَرٍ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ أُحُدٍ. وَسَبَبَ إِزْسَالِ بَعَثَ بَيْرِ مَعُونَةَ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِمْ. .. قَدِيمَ أَبُو بَرَاءٍ غَامِرُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ مُلَاعِبِ الْأَسِنَّةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الْمَدِينَةَ،

غَدَرُوا وَاتَّفَقُوا عَلَى إِلْقَاءِ الرَّحَى مِنْ فَوْقِ الْجِدَارِ عَلَى الرَّسُولِ - ﷺ - لِقَتْلِهِ وَالْخِلاصِ مِنْهُ، وَلَكِنْ - رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَمْرِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِمَا خَطَّطُوا، وَغَادَرَ الْمَكَانَ عَائِدًا إِلَى الْمَدِينَةِ (١).

وَاسْتَدْعَى مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمَةَ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِمْ (٢). وَاسْتَقْبَلَ يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ الْأَمْرَ بِتَسْلِيمِ وَاسْتَعْدُوا

فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ الْإِسْلَامَ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ فَلَمْ يُسَلِّمْ وَمَ تَبْعُدُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ لَوْ بَعَثْتَ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، رَجَعَتْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِيَّيْ أَخْشَى عَلَيْهِمْ أَهْلُ نَجْدٍ. قَالَ أَبُو بَرَاءٍ أَنَا لَهُمْ جَارٌ فَأَبْعَثْهُمْ فَلْيَدْعُوا النَّاسَ إِلَى أَمْرِكَ.. فَبَعَثَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُنْدِرِ بْنَ عَمْرٍو، أَخَا بَنِي سَاعِدَةَ الْمُعَيْقِقِ لِيَمُوتَ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ الْحَارِثُ بْنُ الصَّمَّةِ وَحَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ أَحُو بَنِي عَدِيِّ بْنِ التَّجَارِ وَعُرْوَةُ بْنُ أَسْمَاءَ بْنِ الصَّلْتِ السَّلْمِيِّ، وَنَافِعُ بْنُ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءِ الْحَزَاعِيِّ، وَعَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي رِجَالٍ مُسَمَّيْنَ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ. فَسَأَرُوا حَتَّى نَزَلُوا بِبَيْتِ مَعُونَةَ، وَهِيَ بَيْنُ أَرْضِ بَنِي عَامِرٍ وَحَرَّةِ بَنِي سَلِيمٍ، كِلَا الْبَلَدَيْنِ مِنْهَا قَرِيبٌ وَهِيَ إِلَى حَرَّةِ بَنِي سَلِيمٍ أَقْرَبُ، فَلَمَّا نَزَلُوا بَعَثُوا حَرَامَ بْنَ مِلْحَانَ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى عَدُوِّ اللَّهِ عَامِرِ بْنِ الطَّقِيلِ فَلَمَّا آتَاهُ لَمْ يَنْظُرْ فِي كِتَابِهِ حَتَّى عَدَا عَلَى الرَّجُلِ فَقَتَلَهُ ثُمَّ اسْتَصْرَحَ عَلَيْهِمْ بَنِي عَامِرٍ فَأَبَوْا أَنْ يُجِيبُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَقَالُوا: لَنْ نُخْفِرَ أَبَا بَرَاءٍ، وَقَدْ عَقَدَ لَهُمْ عَقْدًا وَجَوَارًا، فَاسْتَصْرَحَ عَلَيْهِمْ قَبَائِلُ مِنْ بَنِي سَلِيمٍ مِنْ عُصَبَةِ وَرَعْلٍ وَذَكْوَانَ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَخَرَجُوا حَتَّى عَشَوْا الْقَوْمَ فَأَخَاطُوا بِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ أَحَدُوا سُيُوفَهُمْ أَحَا بَنِي دِينَارِ بْنِ التَّجَارِ فَإِذَا تَرَكُوهُ وَبِهِ رَمَقٌ فَانْتَثَرَتْ مِنْ بَيْنِ الْقَتْلَى، فَعَاشَ حَتَّى قُتِلَ يَوْمَ الْخُنْدَقِ، شَهِيدًا، وَالْأَثَرُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُخْتَصِرًا - بَابُ الْعَوْنِ بِالْمَدَدِ - بِرَقْمِ (٣٠٦٤).

(١) - البيهقي في السنن الكبرى - كتاب الضحايا - بَابُ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ - بِرَقْمِ (١٩١٨٠/٩/٤٨٠): " قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: هَذَا حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ خَرَجَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي عَقْلِ الْكِلَابِيِّينَ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي عَقْلِ الْكِلَابِيِّينَ وَكَانُوا رَعَمُوا قَدْ دَسُّوا إِلَى قُرَيْشٍ حِينَ نَزَلُوا بِأَحُدٍ فِي قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَحَضُّوهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَدَلُّوهُمْ عَلَى الْعَوْرَةِ فَلَمَّا كَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عَقْلِ الْكِلَابِيِّينَ قَالُوا اجْلِسْ أَبَا الْقَاسِمِ حَتَّى تَطْعَمَ وَتَرْجِعَ بِحَاجَتِكَ وَنَتُومُ فَنَتَشَاوَرَ وَنُصَلِّحَ أَمْرَنَا فِيمَا جِئْنَا لَهٗ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمِنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي ظِلِّ جِدَارٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يُصَلِّحُوا أَمْرَهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا وَالشَّيْطَانُ مَعَهُمْ لَا يُفَارِقُهُمْ ائْتَمَرُوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالُوا: لَنْ نَجِدُوهُ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ فَاسْتَرِجُوا مِنْهُ تَأْمِنُوا فِي دِيَارِكُمْ وَيُرْفَعَ عَنْكُمْ الْبَلَاءُ فَقَالَ رَجُلٌ: إِنْ شِئْتُمْ ظَهَرْتُ فَوْقَ الْبَيْتِ وَدَلَّيْتُ عَلَيْهِ حَجْرًا فَقَتَلْتُهُ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِمَا ائْتَمَرُوا مِنْ شَأْنِهِ فَعَصَمَهُ اللَّهُ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَأَنَّهُ يُرِيدُ يَفْضِي حَاجَةً وَتَرَكَ أَصْحَابَهُ فِي مَجْلِسِهِمْ وَانْتَظَرَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ فَرَأَتْ عَلَيْهِمْ وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ: لَقَيْتُهُ قَدْ دَخَلَ أَرْقَةَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا لِأَصْحَابِهِ: عَجَلْ أَبُو الْقَاسِمِ أَنْ نُفِيمَ أَمْرَنَا فِي حَاجَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا ثُمَّ قَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَارْجَعُوا وَنَزَلَ الْقُرْآنُ يُخْبِرُ بِمَكِيدَتِهِمْ فَلَمَّا أَظْهَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى مَا أَرَادُوا بِهِ وَعَلَى خِيَاتِنِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ أَمْرٌ بِإِجْلَائِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَسِيرُوا حَيْثُ شَاءُوا".

(٢) - الحلي في السيرة الحلبية ٥٦١/٢: " فأرسل إليهم محمد بن مسلمة رضي الله تعالى عنه أن أخرجوا من بلدي يعني المدينة لأن قريتهم من أعمالها فلا تساكوني بها فقد همتم بما همتم به من الغدر أي وأخبرهم بما هموا به من ظهور عمرو بن جحاش على ظهر البيت لي طرح الصخرة فسكتوا.. فقال: قد أجلتكم عشرا فمن رُوي بعد ذلك ضربت عنقه".

للرحيل إلا أن المنافقين^(١) دخلوا في هذا التوقيت، وطلبوا منهم العصيان ووعدوهم بالمدد والنصر^(٢)، و رأى بعضُ بني النضير أن يَظَلُّوا بالمدينة ما كَثُرَ ولا يَخْرُجُوا بعد كلمة المنافقين لهم^(٣)، حتى شاهدوا صدقَ المشهدِ وقوةَ غضبةِ المسلمين والحزمَ في تنفيذِ الأوامرِ، فعادُوا واستسلموا وغادروا المكانَ وقد كان المنافقون يزايدون على نصرَةِ حلفائهم من اليهود، ولكنهم غير صادقين؛ لأن القيادةَ الإسلامية كانت لهم بالمرصاد، والوحي يُخبرُ بذلك، ولا يعتد بأقوالهم عاقلًا.

مرت هذه الأزمَةُ كسابقَتِها على المسلمين الذي علموا أن دولتهم في نشأتها لا تزال في خطرٍ، وأنَّ اليهودَ وقريشًا والمنافقين والفرسَ والرومَ وغيرهم يتربصون بهم، ويُعدون الكثيرَ من الحُططِ لإنهاء مشروعهم وتصفية نبيهم - ﷺ - لما يُشكِّله هذا المشروعُ الحضاريُّ الجديدُ من خطرٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ على سلطانِ هؤلاء.

عقباتٌ كثيرةٌ في طريقِ الدعوةِ من حروبٍ ومحاولاتِ اغتيالٍ وتحالفاتٍ ضدَّ المسلمين وتضييقٍ على الرسول القائد عليه الصلاة والسلام في حين أنه - ﷺ - كان يجهز للكثير من الأعمال التي تُقوي من شوكةِ هذه الدولةِ وهذه الرسالةِ وتُعطيها الثباتَ والقوةَ والمنعةَ في فضائها ومكان إقامتها بعيدًا عن التهديداتِ الداخليةِ والخارجيةِ.

إلى أن يأتي اليومُ التي تتحوَّل فيه استراتيجيةُ الصراعِ من الدفاعِ الى الهجوم ويتم الله نوره ولو رَغِمَتْ أنوفٌ، وكره المجرمون .

(١) - عبد الله بن أبي بن سلول.

(٢) - الصالحى في سبيل الهدى والرشاد ٤/٣٢٠ : " فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسولا عبد الله بن أبي ابن سلول: سويد، وداعس، فقالا: يقول عبد الله بن أبي: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وتمدكم قريظة، فإنهم لن يخذلوكم، ومدكم حلفاءكم من غطفان".

(٣) - الطبري في تاريخ الأمم والملوك ٢/٨٤ : " فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حبي بن أخطب) وأرسل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم - أي لن نبرح - دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون معه، وقال: حاربت يهود".

1.4.24. المطلب الرابع و العشرون:

البناء الأخلاقي والسلوكي للمجتمع الإسلامي الجديد .

ليس يُنكرُ أن كلَّ مجتمعٍ جديدٍ له أطرٌ عامةٌ يَجِبُ أن يقومَ عليها، فالمجتمعُ باعتباره كياناً قائماً بذاته، لابد له من أسسٍ يُبنى عليها، وتكادُ تكونُ هذه الأسسُ مشتركةً بين المجتمعاتِ كلِّها، والفارقُ - في نظري - إنما هو في اختلافِ المرجعيّاتِ .

فاللَّهُ خلقَ الإنسانَ وهو يحملُ في نفسه بذورَ الاجتماعِ، مفطوراً على ذلك، وأنّه لا يستطيعُ أن يعيشَ وحده في هذه الحياة، فَخَلَقَ اللهُ لآدمَ حواءَ ليحدثَ الأنسُ والانسجامُ، والاجتماعُ، وقد رَكَّبَ اللهُ -عز وجل- في الإنسانِ غرائزَ ونزعاتٍ ومشاعرَ وعواطفَ وعقلاً يُدركُ بها الأشياءَ ويُميزُ به ما

يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ لِلإِنْسَانِ الْإِنْسِجَامُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ الْاجْتِمَاعِ وَالتَّعَارُفِ،
مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. (١)

وَلَكِنِّي يُحَقِّقُ الْإِنْسَانُ أَهْدَافَهُ وَيُشَبِّعُ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةَ وَغَيْرَ الضَّرُورِيَّةَ لِأَبَدٍ لَهُ أَنْ يَعِيشَ فِي جَمَاعَةٍ
يَرْتَبِطُ بِهَا، فَيَحَقِّقُ حَاجَاتِهِ الرُّوحِيَّةَ وَالْمَادِيَّةَ الَّتِي تُسَاعِدُهُ عَلَى أَنْ يَعِيشَ فِي أَمَانٍ، وَحَيْثُ إِنَّ كُلَّ فَرْدٍ لَا
يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَقِّقَ الْاِكْتِفَاءَ الذَّائِقَ وَيَحْصُلَ عَلَى كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بِمُفْرَدِهِ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ مَعْرُضَةً لِلْخَطَرِ
بِسَبَبِ ذَلِكَ النِّقْصِ الَّذِي سَيَعَانِيهِ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى وَسَائِلِ الْعَيْشِ الضَّرُورِيَّةِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى
الدِّفَاعِ عَنِ نَفْسِهِ أَصْبَحَ هَذَا الْإِنْسَانُ فِي حَاجَةٍ مَاسَةٍ إِلَى الْحِفَاظِ عَلَى وَجُودِهِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ
بِالْاجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ.

وَالْمُجْتَمَعُ هُوَ: عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْأَفْرَادِ الْمُسْتَقَرِّينَ، يَجْمَعُهُمْ رَوَابِطُ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَمُصَالِحٌ مُشْتَرَكَةٌ، تَصْحُبُهَا
أَنْظِمَةٌ تَضْبِطُ السُّلُوكَ وَسُلْطَةٌ تَرْعَاهَا (٢).

فَكَانَتْ فِكْرَةٌ نَشْأَةُ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَأَصْبَحَ لِكُلِّ مُجْتَمَعٍ أُسُسًا، وَقَوَاعِدًا، وَنُظْمًا، وَضُوَابِطٌ يَقُومُ عَلَيْهَا،
تَسَهَّرُ عَلَى حِفْظِهَا وَضِمَانِهَا وَصِيَانَةِ اسْتِمْرَارِيَّتِهَا مَوْسِسَاتٌ وَأَفْرَادٌ.

وَالْبَاحِثُ هُنَا حِينَ يُنْظَرُ لِأُسُسِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ أَخْلَاقِيًّا وَسُلُوكِيًّا فِي مَشْرُوعِهِ الْحَضَارِيِّ لَا يُرِيدُ أَنْ
يُعْضَرَ الطَّرْفَ عَنِ النُّظَرِيَّاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ بِنَاءَ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِ وَنُظَرْتِهَا إِلَيْهِ، لِيَتَّضِحَ لَنَا
أَنَّ النُّظَرِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ فِي بِنَائِهِ الْمُجْتَمَعِي شَمَلَتْ جَمِيعَ الْمَزَايَا الَّتِي جَاءَتْ بِهَا تِلْكَ
النُّظَرِيَّاتُ مُجْتَمَعَةً، وَزَادَتْ عَلَيْهَا.

فَالْمُتَأَمِّلُ فِي النُّظَرِيَّاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ مُجْتَمَعَ الْإِنْسَانِ أَوْ اجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِ يَرَاهَا اخْتَلَفَتْ اخْتِلَافًا كَبِيرًا
إِلَى حَدِّ التَّنَاقُضِ أَحْيَانًا، سِوَاءً فِي ذَلِكَ النُّظَرِيَّاتِ الَّتِي وَسَمَتْ بِالتِّيَارِ الْحَافِظِ أَوْ التِّيَارِ التَّوْرِيِّ غَيْرِ
الْحَافِظِ، ابْتِدَاءً مِنْ " النُّظَرِيَّةِ الْبِنَائِيَّةِ الْوُضُوفِيَّةِ، وَمُرُورًا بِالتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ وَالتَّبَادُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، أَوْ
الْمَارْكَسِيَّةِ، أَوْ الصِّرَاعِ الْاجْتِمَاعِيِّ، أَوْ الْمَثَالِيَّةِ النُّقْدِيَّةِ أَوْ الْبِنْيُويَّةِ الْمَارْكَسِيَّةِ " (٣).

(١) - الْحَجَرَاتِ. آيَةُ (١٣).

(٢) - انظُر: الْمَصْرِيِّ، أَمِينٌ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ. دُونَ ط- ص ١٤- وَالْجَوَابِي فِي الْمُجْتَمَعِ وَالْأُسْرَةَ فِي الْإِسْلَامِ - ط:
الثَّلَاثَةِ- ص ١٢، وَشَاهِينَ فِي عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ وَالْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ. دُونَ ط. ص ٤٣.

(٣) - عَوْدَةٌ، فِي أُسُسِ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ - دُونَ ط. ص ٨٥ وَمَا بَعْدَهَا.

وقد أجمال بعض الباحثين القول^(١) في هذه النظريات جميعاً أنها تسيّر في اتجاهين: محافظ، وثورى راديكالي، فذكر أنّ تيار المحافظين: " ينظر إلى المبدأ الأساسي للحياة الاجتماعية وهو الاستقرار والنظام، ومن ثمّ ينظر إلى الواقع الاجتماعي بوصفه واقعاً إيجابياً، بما ينطوي عليه من نظم اجتماعية تؤدي أدواراً إيجابية ثابتة. .. والاتجاه الثاني: تيار ثوري راديكالي يُميز بين الواقع الاجتماعي والنظام الاجتماعي الأمثل ومن ثمّ يرى الواقع ليس بوصفه إيجابياً دائماً، بل إنّه في مرحلة ما قد يصل إلى مرحلة السلبية الكاملة، ومن ثمّ يحين موعداً نفياً وتغيّره ".

بيد أنّ المجتمع الإسلامي قد تميّز عن غيره في هذا المجال وكان تميزه من جهتين^(٢):

أما الأولى: فهو أنّه جعل العقيدة بكلّ مظاهرها، والشريعة بكلّ أحكامها الأساس الأكبر الذي بُنى عليه الأسس الأخرى.

أما الثانية: فإنه بما أوجده من مواصفات، وبما وضعه من اعتبارات تجاه هذه الأسس، فجاء هذا المجتمع متميزاً بتميز أسسه.

وهذه نقطة فارقة بين المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات، وهذا الفارق نابع من نظرة الإسلام إلى الإنسان ومجتمع الإنسان تلك التي تختلف عن بقية النظريات التي عرفتها البشرية، فإن الإسلام نظر إلى الإنسان نظرة تحترم وجوده وتعترف بإمكاناته وقدراته، وتوجّه أهدافه، وتضبط مهامه وأخلاقه وعقائده وسلوكه وتعاملاته في جميع شؤونه.

ونحن حين نعرض في مشروعنا الحضاري للأسس المجتمعية الأخلاقية والسلوكية التي دعا إليها الإسلام ورسّخها الرسول -ﷺ- ليس مجرد إيضاح أدوات هذا الدين، واجترار ذكريات الماضي، والتّمسّح فيه، وإعلاء ذكره وإن كان المشروع بأدواته مستحقاً لذلك، بل نعرضه لنستفيد من هذا المشروع الحضاري في الانطلاقة الجديدة الحديثة للأمة الإسلامية، فقد جاء الإسلام صالحاً لكلّ زمان ومكان ومصلحاً لهما، فلا يمكن لأحد أن يُنكر الدور الخطير الذي يمكن أن يؤديه الإسلام في تحقيق النهضة الاجتماعية المعاصرة في بلادنا وأمتنا.

وليس في ذلك أيّ تجاوز للحقائق العلمية والواقعية والتاريخية، فالأهداف الاجتماعية والاقتصادية

(١) - السابق ص ٨٧

(٢) - انظر مجموعة من الباحثين في كتاب الإسلام وبناء المجتمع - دون ط. ص ١٤ .

والسياسية، والفكرية التي حدّدها الإسلام والقيم السلوكية والأخلاقية التي رسمها ودعا إلى ترسيخها في النفوس تُعدُّ أسسًا ومنطلقاتٍ فاعلةً للنهوض بالمجتمعات اليوم ودفعه إلى التنمية الشاملة على مستوييها الروحي والمادي (١).

ويمكن القول: إنّ الأسس العامة التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي - بعد الأسس العقدي المهمين عليها - هي (٢):

(١) - الإنسان.

(٢) - الروابط الاجتماعية.

(٣) - الضبط الاجتماعي.

(٤) - الأرض.

وإذا كان المجتمع الواحد تحكمه تقاليدٌ معينةٌ أو فكرةٌ يتوافق عليها المجتمعون، فلا بدّ أن يكون له عددٌ من السمات الأخلاقية والاجتماعية والسلوكية المشتركة تأتي كمنظومةٍ واحدةٍ تحكم تصرفات الأفراد المكونين لهذا الكيان المجتمعي، وتضبط له السير الآمن لأفراد هذا المجتمع فيما يُسمّى بالضبط الاجتماعي: " فكلُّ مجتمعٍ لكي يبقى ويستمرُّ مُستقرًّا في نُظْمه وأوضاعه كان عليه أن يُحدّد القواعد والنظم والقيم والمعايير التي يتحدّد بها سلوك أفرادِهِ، حتى لا تُصبح الحياة فيه ضربًا من القوضى والانحرافات " (٣).

والدولة الإسلامية الناشئة كذلك كان لا بدّ لها من هذا الإطار الاجتماعي والسلوكي والأخلاقي الذي يحكم أفرادها فيما يتمّ بينهم من علاقات وأعمالٍ وتداخلاتٍ ومعاملاتٍ سواءً على المستوى الاقتصادي والماليّ أو على مستوى العلاقات والروابط الاجتماعية أو على مستوى الأعمال المشتركة والمصالح الدنيويّة التي يسعى إليها الناس.

والمنظومة الأخلاقية والسلوكية التي جاءت بها دولة الإسلام الجديدة ومشروعها الحضاريّ الذي يستهدف العالم كافةً تنقسم إلى قسمين :

الأول: أخلاق وسلوكيات بين الإنسان وبين الله خالقه.

١ - انظر بتصرف الخريجي : علم الاجتماع الديني . دون ط . ص ٤٥٦ .

٢ - مجموعة من الباحثين في الإسلام وبناء المجتمع ص ١٤ .

٣ - عبد الجواد ، في مبادئ علم الاجتماع - دون ط . ص ١٠٦ .

الثاني: أخلاق وسلوكيات حاكمة للإنسان وعلاقته مع الآخرين.

والنظرة المُجمِلة إلى هذين القسمين من خلالِ نصوصِ الوحيين: القرآن والسنة يجدُ أن هذه الأخلاقيات والسلوكيات تجلبُ على الناسِ الكثيرَ من الخيراتِ والمنافعِ والنجاحاتِ في الدنيا والفلاحِ في الآخرة، وتُدخله في نظامٍ حياتيٍّ متوازنٍ يشعُرُ فيه بالسعادةِ والإنجازِ والتجانسِ بينه وبين نفسه من جهةٍ وبينه وبين حياته الخارجيةِ من جهةٍ أخرى، وكذلك مع القوانينِ الكونيةِ الحاكمةِ لعالمه حيثُ سنةُ الله التي تحكُم كلَّ هذه المنظومةِ.

وجاءت زراعةُ هذه الأخلاقِ والسلوكياتِ والآدابِ على عدةِ مراحلٍ، وأساليبٍ متنوعةٍ؛ لأنَّ تغييرَ الطباعِ البشريةِ والعاداتِ ليس من الأمرِ اليسيرِ، لكنَّ تميّزَ المشروعِ الحضاريِّ بتأييده من الوحي جعله يَستخدمُ الأساليبَ المتنوعةِ والمناسبةِ حتى يتمكنَ من تَغيرِ النفوسِ للأصلحِ والأُنفعِ، والأثَقى، والأقوى، ومن ذلك ما يلي:

فقرة 1. استخدام الوعظ والتذكير :

يعرف المهتمون بالتربية والإصلاح أنَّ الوعظَ أسلوبٌ دعويٌّ له أهميةٌ بالغةٌ في إصلاحِ القلوبِ، وتهذيبِ النفوسِ؛ ذلك أنَّه مُتعلِّقٌ بطبِّ الأرواحِ وعلاجِها من أمراضِها الفتَّاكةِ القاتلةِ، ومتى صلحَ القلبُ صلحَ الجسدُ كُلُّه، فانبَعَثَتِ الأعضاءُ بالأعمالِ الصالحةِ.

وكم يكونُ لكلمةِ الواعظِ من الأثرِ البالغِ في نفوسِ سامعيها حينَ تخرجُ من قلبٍ صادقٍ، وحُلقٍ رائقٍ، ويقينٍ راسخٍ، وفكرٍ ناضجٍ، وليس في الناسِ كمحمدٍ -عليه الصلاة والسلام- في ذلك، فنظراً لأهميةِ الوعظِ اتخذه النبي -صلى الله عليه وسلم- أسلوباً لبناءِ الأخلاقِ والسلوكِ، وحرص عليه، وكان يتخول أصحابه به.

ولم يكن ذلك نابغاً فقط من فطنةِ النبي -صلى الله عليه وسلم- لأهميةِ الوعظِ في تغييرِ النفوسِ وتطهيرِها بل كان ذلك امتثالاً لعبادةِ أمرِ بها اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله بل رسله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١).

وقوله: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(٢). كما أمر تعالى -به رسله من قبل، فكان الوعظُ نهجهم

(١) - (النحل: ١٢٥).

(٢) - (النساء: ٦٣).

في دعوتهم، قال تعالى:- ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(١)، فالموعظة وسيلة الذكرى، وسبيل الخشية، والقرآن كله موعظة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

فقرة ٢. : التربية بالقدوة.

تطلُّ النظريات التربوية أخبارًا تُسَوِّدُ بها صفحاتُ التوايفِ ما لمَّ تجدْ في حياةِ الناسِ مَنْ يَمْتَثِلُ تعاليمها، ويُمكن أن يكونَ قدوةً يَأْتَسِي به غيره، والتربية بالقدوة من أهمِّ وأمثلِ الطُّرُقِ في ترسيخِ المبادئِ والأخلاقِ وتربية الأجيالِ، وهي طريقةُ النبي . صلى الله عليه وسلم- فاستخدمَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم- التطبيقَ المباشرَ أو ما يُسمى بالتدريبِ بالقدوة، وكان المنهجُ النبوي في إصلاحِ البشريةِ وهدايتها يَعْتَمِدُ على وجودِ القُدوةِ التي تحوّل تعاليمَ و مبادئ الإسلام إلى سلوكٍ عمليٍّ، وحقيقة واقعةٍ أمامَ الناسِ جميعًا، ولذا كان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أمرَ بشيءٍ عملَ به أولاً، وإذا نهى عن شيءٍ كانَ أولَ المُنتهين عنه، فهو القدوةُ والأسوةُ العملية التي تُترجم الإسلامَ إلى حقيقةٍ وواقع، وقد نبه الله-تعالى- على ذلك في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.^(٣)

وقد كانت التربية بالتطبيق أمرٌ متواترٌ، حتى في وقتِ فرجه وسروره ببناءِ المسجد حين دخلَ المدينة، إذ قام بنفسه يسهم في البناء، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول(٤):

اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة * فاعفِرْ للأَنْصارِ والمُهَاجِرَةِ

وكان ذلك مما يزيدُ نشاطَ الصحابة-رضي الله عنهم- وإقبالهم على العملِ والبذل، حتى إن أحدهم، ليقولُ(٥):

لئن فَعَدْنَا والنبيُّ يَعْمَلُ *** لذاك مِنَّا العَمَلُ المِضَلَّل.

لقد كانت حياة النبيِّ وسيرته ونماذجُ التربية بالقدوة في حياة الرسول-صلى الله عليه وسلم - يَعجزُ المرءُ عن حصرها وعدّها؛ لأنَّ حياته كلها كانت قدوةً وتطبيقًا لتعاليم الإسلام.

(١) - (طه: ٤٤).

(٢) - (يونس: ٥٧).

(٣) - (الأحزاب: ٢١).

(٤) - المباركفوري، في الرحيق المختوم ص ١٤٣

(٥) - أضواء البيان. ٨٧ / ٢٧

فقرة 3. التربية باستخدام الأمثال والتشبيهات:

التمثيل والتصوير، وضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية الناجحة، يحث المرابي والمعلم من خلاله النفوس والعقول على فعل الخير والبر، ويدفعها إلى الخلق والفضيلة، ويحجزها عن الشر والمعصية، بأسلوب قريب، وشيق، ومؤثر لما يحمله من سرعة إِبْصَالِ المعنى المراد، والذي من خلاله تُغرس في النفس القيمة التربوية، وهو أسلوب استخدمه النبي -صلى الله عليه وسلم- في تعليم أصحابه وتربيتهم -رضوان الله عليهم- في أحداث ومواقف متعددة، والأمثلة الدالة على ذلك من السيرة النبوية كثيرة، ومنها:

قوله -صلى الله عليها وسلم- لما أرادوا له شيئاً من الدنيا: " ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها". (١)

ومنه أنه -صلى الله عليه وسلم- مرَّ بالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفْتَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدِي أَسَكَّ (٢) مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ يَعْغِي بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: " أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدِرْهِمٍ؟ ". فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: " أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ". قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: " فَوَ اللَّهُ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيَّكُمْ ". (٣)

فقرة 4. التربية بذكر القصص:

قد ركز القرآن الكريم على ذكر القصص وربطها بالأخلاق والسلوكيات التي يُراد للناس العمل بها وترك الأخلاق والسلوكيات السيئة.

فاستخدم المشروغ الحضاري الإسلامي أسلوب القصص ليعمق العقيدة في النفوس، ويُبصر بها العقول، ويُحيي بها القلوب، ويسلك لتلك القضية الهامة الخطيرة أحسن المسالك، إمتاعاً للعاطفة، وإقناعاً للعقل، وركزت على ذكر الصفات الحيرة للأنبياء، والصالحين؛ ليكون للناس فيهم أسوة، وحذرت من سلك سبيل المجرمين، وذممت ذلك، ليسمو الإنسان ويزكي نفسه، حتى يتميز الخبيث من الطيب، هذا السمو الذي لا يركز على جانب واحد في هذا الإنسان، بل هو سموٌ روحيٌ خلقيٌ

(١) - رواه أحمد في مسنده - في مسند ابن مسعود - برقم (٣٧٠٩) - حكم عليه الألباني بالصحة في السلسلة الصحيحة برقم (٤٣٨).

(٢) - (مقطع الأذنين).

(٣) - رواه مسلم في صحيحه - ٥٣ كتاب الزهد والرفائق - بدون ذكر باب - برقم (٢٩٥٧). ٤/٢٢٧٢

ونفسيّ وماديّ كذلك، يَشعُرُ به الفردُ، ويَجِدُ حلاوتهَ ولذاته، وهو بَعْدَ ذلك سَمُوُّ اجتماعيِّ، يَجِدُ الجماعةُ فيه بُعَيْتَهَا وأمنها وضالَّتْهَا وفضيلتَهَا.

-التربية بمدح الأعمال الحسنة:

ومن طرائق التربية والتغيير للأحسن مدح الأعمال الحسنة، والثناء على الفضيلة، ولو كانت من مُشركٍ.

فقرة.4. التربية بالحوار والمساءلة^(١):

وذلك لإثارة انتباه السامعين، وتشويق نفوسهم إلى الجواب، وحضهم على إعمال الفكر للجواب؛ ليكون جواب النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك -إن لم يستطيعوا الجواب- أقرب إلى الفهم وأوقع في النفس.

ومن أبرز الشواهد على ذلك حديثُ جبريل الطويل في أركان الإسلام والإيمان والإحسان، وحديثُ (أتدرون من المسلم؟ أتدرون من المفلس؟) وغير ذلك.

إن من تَمَرَسَ في التعليم وخَبِرَهُ، يمكنُ أن يُدركَ أهميةَ وفائدةَ التعليم بالحوار والمساءلة، فهي تَعَصِفُ ذهن الطالب ليفتش عن حل يناسب السؤال، وتعود الطالب على مجابهة المشكلات، ووضع حل لها، فضلا عن أنها تعوده الوقوف موقف المسؤولية، وبذلك تقوي شخصيته العلمية، وهذه الطريقة أيضا تصقل عقل الطالب، وتصل به إلى المستويات العليا من التفكير.

فقرة.5. التربية ببيان العاقبة.

من طرائق التربية والتهذيب بيان أثر امتثال الأعمال، والأخلاق الحميدة، وخطورة ترك العمل بها، فالمرء قد يحضه على ترك العمل أو فعله أن يعرف عاقبته، ونتيجة فعله.

فقرة.6. التربية بوضع الحدود الشرعية .

ومن طرائق التربية التي انتهجها المشروع الحضاريُّ ذِكْرُ بعض الحدود والأحكام التي ترتبط بهذه الأعمال، فالله-عز وجل-ذَكَرَ صِنْفًا مِنَ النَّاسِ، وَأَتَمَّ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، وَلَا يَنْفَعُ آتَنُ إِيمَانًا إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ.

فقرة.7. التربية بمراعاة الفروق الفردية في المتعلمين^(١):

(١)- مطرحي والصغير، نماذج من أساليب الرسول في تربية الصحابة وأهميتها وكيفية توظيفها في مدارسنا- دون ط. - ص ٧.

فقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ذلك بين السائلين، فكان يخاطب كل واحد منهم على قدر فهمه وبما يلائم منزلته، ومن أبرز الشواهد على هذه المراعاة، وصاياهم المختلفة لأناس طلبوا منه الوصية، صلى الله عليه وسلم، فأوصى كل واحد غير ما أوصى به الآخر، مراعيًا حال كل واحد واختلافه عن الآخر.

واختلاف أجوبة النبي -صلى الله عليه وسلم- لاختلاف أحوال السائلين وظروفهم وقدراتهم باب واسع له أمثلة كثيرة في كتب السنة المطهرة.

والتنبيه على أن هذه الأخلاق والسلوكيات التي زرعتها الإسلام في بناء الإنسان المسلم ليصنع المشروع الحضاري النهضوي للعالم، فيجمع بين خيرى الدنيا الآخرة وبين رفعة المجتمع وتحقيق الإنسان لذاته وعمارة الأرض واستخلاف الإنسان فيها، ومن قبل ذلك تحقيق محبة الله ومعرفة والقرب منه، وتحقيق العبودية، لتظهر حكمة الله في خلق الإنسان، وضمان سلامة اعتقاده وشريعته، إذ لا قيمة لأي أساس لا تكون العقيدة والشريعة مُتمثلةً فيه قائمةً عليه، وهذا ما ظهر جليًا في التربية النبوية للمسلمين أفرادًا وجماعات، وبخاصة في العهد المكِّي^(٢) الذي مهّد الطريق للأسس الأخرى.

كل ذلك؛ لتصبح مكونات معتبرة وهو ما حرصنا على إبرازه حين عرضنا لهذه الأسس وبيننا كيف أن الإسلام صبغها بصبغة عقيدية وصاغها صياغةً إسلاميةً، ومن هنا كان التميز وكانت الآثار الإيجابية.

(١)- مطرحي والصغير، نماذج من أساليب الرسول في تربية الصحابة - ص ٨

(٢)- أqvد مرحلة تصحيح الاعتقاد، والتربية على سلامة العقول من عبادة غير الله، أو أن يُشرع أحدًا إلا بإذن الله، وتلك كانت الأسس الذي بُني عليه منظومة الأخلاق، والسلوكيات والتشريعات بعد ذلك، ولولا هذا الأسس ما تمّ البناء.

1.4.25. المطلب الخامس و العشرون:

المنظومة الأخلاقية والسلوكية لأتباع الدولة الجديدة.

لقد جاء الإسلام برسالةٍ تغييرٍ وتطويرٍ وبناءٍ وإصلاحٍ تعيدُ وضعَ البشرية على جادة الصواب بعد الكثير من الانحرافات العقديّة والفكرية والسلوكية والأخلاقية التي رافقت رحلة الإنسان على هذا الكوكب^(١)، وكان الله - عز في علاه - يُرسل كلَّ حقبةٍ زمنيةٍ أنبياءَ ورسلاً^(٢) يعملون على إرشاد العباد وتوجيههم وتبصيرهم بما خفي عنهم، فمنهم من يستجيب ومنهم من لا يفعل.

ومن أهمّ الأخلاق والسلوكيات التي حرص الرسول القائد - عليه الصلاة والسلام - على زرعها في أتباعه الذين هم عماد الدولة الجديدة والمشروع الحضاري الناشئ هي التآلف والتآخي.

ومن الأخلاقيات والسلوكيات التي زُرعت في تلك الفترة تركية النفس وبناء الجانب الداخلي للإنسان المسلم، فالإسلام ينظر للإنسان على أنه ظاهرٌ وباطنٌ، جوهرٌ ومظهرٌ ولا بدّ من البناء الداخلي في عالم الأفكار ليظهر ذلك على عالم السلوك.

ومن الأخلاق الهامة التي ركّز الشارع عليها وكانت من الأسس التي دعا إليها الإسلام في منظومة أخلاقه البر^(٣) وحسن الخلق^(٤) وكذا خلق التواضع^(١).

(١) - ذكر ابن كثير في تفسيره ٥٦٩/١ : تفسير القرآن العظيم : عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: {النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَاخْتَلَفُوا} البقرة (٢١٣).

(٢) - قد بيّن القرآن الكريم في غير موضع أن الله أرسل رسلاً مبشرين، ومنذرين إلى جميع الأمم، فقال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} (فاطر ٢٤).

(٣) - ومنه قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (١٧٧).

(٤) - أخرجه الترمذي في سنن الترمذي - أبواب البر والصلة - باب معالي الأخلاق - برقم (٢٠١٨) - ٤/٣٧٠: عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفهبون قالوا يا رسول الله : قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفهبون ؟ قال : المتكبرون". - وفيه برقم (٢٠٢١): عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال : " ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإنَّ الله يُبغضُ الفاحشَ البذيءَ " رواه الترمذي، وقال : حديث حسن صحيح. وصححه الألباني .

والتأكيد على الإحسان لذوي القربى^(٢)، وعمق العلاقة معهم^(٣)، ومن الأخلاق التي تختصُّ بالعلاقة مع الله العباداتُ القلبية^(٤) ومنها: الإنابة^(٥) إليه والاستغفار^(٦) والرجوعُ إليه. والثقة فيه، وحسنُ التوكُّلِ عليه^(٧)، وطهارة القلب من الشرك والاعتقادات الباطلة، وحُلُوهُ من

(١) - ومنه ما أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الجنة وصفة نعيمها - ١٦ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (برقم (٢٨٦٥) : ٢١٩٧/٤ : " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خطيباً فقال إن الله أمرني وساق الحديث .. وزاد فيه : وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبيع أحد على أحد". وفي الجمع بين الصحيحين برقم (٢٧٣٦): "عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ - قال ما نقصت صدقة من مالٍ وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله ".

(٢) - ومنه في سورة النساء (٨) : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۗ﴾، وكذا في النور (٢٢): ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفِرُوا لِمَنْ سَفِهَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وفي الإسراء (٢٦): ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾. وفي سنن الترمذي - باب فضل أزواج النبي - برقم (٣٨٩٥) : " عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ". وصححه الألباني.

(٣) - وأخرج مسلم في صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - باب صلة الرحم وتحريم قطعها - برقم (٢٥٥٨) - ١٩٨٢/٤ : عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن رجلاً قال : «يا رسولَ الله، إن لي قرابة، أصلهم ويقطعونني، وأحسِن إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحلم عنهم، ويجهلون عليَّ؟ قال : لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُمسِّقُهم المَلَّ، ولن يزال معك من الله ظهير عليهم ما دُمتَ على ذلك». وفيه : " من أحب أن ييسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه".

(٤) - قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة كتابه - أمراض القلوب وشفائها - لأحمد بن تيمية (٧٢٨هـ). دون ط. ١٣٩٩هـ ص ٣٦- وفي الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية - دون ط. ١١١/١ : "أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَتَوَابِعِهَا كَالْحُبِّ، وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَالشُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا ضَلَالٌ مُبِينٌ، بَلْ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ فُرُوضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَمَنْ تَرَكَهَا بِالْكُلِّيَّةِ فَهُوَ إِمَّا كَافِرٌ وَإِمَّا مُنَافِقٌ، لَكِنَّ النَّاسَ هُمْ فِيهَا كَمَا هُمْ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُفْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ، وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ طَافِحَةٌ بِذَلِكَ".

" فهذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي تسمى المقامات والأحوال وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك".

(٥) - ومنها في الزمر (٥٣ - ٥٤): ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ. ...﴾.

(٦) - أخرجه مسلم في صحيحه - (١٢ باب استجاب الاستغفار والاستكثار منه) - برقم (٢٧٠٢): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة ".

(٧) - أخرج أحمد في المسند - من مسند عمر بن الخطاب - برقم (٢٠٥): "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً". صححه الأرنؤوط.

الشحناء والحسد، والرضى بقضائه، وصدق المحبة له (١). والتأدب مع الله ومع كلام الله، وغيرها من عبادات القلب، والجوارح (٢).

ومن أعظم الأخلاق والقيم التي جاءت بها الدولة الجديدة العدل (٣) والمساواة (٤)، وتظهر عظمة المشروع الإسلامي جلية واضحة أيضا هنا في هذه الأخلاقيات، أنها جاءت بعد سنوات من الظلم والتنكيل والعنصرية والطبقية المقيتة التي عانت منها البشرية قبل مجيء الإسلام.

ومن أعظم السلوكيات التي زُرعت السمع والطاعة (٥) لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ووحدة القيادة (٦) والالتفاف حول المشروع الإسلامي، والعمل من أجل الرسالة، وهذا يتطلب انضباطا عاليا وتنظيما كبيرا، وتنسيقا عميقا وإلا كان كل المشروع مهتدا.

كما جاءت المنظومة الأخلاقية الإسلامية بالكثير من السلوكيات الرائعة التي تُراعي أدق التفاصيل

(١) - ومنها في المائدة (٥٤): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». - والبقرة (١٦٥): «وَمَنْ النَّاسُ مِنْ تَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ».

(٢) - انظر في كل ذلك ابن تيمية في كتاب الإيمان الأوسط - دون. ط. - ١٤٢٨ هـ.

(٣) - أدلة كثيرة جدا في ذلك، ومن أوضحها قوله تعالى في سورة النحل (٩٠): «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

(٤) - الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن عائشة برقم (٣١٧٢): "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

(٥) - ومنه في سورة النساء في الآيات الثلاث: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزْبًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)». النور (٥٤): «فَلِأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ».

(٦) - الالتفاف حول القيادة يكون بالسمع والطاعة في المعروف، ومنه في مسند أحمد - مسند أم الحصين - برقم (٢٧٢٦٢) - قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَاتٍ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِن أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدِّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ". وحديث العرابض بن سارية في السنن لأبي داود - كتاب السنة - باب في لزوم السنة - ٢٠٠/٤: بسند صححه الألباني، قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسرى اختلافها كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة"

في حياة الفرد والمجتمع^(١)، مثل الحث على النظافة^(٢).

واحترام مشاعر الآخرين في كل شيء^(٣)، و في المأكل والمشرب والملبس^(٤). كما جاءت قيمة الحب من أعظم السلوكيات والممارسات التي جرى التأكيد عليها لأهميتها للفرد، والمجتمع كقاسم مشترك في المعاملات والعلاقات^(٥).

(١) - أخرجه مسلم في صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب الاستطابة - برقم (٢٦٢) / ١ / ٢٢٤: عن سلمان قال : قال لنا المشركون : إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة، فقال أجل". ومنه ما جاء في موارد الظمان - كتاب العلم - باب فيما بثه سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . عَنْ أَبِي دَرِّ قَالَ: تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا عِنْدَنَا مِنْهُ عِلْمٌ". وصححه الألباني في [التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتتميز سقيمته من صحيحه، وشاذه من محفوظه] - ط. الأولى - برقم (٦٥).

(٢) - الحميدي في الجمع بين الصحيحين برقم (٣١٣) : "قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال إن الله جميل يحب الجمال الكبير بطر الحق وغمط الناس ". - وروى أبو داود في سننه - كتاب الترجل - باب إصلاح الشعر - برقم ٤١٦٣ - ٧٦/٤، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ ». وصححه المحقق الأرنؤوط. وعند الحميدي في الجمع بين الصحيحين برقم - ٢٢٦٠ - عن أبي هريرة أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: "أرايتم لو أن نهرأ بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يبقى من درنه شيء قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا".

(٣) - وما أكثر هذا في منظومة الأخلاق الإسلامية ففي كتاب الجمع بين الصحيحين برقم (٢٦٩) - عن عبد الله قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه ولا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها". وعند البخاري في صحيحه - باب إذا صلى لنفسه فليطوّل ما شاء برقم (٧٠٣) قول النبي : " أمّ قومك، فمن أمّ قومك فليخفف فإن فيهم الكبير وإن فيهم المريض وإن فيهم الضعيف وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده فليصّل كيف شاء".

(٤) - ولعل من ذلك أنه جعل في مال الغني نصيباً للفقير حتى يراعي مشاعره ولا يحقد عليه، ومنه في حديث معاذ حين أرسله إلى أهل اليمن كما في أخرج مسلم صحيحه - كتاب الإيمان - باب الدعاء إلى الشهادتين - برقم (٢٩) / ١ / ٥٠ : فأعلّمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بيننا وبين الله حجاب".

(٥) - ومنه ما رواه الترمذي - سنن الترمذي - أبواب الزهد - باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس - برقم ٢٣٠٥ - ٤ / ٥٥١ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن ؟ فقال أبو هريرة فقلت أنا يا رسول الله فأخذ بيدي فعد خمسا وقال اتق الحرام تكن عبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب". وحسنه الألباني.

كما جاء الاستئذان^(١) وإفشاء السلام^(٢) كخلق يعكس النقلة الكبيرة للإنسان^(٣) وأخذه إلى مدارات السلوك الحضاري المتقدم والذوق الرفيع، فالإسلام ليس دين تنسك وعبادات فقط بل منظومة حياتية حضارية متكاملة تجمع في طياتها كل جوانب الحياة الإنسانية مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (الأنعام ١٦٢).

ومن ضمن الأخلاق التي زرعتها الإسلام في أتباعه الرفق^(٤)، وتعميق أسباب الألفة والرحمة والعطاء^(٥)، وهذه من أعظم السلوكيات والأخلاقيات التي تبني المجتمعات وترتقي بالعالم إذا طبقت وشجعت عليها، فالعطاء من أعظم ما يترجم حكمة الاستخلاف بالأرض وإعمارها. كما أسس الإسلام للتوازن بين الدنيا والآخرة^(٦)، وهذه من السلوكيات المهمة التي تقي المسلم من الكثير من الاضطرابات والخلل والزلل.

كما جاء الإسلام بالرحمة وتعميقها كخلق أصيل للمسلم في علاقته بكل ما حوله من الإنسان

(١) - ومنه قوله تعالى في سورة النور (٢٨): ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزكى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وفي السورة نفسها برقم (٥٨-٥٩): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾.

(٢) - ومنه في النساء آية (٨٦): ﴿وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِمْ فَتَحَبُّوا بِأَحْسَنِّ مَنَاسِكِهِمْ أَوْ رُدُّوهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾. وقول الحبيب كما في الجمع بين الصحيحين برقم ٢٦٢٨ - أبي هريرة قال رسول الله - ﷺ - والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم".

(٣) - وخلق الغض عن المحارم، والاستئذان، وإن كان قد ذكره عنتر الشاعر الجاهلي خلقا من أخلاقه في قوله :

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتِي
حتى يُوارِي جارتِي مأواها.

إلا أن الإسلام رسخ له، وجعله قيمة وشرعا وعبادة.

(٤) - ما رواه أبو داود في سننه - كتاب الجهاد - في باب الهجرة وسكنى البدو - برقم (٢٤٧٨)- ٣/٣ "يا عائشة ارفقي، فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه، ولا نزع من شيء قط إلا شانه". و صححه الألباني في السنن.

(٥) - ما حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب . دون ط. الرياض. طبعة مكتبة المعارف - دون ت. : برقم (٢٢٥٣) - عن أبي موسى - رضي الله عنه - أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا يا رسول الله كلنا رحيم قال إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة".

(٦) - كما قال تعالى في سورة القصص آية (٧٧): ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الفُسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾.

والحيوان^(١) والشجر، ومن الأخلاق العظيمة التي تُعلِّم الإنسان حُبَّ العطاء والإنتاج والبناء والبذل في مُتخَلَفِ الحقول والمبادرة بكلِّ عملٍ جميلٍ وبنائٍ بُعِيَّةٍ ما عندَ الله ويكون لذلك الأثر الماديُّ الملموس في الواقع، وهذا يُحَقِّقُ حِكْمَةَ اللهِ في خَلْقِ الإنسانِ وَيَرْتَقِي بالعالم أجمع.

وكما جاءت منظومة الأخلاق والسلوك الإسلامية بالحفاظ على الممتلكات، واحترام حقوق الآخرين، وحدرت من الاعتداء عليها^(٢) وعلى خصوصياتهم وما يملكون.

كما امتدت هذه الأخلاقيات إلى الوقوف مع المظلوم^(٣) والوقوف مع صاحب الحاجة^(٤) وإغاثة الملهوف^(٥) وإعانة المكالم والضعيف وهذه قيمة حضارية وأخلاقية هامة تعمل على التكافل

(١) - كما في اللؤلؤ والمرجان - فضل الغرز والزرع: " حديث أنس رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَيْهَمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ". وفي سنن أبي داود وصححه الألباني - كتاب الجهاد - باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم - برقم (٢٥٥٠) ٢٤/٣ - عن أبي هريرة، أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: "بينما رجل يمشي بطريق، فاشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر، فملاً حقه فأمسكه فيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له" فقالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: "في كل ذات كبدٍ رطبةٍ أجرٌ".

(٢) - ومنه عند البخاري - كتاب المظالم والغصب - باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبيئ مظلمته - برقم (٢٤٤٩) ١٢٩/٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون عند أبي داود أيضاً وصححه الألباني برقم ٣٥٨٣ - عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إنما أنا بشرٌ، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء، فلا يأخذ منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار".

(١) - أخرج البخاري في صحيحه - كتاب الإكراه - باب يمين الرجل لصاحبه - برقم (٦٩٥٢) ٢٢/٩ - عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ".

(٤) - أخرج الطبراني في المعجم الكبير، ط. الثانية - باب الميم - من اسمه محمد - برقم (٨٦١) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ ، فَقَالَ: " أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، أَنْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ، يَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ يَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَا يُنْ أَمْسِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا ". وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٦٢٣).

(٥) - كما في البخاري - كتاب بدء الوحي - كيف كان بدء الوحي - برقم (٣) ٧/١: " فَقَالَتْ حَدِيثُهُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ".

الاجتماعي والتكامل الإنساني في كل مجالاته.

ومن الأخلاق أيضاً التي تُمثّل قيمةً مضافةً الوفاء بالعهد^(١)، وقد ظهر هذا الوفاء بالعهد قيمةً عظيمةً لا تُمارَس - فقط - بين مُجتمع المسلمين بل يفرضها الإسلام في مشروعه الحضاري علينا تجاه كلِّ مَنْ تعاملنا معه، وهو ما يُمثّل قيمةً المصادقية والشفافية الغاية في الأهمية في العلاقات والمعاملات حيث تُعطى هذه القيمة رقيّاً واستقراراً كبيرين للتعاملات الإنسانية^(٢).

كما جاء الإسلام بالكثير من الأخلاق والسلوكيات التي تنظم الحياة الأسرية والاجتماعية بشكلٍ عظيم، وهي بمثابة قوانين تحكّم العلاقة بين مكونات الأسرة وتحفظ الحقوق مثل النفقة^(٣) والحضانة والتربية^(٤) والرعاية^(٥)، وتحديد المسؤولية^(٦) بشكلٍ دقيقٍ وعميقٍ يصبُّ في مصلحة جميع الأطراف سواءً في حال الخلاف أو الوثام.

وامتداداً لهذه القوانين الأخلاقية التي تُقيم المجتمع، وتُراعي أحوال الناس في أمر دينهم ودنياهم شرع

(١) - ولو كان مشركاً، فكما في الجمع بين الصحيحين برقم (٤١٠) عامر بن وائلة قال حدثنا حذيفة بن اليمان قال ما منعي أن أشهد بداراً إلا أني خرجت أنا وأبي الحسيل قال فأخذنا كفار قريش فقالوا إنكم تريدون محمداً - ﷺ - فقلنا ما نريده وما نريد إلا المدينة قال فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتبنا رسول الله - ﷺ - فأخبرناه الخبر فقال انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم .

(٢) - الحميدي في الجمع بين الصحيحين برقم (٢٦٥٨): عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيه فنالت أصابعه بللاً فقلا ما هذا يا صاحب الطعام قال أصابته السماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس وقال: " من غشنا فليس منا " .

(٣) - ومن ذلك ما رواه البخاري - كتاب الوصايا - باب إن تترك ورقتك أغنياء خير لك، برقم (٢٧٤٢) ٣/٤ وإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَعْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ حَتَّى اللَّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ - باب في صلة الرحم - (١٦٩٢). عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَضِيعَ مَنْ يَثُوثُ. "

(٤) - قال تعالى في سورة التحريم آية (٦) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَمْتُوا نُفُوسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾. وفي الدر المنثور للسيوطي في معنى الآية : " قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبهم " تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور . دون ط . ٥٨٨/١٤

(٥) - في البخاري - كتاب الوصية - باب من استرعى رعية فلم ينصح لها - (٧١٥١) ٦٤/٩ عن معقل بن يسار : " أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ : « مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » .

(٦) - رواه البخاري في صحيحة - كتاب الجمعة - باب الجمعة في القرى والمدن برقم (٨٩٣) ٥/٢ : " بَنُ عُمَرَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْحَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " .

الإسلام طرائق الزواج^(١) وتكوين الأسرة.

فمن ذلك أمرُ الخطبة وشروط المخطوبة^(٢) والخطاب^(٣)، والرؤية الشرعية^(٤).
وأكد الإسلامُ حُسنَ المعشر، وطاعةَ الزوجة^(٥) للزوج وتقدير الزوج للزوجة والعدل في العلاقة معها والإحسان إليها^(٦)، وأحكام التعدد ومسوغاته وتبيين سبل الفراق والطلاق بأرقى الوسائل

(١) - ما رواه أبو داود في سننه - كتاب الطلاق - باب في وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية - ٢٢٧٢ -
٢٨١/٢ عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبرته: أن النكاح كان في الجاهلية على أربعة أنحاء: فیکاح منها نكاح الناس اليوم، یخطب الرجل إلى الرجل وليته، فيصدها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئنها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب، وإنما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يُسمى نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر، یجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصبونها، فإذا حملت ووضعت ومراً ليل بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى یجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمرکم، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، فتسمى من أحببت منهم باسمه، فيلحق به ولدها، ونكاح رابع: یجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصرن على أبواهن رايات تكون علماً لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت، فوضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألقوا ولدها بالذي يرؤن، فالتاطه، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - هدم نكاح أهل الجاهلية كله، إلا نكاح أهل الإسلام اليوم". ونهى عن نكاح المتعة كما رواه مسلم ٣ باب نكاح المتعة - برقم (١٤٠٦): "من كان عنده شيء من هذه النساء التي يمتنع بهن فليحل سبيلها".

(٢) - كما أخرج الحميدي في الجمع بين الصحيحين ٢٣٢٠ - عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال تنكح المرأة لأربع لما لها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك".

(٣) - كما أخرجه الترمذي في السنن برقم ١٠٨٤ - قال النبي - ﷺ - إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض".

(٤) - أخرج مسلم في صحيحه - كتاب النكاح - باب ١٢ - باب نكاح النظار إلى وجه المرأة وكفها لمن يريد تزوجها - برقم (١٤٢٤) ١٠٤٠/٢ - عن أبي هريرة، قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأثأه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنظرت إليها؟»، قال: لا، قال: «فأذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً»

(٥) - في سنن أبي داود - باب في حق الزوج على المرأة برقم (٢١٤٠) - لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق". وصححه الأرنؤوط.

(٦) - كما في سنن أبي داود - باب صفة حج النبي - برقم (١٩٠٥) - اتقوا الله في النساء، فإنكم أخدموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم، أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، وهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف".

والأخلاقيات، والتراحم بين الزوجين والعناية بالأولاد وحسن تربيتهم وإعدادهم إعداداً مُميزاً ليكونوا لِبَنَاتٍ فِي بُنْيَانِ الْأُمَّةِ وَبِنَائِهَا، وَنَهْوِصِ بِهَا.
كما حذّر الإسلام من الرياء^(١)، والنفاق^(٢) ومن الكسل والتراخي^(٣) وحبّب في العمل، والإنتاج^(٤) والبذل والطموح في الحياة، وكلّ ما سبق من أخلاقيات وسلوكيات تؤكد عظمة القيمة الحضارية وعمق المعنى الذي جاء به الإسلام كرسالة خالدة لكلّ البشرية تحمل الخير والرقى والتقدم والازدهار .

1.5. المبحث الخامس:

-
- (١) - البيهقي في شعب الإيمان - ط. الأولى. - ١٤١٠ - إخلاص العمل لله وترك الرياء - برقم (٦٨٣٢) : " أخافُ عليكم أخوفُ من المسيحِ الشركِ الخفيّ أن يقول الرجل يعمل لمكان الرجل". وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٦٠٤٢ .
- (٢) - كما في اللؤلؤ والمرجان - في التعوذ من العجز والكسل وغيره - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَخْيَا وَالْمَمَاتِ".
- (٣) - كما عند الحميدي : الجمع بين الصحيحين (٣٠٤٢) : عن المقدم عن النبي - ﷺ - قال " ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده ".

بناء إنسان الحضارة وقصة التغيير

1.5.1. فقراء الصُّفَّة، من التكوين إلى التمكين :

يُطْلَقُ مُصْطَلِحُ أَهْلِ الصُّفَّةِ^(١) عَلَى فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ قَدِمُوا إِلَى يَثْرِبَ مُهَاجِرِينَ لِأَجْلِ الْحِفَافِ عَلَى دِينِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ وَالْقَرَبِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَكَانُوا بَعْدَ هِجْرَتِهِمْ بِدُونِ مَأْوَى^(٢)، وَ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لَقَدْ تَحَدَّثَتِ الدُّنْيَا بِكِرَامِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَضِيَّةُ الْمُوَاخَاةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ مُشْتَهَرَةٌ مَعْرُوفَةٌ، فَكَيْفَ وَافَقَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَلَى أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَهْلُ صِفَّةٍ، لَا مَأْوَى لَهُمْ، لِمَاذَا لَمْ يَفْعَلُوا بِهِمْ كَمَا فَعَلُوا بِسَاقِيهِمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ؟

وَلِلْجَوَابِ أَقُولُ: إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَائِلَ الَّذِينَ هَاجَرُوا قَبْلَ - ﷺ - أَوْ مَعَهُ أَوْ بَعْدَهُ حَتَّى نَهَايَةِ الْفِتْرَةِ الْأُولَى قَبْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، اسْتَطَاعَ الْأَنْصَارُ أَنْ يَسْتَضِيْفُوهُمْ فِي بِيوتِهِمْ وَأَنْ يَشَارِكُوهُمْ النِّفْقَةَ وَالتَّجَارَةَ، وَكُلَّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ فِيمَا بَعْدَ كَبَرِ حِجْمِ الْمُهَاجِرِينَ مِمَّا لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ قُدْرَةً لِلْأَنْصَارِ عَلَى اسْتِعَابِهِمْ -^(٣).

وَأَمَرَ الرَّسُولُ الْمُرَبِّيَ الْقَائِدُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِتَظْلِيلِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ^(٤) الشَّرْقِيِّ مِنَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ بِجَرِيدِ النَّخْلِ، فَكَانَتْ الصَّفَّةُ الَّتِي جَمَعَتْ فُقَرَاءَ الصَّحَابَةِ الْمُهَاجِرِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ -

(١) - قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي الْفَتَاوَى الْكُبْرَى ٨١/٢: "كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَيَسِرُّ لَهُ مَكَانٌ يَأْوِي إِلَيْهِ، فَيُقِيمُ بِالصُّفَّةِ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ أَهْلٌ أَوْ مَكَانٌ يَأْوِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ".

(٢) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ - كِتَابُ الرِّقَاقِ - بَابٌ: كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ - ﷺ - وَأَصْحَابِهِ، وَخَلِيَّتِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا بِرَقْمِ (٦٤٥٢) - ٩٦/٨: حَدَّثَ مُحَمَّدٌ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، كَانَ يَقُولُ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لِأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لِأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ فَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمْ الَّذِي يُخْرَجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِشِبْعِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِِي عُمَرُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِشِبْعِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِِي أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَى، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ» وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلْتُ، فَاسْتَأْذَنْتُ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ، فَوَجَدْتُ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «مَنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ، قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي» قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا".

(٣) - انظر: الشامي في السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، ص ١٧٥. - أضف إلى ذلك أن الأنصار لم يخلوا عليهم أيضا بما يقدرون عليه.

(٤) - قال ابن تيمية - رحمه الله - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ١٠٠ - "وَأَنَّ الصِّفَّةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ صِفَّةً فِي شِمَالِي مَسْجِدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ بِهَا الْعُرَبَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ وَأَصْحَابٌ يَنْزِلُونَ عِنْدَهُمْ".

وعابري السبيل والضيوف.

وقد كَانَ تعاملُ الرسول -ﷺ- مع أهل الصفةِ تعاملًا جَمَعَ بينَ العطفِ والرغبةِ في تأهيلهم، وكان لهذا صورًا متعددة، إذ كان النبي -ﷺ- يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يُكثر مجالستهم ويُرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويعلمهم ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم^(١)، ومدارسته، وذكر الله والتطلع إلى الآخرة^(٢).

وقد كان -ﷺ- يؤمن نفقتهم بوسائل متعددة ومتنوعة فمنها؛ إذ أتته صدقةٌ بعث بها إليهم، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها، وأشركهم فيها^(٣). فكثيرًا ما كان يدعوهم إلى تناول الطعام في إحدى حُجرات أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- ولم يكن ينسأهم عنهم مطلقًا، بل كانت حالتهم ماثلةً أمامه، قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أَنَا سَا فُقَرَاءَ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَرَّةً مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ أَوْ كَمَا قَالَ وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ وَأَنْطَلَقَ النَّبِيُّ -ﷺ- بِعَشْرَةٍ^(٤). وكانت الرغبة في إعادة تأهيلهم من جديد قوية، فأهل الصفة يعتكفون^(٥) في المسجد للعبادة وكان الزهد سمة لهم، وكانوا في خلواتهم يصلون، ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته، ويذكرون الله - تعالى - ويتعلم بعضهم الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت -رضي الله عنه - لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة^(٦)، واشتهر بعضهم بالعلم، وحفظ الحديث عن النبي -ﷺ- مثل أبي هريرة -رضي الله عنه - الذي عُرف بكثرة تحديثه، ويبدو أن جلوس أبي هريرة في الصفة كان اختيارًا، لينهل من علم، وأدب النبي -ﷺ-.

(١) - في سنن أبي داود بسند صحيح - كتاب الصلاة - ٣٤٧ باب في ثواب قراءة القرآن - برقم (١٤٥٦) ٧١/٢ : " عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: "أَيْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ الْعَقِيقِ، فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ بَغِيرِ إِثْمٍ بِاللَّهِ وَلَا يَقْطَعِ رَجْمٍ؟" قَالُوا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَلَا تُغْدُو أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَإِنْ ثَلَاثَ فَنَالَ، مِثْلَ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ".

(٢) - السيرة النبوية الصحيحة ٢٥٠/١

(٣) - الحميدي، الجمع بين الصحيحين برقم (٢٥٥٣).

(٤) - رواه البخاري في الصحيح - كتاب المناقب - باب علامات النبوة - برقم (٣٥١٨) ١٩٤/٤.

(٥) - الصلابي، السيرة النبوية دروس وعبر ١٢/٥

(٦) - رواه أبو داود في سننه - كتاب الطلاق - باب في المملوكين يُعتقان معًا هل تُخبر امرأته؟ برقم (٢٢٣٧) ٢٧١/٢

وقد حرص النبي - صلى الله عليه وسلم - على تطبيق أنظمة، ومعالم النظام الاقتصادي الإسلامي المُعزّز لقيمة الإنتاج والعطاء، وأنَّ الإنسان هو الموردُ الأول، والأهم على هذا الكوكب، والعمل على التقليل من الفجوات بين الطبقات الاجتماعية، وتعظيم قيمة الطبقة الوسطى التي هي صَمَام أمان المجتمع، ليس معنى ذلك إهمال الطبقتين الأخرين: الفقراء والأغنياء، كلاً، بل لأنَّ هذه الطبقة الوسطى تُشكّل غالبية المجتمع، وقد نظّم الإسلام العلاقات بين كلِّ أبناء المجتمع الإسلامي بل الإنساني، وحدّد الحقوق والواجبات للجميع.

حين يدخل الدعوة ناسٌ ولا تستطيع هذه الدعوة أن تُسخر طاقاتهم في سبيلها، فإن أمثال هؤلاء يكونون في وضعٍ مشلولٍ، فلا هم ضدّ الدعوة ولا هم يُقدّمون شيئاً لها مفيداً، وفي هذه الحالة تكون قيادة الدعوة وحدها مُتحملة كلِّ مسؤولياتها، فإذا استطاعت قيادة الدعوة أن تُسخر طاقات الأتباع لصالح الدعوة، فإن المسؤولية وقتذاك يتحملها مجموع الأفراد، فيكون كلُّ فردٍ ينوب مناب القائد، وكل فرد يؤدي دوره، وفي النهاية فمهما توسعت دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوة في تحملها^(١) وتحول هؤلاء إلى قادة في مجالاتٍ مختلفة، وتلك رسالة هامة من رسائل الإسلام العظيمة.

ومن ثمَّ كان هناك تحولٌ كبيرٌ في أهل الصُفّة وواضح، حيثُ تغيّرت أحوالهم بعد أن كان الصحابة - رضي الله عنهم - يعطفون عليهم، ويأخذون منهم الاثنين والثلاثة لإطعامهم في بيوتهم، ويهتّم الحبيب - صلى الله عليه وسلم - بكل ذلك، حيثُ كان التكافل سمةً رئيسةً لذلك المجتمع مع البحث عن تحويل هؤلاء الفقراء لأقوياء ومُقتدرين ومُنتجين^(٢).

فهذا التحول في الصحابة الذين عاشوا الفقر والحاجة وغياب المأوى وسكنوا المسجد أصبح أكثرهم بعد التأهيل وطلب العلم والعكوف على العلوم والمعارف وقرّبهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قادة وولاة وأمرأة على الأمصار، وهذا يجعلنا نستفيد من أهمية تأهيل الفقراء والمحتاجين وإعادة تمّ إلى دائرة الإنتاج وإعمار الأرض، وهذه حكمة الإسلام وجزءٌ من عظمة هذا الدين الذي جاء رسالة ساميةً وعظيمةً لجميع مناجي الحياة وخير البشرية.

(١) - حوى، الرسول - صلى الله عليه وسلم - دون. ط.. ص ١٥. وهي نسخة مصورة عندي.

(٢) - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وَمَنْ تَعَدَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ نَزَلَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ مَكَانٌ يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ " أَهْلُ الصُّفَّةِ " نَاسًا بِأَعْيَانِهِمْ يُلَازِمُونَ الصُّفَّةَ، بَلْ كَانُوا يَقُولُونَ تَارَةً وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى، وَيُقِيمُ الرَّجُلُ بِهَا زَمَانًا ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهَا ". انظر الفرقان بين أولياء الرحمن ص ١٠٠.

فلا يصحُّ أن يستمرَّ الإنسانُ طاقةً معطلةً أو ضعيفًا ومنقطعًا عن مساراتِ الحياةِ وعمارةِ الأرضِ والقيامِ برسالتِهِ في الدنيا، وهنا تُتاحُ الفرصةُ لإعادةِ التأهيلِ، ثم إطلاقُ قدراتِهِ من جديدٍ في عصبِ الحياةِ وشريانِ التنميةِ والاقتصادِ.

ومن هذا الموقفِ يتبيَّنُ للمتأملِ هذه الرسالةُ العظيمةُ أهميةً بناءِ الإنسانِ مع بناءِ الأوطانِ وضرورةُ معالجةِ المشكلاتِ الإنسانيةِ والاقتصاديةِ والتنميةِ والسياسيةِ والاجتماعيةِ بقدرٍ من الكفاءةِ والحكمةِ فأهلُ الصفةِ مرُّوا على عدةِ مراحلٍ :

أولها: التكافلُ الاجتماعيُّ الذي كان صورةً رائعةً حيثُ الاهتمامُ بهم ومحاولةِ مواساتهمِ ودعمهمِ والتخفيفِ من فقرهمِ وحاجتهمِ وضعفهمِ وقلةِ ذاتِ أيديهمِ.

ثانيها: ثم الانتقالُ إلى مرحلةِ تأهيلهمِ علميًا و مهاريًا وفكريًا.

ثالثها: أصبحوا قادةً ومنتجينِ وأمراء وولاةً على الأمصارِ.

وهنا مرحلةُ التمكينِ بعد التكوينِ، حيثُ تم تفعيلُ قدراتهمِ وتطويرُ ملكاتهمِ ومعالجةُ نقاطِ الضعفِ لديهمِ وهنا كانت النقلةُ النوعيةُ لهم حيثُ كان كلُّ واحدٍ منهم ذا شأنٍ، وهذا تفعيلٌ واقعيٌّ لرسالةِ الإسلامِ الحضاريةِ والنهضويةِ التي جاءتْ لخيرِ البلادِ والعبادِ.

فالمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيفِ^(١) والانتقالُ من الضعفِ إلى القوةِ ومن الجهلِ إلى العلمِ يحتاجُ عملاً متبصرًا وجهدًا كبيرًا، وهذا الذي حصلَ معهم في هذا النموذجِ الفريدِ من بناءِ الإنسانِ يوضحُ رسالةَ مشروعنا الحضاريِّ.

وإنه ليطيبُّ لي في حديثي عن حملةِ هذا المشروعِ أعني صحابةَ النبي - صلى الله عليه وسلم - أن أذكرَ دورَ هؤلاءِ العظماءِ في إقامتهِ، بإشارةٍ خفيفةٍ؛ لأنني أعدُّ من الجفءِ، ونحن نتحدثُ عن هذا البناءِ الحضاريِّ الإسلاميِّ ألا نخصَّ رجالتهِ بحديثٍ ولو موجزًا؛ لأن المقصودَ في المقامِ الأولِ هو سيرةِ الرسول - ﷺ - لكنَّ الصحابةَ هم المتلقون عن الرسول - ﷺ - وهم حملةُ هذا الدينِ، ودعاته.

وأساسُ هذا المشروعِ ولبنته الأولى، والباحثُ، وإن كان أولُ الكلامِ حديثًا عن أهلِ الصفةِ، وكيف تحولوا من عبءٍ على المجتمعِ إلى مجاهدينِ، وعلماءِ، وحفظةٍ للوحيينِ؛ فإنني أقدمُ مزيدَ تفصيلٍ في هذا

(١) - أخرج أحمد في مسندهُ بسند صحيح من مسند أبي هريرة برقم (٨٧٧٧): "عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "المؤمن القوي خير وأفضل وأحب إلى الله عزَّ وجلَّ من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل قدر الله وما شاء صنع، وإياك واللو، فإن اللو يفتح من الشيطان".

المبحث القادم، لأهل الصفة ولغيرهم من الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -.

1.5.2. المطلب الثاني: الصحابة وحملُ هذا المشروع والبذلُ في سبيله .

المُتمعنُ في النظر إلى سيرة أصحابِ محمد - ﷺ -، ولو كان من غير المسلمين - شريطةَ الإنصافِ، والنزاهةِ - لن يترددَ في الشهادةِ لهؤلاءِ بالفضلِ والشرفِ للبذلِ الذي بذلوه في نُصرةِ الحق والعدلِ،

وانظر إلى ما تقوله الكاتبة الإيطالية الدكتورة (لورافيتشا فاليري) في كتابها "محاسن الإسلام"^(١):
"في بلد قفرٍ بوادٍ غير ذي زرع، منعزل عن الإنسانية المتمدنة تفجّر ينبوعُ ماءٍ سلسلٍ عذبٍ منعشٍ بين قومٍ من الهمج... ذلك ينبوع هو دين الإسلام.. ولم يلبث الناس أن تذوقوا هذا الشراب العجيب، وشفوا من أمراضهم الاجتماعية".

ثم استطردت: "لم يشهد التاريخ حادثاً مماثلاً لهذا الحادث الخبير؛.. وليت شعري كيف تأتت لهؤلاء المجاهدين غير المدربين أن ينتصروا على شعوب يفوقونهم مدنية وثروة، ويزيدون عليهم دربة ومراساً للحروب؟ وكيف استطاعوا أن ييسطوا سلطاتهم على بلاد متسعة الأرجاء، وأن يحتفظوا بفتوحاتهم هذه، ويوطدوا هذا الصرح العظيم الذي ثبت أمام حروبٍ شديدة استمرت قرونًا عديدة. أما الخلفاء الذين خلفوا محمدًا في حكم الدولة الإسلامية، والذين كانوا تراجمًا ضميره، فقد ساروا على سنته التي سنّها لهم، وحملوا راية الإسلام إلى قلب القارة الآسيوية من جهة، وإلى أمواج المحيط الأطلسي من الجهة الأخرى.

هذا يقوله من ليس مسلمًا، ثم يعمى كثيرٌ ممن ينتسب إلى الإسلام، ويزداد مع العمى ضلالًا واتباعٍ هوى؛ فيقرر أن الصحابة - عيادًا بالله - كانوا ينافقون الرسول، وأي نفاقٍ لرجلٍ لم يكن يومها يملكُ من الأمر شيئًا؟! والحقائق تشهد - في عجالة مختصرة - بدور الصحابة في نشر الإسلام، وقد تعددت صورته، ومنه: (تحملهم الأذى في سبيل الإسلام - إنفاقهم لنصرة الدين - تحمل القرآن والسنة ونقله للأمة - حماية جناب النبي والدفاع عنه - قتالهم في سبيل الدين، وفتح البلاد - الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة).

فقرة 1. أما عن الأولى وهي تحملهم الأذى فحدّث هؤلاء الذين يأكلون بالدين اليوم بوجوب دفع الخمس إليهم من أموال العامة والمساكين زعمًا أنهم أهل البيت، ثم هم يطعنون فيمن قُتلوا وعُدّبوا، وأخرجوا من ديارهم؛ لأجل نشر هذا الدين

فحدّثهم عن أبي بكر حين ألحَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور بالدين فقال: يا أبا بكرٍ إنا قليلٌ. «فلم يزل أبو بكرٍ يلحُّ حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد، وقام أبو بكرٍ في الناس خطيبًا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ فكان أول

- ١

(١) - الفياض، بحوث ودراسات. موقع الشيخ زيد بن عبدالعزيز الفياض / شبكة الألوكة .

ورابط الموضوع <http://www.alukah.net/web/fayad/0/23769/#ixzz3kgT8ugpn>

حَطِيبٍ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَتَارَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ فَضُرِبُوا فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَوُطِئَ أَبُو بَكْرٍ وَضُرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا وَدَنَا مِنْهُ الْفَاسِقُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلَيْهِ مَخْضُوفَتَيْنِ، وَيُحْرِفُهُمَا لَوَجْهِهِ وَنَزَا عَلَى بَطْنِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَا يُعْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ أَنْفِهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ آخِرَ النَّهَارِ قَلِمَ يَجِبُ إِلَّا بِقَوْلِهِ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١)؟

٢- وحدثهم عن عمر يومَ أسلمَ وقامَ مُنَادِي مَكَةَ يَصِيحُ بِأَنَّ عَمْرَ قَدْ صَبَأَ، وَعَمْرُ خَلْفَهُ يَقُولُ: كَذَبَ وَلَكِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَأَرَّوْا إِلَيْهِ، فَمَا بَرَحَ يُقَاتِلُونَهُ حَتَّى قَامَتِ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. قَالَ: وَطَلَحَ: -أَيَ أَعْيَا- فَفَعَدَ وَقَامُوا عَلَى رَأْسِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: افْعَلُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ فَأَخْلَفُ بِاللَّهِ أَنْ لَوْ قَدْ كُنَّا ثَلَاثِمِائَةَ رَجُلٍ لَقَدْ تَرَكْنَاكُمْ أَوْ تَرَكْتُمُوهُمَا لَنَا.

٣- وعن ياسر، وزوجه سمية، وابنه عمار، وكيف كانت هذه الأسرة نموذجاً للتضحية والصبر، حيث أسلمَ ياسرٌ وسميةٌ وعمارٌ، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليتهم بنو مخزوم غضباً شديداً، وصبوا عليهم العذاب صباً، قال ابن هشام (٢): "وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام. إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول: "صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة" (٣)، فأما أمه فقتلها، وهي تأتي إلا الإسلام، فمات ياسر - رضي الله عنه - من شدة العذاب، وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل، فطعنها النذل في قُبُلِهَا بَحْرِيَّةً فِي يَدَيْهِ فَمَاتَتْ، وَهِيَ أَوْلُ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ.

٤- وعن سائرهم (أي ضعفاء الصحابة) إذ أخذهم المشركون، فألبسوهم أذراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسانٌ إلا وقد وآتاهم علي ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ (٤).

في كثير من النماذج الخالدة التي حفظ التاريخ سيرة أصحابها واعترف بها كلُّ نبيل ذي مروءة، وإن لم يكن من المسلمين، أما من ليس له مروءة، ويستحل الطعن في الصحب والأمهات بل والسنة

(١) - ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق ط. الأولى - ٢٧٨/٤ - وانظر: ابن كثير في البداية والنهاية ٤٠/٣.

(٢) - ابن هشام، السيرة النبوية - (٢١٣هـ) - دون ط. - ١٤١١ هـ - ١٦٢/٢

(٣) - أخرجه عليه الألباني بأنه حسن صحيح في تحقيقه لكتاب فقه السيرة للغزالي - ١٩٩٨ ص ٣٣

(٤) - أخرجه أحمد في المسند - مسند عبد الله بن مسعود - برقم (٣٨٣٢) - وصححه الألباني في: صحيح السيرة النبوية -

محمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى - ص ١٢٢ - وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - دون ط. - في ترجمة بلال - رضي الله عنه - ١٤٣/١.

والقرآن فهؤلاء لا يُفيد اعترافهم بل لعلهم يعدلون عن الغواية حين يقرؤون هذه الحقائق، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

فقرة 2. أما عن الإنفاق فهل ترى في الناس اليوم من يخرج من ماله كله لله أو من نصف ماله كما فعل أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما -؟ قال عمر^(١): أمرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نتصدق، فوافق ذلك ما لا عندي، فقلت: اليوم أسبقُ أبا بكر! إن سبقته يوماً! فجئتُ بنصف مالي، فقال - ﷺ -: " ما أبقيت لأهلك؟ ". قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ما أبقيت لأهلك؟ ". قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقك إلى شيء أبداً !

وتأمل عثمان يُشهد قتلته الذين حاصروا داره على مناقبه؛ فيعترفون له بذلك، ثم يُصرون على ما أقدموا عليه من فتنة وتخريب، وهؤلاء المعتدون هم سلف أمثالهم اليوم الذين يزدرون أصحاب محمد، ولا يعترفون بشيء من فضلهم. فقال عثمان - رضي الله عنه -^(٢): " أَنْشَدُكُمْ بِاللَّهِ وَبِالْإِسْلَامِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ يُسْتَعْدَبُ غَيْرَ بئرِ رُومَةَ فَقَالَ مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلُ فِيهَا ذَلُوهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي فَجَعَلْتُ ذُلُوبِي فِيهَا مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ... هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ عَلَى ثَبِيرِ مَكَّةَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَا فَتَحَرَّكَ الْجَبَلُ فَرَكَّضَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِجْلِهِ وَقَالَ اسْكُنْ ثَبِيرٌ فِيمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ قَالُوا اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ شَهِدُوا لِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ يَعْنِي أَيُّ شَهِيدٌ ".

وأبو الدحداح ينفق بُستانه كله لأجل نخلة في الجنة، فقال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم له - : " كَمْ مِنْ عَذِقِ (٣) دَوَّاحٍ (٤) لِأبي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ - قَالَهَا مِرَارًا - " (٥). لقد كان الإنفاق سمة عامة

(١) - أبو داود في السنن - كتاب الصلاة - باب استحباب التَّزْيِيلِ فِي الْقِرَاءَةِ بِرَقْم (١٤٧٣). ٧٥/٢ وحسنه الألباني في صحيح السنن.

(٢) - رواه الترمذي في السنن - أبواب فضائل القرآن - برقم (٢٩٢١). ١٨١/٥. حسنه الشيخ الألباني في إرواء الغليل في تخریج أحاديث منار السبيل للألباني، ط ٢، برقم (١٥٩٤).

(٣) - العرجون بما فيه من الشماريخ والتمر.

(٤) - وهو العظیم الشدید السُمُوقُ وَكُلُّ شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ دَوْحَةٌ.

(٥) - الطبراني، المعجم الكبير برقم (٧٦٣) - وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته ط. الثانية. برقم

(٤٥٧٤). والهيثمي في صحيح وضعيف موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان - دون ط. برقم (١٩٢٧).

للأغنياء والفقراء من الصحابة، يوضح ذلك مواقف متعددة، منها أنه قد جاء قومٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ إلى النبي، فَتَمَعَّرَ وَجْهَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ لِمَا رَأَى مَا يَهُمُّ مِنَ الْفَاقَةِ، وَعَظَ النَّاسَ فَأَقْبَلَ الصَّحَابَةَ يَنْفِقُونَ، كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ، " فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ (١) " (٢).

فقرة 3. أما عن نشرهم الدين وتعليمهم القرآن والسنة وحفظهما فهو أظهر المناقب، فالله سبحانه اصطفاهم فكانوا خيرة من يحملون عن نبيه، حفظوا القرآن، والسنة وبلغوهما، فالله يقول: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (٣). قال الشيخ السعدي - رحمه الله (٤) -: " لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه". وهذا يقتضي حتماً أن الصحابة حفظوه، سواء أكان مكتوباً أو في الصدور، وأدوه إلى الأمة على خير وجه، وغير هذا محال، بخلاف أهل الأهواء الذين يقولون بتحريف الذكر: قرآنا وسنة، وبوب البخاري (٥) - باب " خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، فحفظه الصحابة.

فأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - من كبار الصحابة - وكلهم كبير - الذين حفظوا القرآن كله (٦)، وأبي بن كعب كان يكتب الوحي، وهو أحد الحفظة في عهد النبوة (٧). ومعاًد بن جبل بُعِثَ قَاضِياً إِلَى الْجَنْدِ بِالْيَمَنِ يُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ وَشِعَائِرَ الْإِسْلَامِ وَيَقْضِي بَيْنَهُمْ (٨)، وهو أحد الذين حفظوا القرآن أيضاً

(١) - كانه مذهبه ضبطه الجمهور بذال معجمة وفتح الهاء وباء موحدة فقليل معناه فضة مذهبة وهو أبلغ في حسن الوجه وإشراقه.

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة... برقم (١٠١٧) ٣/٧٠٣

(٣) - سورة الحجر آية (٩)

(٤) - السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط. الأولى ١/٧٣٠.

(٥) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب فضائل القرآن - باب قوله خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٥٠٢٧) ٦/١٩٢.

(٦) - النووي في تهذيب الأسماء واللغات للنووي - دون. ط. ٢/٧٦١

(٧) - أبو العلاء المباركفوري. تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذي - باب فضل أبي بن كعب - برقم ٢٧ - دون ط.

(٨) - القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن سلطان القاري ط. الأولى، ١٠/٦

على عهد رسول الله^(١)، وكذلك زيد بن ثابت، وأبو زيد الأنصاري^(٢). وعبد الله بن عمرو بن العاص^(٣).

فحفظ القرآن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم جمًّا غفيرًا، منهم الأربعة الخلفاء^(٤)، وقد ذكر أهل التاريخ أنه قد قتل من المسلمين يوم اليمامة أربعمئة وخمسون من حملة القرآن ومن الصحابة وغيرهم^(٥)، وفي تاريخ الإسلام قتل يوم الحرة من حملة القرآن سبعمائة^(٦). فانطلق الصحابة في الأمصار يعلمون الناس ما تحملوه من أمانة وهدى الكتاب والسنة على الوجه الذي علمهم إياه رسول الله. قال عبادة بن الصامت -رضي الله عنه-: "كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن"^(٧).

وأما السنة فتأمل حرص الصحابة على حفظها ونشرها، قال أبو هريرة^(٨): "صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- ثَلَاثَ سِنِينَ، لَمْ أَكُنْ فِي سِنِّي أَحْرَصَ عَلَى أَنْ أَعِيَ الْحَدِيثَ مِنِّي فِيهِنَّ".
وقول النبي -ﷺ-^(٩) لأبي هريرة: "ابْسُطْ رِدَاءَكَ. فَبَسَطُهُ. فَعَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: ضُمَّهُ. قال أبو هريرة: فَضَمَّمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ". حتى قيل إنه روى نحوًا من (٥٣٧٤)^(١٠). وكذا قد أكثر من الرواية والحفظ ابن عباس وعائشة، وأنس، وجابر، وابن عمر -رضي الله عنهم أجمعين- فقد أخذ الأصحاب بنصيحة الحبيب -ﷺ-: "نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فَفِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَفِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ"^(١١). فقاموا بذلك على خير وجه، فعمر كان

(١) - العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري - باب اسم الفرس والحمار - حديث رقم (٦٥٨٢٩). ٣١٧/٢١

(٢) - ابن الملقن في التوضيح لشرح الجامع الصحيح ٦ - ط. الأولى - ٥١٣/١٧

(٣) - ابن الجزري في غاية النهاية في طبقات القراء - دون ت. - باب العين - ١٩٥/١

(٤) - الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القرآن - ط. الثالثة - دون ت. ص ٢٤١

(٥) - ابن كثير في البداية والنهاية ٦/٣٧٣

(٦) - الذهبي في تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - ط. الأولى. ٣٠/٥

(٧) - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - حديث رقم (٤٢٠٠).

(٨) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المناقب - باب علامات النبوة - برقم (٣٥٩١) ١٩٦/٤.

(٩) - السابق - باب حفظ العلم - برقم (١١٩).

(١٠) - ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة - ط. الأولى، ١٤١٢ - ٤٣١/٧

(١١) - أخرجه أبو داوود في السنن - كتاب العلم - باب فضل نشر العلم - برقم (٣٦٦٠). ٣٢٢/٣. وصححه الألباني في صحيح السنن.

يَتَنَابَوُ وَأَنْصَارِيٌّ تَحْمُلُ الْعِلْمَ، وَنَقَلَ الْوَحْيَ وَالْأَخْبَارَ قَالَ عُمَرُ (١): " كُنْتُ وَجَارِي مِنْ الْأَنْصَارِ .. نَتَنَابَوُ النَّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ .. فَإِذَا نَزَلَتْ جِئْتُهُ بِخَبْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ "

وَكَتَبُوا أَحَادِيثَ كَثِيرَةً عَنْ رَسُولِهِمْ فِي صَحَائِفِهِمْ، فَكَانَتْ لِعَلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صَحِيفَةٌ جَمَعَ فِيهَا الْحَدِيثَ (٢)، وَلَعَبَدَ اللَّهُ بَنَ عَمْرٍو بَنَ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَذَلِكَ، قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَهَتَنِي قَرِيشٌ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَرَسُولُ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكَتُ عَنِ الْكِتَابَةِ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ: " اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ " (٣)، وَصَحِيفَةُ عَمْرٍو بَنَ حَزَمَ حِينَ اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى أَهْلِ نَجْرَانَ، وَصَحَفَ نَبَوِيَّةً كَثِيرَةً كَتَبْتُ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قَدْ أَوْصَلَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ عِدَدَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُمْ صَحَفَ جَمَعَتْ فِيهَا السَّنَةَ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ صَحَابِيًّا وَصَحَابِيَّةً (٤). فَحَفِظُوا الْعِلْمَ وَنَشَرُوهُ.

فقرة . 4. أما عن القتال لأجل الدين ونشر الإسلام فلم تُشرق شمسُ يومٍ على ثلثة ضحَّت بكلِّ غالٍ ونفيسٍ كما ضحى الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - بالنفس والأهل والضياع والموطن؛ لإعلاء كلمة الله، فقد حفظت كتب السيرة لهم مائة سرية، وغزوة كما نقل الحافظ في الفتح في آخر كتاب المغازي (٥). وكل هذه الغزوات يقاتلون فيها محتسبين مقبلين غير مدبرين ألم يروا ابن الأكواع سلمة (٦) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو يتبع المشركين بمفرده، ويقاتلهم ويرتجز: خُذْهَا مِنْ ابْنِ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمَ يَوْمَ الرُّضْعِ (٧).

أولم يقفوا على قولة الأخرم الأسدي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حين لحق بسلمة، وقال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله

(١) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب العلم - باب التناوب في العلم برقم (١٩٠/٢٩)

(٢) - علي بن أبي طالب، صحيفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - دون ط ص ٤٣. وانظر: فوزي، كتابة السنة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأثرها في حفظ السنة النبوية. دون ط. ص ١٢٣
(٣) - أخرجه أحمد في المسند - أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص - برقم (٦٥١٠). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٦٤٨).

(٤) - الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في كتابه "دراسات في الحديث النبوي وتاريخه وتدوينه. دون ط. ص ٩٢-١٤٢.

(٥) - ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري - باب كم غزا النبي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حديث رقم (٤٢٠٣) - ١٥٤/٨

(٦) - الصحابي سلمة بن عمرو بن الأكواع، ومات سنة (٧٤هـ). كما في الجمع بين الصحيحين - (٧٤) المتفق عليه من مسند سلمة بن الأكواع. ص ٣٦٠
(٧) - أي يوم هلاك اللقاع.

واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحل بيني وبين الشهادة. (١)
 أولم يسمعوا عن عامرٍ عمِّ سلمة، حين سَمِعَ مَرَحِبًا المشرك يفتخرُ بنفسه على المسلمين في غزوة خيبر
 ويرتجز، ويقول :

قَدْ عَلِمْتُ حَيْبُ أَيْ مَرَحِبٌ :: شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبٌ :: إِذَا الحُرُوبُ أَفْبَلَتْ تَلَهَّبُ
 قَالَ سلمة فَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ، وَرَدَّ عَلَيْهِ :

قَدْ عَلِمْتُ حَيْبُ أَيْ عَامِرٌ :: شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلٌ مُعَامِرٌ.

فقاتل مرحبا ببطولة نادرة، حتى قُتِلَ رضي الله عنه (٢). وأما عُمَيْرُ بن الحمام فقد أخرج تمراتٍ يأكلها
 في ساحة المعركة فاستطال الحياة ؛ فقال: " لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة قال
 فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل " (٣). وهذا الذي ارتجز يوم مؤتة (٤) ليقتل في سبيل
 الله وقال أبياته التي يشع منها نور الإيمان.

حَدَّثُوا الدنيا أن مَوْقِعَةً مُؤْتَةَ كان عدد الصحابة فيها ثلاثة آلاف، وعدد النصارى وَمَنْ شاركهم مئتا
 ألف صليبي، هل فهم ذلك أولئك الأراذل، أصحاب الفهم السيء، والظن الخبيث بأصحاب رسول
 الله ﷺ - الزاعمون أنهم كانوا يقاتلون نفاقا - عيادا بالله - لقد تشاورَ الصحابة - رضي الله عنهم -
 فيما يفعلون مع هذا العدد، وذلك حقهم، واختلف الناس، فقام قائدهم - وكلهم قائد - ابن رواحة،
 فخطبهم (٥) : " يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون؛ الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد
 ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين. .. فانطلقوا وإنما هي إحدى الحسينين: إما ظهور، وإما
 شهادة".

ولم تمض سنواتٌ حتى استطاعوا والتابعون أن ينتصروا على أعظم امبراطوريتين تحت الشمس، وهي

(١) - أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب الجهاد والسير - ٤٥ - بَابُ غَزْوَةِ ذِي قَرْدٍ وَعَمِيرِهَا - برقم - (١٨٠٧) ٣/١٤٣٣ .
 (٢) - السابق نفسه .

(٣) - مسلم في صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - ٤١ باب ثبوت الجنة للشهيد - برقم (١٨٩٩) ٣/١٥٠٩ .

(٤) - وهو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ حِينَ أَخَذَ الرَّايَةَ فَقَالَ : أَقْسَمْتُ يَا نَفْسِ لَتَنْزِلَنَّ طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهَنَّ
 إِنَّ أَجْلَبَ النَّاسِ وَشَدُّوا الرِّبَّةَ مَا لِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ
 قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةِ .

من بحر الرجز، وصححه الألباني صحيح سنن ابن ماجه برقم (٢٢٥٢).

(٥) - الصلاحي، السيرة النبوية - عرض ووقائع - المبحث الرابع - سرية مؤتة - ٢٥/٤ .

فارس، والروم، ومن يومها والحقد دفين في قلوب هؤلاء من فرس وروم.

فقرة 5. وأما عن دعوتهم إلى الإسلام فقد كانوا من أول يوم أئمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتحملون كل ما يواجههم ابتغاء مرضاة الله وطمعا في الجنة، فأبو بكر يومَ أسلم لم يرجع لرسول الله - ﷺ - إلا ومعه أربعة من العشرة المبشرين بالجنة، قال السهيلي (١)، وهو يتحدث عن أبي بكر: " فَأَسْلَمَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَجَاءَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ فَأَسْلَمُوا.

ومصعب يخرج داعيا سفيرا بالمدينة، وقد رأيت فيه حكمة السفراء الألباء، حين جاءه أسيد بن حضير يتهدده في المجلس، فقال له: " أَوْ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ إِنَّ أَعْجَبَكَ كَلَامَنَا قَبْلَتَهُ، وَإِلَّا كَفَّفْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ، فَكَلَّمَهُ مَصْعَبٌ، فَأَسْلَمَ فَجَاءَهُ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ، فَكَلَّمَهُ مَصْعَبٌ فَأَسْلَمَ، فَرَجَعَ سَعْدٌ إِلَى قَوْمِهِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ دَاعِيَا إِيَّاهُمْ، وَقَالَ (٢): " فَإِنْ كَلَّمَ نِسَائِكُمْ وَرِجَالَكُمْ عَلِيٌّ حَرَامٌ حَتَّى تَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَتَصَدَّقُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا ". وحين أسلم أبو ذر قام داعيًا إلى قبيلته غِفَارًا، فأسلم على يديه نصفها (٣)، وتواعد أن يُسلم النصف الثاني حين يقدم الرسول إلى المدينة.

ومن تأمل كيف كانوا رُسلًا إلى الملوك والقيصرة والأكاسرة والأباطرة، وكيف كانت حكمتهم في مخاطبة هؤلاء؛ لأدرك أن الأرحام لم تُنجب كأصحاب محمد - ﷺ - تأمل جعفر بن أبي طالب حين كَلَّمَ النجاشي (٤) في مهاجرة الحبشة من الصحابة - رضي الله عنهم - : " أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، .. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف

(١) - السهيلي، الروض الأنف - إسلام أبي بكر - ٢٨٩/١

(٢) - السهيلي - الروض الأنف ٢٥٨/٢

(٣) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي ذر - برقم (٢٤٧٣) ٤/١٩١٩

(٤) - أخرجه أحمد في المسند - مسند جعفر بن أبي طالب - وهو حديث الهجرة - برقم (١٧٤٤).

المحصنة، .. فعدا علينا قومنا، .. فلما قهرونا وظلمونا. .. رغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك."

هذا في نماذج لا تُحصى من أصحاب النبي -ﷺ- دَعَوْا إلى الإسلام، فعلموا الناس كيف التأسي بالرسول -ﷺ- عملا وقولا، وكيف يكون الاعتقاد الصحيح، وليس كحال بعض الناس اليوم ممن يتصدّر في المشاهد يدعون الناس بلسانهم، ويصدونهم بفعالهم، وحال الناس حين يرون هؤلاء أن يقولوا لو كان خيرا لسبقونا إليه؛ فصدوا عن الدين، وهم يزعمون أنهم من المهتدين، نعوذ بالله من شر ذلك.

فقرة . 6. أما عن حمايتهم جناب النبوة فلم تغبض للواحد منهم عينٌ إلا أن يطمئن على الحبيب، وقد مر بنا موقف أبي بكر.

وعليٌّ - رضي الله عنه - بالهجرة ينأى موضع الحبيب، وهو يعرف أنه قد يقتل فداء. والمغيرة بن شعبة يقف على رأس الحبيب يوم الحديبية وحين جاء عروة بن مسعود يحاور النبي ويمسك بلحيته، ضرب المغيرة يده بنعل السيف وقال له أجز يدك عن حية رسول الله" (1). وحين تجاوز عروة في الحديث مع النبي، وقال: "إني لأرى أو شأبا من الناس خليفاً أن يفرؤا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امضص بظن اللات أحن نقر عنه وندعه" (2).

وهي كلمة خرجت من رجل عفيف ذي ديانة واستقامة خلق؛ لتدرك عظم ما تقول به عروة حين طعن في حبه للرسول -ﷺ-.

وإليكم ما سجّله التاريخ عن رجلٍ كان لا يزال على الكفر، هو عروة بن مسعود، حين أراد أن يصف محمدا وأصحابه للمشركين، فقال: "والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يُعظّمه أصحابه ما يُعظّم أصحاب محمد محمداً".

وقد حدثتكم عن يومٍ أحدٍ، وكيف اجتمعوا؛ ليحموا الرسول بمهجم والأرواح، لما هزم المسلمون في أحد وثبت الرسول، فجعله المشركون غرضاً وهدفاً، فهجمت مفرزة منهم يريدون قتله، فثاب إليه

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط - برقم (٢٧٣١) ٣/١٩٣.

(٢) - السابق.

الأنصار، وفي مقدمتهم سعد وطلحة، وناضلوا عن رسول الله بنباهم وجسومهم، ومدح الرسول سعدًا فقال: "أزم فداك أبي وأمي".^(١)

وأما طلحة بن عبيد الله^(٢) فحين هجم المشركون على النبي الكريم فظل يقاتل حتى قُطعت أصابعه". وأصبحت يده شلاء؛ لأنه وقى النبي ها يوم أحد. فكيف يقبل عاقلٌ من هؤلاء المُعَيَّبَةِ عقولهم، والمزيفة عقائدهم الطعن في أصحاب محمد-رضي الله عنهم - بأنهم ارتدوا؟! ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اهدنا وإياهم وقنا شر الغواية، وتوفنا وأنت راضٍ عنا.

المبحث السادس : خلاصة الفصل

(١) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب الجهاد والسير - باب المَجْرَى وَمَنْ يَتَّسُّ بِئْرَسُ صَاحِبِهِ - برقم (٢٩٠٥) ٤/٣٩٠.
(٢) - رواه النسائي في سنن - كتاب الجهاد - في باب ما يقول من طعنه العدو - برقم (٣١٤٩) - ٦/٢٩٠. حسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن النسائي برقم (٣١٤٩) من قوله: " فقطعت أصابعه. .. " و ما قبله يحتمل التحسين، و هو على شرط مسلم، في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٩٦).

لقد قدر للمشروع الحضاري الإسلامي أن يبدأ من الصفر ، ليكون نموذجاً يُمكن كلُّ من أراد أن يدعو إليه في أي مكان وزمان أن يُقيمه ويُعليه، فهي رسالة تناسب البشر ، حيث العمل على تربية الجيل الذي سيحمل هذه الرسالة وينشأ تلك الحضارة ، فيكون قادراً على مواجهة العقبات والتحديات ، ثم البناء والتأسيس ، وكان من أسس هذه المشروع التنمية بكل أشكالها ، علمية واقتصادية وزراعية وصناعية وتجارية ، ومن قبلها تكوين الإنسان ، وقد احتاج الأمر إلى دخول في معارك مع قوى الشر التي تواجهه ، وقد كان له مبادئ قد حُددت لتحقيق النصر على هذه القوى ، إنه الإيمان والأخذ بالأسباب .

الفصل الثاني: (مولد التمكين)

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول : التمهيد

المبحث الثاني : الصراع الصفري مآلات وتحولات.

المبحث الثالث : الانتقال من الدفاع إلى الهجوم.

المبحث الرابع : فتح مكة والتحوُّلات الكبرى.

المبحث الخامس : خلاصة الفصل .

2.1.المبحث الأول : (التمهيد)

محاولة القضاء على المشروع الإسلامي في مهده ، كان اليهودُ يعيشون انكساراً كبيراً^(١)، بعد إخراج بني النضير من ديارهم في المدينة، بعد محاولتهم اغتيال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وكذلك إجلاء بني قَيْنُقَاع قبلهم من المدينة^(٢)، وقد كانت هذه المشاعرُ نفسها موجودةً في قريش التي هُزِمَتْ في بدرٍ، وهُزِمَتْ في بداية أُحُدٍ، وانتصرتُ بسببِ خطأٍ من المسلمين، وهذا الأمرُ أثرٌ كثيراً على الصورة الذهنية لقريش عند العرب الذين باثوا يتحدثون عن انكسار قريش وضعفها وهذا ما لا تُريده قريشٌ.

عَطْفَان -وهي قبيلةٌ عربيةٌ - فرُّوا^(٣) أيضاً من أمام الرسول -ﷺ- عندما واجهَهُم، وليس من شكٍ أن هذا قد شكَّل لهم انكساراً، ورغبةً في الانتقام في آني واح فخطط هؤلاء وغيرهم للقضاء على الدعوة.

(١) - المباركفوري، في الرحيق المختوم في أول الحديث عن غزوة الأحزاب ص ١٩٤: " عاد الأمن والسلام، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث التي استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود . الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم . لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا، ولم يتعظوا بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر . فهم بعد نفهم إلى خبير ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين من خلال المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين، ولما تحول مجري الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم . تحرق هؤلاء اليهود أي تحرق، وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة، لتصويب ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

(٢) - نقل السهيلي في الروض الأنف ٣٦٧/٢: " وَلَمَّا أَصَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودَ فِي سُوْقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَ بِهِ قُرَيْشًا، فَقَالُوا لَهُ يَا مُحَمَّدُ لَا نَعْرِتُكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْتَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَعْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَنَا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنْتَ لَمْ تَلَقْ مِثْلَنَا ". وفيه ٢٢٤/٢: " قَالَ كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْعَرَبِ قَدِمَتْ بِجَلْبٍ لَهَا، فَبَاعَتْهُ بِسُوْقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِعٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كُشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ فَعَمِدَ الصَّائِعُ إِلَى طَرْفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْءُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ. فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِعِ فَقَتَلَهُ وَكَانَ يَهُودِيًّا، وَشَدَّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ فَاسْتَصْرَحَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَعَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ ".

(٣) - قال المباركفوري في الرحيق المختوم ص ١٩٦: " أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي -ﷺ- بعد بدر أن بني سليم وبني عَطْفَان تحشد قواتها لغزو المدينة، فباغتتهم النبي صلى الله عليه وسلم في مائتي راكب في عقر دراهم، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له: الكُدْر. ففر بنو سليم، وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولي عليها جيش المدينة، وقسمها رسول -ﷺ- بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاما يقال له: (يسار) فأعتقه. وأقام النبي -ﷺ- في ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة. وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام، أو في المحرم للنصف منه، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سيباع بن عُرْفُطَةَ. وقيل: ابن أم مكتوم ".

2.2. المبحث الثاني : الصراع الصفري مآلات وتحولات)

ليس من شك أن كل ما سبق من انتصارات للمسلمين، وانكسارات بعض القبائل العربية وقريش وبني النضير استغله اليهود في التحضير لعمل عسكري يستأصل المسلمين في عُقر دارهم، ويقضي عليهم، ويجمع لهذا العمل القبائل العربية مع اليهود؛ حتى يُشكّلوا قوة كبيرة تُسهّل لهم خطة القضاء على المشروع الإسلامي، وإنهاء دولتهم.

وبدأ شر القوم اليهود في التواصل مع قريش^(١) والقبائل العربية للتحريض على محمد-عليه الصلاة والسلام- وأصحابه الكرام-رضي الله عنهم- و التقت قوى الشر في الجزيرة العربية على هذا البغيّ بجمعهم المصالح بين كل هؤلاء الفرقاء، من الحسد، والبغضاء، وخوف ضياع السلطان.

. وفي ظلّ هذا التوتر والشحن الذي كان ضدّ الإسلام انعقدت النية لغزو المدينة، وطار الخبر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي بدأ يبحث مع أصحابه الأمر، ولم يكن الحبيب القائد المؤيّد من السماء المحنك ليغفل عن توقع هذه التدابير.

وكان الاقتراح العظيم من سلمان الفارسي^(٢) -رضي الله عنه- بحفر الخندق، وكان العرب لا يعرفون الخندق، وهي من إستراتيجيات الحروب لدى الفرس، حيث تؤمّن المدن من الغزاة، وقد كانت تلك الإستراتيجية من أعظم المواقف التي تتجلّى فيها عظمة الشورى، والتنسيق بين الرسول-صلى الله عليه وآله- والصحابة -رضي الله عنهم- للاستفادة من جميع القدرات والطاقات الموجودة، وتفعيل جميع الخبرات، وقد قبل الرسول -صلى الله عليه وآله- وأعجبه، وأمر الصحابة بحفر الخندق، وشاركهم ذلك بنفسه^(٣).

(١) - قال ابن كثير ٣٨٣/٦ : " وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشرف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشرف قريش، وألبوهم على حرب رسول الله (١) -صلى الله عليه وآله- ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضا. وخرجت قريش في أحابيشها، ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف "

(٢) - ابن هشام، السيرة النبوية ١٨٢ / ٤ : " سلمان يشير بحفر الخندق قال ابن هشام يقال إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا سلمان منا وقالت الأنصار سملنا فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله- سلمان منا أهل البيت "

٣ - أخرج البخاري في صحيحه - كتاب الجهاد والسير - باب الرجز في الحزب ورفع الصوت في حفر الخندق برقم (٣٠٣٤) ٦٤ / ٤ - قال البراء - رضي الله عنه - رأيت النبي -صلى الله عليه وآله- يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره وكان رجلاً كثير الشعر وهو يرتجز برجز عبد الله :

وقد كانت فكرة الخندق فكرة عبقرية لحماية المدينة^(١) من جيش كبير اجتمع الأحزاب فيه على جمعه وحشده ضد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث كانت المدينة يحدها ثلاث حرات من عدة جهات ولا يمكن لجيش العدو أن يقطع الحرة بدون أن يتكبد خسائر بالغة، إن استطاع أن يتجاوزها أصلاً، فهي عبارة عن أرض مليئة بالأحجار الكبيرة، وهذا الأمر جعل فكرة الخندق مميزة؛ لأنها سوف تحيط المدينة بسور آمن يحد المدينة من جهة الشمال بهذا الخندق، ومن الجنوب جبل سلع، وباقي الجهات محصنة بالحرات الطبيعية التي يصعب عبورها من الجيوش.

لكن التحدي الكبير كان في بني قريظة - وهم من يهود المدينة - وكانوا يقيمون بين الحرتين الشرقية والجنوبية وكان هناك تخوف من قبلهم ومن خيانتهم رغم وجود العهد والميثاق الذي عقده الرسول - صلى الله عليه وسلم - معهم وذكرهم به قبيل الحرب.

وحدثت خيانة عظمى من هذه الفئة التي كانت على عهد وميثاق مع الدولة الإسلامية، ثم هي في أحلك الظروف تنقض العهد، وتتعاون مع العدو المهاجم من خارج الدولة؛ وغزاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك بسبب نقضهم لهذا العهد الذي كان بينهم وبينه في أحلك الظروف وأصعبها، لا يدعي أحد بعد ذلك أن العقاب الذي أنزله النبي - صلى الله عليه وسلم - بهم فيه شيء من الإجحاف أو الظلم؟ وماذا لو تم لهم ما أرادوا من غدر وخيانة للمسلمين؟ إن مصير المسلمين في هذه الحالة - من دون شك - هو القتل والتشريد وضياع المال والولد والأهل^(٢).

لقد اهتم بذلك القائد - عليه الصلاة والسلام - لأنهم كانوا يمثلون نقطة الضعف الوحيدة في هذا التحصين الكبير للمسلمين الذي اجتهدوا في الحفاظ على دولتهم، وعاصمتها المدينة من هذا

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا * وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا.
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا * وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا * إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ.

(١) - قال البلادي عاتق بن غيث، المعالم الجغرافية في السيرة النبوية - ط. ١. نشرة دار مكة ١٤٠٢هـ، ص ٩٦ : " وَلَمَّا كَانَتْ الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ مُحَاطَةً بِالْحَرَارِ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ، فَإِنَّ الْجِهَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تُصَلِّحُ أَنْ يَحْشُدَ فِيهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ الْجِهَةُ الشَّمَالِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ، بَيْنَ سَلْعٍ وَأَسْفَلَ حَرَّةِ الْوَبَرَةِ، وَتُسَمَّى الْيَوْمَ حَرَّةَ الْمَدِينَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْجِهَةُ الشَّمَالِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ بَيْنَ سَلْعٍ أَيْضًا وَحَرَّةِ وَقِيمٍ، فَخَفِرَ الْخَنْدَقُ بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مُطِيفًا بِجَبَلِ سَلْعٍ مِنْ وَرَائِهِ، بِعُمُقٍ يَصْعُبُ عَلَى الْعَدُوِّ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهُ لَوْ هَبَطَهُ، وَاتَّسَاعٍ يَصْعُبُ عَلَى خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ قَفْزُهُ. وَدَارَتْ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَنَصَرَ اللَّهُ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحَدَّهُ

(٢) - مقالة للدكتور راغب السرجاني - بعنوان : لماذا حارب الرسول كل من عاهدهم من اليهود - <http://islamstory.com/ar>

الاجتياح الكبير.

وقد تمَّ تصميمُ الخندقِ بطريقةٍ لا تُمكنُ الفارسَ أو الراجلَ الذي يحاولُ دخولَ المدينةِ أن يعودَ سالمًا، بالإضافةِ إلى صعوبةِ مرورِ الخيلِ وعبورها للخندقِ، وهنا تمَّ تحصينُ المدينةِ بالشكلِ المطلوبِ قبل وصولِ الأحزابِ.

ومع هذا العملِ والحفرِ، وهذا الجهادِ نَفَدَ الطعامُ، وقد اشتدَّ الجوعُ بالمسلمين في تلك المرحلة حتى إن الرسول -ﷺ- وبعض أصحابه - رضي الله عنهم - يظنون أيامًا دون طعامٍ، وكان يضع النبي -ﷺ- الحجرَ على بطنه من شدةِ الجوع^(١)، وكثرت الكراماتُ، والمعجزاتُ في تلك الفترة لتُدخل على المسلمين الطمأنينةَ والراحةَ والسكينةَ في ظلِّ محنتهم الشديدة التي يعيشونها، فقد كانت تلك الفترة فترةً ضيقٍ وخوفٍ وفتنةٍ، وقد كانت حكمةُ الله البالغةُ أرادت أن تُمحصَّ الناس مؤمنهم ومنافقهم، ويثبت الله المؤمنين ويعمق إيمانهم ويُبشرهم بالنصر القادم.

ومن هذه المعجزاتِ أن جابرَ بنَ عبد الله^(٢) همَّ بدعوةِ رسول الله -ﷺ- للطعامِ بعد أن رأى الجوعَ باديًا عليه، وكان لديه طعامٌ يكفي ثلاثةً أو أربع أشخاصٍ، وكانت المفاجأةُ أمامَ جابرِ بنِ عبد الله أن دعا رسولُ الله عليه الصلاة والسلام - ثلاثمائة صحابيًّا إلى هذا الطعامِ الذي أعدَّه جابرٌ، وبحمدِ الله، استطاعَ هذا نفرٌ كبيرٌ أن يشبعَ من الطعامِ الذي قدَّمه جابرٌ- رضي الله عنه -، وكانت بركةً، ومعجزةً تبعثُ الطمأنينةَ في نفوسِ أصحابِ رسول الله.

وثمَّ معجزةٌ أخرى، المتعلقةُ بالصخرةِ التي استعصت على المسلمين وهم يحفرون، فنادى سلمانُ

(١) - أخرج البخاري في صحيحه باب غزوة الخندق وهي الأحزاب قال موسى بن عقيب كان في سؤال سنة أربع (٤١٠١)

حدث جابر عن رسول الله حين دعي لضرب الصخرة فقال " ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَغْضُوبٌ بِحَجَرٍ وَلَبِنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا "

(٢) - السابق، وفيه أن جابر بن عبد الله، قال: لَمَّا حَفَرَ الخَنْدِقَ، رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمَصًا شَدِيدًا فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمَصًا شَدِيدًا فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى جَرَابِا، فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ، فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ فَفَرَعَتُ إِلَى فَرَاعِي وَفَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِمَنْ مَعَهُ فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَقَرَّ مَعَكَ فَصَاحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الخَنْدِقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ هَلَا بِكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُنْزِلُ بُرْمَتِكُمْ، وَلَا تُخْزِنَنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ فَجِئْتُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ فَأَخْرَجْتَهُ لهُ عَجِينًا، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ: ادْعُ حَابِرَةَ فَلْتَحْزِرْ مَعِي، وَاقْدِحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا وَهُمْ أَلْفٌ فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَعَطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيَحْبِرُ كَمَا هُوَ

الفارسي رسول الله - ﷺ - وجاء الحبيب بأبي هو وأمي، وأخذ المعول وضربها، فخرج منها نورٌ كبيرٌ ثم ضربها مرةً أخرى وخرج النورُ ثم ضربها ضربةً ثالثةً فأضاءت وتكسرت فانبهر الصحابةُ - رضي الله عنهم - من هذا وبشّرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حينما سأله الصحابةُ عن هذا النورِ بفتح بلادِ فارسَ والرومِ واليمنِ فارتفعتِ الروحُ المعنويةُ لهم وازدادوا حماسًا، وإيمانًا وثقةً زُغمَ كلُّ الظروفِ الخطيرةِ المُحدِقةِ بهم (١).

عندما وصلت قريشُ والأحزابُ بجيشٍ يبلغُ عشرةَ آلافٍ إلى المدينةِ صدموا حيثُ وجدوا الخندقَ الذي سوفَ يمنعُ تقدُّمهم إلى المدينةِ وبدأ أبو سفيان يُفكرُ في حلٍّ لهذهِ المشكلةِ التي قد تُدمرُ جميعَ مخطِطهم.

وفغلا لم يجد أبو سفيان حلًّا إلا الدخولَ إلى المدينةِ من جهةِ يهودِ بني قُريظةِ الذين تربطهم بالمسلمين معاهدةٌ، حيثُ خرجَ عدوُّ الله حِييُّ بنُ أخطبِ النَّضْرِيِّ، حتَّى أتى كعبَ بنَ أسدِ القُرَظِيِّ، صاحبِ عَقْدِ بَنِي قُريظةَ وَعَهْدِهِمْ وبدأ يُفاوضهم لتحقيقِ هذا الاختراقِ، ومع الضغطِ والتفاوضِ والإغراءاتِ، ومع ما يتوافقُ مع نفسِ يهودِ مِن طبيعةِ الغدرِ والخيانةِ وافقَ يهودُ بني قُريظةَ على الدخولِ مع الأحزابِ في حربهم ضدَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونقضوا العهدَ والعقدَ الذي أبرموه مع رسول الله (٢).

(١) - أخرجه النسائي في السنن بسند حسنه الألباني - كتاب الجهاد - باب (٤٢ غزوة الترك والحبشة) - برقم (٣١٧٦) ٤٣/٦: " لما أمر النبي - ﷺ - بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر فقام رسول الله - ﷺ - وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال تمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم فندر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر فبرق مع ضربة رسول الله - ﷺ - برقة ثم ضرب الثانية وقال تمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم فندر الثلث الآخر فبرقت برقة فراها سلمان ثم ضرب الثالثة وقال تمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم فندر الثلث الباقي وخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخذ رداءه وجلس قال سلمان يا رسول الله رأيتك حين ضربت ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة قال له رسول الله - ﷺ - يا سلمان رأيت ذلك فقال أي والذي بعثك بالحق يا رسول الله قال فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني قال له من حضره من أصحابه يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم ويخرب بأيدينا بلادهم فدعا رسول الله - ﷺ - بذلك ثم ضربت الضربة الثانية فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني قالوا يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم ويخرب بأيدينا بلادهم فدعا رسول الله - ﷺ - بذلك ثم ضربت الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعيني "

(٢) - ذكر السهيلي في الروض الأنف ٤٣١/٣ قصة نقض العهد من بني قريظة فقال: " وَخَرَجَ عَدُوُّ اللَّهِ حِييُّ بْنُ أخطَبِ النَّضْرِيِّ، حتَّى أتى كعبَ بنَ أسدِ القُرَظِيِّ، صاحبِ عَقْدِ بَنِي قُريظةَ وَعَهْدِهِمْ وَكَانَ قَدْ وادَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى

الخدق من قبيل الأحزاب^(١) وحصلت بعض المبارزات والمناورات العسكرية التي جعلت أمد المعركة يطول^(٢).

واستبسل الجنود أبطال الإسلام في الدفاع عن الخندق وحاوّل الرسول -ﷺ- استخدام استراتيجية المفاوضة لتقليل الضغط على المدينة في هذه الأثناء، فأرسل في مفاوضة قبيلة غطفان على أن يرجعوا مقابل ثلث ثمار تمر المدينة.

قد ذكر الموقف غير واحد من أهل السير^(٣) : " فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- أَنْ يَفْعَلَ بَعَثَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ فَقَالَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْرًا نُحِبُّهُ فَصَنَعَهُ أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْعَمَلِ بِهِ أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا ؟ قَالَ بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتُكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَكَالْبُوكُمِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا؛ فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نَعْرِفُهُ. وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قَرِي أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا (وَاللَّهِ) مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ وَاللَّهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْتَ وَذَاكَ. فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الصَّحِيفَةَ فَمَحَا مَا فِيهَا مِنَ الْكِتَابِ ثُمَّ قَالَ لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا ". فوقف الأنصار موقف البطولة والدفاع عن قضيتهم، في هذه الأوقات شديدة الحلك، ورفضوا هذا التصالح، وفضلوا الحرب والمواجهة.

ومع اشتداد الأزمة والحنة وكثرة دعاء المسلمين لله بالفرج وهزيمة الأحزاب أعلن أحد الكفار

(١)- قال ابن هشام في السيرة النبوية ٤/ ١٨٢ : "أقبلوا تُعْنِقُ بِهَمِّ خَيْلِهِمْ حَتَّى وَقَفُوا عَلَى الْخُنْدُقِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا ثُمَّ تَيْمَمُوا مَكَانًا ضَيْقًا مِنَ الْخُنْدُقِ فَضَرَبُوا خَيْلَهُمْ فَاقْتَحَمَتْ مِنْهُ " .

(٢) - وَخَرَجَ عَلَيَّ -ﷺ- فِي نَفَرٍ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَخَذُوا عَلَيْهِمُ النَّعْرَةَ الَّتِي أَفْحَمُوا مِنْهَا خَيْلَهُمْ وَأَقْبَلَتْ الْفُرْسَانُ تُعْنِقُ نَحْوَهُمْ وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدِّ قَاتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى أَتَيْتُهُ الْجِرَاحَةَ فَلَمْ يَشْهَدْ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْخُنْدُقِ خَرَجَ مُعَلِّمًا لِيُرَى مَكَانَهُ. فَلَمَّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ قَالَ مَنْ يُبَارِرُ؟ فَبَرَزَ لَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ يَا عَمْرُو، إِنَّكَ قَدْ كُنْتَ عَاهَدْتَ اللَّهَ الْآلَا يَدْعُوكَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خَلَّتَيْنِ إِلَّا أَخَذَتْهَا مِنْهُ قَالَ لَهُ أَجَلٌ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ قَالَ لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ قَالَ فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى النَّزَالِ فَقَالَ لَهُ لِمَ يَا ابْنَ أَخِي ؟ فَوَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ : لِكَيْتِي وَاللَّهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَحَبِي عَمْرُو عِنْدَ ذَلِكَ فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَفَّرَهُ وَضَرَبَ وَجْهَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر الروض الأنف ٣/ ٤٢٧

(٣) - السهيلي، في الروض الأنف ٣/ ٤٢٣

إسلامه، وهو نعيم بن مسعود، وعرضَ خدماته على الرسول -عليه الصلاة والسلام- حيث طلب منه الرسول أن يُخَذِّل الأحزاب عن المسلمين، ونجحَ نعيمٌ - رضي الله عنه - في ذلك (١).

وبدأ هذا الحلفُ يتبعثرُ ثم بعدها أرسلَ اللهُ البردَ الشديدَ والريحَ الشديدة (٢) التي جعلتَ الأحزاب

(١) - في موقف رائد من نعيم بن مسعود يوم الأحزاب قال : " يا رَسُولَ اللهِ إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرِّي بِمَا شِئْتَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذَلْنَا عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ فَخَرَجَ نَعِيمٌ بِنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي فُرَيْظَةَ، وَكَانَ هُمُ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ يَا بَنِي فُرَيْظَةَ قَدْ عَرَفْتُمْ وَدِّي إِيَّاكُمْ وَخَاصَّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ قَالُوا : صَدَقْتَ، لَسْتَ عِنْدَنَا بِمَتَّهِمْ فَقَالَ لَهُمْ إِنْ فُرَيْشًا وَعَطْفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَيَّ أَنْ تَحْوِلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَإِنْ فُرَيْشًا وَعَطْفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بغيره فليُسُوا كَأَنْتُمْ فَإِنْ رَأَوْا مُهْزَةً أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لِحِقْوِ بِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ [ص ٢٣٠] خَلَا بِكُمْ فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ نِقَّةً لَكُمْ عَلَيَّ أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِرُوهُ فَقَالُوا لَهُ لَقَدْ أَشْرَتْ بِالرَّأْيِ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى فُرَيْشًا، فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ فُرَيْشٍ : قَدْ عَرَفْتُمْ وَدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتَ عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبَلِّغَكُمْهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاتَّكُمُوا عَنِّي ؛ فَقَالُوا : نَفْعَلُ قَالَ تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَيَّ مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ إِنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَيَّ مَا فَعَلْنَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ فُرَيْشٍ وَعَطْفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ثُمَّ نَكُونُ مَعَكَ عَلَيَّ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ نَعَمْ. فَإِنْ بَعَثْتَ إِلَيْكُمْ يَهُودَ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رِجَالًا وَاحِدًا. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى عَطْفَانَ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ عَطْفَانَ، إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَلَا أَرَاكُمْ تَتَّهَمُونِي ؛ قَالُوا : صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمَتَّهِمْ قَالَ فَاتَّكُمُوا عَنِّي ؛ قَالُوا : نَفْعَلُ فَمَا أَمْرُكَ ؟، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِفُرَيْشٍ وَحَدَرَهُمْ مَا حَدَرَهُمْ فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَالِ سَنَةِ حَمْسٍ وَكَانَ مِنْ صُنْعِ اللهِ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَرُوْسُ عَطْفَانَ إِلَى بَنِي فُرَيْظَةَ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، فِي نَفَرٍ مِنْ فُرَيْشٍ وَعَطْفَانَ، فَقَالُوا لَهُمْ إِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ، قَدْ هَلَكَ الْخُفَّ وَالْحَافِرُ فَاعْدُوا لِلْقِتَالِ حَتَّى تُنَاجِرَ مُحَمَّدًا، وَتَفْرُعَ بِمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمَ السَّبْتِ وَهُوَ (يَوْمٌ) لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا، وَقَدْ كَانَ أَحَدَتْ فِيهِ بَعْضُنَا حَدَنًا، فَأَصَابَهُ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكُمْ وَلَسْنَا مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِينَ نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُوا رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِينَا نِقَّةً لَنَا حَتَّى تُنَاجِرَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَى إِنْ ضَرَسْتُمْ الْحَرْبَ وَاشْتَدَّ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَنْ تَنْسَمِرُوا إِلَى بِلَادِكُمْ وَتَتْرَكُونَا، وَالرَّجُلَ فِي بَلَدِنَا، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِذَلِكَ مِنْهُ. قَالَتْ بَنُو فُرَيْظَةَ، قَالَتْ فُرَيْشٌ وَعَطْفَانَ : وَاللَّهِ إِنْ الَّذِي حَدَثَكُمْ نَعِيمٌ بِنُ مَسْعُودٍ لِحَقِّ، فَأَرْسَلُوا بَنِي فُرَيْظَةَ إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَدْفَعُ إِلَيْكُمْ رِجَالًا وَاحِدًا مِنْ رِجَالِنَا، فَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْقِتَالَ فَاحْرُجُوا فَقَاتِلُوا ؛ فَقَالَتْ بَنُو فُرَيْظَةَ، حِينَ انْتَهَتْ الرِّسَالُ إِلَيْهِمْ بِهَذَا : إِنَّ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ نَعِيمٌ بِنُ مَسْعُودٍ لِحَقِّ، مَا يُرِيدُ الْقَوْمُ إِلَّا أَنْ يُقَاتِلُوا، فَإِنْ رَأَوْا فُرْصَةً انْتَهَرُوا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ انْتَسَمِرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ. وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ فِي بَلَدِكُمْ فَأَرْسَلُوا إِلَى فُرَيْشٍ وَعَطْفَانَ : إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُوا رَهْنًا ؛ فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ وَخَذَلَّ اللهُ بَيْنَهُمْ ". انظر سيرة ابن هشام ٢٢٨/٢ وما بعدها.

(٢) - قال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٣٤٨/٦ : " ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار، ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } . (الأحزاب) (٩).

يَنْسَجِبُونَ^(١) مِنَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ حِصَارٍ خَطِيرٍ وَقَاسٍ، لَقَدْ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ، ثُمَّ بَطُولُهُ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، وَثَبَاتُهُمْ، وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ حُسْنُ التَّخْطِيطِ مِنَ الْقَائِدِ، وَالتَّشَاوُرُ مَعَ أَتْبَاعِهِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ النِّصْرِ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ .
وَانْتَهَتْ هَذِهِ الْأَزْمَةُ الَّتِي كَادَتْ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَتُنْهِيَ دَوْلَتَهُمْ، لَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ الْبَقَاءَ وَالنِّصَرَ وَالتَّمَكِينَ لِدِينِهِ وَدَوْلَةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّتِي وَصَلَ شِعَاعُ نُورِهَا إِلَى كُلِّ مَكَانٍ .

2.2.1.2.1. المطلب الأول: أزمة الإفك ومحاولة الاختراق من الداخل .

(١) - قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ {الأحزاب(٢٥)}. قال الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في أضواء البيان ٣٦/٩٦ : " ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ردَّ الذين كفروا بغیظهم لم ينالوا خيراً، وأنه كفى المؤمنين القتال، وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. ولم يبيِّن هنا السبب الذي ردَّ به الذين كفروا وكفى به المؤمنين القتال، ولكنه جلَّ وعلا بيَّن ذلك بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، أي: وبسبب تلك الريح وتلك الجنود ردَّهم بغیظهم وكفاكم القتال، كما هو ظاهر".

كانت حادثته^(١) الإفك من أخطر الحوادث التي شهدتها المدينة في العام الخامس الهجري، حيث محاولة الاختراق من الداخل والتأثير من العمق، ومحاولة الوصول إلى أشرف بيت، وأطهر أناس، إنه بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومحاولة تشويه سمعة إحدى زوجاته الطاهرات، أراد هؤلاء الأثمين أن يرجعوا بالطعن على صاحب المشروع، و مصداقيته - صلى الله عليه وسلم - وعلى المشروع نفسه.

ولبيان عظيم هذه الفتنة وشدتها أنه قد تورط فيها جماعة^(٢) من الصحابة - رضي الله عنهم - وهم حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة^(٣)، وحمنة بنت جحش، وكانت الإشاعة تحدث بقذف الطاهرة

(١) - عبد الباقي، في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - في حديث الإفك وقبول توبة القاذف - حديث عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا : قالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سقراً، أفرغ بين أزواجه فأيهن خرج ستمها، خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة: فأفرغ بيننا في غزوة غزاهما فخرج فيها ستمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب فكنت أحملي في هودج، وأنزل فيه فسرنا، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك، وقفل دنونا من المدينة قافلين، أذن ليلة بالرحيل فمضت، حين أدنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني، أقبلت إلى رجلي، فلمست صدري، فإذا عقد لي، من جزع ظفاري، قد انقطع فرجعت، فالتمست عهدي، فحبسني ابعاؤه قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون، فاحتلموا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه وكان النساء، إذ ذاك، خفافاً لم يهبلن ولم يعشهن اللحم إنما يأكلن العلف من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الحمل فساروا ووجدت عهدي، بعد ما استمر الجيش فجنث منازلهم وليس بها منهم داع ولا محيب فتممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني، فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبني عيني، فبنت وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رأني، وكان رأني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه، حين عرفني فخرت وجهي بجلبابي والله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أتت راحلته، فوطئ على يدها، فمضت إليها، فركبتها فانطلق يهودي الراحلة، حتى أتينا الجيش، موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزل، قالت: فهل لك من هلك .

(٢) - قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير القرآن العظيم ١٩/٦ جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر . فوقع في ذلك جماعة من الصحابة

(٣) - قالت عائشة - رضي الله عنها - : " حتى نَهتُ فخرجت أنا وأُمُّ مسطحٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرِّزَاتَا لَا تَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَتَّخِذَ الْكُفْفَ قَرِيبًا مِنْ بَيْتِنَا وَأَمْرُنَا أَمْرَ الْعَرَبِ الْأُولَى فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنْزَةِ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ تَمْشِي فَعَثَرَتْ فِي مِرْطَهَا فَقَالَتْ تَعِسَ مِسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتُسَيِّبِينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَتْ يَا هُنْتَاةُ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا فَأَحْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي " . ونقل السهيلي في الروض الأنف قول عائشة : " أَوْقَدَ كَانَ هَذَا ؟ قَالَتْ نَعَمْ وَاللَّهِ فَقَدْ كَانَ . قَالَتْ فَوَاللَّهِ مَا قَدَرْتُ عَلَى أَنْ أَقْضِي حَاجَتِي، وَرَجَعْتُ، فَوَاللَّهِ مَا زَلْتُ أَبْكِي حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ الْبُكَاءَ سُبُصَدْعٍ كَبِيدِي ؛ قَالَتْ وَقُلْتُ لِأُمِّي : يَعْرِضُ اللَّهُ لَكَ، تَحَدَّثَ النَّاسُ بِمَا تَحَدَّثُوا بِهِ وَلَا تَذْكُرِينَ لِي مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا " .

العفيفة - رضي الله عنها - زوجة رسول الله بالزنا - عياداً بالله - بعد تخلفها القسري عن الجيش في غزوة بني المصطلق، ولحوقها بهم بعد ذلك.

وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي^(١) من أهم المدبرين لهذا الإفك، وتلك الفتنة محاولاً أن يضرب بيت النبوة في أعز شيء، وأجل وصف لهم، ويجعل هذا المشروع يتعثر أو يتأخر أو يفتت ويواصل هذا الخبيث تنويع محاولاته المبطنة ضد الدعوة ومشروع الدولة الجديدة، وأدخل هذا الأمر على عائشة - رضي الله عنها - من أهم ما الله به عليهم، وظلت - رضي الله عنها - فترة لا تعرف بما يتحدث الناس قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يريني في وجعي أي لا أعرف من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي إنما يدخل علي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسلم ثم يقول: كيف تيكم ثم ينصرف فذلك يريني ولا أشعر بالشر. .. فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم فقال كيف تيكم فقلت ائذن لي إلى أبوي قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتيت أبوي فقلت لأمي ما يتحدث به الناس فقالت يا بنية هوني على نفسك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها فقلت سبحان الله ولقد يتحدث^(٢).

(١) - كما في البخاري في الصحيح - كتاب الشهادات - باب تعديل النساء بعضهم بعضاً - ٢٦٦١ - ١٧٣/٣ - قالت عائشة - رضي الله عنها - : " وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول . إن رأس المنافقين، عبد الله بن أبي ابن سلول أشاع الإفك وطعن في عرضه - صلى الله عليه وسلم -، وهو الذي تولى كبر إشاعة الفاحشة، قال تعالى : { إن الذين جاؤوا بالإفك غضبة بينكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم } [النور: ١١] وهذا بإجماع المفسرين لا خلاف بين المفسرين في أن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي.

(٢) - السابق نفسه. وقالت عائشة - رضي الله عنها - : " وبكيت يومي لا يوقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبوي وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق كبدي قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت فتشهدت ثم قال يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته فقص دمعى حتى ما أحس منه قطرة وقلت لأبي أحب عتي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي أحبي عتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وأنا جارية حديثه السن لا أقرأ كثيراً من القرآن فقلت إنى والله لقد علمت أنكم سبتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم إنى بريئة لا

وكان المشاركون بهذا الأمر بعضهم لم يكن صاحب نية سيئة، بل أخطأ وزلَّ على ما له من تاريخ زاخرٍ مع المسلمين، مثل مسطح الذي شهد بدرًا وغيرها، لكن أُحكِمَ الشُّرْكُ على المؤمنين من قبل المنافقين، والبعضُ انحَرَطَ بها دونَ رويَّة.

وكانت المرحلة التي عاشها الرسول -ﷺ- وأصحابه -رضي الله عنهم- حتى نزلت آية البراءة من الله تعالى مرحلة صعبة جدًا؛ حتى قام يستعذر من المنافقين الذين آذوه^(١)، كما نزل الأمر على الجميع حيث نزل على رسول الله نزلًا مؤلمًا، وكان وقعه شديدًا، مع حرصه من التثبيت، والتحري قبل أن يحسم هذا الأمر.

وكان تيارُ المنافقين يُطَيِّرون الإشاعة^(٢) في الآفاق، ليُحَقِّقوا نصرًا إعلاميًا خبيثًا، ويحطموا معنويات المؤمنين، لقد عاين هؤلاء الأقرام كيف أنَّ المشروع يمتدُّ، ويتسع، وينتصر، فدبروا تلك الوسيلة الدنيئة للنيل من مجتمع الإيمان مُتمثلًا في بيت النبوة، و كانوا يُردون التعامل مع الأمر كفضيحة تُطيح برسول الله وتضرب مصداقيته والقيم التي يحملها للعالم، ولتهتز صورته أمام أصحابه وأتباعه، لكن ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ومن الدروس المستفادة من حادثة الإفك هنا هي أهمية التثبيت^(٣) وأن على القائد الفذِّ ألا يُنجرفَ أمام الأمواج مهما كانت قوتها، بل يحرص على العمل الجاد للوصول إلى الحقيقة؛ لأن خصومه ومنافسيه يُريدون حرفَ السفينة عن مسارها وإيقاع الاضطراب والوقعة والاختلال.

تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُمْ لَكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ يَلْعَلُ أَنِّي بَرِيءٌ لِمَا تُصَدِّقُونِي وَاللَّهُ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ «فَصَبِّرْ حَبِيبًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبْرِئَنِي اللَّهُ".

(١) - عبد الباقي، في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - في حديث الإفك وقبول توبة القاذف - حديث عائشة، - : " فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعَدَّ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَعْزُبُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَّغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي فَوَ اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا حَيْرًا وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا حَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي ".

(٢) - وأنزل الله قوله تعالى في سورة النور (١٩).

(٣) - كما جاء في حديث البخاري - كتاب الشهادات - باب تعديل النساء بعضهن بعضا - برقم (٢٦٦١/٣) ١٧٣ : " فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ فَقَالَ أُسَامَةُ أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا حَيْرًا وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلَّ الْجَارِيَةَ تَصَدُّقَكَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيْرَةَ فَقَالَ يَا بَرِيْرَةُ هَلْ رَأَيْتَ فِيهَا شَيْئًا يَرِيْبُكَ فَقَالَتْ بَرِيْرَةُ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَعْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ ".

كما أنه من أهمّ الدروس المستفادة هو التصديّ للكثير من المحاولات الخارجية والداخلية لضرب المشروع، فخصوم الدعوة جرّبوا الحروب والقتال، والتصادم فلم ينفعمهم ووجدوا صخرة الإسلام عصبية على التفتت، والانفكاك، واليوم يستخدمون سلاحًا جديدًا وهو الفتنة والوقعة، وهذا يُبين لنا أن الإسلام في بدايته واجه الكثير من الصعوبات والتحديات ومحاولات التصفية، تلك المحاولات التي كانت تفتي جميعًا على جدار اليقين بأنّ الله ناصر هذا الدين ومعزّ أهله ولو رغمت أنوف.

كانت حادثة الإفك منعتًا مهمًا كادت أن تقع بسببه فتنة كبيرة بين الأوس والخزرج^(١) ووُزرت الأجواء كثيرًا داخل المدينة وأوغرت صدور المؤمنين، وعمتها، حيث كان البحث عن مصدر هذا الإفك، أو من شارك فيه يُمثل حساسية للمكون الاجتماعي في المدينة، وصنعت هذه الحادثة زخما غير حميد، واستفز الكثيرين بمنّ ألمهم الأمر وآلمهم ما أصاب رسول الله من همّ، وحزنٍ شديدين.

لكنّ الفرج قد جاء من عند خالق السموات، والأرض الله منزل القرآن عالم السر، أخفى في قرآن يتلى إلى قيام الساعة^(٢)، وانتهت هذه الفتنة وجاءت البراءة التي كادت أن تُخلف عواقب وخيمة في عالم العلاقات ووحدة المجتمع الإسلامي في عاصمة دولة الإسلام إلا أن لطف الله كان عظيمًا، وعدل الله كان أكبر وحكمته بالغة^(٣).

نُقِّدَ حدُّ القذف على المتهمين كتطبيق لأصول العدالة، وأقيم القانون والنظام على المُخطئين، وإشعارًا للجميع بأهمية حفظ اللسان والأعراض واحترام قيم المجتمع وسلامة أفرادِهِ، فكان المجتمع الإسلامي يترنّى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى - عز وجل - أن يُشرع بعض الأحكام التي تُساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدّثت

(١) - أخرج البخاري في الصحيح: "فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا وَاللَّهِ أَغْدُرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عَنْقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَعَمَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ اخْتَمَلْتَهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرْ عَلَيَّ ذَلِكَ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّكَ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ مُجَادِلٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَتَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَتَنَزَلَ فَحَقَّضَهُمْ حَتَّى سَكَنُوا وَسَكَتَ".

(٢) - قال تعالى في سورة النور (١١-١٧).

(٣) - نقل السيوطي في الخصائص الكبرى ٤٠١/١ فقال: " وقال القاضي أبو بكر الباقلاني إن الله إذا ذكر في القرآن ما نسب إليه المشركون سبح نفسه لنفسه كقوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه في أي كثيرة وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة فقال سبحانه هذا بهتان عظيم فسبح نفسه في تبرئتها من السوء كما سبح نفسه في تبرئته من السوء". وهذا من تمام إكبار الله وتبرئته عائشة رضي الله عنها، فقال: "

عن حُكْم الزاني والزانية، وعن قُبْحِ فاحشة الزنا، وعمَّا يجبُ على الحاكم أن يفعلَه إذا ما رمى أحدُ الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام^(١).

لقد جاء الإسلامُ يطلبُ من أتباعه والمُنضويين تحتَ فضاءِ دولته ونظامه ودستوره بحفظِ الحقوقِ وتقديمِ الواجباتِ وتبيانِ حدودِ الحريةِ الشخصيةِ للإنسانِ من أُمَّها لا تكونُ على حسابِ إيقاعِ الضررِ بالآخرين أو التعدي عليهم وإلا أُوعِد بالمساءلة^(٢).

فالقانونُ والنظامُ سوف يُطبَّقان على الجميع في حالِ أيِّ تجاوزٍ يَصُرُّ بالمجتمع^(٣) وأفرادِه والجانبِ الأمنيِ أو النفسيِّ للقائمين في هذه الدولة، التي يحكمها شرعُ الله - عز وجل - المُعزِّزُ بل المؤسسُ للعدلِ

والمساواةِ والحريةِ المسؤولِ.

2.2.2. المطلب الثاني : مواجهة خيانة بني قريظة والخلاص من الحِصم الاستراتيجي .

(١) - كما في سورة النور (٤-٥):

(٢) - قال تعالى في سورة النور (٢٣-٢٥).

(٣) - الصلاحي في السيرة النبوية دروس وعبر : " وقد أقام رسول الله - ﷺ - حد القذف على مسطح وحسان وحمنة".

وقد ذكر ابنُ القيم تفصيلَ القول في عدمِ حدِّ ابنِ أبيِّ كما في زاد المعاد في هدي خير العباد ط : السابعة والعشرون الكويت، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م. ٢٦٣/٣ فقال : " ولم يُحد الخبيثُ عبد الله بن أبيِّ، مع أنه رأسُ أهل الإفك، فقيل: لأن الحدودَ تخفيفٌ عن أهلها وكفارة، والخبيثُ ليس أهلاً لذلك، وقد وَعَدَهُ اللهُ بالعذابِ العظيمِ في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشى الحديثَ ويجمعه ويحكيه، ويُخرجه في قوالب من لا يُنسب إليه، وقيل: الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار، أو ببينة، وهو لم يُقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

وقيل: حدُّ القذفِ حقُّ الأدمى، لا يُستوفى إلا بمطالبتة، وإن قيل: إنه حقُّ الله، فلا بُدَّ من مطالبة المقذوف، وعائشة لم تُطالب به

ابنُ أبيِّ". انظر ابن القيم : زاد المعاد في هدي خير العباد ٢٦٣/٣

بعد أن وضعت معركة الأحزاب أوزارها، حيث كادت أن تكون قاصمةً لظهر المسلمين بعد أن تجمّع اليهود وقبائل العرب وقريش على إبادة المسلمين وحصارهم والقضاء عليهم في المدينة عاصمة دولتهم.

وكان وقع خيانة يهود بني قريظة للوعد والميثاق مدويًا، فكان أمر الله لرسوله حيث أرسل جبريل له بأن لا يخلع ملابس الحرب^(١)، قبل أن يؤدّب بني قريظة على فعلتهم المشينة وخيانتهم العظيمة، ولذلك سارع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى استجابة أمر ربه، فنادى^(٢) في الصحابة: " لا يُصَلِّينَ أَحَدَ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ"^(٣).

وقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب برأيه إلى بني قريظة، وابتدَرها الناس، فسار عليّ، حتى إذا دنا من الخُصُونِ سَمِعَ مِنْهَا مَقَالَةً قَبِيحَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَجَعَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - بِالطَّرِيقِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَدْنُو مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَخَابِثِ قَالَ لِمَ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَدَى؟ قَالَ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا^(٤).

وخرَجَ الرسول بمن معه من المسلمين، فَمَرَّ عَلَى بَنِي عَنَمٍ وَكَانُوا جِيرَانَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «مَنْ مَرَّ بِكُمْ؟» قَالُوا: مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا، فَلَمَّا اشْتَدَّتْ

(١) - أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٧٠٢٨) من حديث عائشة قالت: " فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأمر بثبته من أدم فضربت على سعد في المسجد ووضع السلاح، قالت: فأناه جبريل، فقال: أوقد وضعت السلاح، فوالله ما وضعت الملائكة السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم، فأمر رسول الله - ﷺ - بالرجيل، وليس لأمتة". وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧).

(٢) - السهيلي في الروض الأنف ٣ / ٤٣٦: " فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدثني الزهري، معتجراً بعمامة من استبرق على بعله عليها رحالة عليها فطيقة من ديباج فقال أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال نعم فقال جبريل فما وضعت الملائكة السلاح بعد وما رجعت الآن إلا من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله - ﷺ - مؤذناً، فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة".

(٣) - عبد الباقي في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - في من لزمه أمر فدخل عليه أمر آخر - من حديث ابن عمر، قال: قال النبي - ﷺ - لنا، لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأذرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك فذكر للنبي - ﷺ - فلم يعنف واحداً منهم - وأخرجه البخاري في الصحيح ١٢ كتاب صلاة الخوف: ٥ باب صلاة الطالب والمطلوب ركباً وإيماء... برقم (٩٤٦). وأخرجه مسلم في صحيحه - ٢٣ باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين (برقم (١٧٧٠).

(٤) - السهيلي في الروض الأنف ٣ / ٤٣٦.

حَصْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ قِيلَ لَهُمْ أَنْزِلُوا عَلَيَّ حُكْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ" (١).

ولما حاصر المسلمون حُصُونَ بَنِي قَرِيظَةَ، وَطَالَبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِالنَّزُولِ عِنْدَ حُكْمِهِ وَتَمَّتِ الْمَفَاوِضَاتُ إِلَّا أَنَّ الْيَهُودَ رَفَضُوا بَعْدَ أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ - سَوْفَ يَقْتُلُهُمْ كَمَا أَشَارَ أَبُو لُبَابَةَ فِي الْأَثَرِ السَّابِقِ.

وَفَضَّلَ الْيَهُودُ الصَّمُودَ أَمَامَ الْحَصَارِ، وَرَفَضُوا الْكَثِيرَ مِنَ الْمَقْتَرِحَاتِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِي طُرِحَتْ، وَالتَّحَوَّلَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَالتَّحَوَّلَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَفَضَّلُوا الْإِصْرَارَ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَعَدَمَ النَّزُولِ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -.

ولما اشتدَّ عليهم الحصارُ عرضَ عليهم رئيسُهم كعبُ بنُ أسدٍ إحدى ثلاثِ خِصَالٍ (٢) :

- إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد ﷺ - في دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم . وقال لهم: والله، لقد تبين لكم أنه لنييُّ مرسلٌ، وأنه الذي تجدون في كتابكم .

- وإما أن تقتلوا ذراريكم ونساءكم بأيديكم، وتخرجوا إلى النبي ﷺ - بالسيوف مُصْلِتِينَ، تُنَاجِزُونَهُ حَتَّى تَنْظُرُوا بِهِمْ، أَوْ يَقْتُلُوا عَنْ آخِرِهِمْ.

- وإما أن تهجموا على رسول الله ﷺ - وأصحابه، وتكيسوهم يومَ السبت؛ لأنهم قد آمنوا أن تُقاتلوهم فيه.

فَرَفَضَ الْيَهُودُ النَّصَائِحَ الَّتِي قَدِمَهَا إِلَيْهِمْ زَعِيمٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ، وَحِينَئِذٍ قَالَ سَيدهم كعبُ بنُ أسدٍ، فِي انْزِعَاجٍ وَغَضَبٍ (٣) : " مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا".

وَاسْتَمَرَ الْحَصَارُ لِبَنِي قُرَيْظَةَ حَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، وَقَرَّرَ الْمُسْلِمُونَ الْهَجُومَ عَلَى الْحِصْنِ بَعْدَ ذَلِكَ (٤)،

(١) - أخرجَه ابن حبان صحيحه برقم (٧٠٢٨)

(٢) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٢٧٩

(٣) - ابن هشام في السيرة النبوية ٤ / ١٩٥

(٤) - الصلابي في السيرة النبوية دروسا وعبر ٧ / ٨٤

وبعد بداية الهجوم أعلن بنو قريظة الاستسلام، والنزول على حكم رسول الله -ﷺ-

وفعالاً بدأ المسلمون يُقيدون مقاتلة اليهود، وبعد محاولة الأوس تخفيف الحكم على مواليهم (حلفائهم التاريخيين بني قريظة) اتفق معهم رسول الله -ﷺ- على أن يُحكّم بهم أحد سادة الأوس وهو سعد بن معاذ -رضي الله عنه -فارتضوا ذلك.

فقال اليهود (١): " نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إِلَى سَعْدٍ، فَحَمَلَ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَيْهِ إِكَاثٌ مِنْ لَيْفٍ وَحَفٍّ بِهِ قَوْمُهُ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، حُلْفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ، فَلَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دَرَارِيِّهِمْ التَّفَتَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: قَدْ أَنْ لِسَعْدٍ أَنْ لَا يُبَالِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمٍ، فَلَمَّا طَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ»، قَالَ عُمَرُ: سَيِّدَنَا اللَّهُ، قَالَ: «أَنْزِلُوهُ»، فَأَنْزَلُوهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «أَحْكُمْ فِيهِمْ»، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسَبَى دَرَارِيُّهِمْ، وَتُقَسَمَ أَمْوَالُهُمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» (٢).

وبالرّد على هذه الخيانة من بني قريظة، وتنفيذ حكم رجل منهم فيهم يكون قد تمّ بذلك القضاء على جميع الخونة غير الأُمّناء الذين كانوا يُساكنون النبي -ﷺ- في المدينة المنورة، وليس يخفى أن اليهود كانوا خصماً خطيراً في عاصمة دولة المسلمين، لكن لم تكن ثمّ خيانة من قبل المسلمين بل كان اليهود هم الجالين على أنفسهم الشرور بنقضهم الموثيق والعهد.

حيث جاءت خيانتهم للعهد في غزوة الأحزاب ومحاولة الانقضاض على المسلمين قاصمة ظهر في العلاقات السياسية التي كان طابعها العهد والسلام واحترام الجوار، لكنهم بادروا بالعدو والحرب ومساندة الأعداء ضدّ المسلمين فكان لا بدّ للقيادة السياسية المسلمة أن تؤمّن نفسها من تكرار هذه الخيانات داخل دولة الإسلام، لأن تأمين الجهات الداخلية كما أنّه ضروريّ لاستقرار الأوضاع من جهة فإنه من جهة أخرى غاية في الأهمية لمواصلة التوسّع القادم في المشروع لمناطق خارج عاصمة الدولة.

فكان الخلاص من بني قريظة، وهزيمة الأحزاب فرصة لتحويل استراتيجي كبير في المسار العسكري والسياسي لمشروع دولة الإسلام التي يقودها رسول الله -صلى الله عليه وسلم -وسوف تأتي

(١) - السيوطي - الخصائص الكبرى ٣٩٢/١

(٢) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي، باب مرجع رسول الله من الأحزاب - رقم (٤١٢٢) ١١٢/٥.

الأحداثُ القادمة موضحةً هذا التحولَ الكبيرَ في ميزانِ القوةِ لصالحِ المسلمين وبدايةِ عصرِ القوةِ لهم،
والتحولِ في الصراعِ السياسيِّ والعسكريِّ من طابعِ الدفاعِ إلى طابعِ الهجوم، في الأيامِ التي تَلَتْ هذه
الأحداثَ.

ولم يكن هذا التحولَ الكبيرَ إلا بعد نتاجِ صمودِ السنواتِ الماضيةِ، والحرصِ على البناءِ الداخليِّ
القويِّ لجسدِ الدولةِ وأنظمتِها وبناءِ أتباعِها وتحقيقِ النظرةِ الاستراتيجيةِ للمشروعِ الإسلاميِّ الذي تعزَّز
بعدَ قيامِ دولتهِ في المدينةِ المنورةِ.

2.3. المبحث الثالث:

الانتقال من الدفاع إلى الهجوم.

تحولات ما بعد الخندق في موازين القوى السياسية (صلح الحديبية) (١).

كانت مرحلة ما بعد الخندق مرحلة هامة في تكوين الدولة الحاضنة لمشروع المسلمين ورسالة الإسلام، فهذا التحول في موازين القوى جاء بعد صمود وكفاح السنوات الماضية منذ أول أيام الهجرة حتى السنة السادسة للهجرة ومرحلة البعثة في مكة، قبل الهجرة.

فبعد اندحار الأحزاب عن المدينة وتصفية خيانة يهود بني قريظة خرجت مجموعة من السرايا والغزوات التي كانت لتأديب بعض القبائل العربية التي ساندت قريشاً في الأحزاب، وقد صدق المبارك فوري بقوله (٢): " هذه السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبني قريظة، لم يجر في واحدة منها قتال مريز، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية، أو تحركات تأديبية؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد، ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وحضد شوكتها "

وكانت هذه الخطوة من الرسول -صلى الله عليه وسلم- دليلاً على تحول استراتيجي في موازين القوى من الحروب الدفاعية إلى الحروب، والأعمال العسكرية ذات الطابع الهجومي، وهذا يجعلنا أمام تحول استراتيجي هام في معايير وموازن القوة بعد سنوات من العمل العسكري الدفاعي عن المدينة، وقد لخصه الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله (٣): "نغزوهم ولا يغزونا".

(١) - نقل السهيلي في الروض الأنف ٣٩/٤ : " يُقَالُ فِيهَا : الْحُدَيْبِيَّةُ بِالْتَّخْفِيفِ وَهُوَ الْأَعْرَفُ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ . قَالَ الْخَطَّابِيُّ : أَهْلُ الْحَدِيثِ يَقُولُونَ الْحُدَيْبِيَّةُ بِالتَّشْدِيدِ وَالْجُعْرَانَةُ كَذَلِكَ وَأَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُونَهَا : بِالْتَّخْفِيفِ وَقَالَ الْبَكْرِيُّ : أَهْلُ الْعِرَاقِ يُشَدِّدُونَ الرِّاءَ وَالْيَاءَ فِي الْجُعْرَانَةِ وَالْحُدَيْبِيَّةِ وَأَهْلُ الْحِجَازِ يُخَفِّفُونَ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ سَأَلْتُ كُلَّ مَنْ لَقِيتُهُ مِمَّنْ أُنْقِ بِعِلْمِهِ عَنِ الْحُدَيْبِيَّةِ فَلَمْ يَحْتَلِفُوا عَلَيَّ أَهْمًا بِالتَّخْفِيفِ . الْعِرَاقُ يُشَدِّدُونَ الرِّاءَ وَالْيَاءَ فِي الْجُعْرَانَةِ وَالْحُدَيْبِيَّةِ ، وَأَهْلُ الْحِجَازِ يُخَفِّفُونَ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ سَأَلْتُ كُلَّ مَنْ لَقِيتُهُ مِمَّنْ أُنْقِ بِعِلْمِهِ عَنِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، فَلَمْ يَحْتَلِفُوا عَلَيَّ أَهْمًا بِالتَّخْفِيفِ .

(٢) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٢٩٣

(٣) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي - باب غزوة الأحزاب - برقم (٤١١٠) ١١٠/٥ - وفيه عن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ - يَقُولُ حِينَ أَجَلَى الْأَحْزَابَ عَنْهُ الْآنَ نَغْزُونَهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ "

وكان لهذا الأمر هدفان أساسيان:

الهدف الأول: هو إكساب الاتباع الثقة والقوة وأنهم ينتمون إلى دينٍ ودولةٍ ذاتِ قوةٍ ونفوذٍ يكبرُ ويتسعُ.

الهدف الثاني: محاولة الرسول -ﷺ- ردّ الاعتبارِ بالتعرضِ للخصوم الذين كانوا يُعيثون طريقه لفتح مكة مستقبلاً. التي هي قبلة المسلمين الدينية، وأهمُّ مقدساتهم على الإطلاق، وهي أيضا مفتاح الجزيرة العربية والعاصمة الاقتصادية والسياسية الأبرز في المنطقة في تلك المرحلة.

وقد جاء القرار الحكيم في إعلان الرسول -ﷺ- عزمه على العمرة وكان ذلك في نهاية السنة السادسة من الهجرة (١).

وصدق المباركفوري -رحمه الله - (٢): " إن النبي -ﷺ- كان أكبر قائدٍ عسكريٍّ في الدنيا، وأشدّهم وأعمقهم فراسةً وتيقظاً، إنه صاحبُ عبقريةٍ فذةٍ في هذا الوصف، كما كان سيدَ الرسلِ وأعظمهم في صفةِ النبوةِ والرسالةِ، فلم يُخضْ معركةً من المعارك إلا في الظرفِ ومن الجهةِ اللذين يقتضيهما الحزمُ والشجاعةُ والتدبيرُ، ولذلك لم يفشلْ في أي معركةٍ من المعارك التي خاضها لغلطةٍ في الحكمةِ وما إليها من تعبئةِ الجيشِ وتعيينه على المراكزِ الاستراتيجيةِ، واحتلالِ أفضلِ المواضعِ وأوثقها للمجابهةِ، واختيارِ أفضلِ خطةٍ لإدارةِ دفعةِ القتالِ، بل أثبتت في كلّ ذلك أن له نوعاً آخرَ من القيادة غيرَ ما عرفتُها الدنيا في القواد".

تحرك رسول الله -ﷺ- لذلك الأمرِ ومعه أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - الذين بلغ عددهم أربعمائةٍ، وألف، وبلغ ذلك قريشاً التي استعدت وخرجت بجيشها خارج الحرم؛ لمنع الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من أداء العمرة ودخول المسجد الحرام.

ورغم أن الرسول -ﷺ- خرج محرماً للعمرة وليس للحرب إلا أن قريشاً استعدت عسكرياً لردّه ومنعه من الدخول (٣)، لكن قد آل الرسول -ﷺ- ألا يحول أحدٌ بينه وبين تبليغ دين الله إلى الناس (١).

(١) - قال السهيلي في الروض الأنف ٤/٤١ : " كان أمرُ الحُدَيْبِيَّةِ فِي آخِرِ سَنَةِ سِت . . . أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْمَدِينَةِ شَهْرَ رَمَضَانَ وَشَوَّالًا، وَخَرَجَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مُعْتَمِرًا " .

(٢) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٤٠١ .

(٣) - وذكر السهيلي عن الزهري وصفه لوضع قريش حين علمت بقدوم النبي -ﷺ- كما في الروض ٤/٣٩ : " وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ لَقِيَهُ بِشُرِّ بْنِ سَفْيَانَ الْكَعْبِيِّ - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَتُقَالُ بُسْرٌ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

لقد حاول الرسول دخول مكة من طريق غير معروفة؛ لتفادي جيش قريش^(٢)، ونجح إلى الوصول قريبا من الحرم، فبركت ناقته ورفضت التقدم نحو الحرم^(٣)، فعرف رسول الله -ﷺ- أن الله حبسها عن الاستمرار في المسير لحكمة يريد بها الله.

وبدأت قريش تُرسل العيون والمراسيل لتتأكد من نية المسلمين^(٤)، بل قد زادت قريش فبعثوا بمن يُهيج معسكر المسلمين، ويحاول أن يُصيب منهم^(٥)، وكان الرسول -ﷺ- يؤكد أنه لم يأت للحرب بل للعمرة، وكانت قريش متعنتة في رأيها ولا تُريد أن يدخل هو وأصحابه إلى مكة خشية أن تزيد شعبيته ويزيد المُقبلون على دينه وتقل هيبتهم بين العرب.

وهنا حاولت قريش عزل الرسول -ﷺ- عن الدخول إلى مكة التي كانت مركزا دينيا وسياسيا وتجاريا مهما للعرب أجمعين في ذلك الحين ومن يتمكن من مكة يُسيطر على بقية جزيرة العرب. ولهذا ستكون مكة مدار الصراع السياسي والعسكري خلال هذه الفترة، وذلك الصراع في علم

هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم الغوذ المطافيل قد لبسوا جلود الثمور وقد نزلوا بذي طوى، يُعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم".

(١) - رواه أحمد في المسند - مسند المسور بن مخزوم - برقم (١٨٩١٠) وفيه يرد الرسول على مقولة بشر بن سفيان السابقة : " فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَنِي وَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ فَمَاذَا تَطُنُّ قُرَيْشٌ وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأَى أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ ".

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. .. - برقم (٢٧٣١) / ٣ / ١٩٣ : " حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا يَبْعُضُ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِيَمِّ خَالِدٍ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ ".

(٣) - في المرجع السابق نفسه : " وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتٌ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ فَأَلْحَتْ فَقَالُوا خَلَّاتُ الْفُصْوَاءِ خَلَّاتُ الْفُصْوَاءِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا خَلَّاتُ الْفُصْوَاءِ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ".

(٤) - ذكر السهيلي في الروض ٤ / ٤٥ : " قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ التَّقْفِيِّ " . وبعثوا غيره، وبعث رسول

٥ - قال ابن هشام : " قال ابن اسحاق وقد حدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس أن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم او خمسين رجلا وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا فأخذوا أخذوا فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم وخلي سبيلهم وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل " . السيرة النبوية ٤ / ٢٨٢

السياسية ليس صراعًا تنافسيًا بل صراعًا صفرًا، يتفوق فيه طرفٌ على الآخرٍ بشكلٍ كاملٍ، ويكون الطرفُ الآخرُ تابعًا له، وتحت مُلكه ودولته وسلطته وإمرته.

استمرت حيرة قريشٍ واستمرت المراسيلُ يأتونَ والرسولُ -ﷺ- يُؤكدُ أنه جاءَ لأداءِ العمرة فقط، وقد ساقَ الهدى معه وهم محرمون لذلك الأمر، ولم يكن إحضارُ السلاح معهم إلا لحماية من العذر فقط.

وعندما طال الأمرُ وزادت شكوكُ قريشٍ طلبَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أن يذهبَ ليُفاوضَ سيّدَ مكة يومها أبا سفيان بن حربٍ، مباشرةً في ذلك الحين بدلَ الاعتمادِ على المراسيلِ وأسلوبِ جَسِّ النبضِ^(١).

وكان اختيارُ عثمان - رضي الله عنه - من قبَلِ الرسولِ القائدِ اختيارًا حصيفًا ودكيًا؛ لأنه من بني أمية وهو فرعٌ كبيرٌ في قريشٍ و أبو سفيان من الفرعِ نفسه، وهذا الأمرُ قد يُسهّلُ من المفاوضاتِ ويحلُّ الإشكالَ ويُقربُ بين وجهاتِ النظرِ بالإضافةِ إلى أن عثمان - رضي الله عنه - سوف يكون أكثرَ حظًا من غيره في أن يسلمَ من أيِّ ضررٍ يلحقه؛ لأن له أهلاً، وعزوةً ومنعةً في مكة.

وصل عثمانُ إلى أبي سفيانٍ وحاولَ إقناعه بدخولِ المسلمين لكنَّ أبا سفيانَ طلبَ منه بعضَ الوقتِ للتشاورِ وفرضَ عليه الإقامةَ الجبريةَ لديهم في مكة ومنعه من العودةِ إلى أصحابه.

وفي هذه الأثناءِ خرجتِ إشاعةٌ عن مقتلِ عثمان - رضي الله عنه - وانتشرتْ بسرعةٍ فوقَ هذا الخبرِ المشوّهِ بشكلٍ كبيرٍ وعميقٍ في أنفسِ المسلمين، وأحسنَ الرسولُ - صلى الله عليه وسلم - بأنَّ الأمرَ قد يدخلُ في حربٍ مع هؤلاء، وأن المعركةَ قد فُرضت عليهم، فها هو رسوله يُقتلُ.

فطلبَ الرسولُ - عليه الصلاة والسلام - من المسلمين البيعةَ، وكانت تحت الشجرة، فبايعَ الجميعُ على الموتِ إلا واحدًا منهم كان يتخفَى في أثناءِ البيعةِ خلفَ جملهِ الأحمرِ وهو الجدُّ بنُ قيسٍ^(٢).

وبعد ذلكَ بشرَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - جميعَ مَنْ بايعَ بأهم من أهلِ الجنةِ، وسميتِ هذه البيعةُ ببيعةِ الرضوانِ، وقيل إنها بيعةٌ على الموتِ وقيل إنها على عدمِ الفرارِ.

(١) - النجار وآخرون في المعجم الوسيط في (نبض): " ضربات الشرايين من انقباضات القلب يستدل بها على حالة الجسم من صحة ومرض يقال جس الطبيب نبضه ويقال فلان نبض الفؤاد ذكي متوقد "

(٢) - نقل السهيلي في الروض ٤/٤٨: " فَبَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ وَمَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا، إِلَّا الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ فَكَانَ جَابِرٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لِأَصِفًا بِإِبْطِ نَاقَتِهِ. قَدْ ضَبَّأَ إِلَيْهَا، يَسْتَبْرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ "

سَمِعَتْ قَرِيْشٌ بِالْبَيْعَةِ وَاسْتَعْدَادِ الْمُسْلِمِينَ لِلْحَرْبِ فَخَافَتْ قَرِيْشٌ وَطَلَبُوا الصَّلْحَ وَ أَرْسَلَتْ قَرِيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو لِلتَّفَاوُضِ، وَتَمَّ كِتَابَةُ نَصِّ الصَّلْحِ وَتَمَّ الشَّهَادَةُ مِنَ الطَّرْفَيْنِ^(١).

وَكَانَ نَصُّ الْاِتِّفَاقِ مَحَلَّ خِلَافٍ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ حَيْثُ اعْتَرَضَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو^(٢) عَلَى لَفْظِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمَسَحَهُ الرَّسُولُ نَزُولًا عَلَى رَأْيِ الْحِصْمِ، ثُمَّ اعْتَرَضَ سُهَيْلٌ عَلَى لَفْظِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -، فَأَجَازَهُ الْحَبِيبُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَتَبَ: " مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ "

وَوَافَقَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ التَّعْدِيْلَاتِ رَغْبَةً فِي الْمُضَيِّ بِالْاِتِّفَاقِ، وَكَانَتْ مَلَاحِظُ هَذَا الصَّلْحِ تَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ أُمُورٍ أَهْمِيَّةٍ^(٣):

- رَجُوعُ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْعَامَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا السَّنَةَ الْقَادِمَةَ لِلْعُمْرَةِ، وَشَرَطَتْ قَرِيْشٌ أَلَّا يُحْضَرَ الْمُسْلِمُونَ الْأَسْلِحَةَ بِاسْتِثْنَاءِ سِلَاحِ الرَّاكِبِ، وَهُوَ السِّيفُ وَيَكُونُ السِّيفُ مُغَمَّدًا وَلَا يُشْهَرُ.

- وَالْمُدَّةُ الْمَخْصُصَةُ لِهَذِهِ الْعُمْرَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ فِيْمَا بَعْدَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ هُوَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَقَطْ.

- كَمَا تَمَّ الْاِتِّفَاقُ أَنْ تَنْتَهِيَ حَالَةُ الْحَرْبِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ وَيَأْمَنَ النَّاسُ لِعَشْرَةِ سِنَوَاتٍ، وَكَانَ هَذَا مِنْ أَهْمِ الشَّرُوطِ وَالْمَكْتَسَبَاتِ فِي الْاِتِّفَاقِ حَيْثُ يَسْمَحُ لِلْمُسْلِمِينَ بِنِجَاءِ قُوَّتِهِمُ الْدَاخِلِيَّةِ، وَالِدُخُولِ فِي حَالَةِ اسْتِقْرَارٍ وَتَنْمِيَّةٍ وَالْعَمَلِ عَلَى مَشْرُوعِهِمُ الدَّعْوِيَّ وَالسِّيَاسِيَّ وَالاِقْتِصَادِيَّ وَالاجْتِمَاعِيَّ دُونَ اسْتِنزَافِ الْحُرُوبِ وَالصَّرَاعَاتِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْفُسْحَةُ هَامَةً جَدًّا لِتَوْسِيْعِ مَشْرُوعِ الْمُسْلِمِينَ وَتَقْوِيَةِ مَوْقِفِهِمُ

(١) - قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي الرَّوْضِ الْأَنْفِ ٥٣ / ٤: " الَّذِيْنَ شَهِدُوا عَلَيَّ الصَّلْحِ. . . فَلَمَّا فَرَعَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْكِتَابِ أَشْهَدَ عَلَيَّ الصَّلْحِ رَجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَرَجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، وَعَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَتَحْمُودُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَمُكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَكَتَبَ وَكَانَ هُوَ كَاتِبَ الصَّحِيْفَةِ "

(٢) - أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ فِي الْمَسْنَدِ - مِنْ مَسْنَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - بِرَقْمٍ (٦٥٦): " وَقَدْ جَاءَنَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْحَدِيْبِيَّةِ حَيْثُ صَالِحُ قَوْمِهِ قَرِيْشًا، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا تَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ: " كَيْفَ نَكْتُبُ؟ " فَقَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " فَاتَّكَبَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ "، فَقَالَ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَخَالَفْكَ، فَكَتَبَ: هَذَا مَا صَالِحُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَرِيْشًا "

(٣) - الْأَثَرُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مَطْوُوعًا فِي الصَّحِيْحِ - كِتَابُ الشَّرُوطِ - بَابُ الشَّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمَصَالِحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ. . . بِرَقْمٍ (٢٧٣١) / ٣ / ١٩٣.

مستقبلاً، كما أن هذا الاتفاق أعطى المسلمين الإحساس بالندية أمام قريش التي أسقطت فكرة إبادة المسلمين وإنهاء دولتهم من قاموسها بعد فشلها طوال الأعوام الست الماضية.

- لكن كان هناك شرط أحسن المسلمون معه بالظلم والغبن وعدم العدالة، وهو أن أي أحد يُسلم من المشركين يجب أن يُرجعه الرسول ولا يقبله^(١)، ولا يدخل المدينة، وأن أي أحد يرتد من المسلمين لا يرجع إلى المسلمين وله أن يدخل مكة، ووافق الرسول على ذلك؛ لأنه كان صاحب نظرة بعيدة وعميقة ووافق على هذا الشرط رغم غضب وحزن الصحابة - رضي الله عنهم -^(٢).

- كما شمل الاتفاق فتح الباب أمام القبائل العربية في التحالف مع أحد الطرفين، وقد دخلت بعض القبائل في حلف قريش ومنهم بنو بكرٍ ودخلت قبائل أخرى في حلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومنهم قبيلة خزاعة.

- وشرط في الاتفاق وعهد الصلح أن أي اعتداء على الحلفاء يكون نقضاً للصلح المبرم.

وبعد عقد هذا الصلح طلب الرسول - ﷺ - من الصحابة أن يتحللوا من الإحرام ويرجعوا، فتردد

(١) - ذكر أهل السير نماذج من هذا، وكان فيه بعد نظر وحكمة من الرسول صلى الله عليه وسلم: " فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ أَبُو بَصِيرٍ عُنْبَةُ بْنُ أَبِي سَيْدٍ بِنِ جَارِيَةٍ، وَكَانَ مِنْ حُسَيْنِ بَكَّةَ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ فِيهِ أَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ بْنُ عَبْدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهْرَةَ وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ بِنِ عَمْرِو بْنِ وَهْبِ التَّقْفِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعَثَا رَجُلًا مِنْ بَنِي لُؤَيٍّ وَمَعَهُ مَوْئِلٌ لَهُمْ فَقَدِمَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابِ الْأَزْهَرِ وَالْأَخْنَسِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَا أَبَا بَصِيرٍ إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْعَدْرُ وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُرَدِّي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟ قَالَ يَا أَبَا بَصِيرٍ انْطَلِقْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ". الروض الأنف ٥٧/٤.

(٢) - أخرج البخاري في الصحيح من حديث مسور - كتاب الشروط - باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمباينة - برقم (٢٧١٢) ٣/١٨٨: " لَمَّا كَاتَبَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو يَوْمَئِذٍ كَانَ فِيهَا اشْتَرَطَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا وَحَلَّيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِكْرَةَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ وَامْتَعَضُوا مِنْهُ وَأَبَى سُهَيْلٌ إِلَّا ذَلِكَ فَكَاتَبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ فَرَدَّ يَوْمَئِذٍ أَبَا جَنْدَلٍ إِلَى أَبِيهِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو وَمَ يَأْتِيهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا وَجَاءَتْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ وَكَانَتْ أُمَّ كَلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بِنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ وَهِيَ عَاتِقٌ فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ { إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ إِلَى قَوْلِهِ وَلَا هُمْ يُحْلُونَ لَهُنَّ }. الممتحنة ١٠.

الصحابة - ﷺ - في تنفيذ الأمر بالتحليل، من هَوْل الصدمة حيث كان لهم الرغبة في العمرة، وكذلك بسبب الشروط المحجفة للمسلمين التي تعنت فيها المشركون مع المسلمين^(١). فما كان من رسول الله - ﷺ - إلا أن دخل خيمته حزينا؛ لأن الصحابة لم يمثلوا الأمر في حينه، فأشارت عليه أم سلمة - رضي الله عنها - بأن يبدأ هو بالتحليل، وهم سوف يتبعونه بعد أن يروه قد فعل.

وبعد صلح الحديبية حدثت نقلة نوعية^(٢) أيضا في المضمون السياسي للدولة حيث عاش المسلمون الاستقرار الذي مكّن دعوتهم من الانتشار، ودخول الألف فيها، فخلال سنتين فقط بين صلح الحديبية وفتح مكة كان المسلمون في الأولى أربعمئة وألف فرد، وفي الثانية عشرة آلاف. أي حوالي خمسة أضعاف العدد الأول. يُبين هذا كيف كان هذا الصلح مَهْمًا للبناء والتنمية واتساع رقعة الدعوة وتقوية أسس الدولة وتعميق الدين في نفس الناس ودخول الناس آمنين لهذا الدين وتقليل استنزاف الصراعات العسكرية والسياسية لطاقة الدولة ومقدراتها ومكوناتها البشرية والمالية والاجتماعية والسياسية.

(١) - وهنا إشارة لتوضيح طبيعة موقف الصحابة وإحساسهم بالظلم البين من قبل المشركين في هذا التصالح، ومن ثم توقفوا عن امتثال الأمر لعل الله أن يجد لهم مخرجا، ولم يكن لديهم بُعد النظر الذي كان عند النبي المؤيد بالوحي، فقد أخرج البخاري في صحيحه - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. -.. برقم (٢٧٣٢) عند الحديث عن الشروط : " وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا قَالَ الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا فَبَيَّنَمَا لَهُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سَهْلٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي فَيْوَدِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْقَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَطْهَرِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ سَهْلٌ هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدَ قَالَ فَوَاللَّهِ إِذَا لَمْ أَصْلِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَأَجِزْهُ لِي قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ قَالَ بَلَى فَاذْعَلْ قَالَ مَا أَنَا بِقَاعِلٍ قَالَ مَكْرُزٌ بَلْ قَدْ أَجَزْنَاكَ لَكَ قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ أَيُّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرِدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عُدِّبَ عَدَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ - فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نَعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا قَالَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي "

(٢) - ابن هشام وهو يتحدث عن فتح مكة ويقارنه بعدد المسلمين في الحديبية ، نقل كلام الزهري، وفيه كما في كتاب السيرة النبوية ٢٩١/٤: " فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ولقد دخل تينك السننتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، وقال ابن هشام والدليل على قول الزهري أن رسول الله - ﷺ - -- خرج الى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف " .

وكان عليه الصلاة والسلام قائداً يثق بأن المسلمين المحبوسين^(١)، والذين منعتهم قريش من اللحاق به سوف يفتح الله لهم، ويأتيهم الفرج قريباً بإذن الله تعالى

2.2.3.2.3. المطلب الثالث :

قيّم، وثمار صلح الحديبية والنظرة الاستراتيجية العميقة.

لقد كان صلح الحديبية الذي عقده الحبيب -عليه الصلاة والسلام- زاخراً بكثير من المبادئ، والنتائج، والقيم الأخلاقية، والسياسية، والتربوية الإيمانية، ومنها على سبيل المثال أيضاً لا الحصر^(٢) :

١- الوفاء بالوعد، وقد تجسّد في مواطن عدّة، أبرزها موقف أبي بصير، وغيره والتزام الرسول بعهده مع المشركين مع أنه جاء مستصرخاً.

٢- الصبر على المخالف، وتحمل العنت منه لما يراه القائد من مصلحة راجحة، ومنه أنه لم يسارع إلى المصادمة حين علم بخروج قريش، وقيادة خالد؛ فاختار طريقاً آخر حتى لا يلتقي الجمعان، وصبره على الشروط المجحفة التي فرضتها عليهم قريش.

(١) - أخرج البخاري في صحيحه - كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. .. برقم (٢٧٣١) لما : " رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستلته الآخر فقال أجل والله إنّه لجيد لقد جرّبت به ثم جرّبت فقال أبو بصير إني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه لقد رأى هذا دعراً فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال فليل والله صاحبي وإني لمتقول فجاء أبو بصير فقال يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك قد ردّدتني إليهم ثم أنجاني الله منهم قال النبي صلى الله عليه وسلم وإل أمه مسعر حرب لو كان له أحد فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال وينفقت منهم أبو جندل بن شهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوه وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فأنزل الله تعالى { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بطن مكة من بعد أن أظفرهم عليهم } حتى بلغ الحميّة حميّة الجاهليّة الفتح ٢٤-٢٦".

(٢) - أكثر هذه الأفكار تنظر في بحث ماتب بعنوان : المضامين التربوية المستنبطة من صلح الحديبية وتطبيقها التربوية في الأسرة والمدرسة - بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة - للباحثة هدى بنت هليل بن علي اللحياني - جامعة أم القرى - كلية التربية - ٢٨ هـ / ١٤٢٩ هـ.

٣- رحمته -عليه الصلاة والسلام- ليس باتباعه فقط بل بالمخالفين له، فقد ظهرت رحمته في مواطن عدة، منها: عند خروجه من المدينة خرج مُحْرَمًا، ليطمئن الناس بأنه إنما أراد العبادة، ولم يُرد الحرب، والإبادة.

ومنها: أنه حين جاءه من يُخبره بأن قريشًا قد خرجوا، و معهم العوذُ المطافيل^(١) وقد لبسوا جلود النمر^(٢) ونزلوا بذي طوى، يعاهدون الله أن لا يدخلها عليهم أبدًا وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم فقال صلى الله عليه وسلم^(٣): " يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين "

٤- القيادة الحكيمة الناضجة وتحمل المسؤولية، وقد ظهر في تدبير أمر الخروج، وطريقة الخروج، ولبس الإحرام، وتغيير الطرق، وإرسال العيون، وصدق من قال^(٤): " من فن القيادة الواعية البصيرة أن تسلك في سيرها بالجيش طرقًا بعيدة عن المخاطر، والمهالك وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعًا لتصرفات العدو وهجماتة "

٥- مبدأ الشورى الذي لم يكن الرسول -ﷺ- يتركه، وقد ظهر هنا في مواضع من أهمها موقفه حين سار النبي -ﷺ- حتى كان بعدير الأشطاط أتاه عينه^(٥) قال إن قريشًا جمعوا لك جموعًا وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وما نعوك.

فما كان منه -ﷺ- إلا أن استشار أصحابه، وأخذ برأيهم فقال: " فقال أشيروا أيها الناس عليّ

(١) - نقل بدر الدين العيني بدر الدين في عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٠ / ٤٥٩ : "العوذ المطافيل العوذ بضم العين المهملة وسكون الواو وفي آخره ذال معجمة جمع عائد وهي الناقة التي معها ولدها والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها قال السهيلي يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان ويتزودون بألبانها ولا يرجعون حتى يناجزوا رسول الله في زعمهم "

(٢) - السابق نفسه :

(٣) - أخرج أحمد في المسند - من مسند المسور - برقم (١٨٩١٠).

(٤) - انظر : اللحياني، هدى في المضامين التربوية المستنبطة من صلح الحديدية ص ٩٧

(٥) - الرجل الذي أرسله ليخبره عن قريش.

أَتْرُونَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْأَلَا تَرَكَنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ فَتَوَجَّهَ لَهُ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلِنَاهُ قَالَ امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ^(١).

٦- ومن الصفات القيادية الرائعة التمسك بالمبدأ، فقد أصر النبي - صلى الله عليه وسلم - على الرسالة التي يحملها، وعاش لأجلها، حيث قال - صلى الله عليه وسلم - عندما لقيه بسر بن سفيان وأخبره بخروج قريش وعزمهم على صده بكل وسيلة ممكنة: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ " (٢).

٧- تقدير دور المرأة، وظهورُ حكمةِ المرأةِ المسلمةِ في تدبيرِ الأمور، ورأيها في الأمور العامة، والأخذُ بمشورتها، وقد تجلَّى هذا في موقفٍ خطرٍ للغاية تلمَّسهُ بعضُ مَنْ ليسَ لهمُ في العلمِ إنعامٌ مِنَ الروافضِ ليطعنوا على الصحابة، وذلك حين أمرهم الحبيب - ﷺ - أن يقوموا ويحلقوا ثلاثاً فلم يقم منهم أحدٌ، مع أن الموقف في تقدير كل أصحاب القلوب السليمة لم يكن سوى نوعٍ من التباطؤ في تنفيذِ الأمرِ لأسبابٍ منها:

الأول: الإحساسُ بالظلمِ والغبنِ الذي وقَعَ على الصحابةِ في ظاهرِ الأمرِ.
الثاني: التمهُّلُ لعلَّ الله أن يجعل للصحابةِ مخرجاً من عنده، وبوحي إلى نبيِّه.
الثالث (٣): أَهْمَ حَمَلُوا الْأَمْرَ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوبِ لِقَرِينَةٍ وَهِيَ أَهْمَ رَأَوْهُ لَمْ يَخْلُقْ وَلَمْ يَنْحَرْ وَلَمْ يُقَصِّرْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ فَعَلَ اعْتَقَدُوا وَجُوبَ الْأَمْرِ وَامْتَثَلُوهُ.
فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أُحِبُّ ذَلِكَ الْخُرُجَ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَخْلُقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلُقُ بَعْضًا" (٤).

(١) - أخرجه البخاري - كتاب المغازي - باب صلح الحديبية - برقم (٤١٧٩) ٥/١٢٦.

(٢) - البخاري في الصحيح - كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. - برقم (٢٧٣١).

(٣) - السهيلي في الروض الأنف ٤/٥٤

(٤) - السابق نفسه.

لقد برهنت أم سلمة - رضي الله عنها - عن معرفتها بسياسة الأمور المستعصية وبصيرتها الثاقبة بالأوقات الحرجة فكانت عنواناً حكيماً للسياسة وسنداً قوياً لزوجها الرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث فكّث المسلمون بفضل تفكيرها السديد من مآزق حرج وقَعُوا فيه، سيظل يذكره التاريخ الإسلامي عبر القرون والأجيال، فتبوّأت مكانة سامية في نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم - " (١).

٨ - التنظيم الجيد الدقيق منذ اختيار وقت الخروج، وشكل الخروج، وطريقه الذي يسير فيه، وكذلك في إرسال العيون، وكتائب الطلائع، وتنظيم الجيش نفسه، قال ابن حجر (٢): " الجيش كان مُنقسمًا إلى المئات وكانت كلُّ مائة ممتازة عن الأخرى إمّا بالنسبة إلى القبائل وإمّا بالنسبة إلى الصفات "

٩ - ظهور البطولات، والإيمان الصادق، وهو كثير، ومن أبرزه هنا حين اشتد الأمر، واحتد، وتحول مسار الخروج من الخروج إلى العبادة إلى حتمية المواجهة، بعد إشاعة مقتل عثمان، فبايعوا على الموت وقيل على عدم الفرار (٣).

١٠ - التَّنَزُّلُ لِلْخَصْمِ لتحقيق المصالح العليا؛ وإثبات صدق مذهبك ونظرتك، فقد تنزل الرسول - عليه الصلاة والسلام - لسهيل بن عمرو حين اعترض على باسم الله الرحمن الرحيم، وحين اعترض على محمد رسول، ولم يكن ذلك من الرسول ترغماً للرسالة، ولا إنكاراً لأسماء الله وصفاته، وقد كان هذا تعليماً للأمة من بعده كيف يكون التحاور حين تتداخل القضايا، والبحث في فقه الأولويات، وقد رأينا في هذا الجيل الفريد من يسلك سلك النبي - صلى الله عليه وسلم - في مناقشة الخصوم السياسيين، والمخالفين، كما فعل عبد الله بن عباس في نقاشه مع الخوارج الذين خرجوا على عليّ -

(١) - اللحياني، هدى في المضامين التربوية المستنبطة. ص ١٠٦

(٢) - ابن حجر في فتح الباري ٤٤٤/٧

(٣) - ابن هشام في السيرة النبوية ٤ / ٢٨٣ : " حين بلغه أن عثمان قد قتل قال : لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة، فكانت بيعه الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله - ﷺ - على الموت وكان جابر بن عبد الله يقول إن رسول الله - ﷺ - لم يبايعنا على الموت ولكنه بايعنا على أن لا نفر "

رضي الله عنه - بحججٍ واهيةٍ فيها تمسُّكٌ بالظاهر، والجهلُ بحقيقةِ هذا الظاهر، أو وضعُ النصوصِ في غيرِ موضعِها^(١).

١١- عدمُ العجلةِ في ردِّ النصِّ، ويحتاجُ الشخصُ أحياناً إلى اتِّهامِ الرأيِ و القياسِ أمامَ النصوصِ الصريحة^(٢)، فقد كره بعضُ الصحابةِ الصلحَ مع قريشٍ، لما رأوا في شروطها من الظلمِ والإجحافِ في حقِّهم، لكنهم ندموا بعدَ ذلك على صنيعِهم ورأوا أنَّهم قد أخطئوا؛ إذ كيف يكرهون شيئاً رضيَ اللهُ ورسوله! وظلَّت تلك الحادثةُ درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم، وكانوا يُحذِّرون غيرهم من الوقوعِ فيما وقعوا فيه من الانسياقِ خلفَ الرأيِ؛ فكان عمرُ بنُ الخطابِ يقول^(٣): "أيها الناس، اتهموا الرأيَ على الدين، فلقد رأيتني أردُّ أمرَ رسولِ اللهِ برأبي اجتهداً، فوالله ما آلو عن الحقِّ، وذلك يومَ أبي جندل، حتى قال لي رسولُ اللهِ: تراني أرضى وتأبى؟!".

١٢- كما أن الحُدَيْبِيَّةَ كانت ضرورةً لتحديدِ قريشٍ عن صِراعِ المسلمين مع اليهودِ وهذه ممارسةٌ سياسيةٌ ذكيَّةٌ لتصفيةِ خصمٍ سياسيٍّ خطيرٍ وهم اليهودُ المحيطون بعاصمةِ المسلمين (يثرب)، بعيداً عن مُساندةِ قريشٍ أو حلفاءٍ آخرين، وهذا يُيسِّرُ مهمَّةَ المسلمين عسكرياً وسياسياً، وهذا بدوِّه عمقٌ استراتيجيٌّ هام، بعيدُ المدى أدركه الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- سوف يحصدُ المسلمون ثماره في المستقبلِ القريب.

لقد كان هذا الصلحُ الذي سمَّاه اللهُ فتحاً^(٤) له أبعاداً كبيرةً هامةً على مسارِ دعوةِ المسلمين، حيثُ

(١) - كما في مسند أحمد - من مسند علي - برقم ٦٥٦، وجملته أن الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، ذكروا ثلاثة قضايا : - الأولى أنه حكم الرجال في كتاب الله. الثانية: أنه محاسمه من إمرة المؤمنين. الثالثة: أنه قاتل ولم يسب. وناقشهم ابن عباس بما حدث يوم الحديبية حين أمر الرسولُ بمحو كلمة (محمد رسول) تنزلاً مع الخصم، وليس إنكاراً لإرسال الله له.

(٢) - قال السهيلي في الروض ٥١/٤: "ثُمَّ انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَجْهِهِ ذَلِكَ قَافِلاً، حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، نَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } الْفَتْحِ .١

(٣) - نقل الحافظ ابن حجر في الفتح: "قول المحدثين في الأثر أن رجاله موثوقون". ١٧٩/١.

٤ - كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ الفتح ١

يُعدُّ اعترافًا واضحًا جليًّا بدولة المسلمين بعد إنكارٍ ومحاولاتٍ إبادةٍ أو إقصاءٍ كما أنه اعترافٌ بقائدهم رسول الله -ﷺ- الذي لطالما كانت قريشٌ لا تعترف به بل كانت تتهمه في ظاهرٍ أمرها بالجنون والسحر، ولا تُريدُ وضعَ أيِّ اعتبارٍ له ولا لأتباعه.

١٣ - كما أن هذه الحالة الصحية التي استهدفتها الرسول -ﷺ- كانت كفيلةً بالتواصل مع الكثير من القادة والقبائل داخل الجزيرة العربية وخارجها، وهذا يحصلُ لأول مرةٍ منذُ بداية الرسالة وقيام الدولة، وهذا بدوره يُظهرُ اتساعَ نفوذِ المسلمين وقوةَ دولتهم.

ولم يكن هذا النصر - بعد تأييد الوحي - إلا ترجمةً لنظرةٍ استراتيجية عميقة وبعيدة المدى للمسلمين، وأنَّ قرارَ الهجرة وتكوين الدولة، وفنَّ إدارة الصراع كانت جميعها تتسم بالحكمة، كل ذلك للقيام بواجب الدعوة والبلاغ لا سيما أن هذا المشروع الإنساني الحضاري هو ما يُريده الله للعالمين.

2.2.4. المطب الرابع : فتح خيبر^(١): الضرورة السياسية والعمق الاقتصادي .

بعد صلح الحديبية تمَّ تحييد قريشٍ حسب الاتفاق، عن أيِّ صراعاتٍ سياسيةٍ أو اقتصاديةٍ تتمُّ بين المسلمين وبين خصومهم أو مُنافسيهم، ولهذا كان الهدفُ القادماً للرسول -ﷺ- قائد هذا المشروع هو فتح خيبر^(٢) وكان هذا التوجه له عدة أهدافٍ:

- منها أهداف اقتصادية.

(١) - نقل السهيلي في الروض ٦٤/٤ : " أَرْضَ خَيْبَرَ سُمِّيَتْ بِاسْمِ رَجُلٍ مِنَ الْعَمَالِيقِ . نَزَلَهَا وَهُوَ خَيْبَرُ بْنُ قَانِيَةَ بْنِ مَهْلَابِ بْنِ وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْوُطَيْحِ ، وَهُوَ مِنْ حُصُونِهَا أَنَّهُ سُمِّيَ بِالْوُطَيْحِ بْنِ مَارِ بْنِ رَجُلٍ مِنْ ثَمُودَ وَلَقَبُهُ مَأْخُودٌ مِنَ الْوُطَيْحِ وَهُوَ مَا تَعَلَّقَ بِالْأَطْفَانِ وَتَحَالِبِ الطَّيْرِ مِنَ الطَّيْنِ " - وانظر الزبيدي في تاج العروس في (خبر).

(٢) - نقل الصلابي في السيرة النبوية دروس وعبر خلاف العلماء في تاريخ غزوة خيبر ١٢٧/٨ : " أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وقيل : أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية، وقيل : في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك إنها في محرم من السنة السادسة... وظاهر الخلاف بين ابن اسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى، وقد رجح ابن حجر قول ابن اسحاق على قول الواقدي.

- وأهداف جيوسياسية^(١) تخصُّ موقعَ حَيْبِ القَرِيبِ مِنْ عاصمةِ الدولةِ الإسلاميَّةِ^(٢)، وهو وجودُ يهودِ بني النضيرِ فيها، أولئك الخِصومُ المتربصون للمسلمين، والذين أخرجهم الرسولُ -ﷺ- من المدينة بعد محاولتهم اغتيالَ الرسولِ -ﷺ-.

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنه لم يُظهر يهودُ حَيْبِ العداةِ للمسلمين حتى نزلَ فيهم زعماءُ بني النضيرِ، الذي حَزَّ في نفوسِهِم إجلالُهُم عن ديارِهِم، ولم يكن الإجلالُ كافياً لكسرِ شوكتِهِم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القِيان يضرئِن الدفوفَ والمزاميرَ بزهاءٍ وفخرٍ ما رُئي مثله في حَيِّ من الناس في زمانِهِم^(٣).

وكذلك كان من أهداف المسلمين في هذا العملِ العسكريِّ هو تصفيةُ كلِّ مَنْ كان له دورٌ في تقليبِ الأحزابِ وغزوةِ الخندق، وقد كانت (حَيْبِ) مكنَ المؤامراتِ على المسلمين التي سبقتُ حصارَ الأحزابِ وعزوةِ الخندق، بالإضافة إلى أن (حَيْبِ) كانت مليئةً بالخيراتِ ومنطقةً زراعيةً^(٤) مميَّزة لها عمقٌ اقتصاديٌّ هامٌ وجذابٌ، وله ثقلُهُ في المنطقة، ووجودُ نفوذٍ للمسلمين عليه سياسياً واقتصادياً كان مهماً جداً للمسلمين خصوصاً لقربها من المدينة واستقرارها على واحدٍ من أهمِّ طرقِ التجارةِ في جزيرة العربِ.

(١) - الجيوسياسية (أو الجيوبوليتيك) مصطلح تقليدي ينطبق في المقام الأول على تأثير الجغرافيا على السياسة، ولكنه تطور ليستخدم على مدى القرن الماضي ليشمل دلالات أوسع، وهو يشير تقليدياً إلى الروابط والعلاقات السببية بين السلطة السياسية والحيز الجغرافي، في شروط محددة. هذا التعبير مشتق من كلمتين، جيو وهي باليونانية تعني الأرض / وكلمة السياسية أكاديمياً، ودراسة الجغرافيا السياسية ينطوي على تحليل الجغرافيا والتاريخ والعلوم الاجتماعية مع سياسة المكان وأنماط بمقاييس مختلفة (بدءً من مستوى الدولة على الصعيد الدولي). وقد صاغه لأول مرة العالم السويدي "كجلين" للدلالة على دراسة تأثير الجغرافيا على السياسة، بعد ذلك اتخذ معاني مختلفة. انظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٢) - قال الزبيدي في تاج العروس: " (قُرْبَ المَدِينَةِ) المَشْرِفَةُ، على ثمانية بُرْدٍ منها إلى الشَّامِ ". وَتَبَعْدُ عَنِ المَدِينَةِ ١٦٥ كَيْلًا شَمَالًا عَلَى طَرِيقِ الشَّامِ المَارِّ بِحَيْبِ فَتَيْمَاءَ، وَقَاعِدَتُهُ بَلَدُهُ « الشَّرِيفِ ». وانظر المعالم الجغرافية ص ٢٧٠.

(٣) - انظر: ابن سعد في الطبقات ١٠٦/٢.

(٤) - في المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية ص ٢٧٠: " حَيْبِ بَلَدٌ كَثِيرُ المَاءِ وَالرَّزَعِ وَالْأَهْلِ، وَكَانَ يُسَمَّى رَيْفَ الحِجَازِ، وَأَكْثَرُ مَحْضُولَاتِهِ التَّمْرُ لِكَثْرَةِ نُحْلِهِ الَّذِي يُفَدَّرُ بِالمَلَايِينِ، وَقَدِيمًا قَالَ حَسَّانُ :
فَانَا وَمَنْ يُهْدِي الفَصَائِدَ نَحُونَا كَمُسْتَبْضِعٍ تَمَّرًا إِلَى أَهْلِ حَيْبِ
وَحَيْبِ أودِيَّةٌ فُحُولٌ تَجْعَلُ مِيَاهَهُ ثَرَاءً تَسِيلُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ".

وصل الخبرُ إلى اليهودِ وكان عددهم قريبًا من عشرة آلاف، أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم - يستعدون لغزوهم، وبدأوا بالاستعدادِ والتحضيرِ لذلك لقد كان نشرُ هذا الخبرِ خيانةً ممن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، المنافقين، وعلى القائد أن يُقدِّر لكلِّ موقفٍ ما يُناسبه، ولقد أشار المباركفوري إلى ذلك بقوله^(١): " وقد قامَ المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسلَ رأسُ المنافقين عبدُ الله بن أبي إلى يهودِ خيبر: إن محمدًا قَصَدَ قَصْدَكُمْ، وتوجَّهَ إليكم، فخذوا حذرَكُمْ، ولا تخافوا منه فإنَّ عددَكُمْ وعدتكم كثيرة، وقومُ محمدٍ شِردمةٌ قليلون، عزَّل، لا سلاحَ معهم إلا قليل، فلَمَّا عَلِمَ ذلكَ أهلُ خيبرِ، أرسلوا كِنانةَ بنَ أبي الحقيق وهُوذَةَ بن قيس إلى غطفان يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاءَ يهودِ خيبرِ، و مظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصفَ ثمارِ خيبر إن هم غلبوا المسلمين ".

والمسلمون - في فترة الهدنة وما بعدها - كانوا يعيشون طمأنينةً كبيرةً، لوعدهِ الله لهم بفتحِ خيبر، رُغم قلةِ عددهم، فلم يَسمح الرسولُ - صلى الله عليه وسلم - بالخروج إلا للألفِ وأربعمائةِ الذين حضروا معه صلحَ الحديبيةِ وبيعةِ الرضوان.

حاولَ اليهودُ رُغمَ كثرةِ عددهم الاستعانةَ بالأعرابِ فطلبوا من بني مُرَّةَ المشاركةَ فكان الاعتذارُ، ثم تفاوضوا مع قبيلةِ غطفانَ فوافقوا على المشاركةِ بخمسةِ آلافِ مقاتلٍ دِفَاعًا عن خيبر. ولقد كان الرسولُ حريصًا على وضعِ استراتيجياتٍ تُناسبُ كلَّ الأحوالِ والظروفِ الحربيةِ، وقد كان هذا الذكاءُ الحربيُّ مدعومًا من قبل الوحيِ أو من قبلة رأيه - صلى الله عليه وسلم - وخبراته أو من مشاورَةِ أصحابه - رضي الله عنهم -، ولذا رأيناه قد وضعَ خطةً يحاول فيها أن يُقلل المخاسِر التي قد تَعترضُه في سبيلِ تحقيقِ الهدفِ الذي حَرَجَ لأجله.

فكانت خطةُ الرسولِ - صلى الله عليه وسلم - الدخولَ لخيبر من الشمالِ لمحاصرةِ اليهودِ وعدمِ السماحِ لهم بالهروبِ إلى بلادِ الشام، ومن ثمَّ سَلَكَ رسولُ صلى الله عليه وسلم في اتجاهه نحو خيبر جبل عَصْرَ - بالكسر، ثم الصهباء، ثم نزل على واد يُقال له: الرجيع، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر، لإمداد اليهود.

وأخذ خِرَيْبِيُّ طريقَ يَدْلانِه على أَحْسَرِ الطرقِ المؤدية إلى خيبر، وأبعدها في التعمية على يهود، حتى يَدْخُلَ خيبر من جهةِ الشمال، أي جهةِ الشام، فيَحْوِلُ بين اليهود وبين طريقِ فرارِهِم إلى الشام، كما

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٣٤٥

يُحَوِّلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَطْفَانَ.

وهو هنا - صلى الله عليه وسلم - يُحَقِّقُ هدفين استراتيجيين بخطوة واحدة، إذ إِنَّهُ بِاتِّجَاهِهِ إِلَى الشَّمَالِ يَمْنَعُ هُرُوبَ الْيَهُودِ إِلَى الشَّامِ، وَيُحَوِّلُ دُونَ التَّقَاءِ بَنِي غَطْفَانَ بِيَهُودِ خَيْرٍ. وَثُمَّ اسْتِرَاطِيَّةً أَهْمٌ، وَأَخْطَرَ فِي الْحُرُوبِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَهِيَ مَوْقِعُ الْجَيْشِ مِنْ جِيُوشِ الْعَدُوِّ، لَا سِيَّمَا مَعَ عَدُوِّ كَهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ أَصْحَابِ تَجَارِبِ بِالْحُرُوبِ، وَمُتَمَنِّعُونَ بِحِصُونِ لَهُمْ كَثِيرَةٍ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى اخْتَارَ لِمُعَسَّكِرِهِ مَنَازِلًا، فَآتَاهُ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَنْزَلَكَ اللَّهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ فِي الْحَرْبِ؟ قَالَ: (بَلْ هُوَ الرَّأْيُ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْمَنْزِلَ قَرِيبٌ جَدًّا مِنْ حِصْنِ نَطَاةَ، وَجَمِيعِ مَقَاتِلِي خَيْرٍ فِيهَا، وَهُمْ يَدْرُونَ أَحْوَالَنَا، وَنَحْنُ لَا نَدْرِي أَحْوَالَهُمْ، وَسَهَامُهُمْ تَصِلُ إِلَيْنَا، وَسَهَامُنَا لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ، وَلَا نَأْمَنُ مِنْ بِيَاتِهِمْ، وَأَيْضًا هَذَا بَيْنَ النَّخْلَاتِ، وَمَكَانِ غَائِرٍ، وَأَرْضٍ وَخِيمَةٌ، لَوْ أَمَرْتَ بِمَكَانٍ خَالَ عَنْ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ نَتَّخِذُهُ مُعَسَّكِرًا، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (الرَّأْيُ مَا أَشْرَتْ)، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ^(١).

لَقَدْ رَسَّخَ الْمَشْرُوعَ الْإِسْلَامِيَّ فِي مَبَادِئِهِ قِيمًا سِيَاسِيَّةً تَضَمَّنَ لِمَنْ التَّزَمَهَا فِي مَكَانِهَا الصَّحِيحَ السِّيَادَةَ وَالرِّيَادَةَ، وَهُوَ هُنَا مَبْدَأُ الْمَشُورَةِ، وَالْإِفَادَةِ مِنَ الطَّاقَاتِ الْمَتَاحَةِ، يَقُولُ سَعِيدُ حَوَى تَحْتَ عُنْوَانِ^(٢): " رَجُلُ الدَّوْلَةِ الْأَوَّلِ سِيَاسِيًّا وَعَسْكَرِيًّا... إِنَّهَا الْقِيَادَةُ الَّتِي لَا تَسْتَكْبِرُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَى رَأْيِ مُسْلِمٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ، مَا دَامَ الرَّأْيُ سَلِيمًا صَحِيحًا، وَالْقِيَادَةُ الصَّالِحَةُ هِيَ الَّتِي تُعَمِّمُ الشُّورَى حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ عِنْدَهُ رَأْيٌ إِلَّا قَالَهُ، وَخَاصَّةً فِيمَا يَكُونُ فِيهِ غُرْمٌ "

فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِجَيْشِهِ حَتَّى نَزَلَ بِوَادٍ يُقَالُ لَهُ الرَّجِيعُ، فَانزَلَ بَيْنَ يَهُودِ خَيْرٍ، وَبَيْنَ غَطْفَانَ، لِيُحَوِّلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَمُدُّوا أَهْلَ خَيْبَرَ، وَكَانُوا هُمْ مُظَاهِرِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمَّا سَمِعَتْ غَطْفَانَ بِمَنْزِلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ خَيْبَرَ جَمَعُوا لَهُ ثُمَّ خَرَجُوا لِيُظَاهِرُوا يَهُودَ عَلَيْهِ^(٣).

جَرَتْ مَفَاوِضَاتُ بَيْنِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنِ زَعِيمِ غَطْفَانَ

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٣٣٤

(٢) - حوى، في الرسول - صلى الله عليه وسلم - ص ٣٢

(٣) - السهيلي في الروض الأنف ٦٨ / ٤

للانسحاب من مساندة اليهود مقابل نصف ثمار خيبر لمدة سنة، وأصرَّ على مساندة اليهود^(١).
ثم سار جيش اليهود لنصرة يهود خيبر فسمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حسنا ظنوا أن القوم قد
خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهلهم وأموالهم وحلوا بين رسول الله -ﷺ- وبين خيبر،
وتدنى^(٢) رسول الله -ﷺ- الأموال يأخذها مالا مالا، ويفتحها حصنا حصنا، فكان أول حصونهم
أُفتتح حصن ناعم^(٣).

وهذا الذي صار أحدث تحولا عجيبا في سير خطة النجاح حيث جاء رجل يصيح برجال غطفان
أن أدركوا نساءكم وأولادكم فأدركوا أن هناك هجوما قد حصل على أراضيهم^(٤)، فقرر غيينة بن
حصن زعيمهم وخمسة آلاف رجل الانسحاب ونجدة أهلهم، وعندما وصلوا إلى أراضيهم لم يجدوا أي
خطر قد حل ببلادهم فكان هذا الرجل الذي صاح بهم نقطة تحول هامة بالنسبة للمعركة، فعندما
أمرهم زعيمهم بالعودة لخيبر كان المسلمون قد فتحوا نصف خيبر وحققوا تقدما كبيرا على الأرض،
وبهذا كانت مشاركتهم غير مجدية.

ولا يعرف المؤرخون شخصية هذا الرجل الذي صاح، وربما كان من الملائكة فيكون من المعجزات
الكثيرة التي كانت للمسلمين في تلك المرحلة^(٥)، فرغم قلة عددهم إلا أن الله نصرهم، وخذل عدوهم
واليهود، لما رأوا الجيش فرؤا إلى مدينتهم وتحصنوا في حصونهم، وكان من الطبيعي أن يستعدوا للقتال،
وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم كما سبق، وكان هذا الحصن خط
الدفاع الأول لليهود؛ لمكانه الاستراتيجي، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي
كان يعد بالألف^(٦).

(١) - أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة ١٤٩٠/٣: عن " سعيد بن شبيب أحد بني سهم بن مرة أنه حدثه أبوه أنه كان في
جيش غيينة بن حصن لما جاء بمد يهود خيبر فأعطاه رسول الله -ﷺ- نصف تمر خيبر على أن يرجع فأبى "

(٢) - وَقَوْلُهُ يَتَدَنَّى الْخُصُونَ أَيُّ يَأْخُذُ الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى. انظر الروض الأنف ٦٨/٤

(٣) - السهيلي الروض الأنف ٦٨/٤

(٤) - ذكره السيوطي في الخصائص الكبرى ص ٤٦٢ وفيه أثر شبيب السابق: " أنه كان في جيش غيينة بن حصن لما جاء بمد
يهود خيبر، قال فسمعنا صوتا في عسكر غيينة يقول: أيها الناس أهلكم خولفتهم إليهم، قال: فرجعوا لا يتناظرون، فلم نر لذلك
نبا "

(٥) - أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة ١٤٩٠/٣ قال شبيب: " وما نراه كان إلا من السماء "

(٦) - المبارك فوري، الرحيق المختوم ص ٣٣٦

2.25. المطلب الخامس :

بعض القوم ينصح غطفان بعدم مناصرة يهود خيبر .

لقد أقام عُيَيْنَةُ زعيم غطفان أَيْامًا فِي أَهْلِهِ حِينَ عَادَ إِلَيْهِمْ خَشِيَةَ الصَّوْتِ الَّذِي سَمِعُوهُ، ثُمَّ دَعَا أَصْحَابَهُ لِلْخُرُوجِ إِلَى نَصْرِ الْيَهُودِ لَمَّا اطْمَأَنَّ عَلَى قَبِيلَتِهِ، فَجَاءَهُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ فَقَالَ يَا عُيَيْنَةُ أَطْعِنِي وَأَقِمْ فِي مَنْزِلِكَ وَدَعْ نَصْرَ الْيَهُودِ، مَعَ أَنِّي لَا أَرَاكَ تَرْجِعُ إِلَى خَيْبَرَ إِلَّا وَقَدْ فَتَحَهَا مُحَمَّدٌ وَلَا آمِنُ عَلَيْكَ. فَأَبَى عُيَيْنَةُ أَنْ يَقْبَلَ قَوْلَهُ وَقَالَ لَا أَسْلَمَ خُلُقَائِي لِشَيْءٍ (١).

وَلَمَّا وَلَّى عُيَيْنَةُ إِلَى أَهْلِهِ هَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- عَلَى الْخُصُوفِ حِصْنًا حِصْنًا، فَلَقَدْ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إِلَى حِصْنِ نَاعِمٍ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَخُصُوفُ نَاعِمٍ عِدَّةٌ فَرَمَتْ الْيَهُودُ يَوْمَئِذٍ بِالنَّبْلِ. وَبَيَّنَ أَهْلُ السِّيَرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى خَيْبَرَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: " قِفُوا، ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَمَا أَظْلَلَنَ وَرَبِّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقْلَلَنَ وَرَبِّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلَنَ وَرَبِّ الرِّيَاحِ وَمَا أَذْرَيْنَ فَإِنَّا

(١) - الواقدي في المغازي ص ٦٥٣

نَسَأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، أَقْدِمُوا بِسْمِ اللَّهِ. قَالَ وَكَانَ يَقُولُهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُلِّ قَرْيَةٍ دَخَلَهَا" (١).

وَدَفَعَ الرَّسُولَ -ﷺ- لِيَوَاءَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَرَجَعَ وَمَمْ يَصْنَعُ شَيْئًا، ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى آخَرَ فَرَجَعَ وَمَمْ يَصْنَعُ شَيْئًا، وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- لِيَوَاءِ الْأَنْصَارِ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَخَرَجَ وَرَجَعَ وَمَمْ يَعْمَلُ شَيْئًا " واستمرت المنازلات القتالية (٢).

وَذَكَرَ سَعْدُ بْنُ سَهْلٍ (٣) - رضي الله عنه - أن النبي -ﷺ- يَوْمَ حَيْبَرَ قَالَ: لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ عَدَا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَعَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُدْ عَلَى رَسُولِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرُهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ " .

وعن أنس بن مالك قال (٤): وَاسْتَقْبَلْنَا عَمَّالَ حَيْبَرَ عَادِينَ قَدْ خَرَجُوا بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- وَالْجَيْشَ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالْحَمِيسُ مَعَهُ فَأَذْبَرُوا هِرَابًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبْتَ حَيْبَرَ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْدَرِينَ " .

وحاصرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريبا من عشرين ليلة، وكانت أرضا وخمة شديدة الحر، فجهد المسلمون جهدا شديدا، فقام النبي -ﷺ- فيهم، فوعظهم وحضهم على الجهاد (٥).

(١) - السهيلي في الروض الأنف ٦٨/٤

(٢) - السهيلي في الروض الأنف ٦٨/٤

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الجهاد والسير - باب فضل من أسلم على يديه رجل - برقم (٣٠٠٩) ٦٠/٤.

(٤) - ابن هشام، السيرة النبوية ٢٩٩/٤

(٥) - ابن عبد الوهاب مختصر سيرة الرسول - دون ط. ص ١٠٦

2.2.6 المطلب السادس : فتح حصن ناعم .

خرج عليُّ بنُ أبي طالب -رضي الله عنه- بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب^(١).
فخرج ملكهم مرحبٌ يخطرُ بسيفه ويقول^(٢) :
قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرُ أُنِي مَرْحَبٌ .. شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجْرَبٌ.
فبرزَ له عامر بن الأكوع مرتجراً :

قد علمتُ خيبرُ أُنِي عامرُ شاكي السلاحِ بطلٌ مُغامرُ.
فاختلَقَا ضربتَيْنِ فَوْقَ سَيْفٍ مَرْحَبٍ فِي ثُرْسِ عَامِرٍ، وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْأَلُ لَهُ فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ
فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ. قَالَ سَلْمَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَخَرَجَتْ إِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ

(١) - المباركفوري الرحيق المختوم ص ٣٣٦

(٢) - وانظر السهيلي الروض الأنف ٧٥/٤ والشعر هذا والذي يليه من بحر الرجز.

-يقولون بطل عمَلِ عامرٍ، قتلَ نفسه، وردَّ ذلك النبي ﷺ- فقال (١): "بل له أجره مرتين".

فخرج عليّ للقاءِ مَرَحِبٍ وسمعه يَرْجُزُ، فردَّ عليه علي -رضي اله عنه -مرتجراً:

أنا الذي سَمَّني أُمِّي حَيْدَرَةَ

كَلَيْثِ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمُنْظَرَةَ

أُوفِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَةَ

فضرب رأس مرحب فقتله ". (٢) ولما دنا علي-رضي الله عنه -من حصونهم اطلَّع يهوديٌّ من رأس الحصن، وقال: مَنْ أَنْتَ؟ فقال: أنا عليُّ بنُ أبي طالب، فقال اليهوديُّ: عَلُوْثُمُ وما أنزل على موسى - عليه السلام - . ثم خرج ياسرٌ أخو مَرَحِبٍ، وهو يقول: مَنْ يُبَارِزُ؟ فبرَزَ إليه الزبيرُ، فقالت صفيئةُ أمُّه: يا رسولَ الله، يقتلُ ابني، فقالوا: " بل ابنك يقتله "، فقتله الزبير -ﷺ- (٣).

ودارَ القتالُ الميرُ حولَ حصنِ ناعم، قُتِلَ فيه عدَّةٌ سِراةٍ مِنَ اليهود، انهارتْ لأجله مقاومةُ اليهود، وعجزوا عن صدِّ هجومِ المسلمين، و هذا القتالُ قد دام أيامًا لاقى المسلمون فيها مقاومةً شديدةً، إلا أن اليهودَ يئسوا من مُقاومةِ المسلمين (٤).

حاول عليُّ بنُ أبي طالبٍ بعدَ بدايةِ المعركةِ التراجعَ ومحاولَةَ إبعادِ اليهودِ عن الحصونِ، واعتقدَ اليهودُ أنَّ المسلمين بدؤوا بالانسحابِ وكان عليُّ -رضي الله عنه - قد أعدَّ كمينًا للهجومِ على البابِ فعرفَ اليهودُ حُطَّته، فانسحبوا تِجَاهَ بواباتِ الحصنِ وحصلتِ المعاركُ هنالك، وفعلا تمكَّنَ المسلمون عبرَ هذه الحُطَّةِ الذكيَّةِ من الدخولِ إلى حصنِ (ناعم) (٥) وفرَّ اليهودُ إلى الحصونِ الأخرى وتترَّسوا بها" فَكَانَ

(١) - أخرجهُ مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد والسير - (٤٥ باب غزوة ذي قرد وغيرها) - برقم (١٨٠٧) ٣/١٤٣٣ .

(٢) - السابق نفسه

(٣) - البيهقي في السنن الكبرى - كتاب الجزية - باب المبارزة - برقم (١٨٨٠٧) ٩/٣٦٦: " ثُمَّ حَرَجَ يَاسِرٌ فَبَرَزَ لَهُ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَتْ صَفِيَّةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لَمَّا حَرَجَ إِلَيْهِ الزُّبَيْرُ يَا رَسُولَ اللهِ يَقْتُلُ ابْنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- : « بَلْ ابْنُكَ يَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ ». فَحَرَجَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ يَرْجُزُ ثُمَّ التَّقِيَا فَقَتَلَهُ الزُّبَيْرُ " .

(٤) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٣٣٦ .

(٥) - ذكر أهل السير الحصون التي فتحها الرسول ﷺ- في خيبر فقالوا - كما في المباركفوري الرحيق المختوم ص ٣٣٣ - : " وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين، شطر فيها خمسة حصون :. حصن ناعم . حصن الصَّعب بن معاذ . حصن قلعة الزبير . حصن أبي الحقيق . حصن النَّزَار . والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع في منطقة يقال لها : (النطاة) وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشَّقِّ . أما الشطر الثاني، ويعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط :

أَوَّلِ حُصُونِهِمْ أَفْتُتِحَ حِصْنُ نَاعِمٍ" (١).

2.2.7. المطلب السابع : حصن الصعب

أَكْمَلَ الْمُسْلِمُونَ سِيرَهُمْ إِلَى حِصْنِ الصَّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْيَهُودُ، لَكِنَّ حِصْنَ النَّاعِمِ الَّذِي تَمَّ اقْتِحَامُهُ لَمْ يَتَوَفَّرَ فِيهِ كَمِيَّاتٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الطَّعَامِ، فَأَصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِمَجَاعَةٍ، وَنَقَصَ فِي الطَّعَامِ. فَاتَى الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - بِخَبِيرٍ فَقَالُوا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ جُهِدْنَا وَمَا بَأْيِدِنَا مِنْ شَيْءٍ فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - شَيْئًا يُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ حَالَهُمْ وَأَنْ لَيْسَتْ بِهِمْ قُوَّةٌ وَأَنْ لَيْسَ بِيَدِي شَيْءٌ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ فَافْتَحْ عَلَيْهِمْ أَعْظَمَ حُصُونِهَا عَنْهُمْ غِنَاءً وَأَكْثَرَهَا طَعَامًا وَوَدَّكَ فَعَدَا النَّاسُ فَفَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِصْنَ الصَّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ، وَمَا بِخَبِيرٍ حِصْنٌ كَانَ أَكْثَرَ طَعَامًا وَوَدَّكَ مِنْهُ" (٢). وَكَانَ الْيَهُودُ قَدْ اتَّخَذُوا هَذَا الْحِصْنَ مَخْرَجًا اسْتِرَاطِيًّا لِلْأَطْعَمَةِ.

وَكَانَ فِي حِصْنِ الصَّعْبِ هَذَا خَمْسَمِائَةَ مَقَاتِلٍ، وَقَبْلَ فَتْحِهِ خَرَجَ مِنْهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ يُوشَعُ مَبَارِزًا فَخَرَجَ لَهُ الْحَبَابُ بْنُ الْمَنْدَرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَتَلَهُ وَخَرَجَ آخَرَ مَبَارِزًا يُقَالُ لَهُ الدِّيَالُ فَبَرَزَ لَهُ عِمَارَةُ بْنُ عَقْبَةَ الْغِفَارِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - فَضْرِبَهُ عَلَى هَامَتِهِ فَقَتَلَهُ، وَقَالَ لَهُ خَذْهَا وَأَنَا الْغَلَامُ. .. وَحَمَلَتْ يَهُودٌ حَمَلَةً مَنْكَرَةً

. حِصْنُ الْقُمُوصِ [وَكَانَ حِصْنُ بَنِي أَبِي الْحَقِيقِ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ] . حِصْنُ الْوَطِيحِ . حِصْنُ السُّلَامِ . وَفِي خَبِيرٍ حِصُونٌ وَقِلَاعٌ غَيْرُ هَذِهِ الثَّمَانِيَةِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَتْ صَغِيرَةً، لَا تَبْلُغُ إِلَى دَرَجَةِ هَذِهِ الْقِلَاعِ فِي مَنَاعَتِهَا وَقُوَّتِهَا. وَالْقِتَالُ الْمَرِيرُ إِنَّمَا دَارَ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنْهَا، أَمَا الشَّطْرُ الثَّانِي فَحِصُونُهَا الثَّلَاثَةُ مَعَ كَثْرَةِ الْمَحَارِبِينَ فِيهَا سَلِمَتْ دَوْمًا قِتَالًا.

(١) - السَّهِيلِيُّ فِي الرَّوْضِ الْأَنْفِ ٤/٦٨.

(٢) - السَّابِقُ ٤/٧٥ - وَ السَّيُوطِيُّ فِي الْخِصَائِصِ الْكَبْرَى ص ٤٢٥.

فانكشَفَ المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله -ﷺ- وهو واقفٌ قد نَزَلَ عن فرسه فثَبَّتَ الحبابُ بنُ المنذر -رضي الله عنه- فحرَّضَ الرسول -ﷺ- المسلمين على الجهادِ، فأقبلوا مسرعين، وزحفَ بهم الحبابُ -رضي الله تعالى عنه- فانهمزمت يهودٌ وأغلقت الحصونَ عليهم، ثم إن المسلمين اقتحموا الحصنَ يقتلون ويأسرون ووجدوا طعاما وسلاحا عظيما بحصن الصعب^(١).

وحين تساءلَ الرسولُ -ﷺ- عن سببِ وجودِ هذه الأسلحةِ النوعيةِ لدى اليهودِ وهذا الكم الكبير من الطعامِ بالحصنِ عَرَفَ أنهم كانوا يَعِدُونَ العُدَّةَ، ويُنْطِطُونَ لِغزْوِ المدينةِ وكان توقيتُ غزو الصحابة -رضي الله عنهم- لخبير، بقيادة الحبيب -رضي الله عنه- توقيتًا استراتيجيًا جدًّا، لأنَّ القرارَ الصائبَ إنما يكونُ صائبًا حينَ يُتَّخَذُ في وقتِه المناسبِ، وقد جاءَ قرارُ تأديبِ هؤلاء اليهودِ ليقطعَ الطريقَ عليهم، من التفكيرِ في الهجومِ على المدينة، ولكسرِ شوكتِهِم قبلَ أنْ يَقوموا بأيِّ عملٍ عدائي تجاهَ المسلمين.

2.2.8. المطلب الثامن: حصن قلعة الزبير:

كانت خطةُ المسلمين أن يتوجهوا إلى حصن الصعبِ بن معاذٍ بعدَ فتحِ حصنِ ناعم، وأبلى حاملُ رايتهُم الحبابُ بنُ المنذرِ بلاءً حسنًا حتى افتتحوه بعد ثلاثةِ أيام، ثم توجَّهوا بعده إلى حصنِ قلعةِ الزبيرِ الذي اجتمعَ فيه الفارُّون من حصنِ ناعمٍ والصعب^(٢).

فلم تبقَ إذِ إلا قلعةُ الزبيرِ لتتمَّ السيطرةُ على حصونِ منطقةِ النطا، وكانت هذه المواجهة مهددةً بأمرين هامين، لا يقل واحدٌ منهما صعوبةً عن الآخر:

أما الأول: أنها آخر حصون منطقة النطا تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطا التي كان فيها أشد اليهودِ عداوةً وكيدا.

وأما الثاني: فهو أن اليهود الذين فرّوا من حصني (ناعم والصعب)، قد اجتمعوا في هذا الحصن الأخير، مُدخرين معهم كلَّ ما يحتاجونه، ومؤمنين لأنفسِهِم مواردَ الشراب.

(١) -الخلي في السيرة الحلبية ٢/٤١٧

(٢) -الصلابي في السيرة النبوية دروس وعبر ٣/٤٨٦

وثمة صعوبةٌ ثالثةٌ في هذه المواجهة الضارية، وهي أن حُطَّةَ اليهود التي اعتمدها أن يتحصَّنوا داخل قلاعهم، ولا يَخْرُجُوا لمواجهة النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى يحدثُ إحدى اثنتين : إما: أن يُضرب المسلمون بالجوع، والرياح، وعوامل البيئة الصحراوية التي يخيمون فيها، فيقرُّوا الرجوع كما حدثَ مع الأحزاب حول المدينة. وأما: أن تظهر لليهود ثغرةٌ أو تأتيتهم فرصةٌ للانقضاض على المحيطين بهم، في غفلةٍ من الغفلات، مع استغلال فرصة احتياج الجيش المحاصر إلى الغذاء.

قال المبارك فوري عن حصن الزبير (١): " وهو حصنٌ منيعٌ في رأس قُفْلَةٍ، لا تقدرُ عليه الخيلُ والرجالُ لصعوبته وامتناعه، ففرضَ عليه رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - الحصارَ، وأقام محاصرًا ثلاثة أيام، فجاء رجلٌ من اليهود، وقال: يا أبا القاسم، إنك لو أقمتَ شهرًا ما بالوا، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعَتهم فيمتنعون منك ". وأمام هذا التدبير اليهوديِّ كان لا بدَّ من طرح استراتيجياتٍ بديلةٍ تُجبرُ العدوَّ على تغييرِ الخطة، والخروج للمواجهة، وقد استمرَّ الحصارُ أيامًا مما جعل الأمرُ يُزعج المسلمين ويحزنهم.

وبناءً على الاستشارات التي قامَ بها القائدُ الأعلى للجيش الرسولُ - صلى الله عليه وسلم - ومنها أنه جاء رجلٌ من اليهود يقول له غزال، فقال: يا أبا القاسم، تؤمّني على أن أدلك على ما تستريحُ به من أهلِ النطاة، وتخرجُ إلى أهلِ الشقِّ فإنَّ أهلَ الشقِّ قد هلكوا رُعبًا منك، قال: فأَمَّنه رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - على أهله وماله، فقال اليهوديُّ: إنك لو أقمتَ شهرًا ما بالوا، لهم دبولٌ (٢) تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعَتهم فيمتنعون منك، فإن قَطعتَ مشرهم عليهم أصحروا لك " (٣).

استراتيجية قطع الإمداد

من المُقرَّر عسكريًا وسياسيًا أننا حينَ البحثِ عن طريقٍ لكسرِ العدو فإنَّ أقربَ طُرُقٍ ذلك هو

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٣٣٨

(٢) - في بعض كتب التاريخ بلفظ "ذيول"، وما أثبتُّه عن ابن كثير في البداية والنهاية، ٤ / ١٩٨. وفي كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر في دبل: " { دبل } في حديث خبير [ذلَّه الله على دُبُول كانوا يَتَرَوَّونَ منها] أي جداول ماءٍ واحدًا دَبْلٌ سُمِّيَتْ به لأنها تُدْبَلُ: أي تُصَلِّحُ وتُعَمَّرُ ".

(٣) - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة - باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بفتح خبير وما ظهر عند بعض حصونها من دلالات النبوة - برقم (١٥٦٨).

البحث في عوامل قوته والسعي في إضعافها أو منعها إن أمكن، وقد أُخبر الحبيب - صلى الله عليه وسلم - كما سبق بمكمن قوة اليهود، ومواصلتهم الامتناع بالحصن، وهي تسللهم في الليل عبر طرق خاصة، فيشربون، ويحققون ما أرادوا، ويرجعون، وكذلك دائماً اليهود لديهم خدع، وتدابير. فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دُبُولِهِمْ فَقَطَعَهَا، فَلَمَّا قَطَعَ عَلَيْهِمْ مَشَارِبَهُمْ لَمْ يُطِيقُوا الْمَقَامَ عَلَى الْعَطَشِ فَحَرَجُوا فَمَاتُوا أَشَدَّ الْقِتَالِ وَقُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ نَفَرٌ وَأَصِيبٌ مِنَ الْيَهُودِ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَشْرَةَ (١).

2.2.9. المطلب التاسع : فتح حصون أهل الشق .

لقد بدأ الرسول - ﷺ - حُطَّتْهُ الْقِتَالِيَّةَ فِي خَيْبَرَ بِاِقْتِحَامِ الْحِصُونِ الْأَشَدِّ، وَمِقَاتِلَةِ الْأَقْوَامِ الْأَشَدِّ جَفَاءً، وَكِرَاهِيَّةً لَهُ، وَتَحْرُشًا بِدَعْوَتِهِ، وَهُمْ أَهْلُ مَنْطِقَةِ النَّطَاةِ، فَلَمَّا أْتَمَّ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ أَجَّهَ إِلَى أَهْلِ الشَّقِّ، قَالَ الْوَاقِدِيُّ (٢): " فَلَمَّا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنَ النَّطَاةِ أَمَرَ بِالِانْتِقَالِ وَالْعَسْكَرِ أَنْ يُحْوَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ بِالرَّجِيعِ إِلَى مَكَانِهِ الْأَوَّلِ بِالْمَنْزِلَةِ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنَ الْبِيَاتِ وَمِنْ حَرْبِ الْيَهُودِ وَمَا يَخَافُ مِنْهُمْ لِأَنَّ أَهْلَ النَّطَاةِ كَانُوا أَحَدَ الْيَهُودِ وَأَهْلَ النَّجْدَةِ مِنْهُمْ. ثُمَّ تَحْوَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى أَهْلِ الشَّقِّ "

انتهت المنازلات السابقة بهزيمة اليهود وفرار من قدر على الفرار إلى حصون الشق، وبدأ المسلمون في فتح حصون الشق بشكل متدرج وبدءوا بحصن أبيي، فخرج أهله، وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دجانة الأنصاري - رضي الله عنه - بلاءً حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب المنهزمون منه إلى حصن البريء، فامتنعوا به أشد الامتناع، وكان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه، فنصب المسلمون عليه

(١) - الواقدي في المغازي ص ٦٦٦ .

(٢) - الواقدي في المغازي ٦٦٧

المنجنيق فَوْقَ فِي قَلْبِ أَهْلِ الرُّعْبِ، وَهَرَبُوا مِنْهُ مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ شَدِيدٍ، فَوَجَدَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ أَوَانِي لِلْيَهُودِ مِنْ نَحَاسٍ وَفَخَارٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " اغْسِلُوهَا وَاطْبِخُوا فِيهَا"^(١).

وَأَفَلَتَ بَعْضُ مُقَاتِلَتِهِ إِلَى حِصْنِ نَزَارٍ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَحَاصَرُوهُمْ ثُمَّ افْتَتَحُوا الْحِصْنَ، وَفَرَّ بَقِيَّةُ أَهْلِ الشَّقِيقِ مِنْ حَصُونِهِمْ وَتَجَمَّعُوا فِي حِصْنِ الْقَمُوصِ^(٢) الْمُنْبَعِ وَحِصْنِ الْوُطَيْحِ وَحِصْنِ السَّلَامِ، فَحَاصَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لِمُدَّةٍ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا حَتَّى طَلَبُوا الصَّلْحَ^(٣). وَهَكَذَا فُتِحَتْ خَيْرٌ عَنُودٌ، وَبِذَلِكَ سَقَطَتْ سَائِرُ خَيْرِ بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَارَعَ أَهْلُ فَدَكِ فِي شِمَالِي خَيْرِ إِلَى طَلَبِ الصَّلْحِ، وَأَنْ يَسِيرَهُمْ وَيَحْتَنُ دِمَاءَهُمْ، وَبَدَلُوا لَهُ الْأَمْوَالَ فَوَافَقَ عَلَى طَلَبِهِمْ^(٤).

وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَصُونُ مَلِيئَةً بِالْغَنَائِمِ، وَقَدْ حَقَّقَ الْمُسْلِمُونَ نَصْرًا مَبَارَكًا عَلَى هَذَا الْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَفْتَأْ يَخُونُ وَيَغْدِرُ، وَيَتَرَصَّدُ كُلَّ عَمَلٍ لِلْمَشْرُوعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَيُؤَلِّبُ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ جَمَعْتَهُمْ حِمَايَةَ الْمَصَالِحِ الْمَشْتَرَكَةِ وَالِدِينِيَّةِ، وَنَسِيَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَكَانَ يَلْزِمُهُمْ بِمَا تَقْتَضِي التَّوْرَةُ أَنْ يَفُؤُوا، وَأَنْ يَعِيشُوا فِي سَلَامٍ، وَأَلَّا يَتَّعَدُوا حُدُودَ اللَّهِ، لَكِنْ كَيْفَ لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ طُبِعَتِ الْخِيَانَةُ وَالْغَدْرُ، وَالْفَسَادُ فِي نَفْسِهِمْ.

لَقَدْ كَانَتْ خَيْرٌ هِيَ وَكُرَّ الدَسِّ وَالتَّامِرِ، وَمَرْكَزُ الاسْتَفْزَازَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وَهِيَ مَعْدُنُ التَّحْرِشَاتِ وَإِثَارَةُ الْحُرُوبِ، فَلَا نَنْسَى أَنَّ أَهْلَ خَيْرِ هُمُ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ ضَدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَثَارُوا بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، ثُمَّ أَخَذُوا فِي الْإِتِّصَالِ بِالْمُنَافِقِينَ - الطَّابُورِ الْخَامِسِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ - وَبِغَطْفَانٍ وَأَعْرَابِ الْبَادِيَّةِ، وَكَانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ يَسْتَعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، وَقَدْ عَاشَ الْمُسْلِمُونَ بِسَبَبِهِمْ مَحْنًا مَتَوَاصِلَةً، اضْطَرَّتْ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْفِتْكَ بِبَعْضِ رُؤُوسِهِمْ أَمْثَالِ سَلَامِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ وَأَسِيرِ بْنِ زَارِمٍ، وَلَكِنْ كَانَ لَا بَدَّ مِنْ عَمَلٍ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ إِزَاءَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ، وَمَا كَانَ يَمْنَعُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ مَجَاهِزَتِهِمْ إِلَّا وَجُودُ عَدُوِّ أَكْبَرَ وَأَقْوَى وَأَلَدَّ أَلَا، وَهُوَ قُرَيْشٌ. لَقَدْ أَحْرَزَ الْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَ عَدِيدَةً مِنْ مَحَارِبَةِ الْيَهُودِ، فَضَلَّ عَنْ السَّبَايَا الَّذِينَ تَمَّ سَوْفُهُمْ وَأَخَذَهُمْ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

وَمَا كَانَ الْإِسْلَامُ لِيُشْهَرَ سِيْقًا فِي وَجْهِ أَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَمْنَعَهُ مِنْ مَوَاصِلَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ،

(١) - الخُضْرِيُّ فِي نَوْرِ الْيَقِينِ فِي سِيرَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ. ط. الأولى. ص ١٥١

(٢) - فِي سَبِيلِ الْهُدَى وَالرُّشَادِ ٥/١٢٤: " لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِصُونَ النَّطَاءِ، وَالشَّقِيقِ انْهَزَمَ مِنْ سَلْمٍ مِنْهُمْ إِلَى حِصُونَ الْكُتَيْبَةِ، وَأَعْظَمَ حِصُونَهَا الْقَمُوصُ، وَكَانَ حِصْنًا مَنِيعًا."

(٣) - ابْنُ هِشَامٍ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ ٥٥/٢ .

(٤) - الصَّلَابِيُّ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَرْضَ وَقَائِعِ ٣/٤٨٦-٤٨٧

والعدل، والتوحيد، وما لم يَغْدِرْ به هذا المخالف، ولقد كان مصيرُ هؤلاء اليهود -مع أنه أمرٌ مقدّرٌ مكتوبٌ- من صنع أيديهم، وبما قدّمت لهم أنفسهم، وتاريخهم مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومع المشروع الإسلامي مليءٌ بالمقابح و المخازي، والمساوي التي يتبرأ منها كلُّ شريفٍ، مساوي لو قُسمنَ على العَواني لما أمهِنَ إلا بالطلاق، وكان طلاقهم أن أخرجهم الرسول - صلى الله عليه وسلم من جواره، وأوصى بإخراجهم من جزيرة العرب، وطردهم فلما زاد شرهم تمّ قتالهم، وتأديبهم، فبعداً للقوم المجرمين.

والحقُّ الذي يجبُ ألا يخاصمنا فيه أحدٌ أنه إذا خالف أهلُ الذمة شيئاً مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة، وحلّت دماؤهم وأموالهم؛ لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيّبوا ولا يكتُموا، فإن فعلوا حلّت دماؤهم وأموالهم، فلما لم يفوا بالشرط استباح منهم ما حرمه قبل ذلك، وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الشروط التي اشترطها على أهل الذمة أيضاً في عهده - رضي الله عنه - إذ شرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئاً منها فقد حلَّ له منهم ما يحل من أهل الشقاق والعداوة.

لقد كان هذا الفتح العظيم لخير إضافةً سياسيةً واقتصاديةً كبيرةً للمشروع الإسلامي، حدث فيه تصفيةٌ لخصمٍ عسكريٍّ وسياسيٍّ خطيرٍ ألدّ، وتطهير للمدينة من تهديدٍ مستقبليٍّ للمسلمين، واتسعت دائرة القوة والنفوذ للمسلمين لمناطق خارج معقلهم، كما أن خير كانت منطقةً غنيةً زراعياً وتجارياً وموقعها هاماً على خطوط التجارة، فكانت إضافةً اقتصاديةً كبيرةً للمسلمين.

مؤتة الصراع الأول خارج جزيرة العرب :

عاد المسلمون كما اتفقوا بعد عامٍ من صلح الحديبية إلى مكة وكانت عمرة القضاء ومكثوا - كما كان الاتفاق - ثلاثة أيامٍ في مكة وبعدها عادوا إلى المدينة.

وقد اجتمعت أسبابٌ متعددةٌ جعلت من الضروري أن يفكر القائد الرسول محمد - ﷺ - في إرسال جنوده إلى الشام، ولعل من أهمها :

أولاً: السلوكيات المستفزة من قبل عرب الشام تجاه الدعوة، والدولة الإسلامية، وكان ذلك منذ زمنٍ مبكر، بعدما شعر هؤلاء أن غرورهم مُهددة، ولم يدخل قلوبهم نور الإسلام، وهدايتُه -ومن استفزازهم ما ذكره أهل السير^(١): أنه قد " جاءت الأخبار بأن القبائل العربية حول دومة

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٢٧٣

الجنديل، قريبا من الشام، تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمر بها وأنها قد حشدت جمعا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المدينة سباع ابن عرفة الغفاري، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليل بقيت من ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، ففر أهل دومة الجنديل في كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدا، وأقام رسول الله - ﷺ - أياما، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصيب منهم أحدا، ثم رجع الرسول - ﷺ - إلى المدينة.

- ومن ذلك أنه حين قدم دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر صاحب الروم، لما بعثه رسول الله - ﷺ - ومعه تجارة له حتى إذا كانوا بواد من أودية جدام، يقال له سنار، أغار على دحية... بطن من جدام، فأصابا كل شيء كان معه^(١).

- ويضاف الى ذلك أيضا ما قامت به قبيلتنا مذبح وقضاة من اعتداء على زيد بن حارثة - وصحبه - رضي الله عنهم - في العام المذكور (٦هـ).

وذلك عندما ذهبوا إلى وادي الثرى في بعثه بغرض الدعوة إلى الله، وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحنى أكثر خطورة^(٢).

ثانيا: وقد قام نصارى الشام بزعامة الإمبراطورية الرومانية بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والي معان حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام.

ثالثا: وكانت الشرارة الكبيرة في غزوة مؤتة^(٣) هي قتل سفير رسول الله - ﷺ - الحامل لرسالته إلى ملك بصرى من قبل أحد أمراء غسان في الشام، حيث قبض على موفد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعندما علم أنه يحمل رسالة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - قتله، زعم أن العرف مشتته أن الرسل لا يقتلون مهما كان العدا بين الطرفين.

وقد ذكر المبارك فوري من أسباب الغزوة فقال^(٤): " وسبب هذه المعركة أن رسول الله - صلى الله

(١) - السهيلي في الروض الأنف ٤ / ٣٩٧

(٢) - الصلابي، السيرة النبوية دروس وعبر ٨ / ١٨٤

(٣) - ذكر السهيلي في الروض الأنف ٤ / ١١٩: " عن عروة بن الزبير، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثته إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان "

(٤) - المباركفوري، الرحيق المختوم ص ٣٥٩

عليه وسلم - بعث الحارث بن عُمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصْرِي. فعرض له شُرْحِيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قَيْصِر، فأوثقه رباطاً، ثم قدّمه، فُضِرِبَ عُنُقَهُ.

وكان قتلُ السفراءِ والرسولِ من أشنعِ الجرائمِ، يُساوي بل يزيد على إعلانِ حالةِ الحربِ، فاشتدَّ ذلك على رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - حين نُقِلَتْ إليه الأخبارُ، فجَهَرَ إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب ."

وليس من شكٍ أنَّ أمراءَ العُساسنة في الشام كانوا يُصانعون بهذا الرومَ لمصلحتهم كأمرءَ تابعين لهم، ولكن - في نظري - تجبُ التفرقةُ بين مصالحِ الأمراءِ ومصالحِ الشعوبِ إذا فضَّلَ الأمراءُ مصالحهم، ولقد أظهر الحارثُ الغساني من الحماس ما لم يُظهِره هرقلُ نفسه حين قتل الحارثُ رسولَ رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم -.

فرأى النبي - ﷺ - أن يُؤدِّبَ مَنْ عَدَرَ بدُعائه، وكانت من أهدافِ المعركةِ تأديبُ وتهيبُ القبائلِ النصرانيةِ الموجودةِ في الشامِ، ولا بأسَ أن ينضمَّ إلى ذلك محاولةُ استعراضِ للقوةِ وتمدُّدِ للنفوذِ هناك، وإظهارِ قوةِ المسلمين والاحتكاكِ الأولِ مع الرومِ، الذي كان يُراد له أن يكون تمهيداً لصراعاتٍ قويةٍ ومفصليةٍ مُسبقلاً.

وكانت مؤنثةً هي أولُ تحرُّشٍ من المسلمين بالإمبراطورية البيزنطية الرومانية، وقد سبق أنَّ الرومَ هم البادئون بالاعتداء، فلا ضيرَ علينا أن نردَّ أو ننتصر.

وفي الوقتِ نفسه لكي يشعُرَ العربُ في هذه الجهاتِ بقوةِ المسلمين، قوةً تحفزهم على الانضمامِ إليهم بدافعِ العُروبةِ على أقلِّ تقدير.

هذه الأسبابُ وغيرها كانت كافيةً في التفكيرِ الجِدِّي في إطلاقِ الجيوشِ إلى الشامِ، وقاتلِ النصراني، وعربِ الشامِ، وأمَرَ رسولُ الله - ﷺ - على الجيشِ موالاه زيدَ بنَ حارثة، ورَتَّبَ القيادةَ للجيشِ من بعدِ زيدٍ إن قُتِل، فجعفرُ بنُ أبي طالبٍ فإن قُتِل فعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ، فإن قُتِلَ عبدُ الله فليرتَضِ المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم^(١). وكان خالدُ بنُ الوليدِ مع الجيشِ لكنَّه كان حديثَ عهدٍ بالإسلام^(٢).

(١) - السيوطي في الخصائص الكبرى ٤٣٥

(٢) - رواه البيهقي في دلائل النبوة - باب ذكر إسلام خالد - (١٦٨٥) ٤/٤٥٥. وفيه قصة إسلام (خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعثمان بن طلحة) : " إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال رسول الله - ﷺ - : « الحمد لله الذي هدانا لهذا،

2.2.10. المطلب العاشر : استعداد الروم وحلفائها

و لما وصل الجيش الإسلامي إلى معان^(١) من أرض الشام -وهي الآن محافظة من محافظات الأردن- بلغه أن النصارى الصليبيين من عربٍ وعجمٍ قد حشدوا حشودًا ضخمةً لقتالهم، إذ حشدت القبائل العربية مائة ألفٍ صليبيٍّ من لحَمٍ وجذامٍ وبهراءٍ وبليٍّ، وعيّنت لهم قائدًا هو مالكُ بنُ رافلة، وحشدَ هرقلُ مائة ألفٍ نصرانيٍّ صليبيٍّ من الروم فبلَغَ الجيشُ مائتي ألفٍ مقاتلٍ، مُزوِّدين بالسلاح

قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير»، قلت : يا رسول الله، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق، فادع الله يغفرها لي. فقال رسول الله -ﷺ-: « الإسلام يجب ما كان قبله»، قلت : يا رسول الله على ذلك، قال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوقع فيه من صد عن سبيلك»، قال خالد : وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله -ﷺ- من يوم أسلمت يعدل بي أحدا من أصحابه فيما حزه " .

(١) - السهيلي في الروض الأنف ٤/ ١٢١ : "ثُمَّ مَضَوْا حَتَّى نَزَلُوا مَعَانَ، مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، فَبَلَغَ النَّاسُ أَنَّ هِرْقَلَ قَدْ نَزَلَ مَابَ، مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ، فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَأَنْصَمَ إِلَيْهِمْ مِنْ لَحْمٍ وَجُدَامٍ وَالْقَيْنِ وَبِهْرَاءِ وَبَلِيٍّ مِائَةَ أَلْفٍ مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ بَلِيٍّ ثُمَّ أَحَدُ إِرَاشَةَ يُقَالُ لَهُ مَالِكُ بْنُ رَافِلَةَ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ أَقَامُوا عَلَى مَعَانَ لِيَلْتَمِزَنَّ يُفَكِّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ وَقَالُوا : نَكْتُبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُونَا " .

الكافي يَرُفَلون في الدِيَاجِ لِيَنبَهَرِ المسلمون بهم وبِقُوَّتِهِمْ^(١).

وقد طَارَ الخَبْرُ إلى المسلمين بِعِدَدِ جيشِ الرومِ والغساسنةِ وَمَنْ تَبِعُوهم على الضلالةِ وكانت مشاوراتٌ بينهم انتهتْ باختيارِ القتالِ، وكان اللقاءُ الداميُّ بين المسلمين والمشركين، وهناك في مُؤْتةِ التقيّ الفريقان، وبدأ القتالُ المريعُ، حيثُ ثلاثةُ آلافِ رجلٍ يُواجهون هجماتٍ مائتي ألفٍ مقاتل، معركةٌ عجيبةٌ سجَّلها التاريخُ بالدهشةِ والحيرةِ، فكلُّ الحُططِ الحربيةِ تُشيرُ إلى أنَّ هؤلاء لا بُدَّ أن يُبادوا عن بكرهٍ أبيهم، ولكنْ إذا هبَّت رِيحُ الإيمانِ جاءتِ العجائبُ^(٢).

أخذ الرايةَ زيدُ بن حارثة حُبُّ رسولِ الله -ﷺ- وجعل يُقاتلُ بِضراوةٍ بالغةٍ، وبسالةٍ لا يُوجدُ لها نظيرٌ إلا في أمثاله من أبطالِ الإسلامِ، فلم يَزَلْ يُقاتلُ، حتى شاطَ في رماحِ القومِ^(٣)، وخر صريعًا-رضي الله عنه -.

فأخذها جَعْفَرُ - رضي الله عنه - وطفق يُقاتلُ، حتى إذا أَرهَقَه القتالُ اقتحَمَ عن فرسه الشقراءِ فَعقرها، ثم قاتلَ حتى قُطعتِ يمينه، فأخذَ الرايةَ بشماله، ولم يَزَلْ بها حتى قُطعتِ شماله، فاحتضنَها بِعَضُدَيْهِ، فلم يَزَلْ رافعًا إياها حتى قُتلَ-رضي الله عنه -.

ثم حملَ الرايةَ عبدُالله بن رواحةَ فقتلَ، فأخذَ الرايةَ أحدُ الأنصارِ فطلبَ من الناسِ الاجتماعَ فسَلَّمِ الرايةَ لخالدِ بن الوليدِ الذي سُمِّيَ في هذه المعركةِ بسيفِ الله^(٤) حيثُ تمكَّنَ من إعادةِ تنظيمِ الجيشِ وترتيبه وقيادتهِ من جديدٍ.

مهارة خالد بن الوليد - رضي الله عنه -

عندما تَوَلَّى القيادةَ خالدُ بنُ الوليدِ، أظهرَ مهارتهِ ونبوغه في إنقاذِ جيشِ المسلمين، من خلالِ خطةِ حربيةٍ - وهو من أربابها^(٥) - هذه الخطةُ كانت ذاتَ محاورٍ، وأبعادٍ استراتيجيةٍ في إدارةِ الصراعِ الدُمويِ في هذه الظروفِ الحالكةِ، فقد قُتِلَ ثلاثةُ قوادٍ لجيشِ المسلمين، مع قلةِ العددِ والعتادِ في

(١) - الصلابي في السيرة النبوية دروس وعبر ١٨٨/٨

(٢) - انظر بعض هذه الكلمات في السهيلي، الرحيق المختوم ص ٣٦٥

(٣) - الطبراني، المعجم الكبير - في معجم زيد بن الخطاب - برقم (٤٦٥٦).

(٤) - رواه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة من أرض الشام - برقم (٤٢٦٢). ١٤٣/٥: "عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَيْرُهُمْ فَقَالَ أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ".

(٥) - أي من أهل فنون الحرب، وخبير استراتيجي فيها، ومن في الناس مثل خالد، لم يُهزم في جاهلية ولا إسلام.

مواجهة هؤلاء النصارى، وأتباعهم، وقد ذكر أهل السير أنّ ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان، فقال: لا آخذه، أنت أحقُّ به، أنت رجلٌ لك سنٌّ، فقد شهدتَ بدرًا، فقال ثابتٌ: خُذْه أيها الرجلُ فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالدُ بنُ الوليد-رضي الله عنه-^(١).

وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد -رضي الله عنه- في تلك الساعة العصيبة من القتال، أن يُنقذَ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدرَّ الموقف واحتمالاته المختلفة تقديرًا دقيقًا، ودرس ظروفَ المعركة درسًا وافيًا وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقلِّ خسارة ممكنة هو الحلُّ الأفضل، ففوة العدو تبلغ (٦٦) ضعفًا لقوة المسلمين، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم وعلى هذا الأساس وضع خالدُ الخطة^(٢)، وقد جاءت الاستراتيجية الحربية وتكتيكاتها على النحو التالي :

- مواصلة المواجهة من وقت تولى خالد -رضي الله عنه- القيادة، فقد أدارَ المعركة بقية يومه حتى الليل، ليُرسل رسالةً معينةً دبرها هو، وهي أن الجيش الإسلامي لم يَهْزَمْ، وأنه لا يزال يحتفظ بقدرته على إدارة القتال.

- مجموعة المدد: في الليل أمر خالد -رضي الله عنه- مجموعة من المسلمين بأن يخرجوا إلى خلفِ الجبال ليَعُودُوا فَجْرًا مُثْبِرِينَ الغبارَ رافعِينَ أصواتهم بالتكبيرِ والتهليلِ، فيظنُّ الرومُ بأن مددًا قد أتى للمسلمين، وقد دخلت الحُدُعة على هذا الجيش العزيم، وظنُّوا أن مددًا وصل.

- إعادة تنظيم الجيش: واصل خالد -رضي الله عنه- -حُطَّتْهُ الحربية، بالقيام بحيلة عسكرية فريدة من نوعها؛ إذ غيَّرَ الميمنة ميسرةً والميسرة ميمنةً، والمُقَدِّمة مؤخرَةً والمؤخرَةَ مقدمةً، لتختلف الوجوه على الروم، ويُدْبُ الرُّعْبُ في قلوبهم وترسيخ الحُدُعة الأولى من أن مددًا عظيمًا قد أتى للمسلمين.

- الهجوم على قلب جيش العدو: وقد كان هذا هو الجزء الرابع من الخطة الحربية الخالدية، وهي الضغطُ

(١) -المقرئبي في إمتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع- ط. ١. بيروت. الكتب العلمية. ١٤٣٥هـ. (١/٣٤٨-٣٤٩).

(٢) -الصلابي في السيرة النبوية دروس وعبر ١٨٨/٨

على قلب جيش العدو باستبسالٍ وشجاعةٍ مُنقطعةٍ النظير^(١)، ففاجأهم خالدٌ بالهجوم غير المتوقع على قلب الجيش وكاد يصل إلى قائدهم، فاضطرب الروم، وأصبحوا مُوقنين بأن جيش المسلمين قد تضاغف، وأصبح النصر على مشارف الأبواب بسبب المدد العظيم الذي وصل إليهم.

- الانسحاب التكتيكي المنظم، وبهذا يأتي الجزء الخامس من الخطة الحربية، إذ فوجئ العدو بخالد بن الوليد - رضي الله عنه - يحاول أن ينسحب من الميدان، فظنوا أنها خدعة منه، إذ لا يوجد جيش منتصر أو كاد ينتصر يقوم بالانسحاب إلا إذا كان يُدبر لمكيدة لا يأمن العدو نتائجها، فخشي جيش الروم أن يتبع جيش المسلمين بالهجوم لئلا تكون خدعة، لذلك لم يتقدموا والتزموا مواقعهم.

فانسحب خالد - رضي الله عنه - انسحابًا تكتيكيًا مُنظمًا، وعاد بجيشه سالمًا غانمًا إلى المدينة المنورة.

وقد أطلع الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - على ذلك فأخبر به أصحابه، إذ صعد المنبر وعينه تدرّفان، وقال: أيها الناس.. أخبركم عن جيشكم هذا الغازي إنهم انطلقوا فلحقوا العدو فقتل زيد - رضي الله تعالى عنه - شهيدًا فاستغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر - رضي الله تعالى عنه - فشد على القوم حتى قتل شهيدًا فاستغفروا له، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - وأثبت قدميه حتى قتل شهيدًا فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فأب بنصره.. نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين من غير إمرة حتى فتح الله عليهم^(٢).

ولما رجع الجيش جعل الناس يَحْثُونَ عَلَى الْجَيْشِ التَّرَابِ وَيَقُولُونَ يَا فُرَارٌ فَرَزْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسُوا بِالْفُرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٣).

(١) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة في أرض الشام برقم - ٤٢٦٥ - ١٤٤/٥ عن قيس بن أبي حازم قال سمعت خالد بن الوليد يقول لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسباف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية.

(٢) - الحلي في السيرة الحلبية - غزوة مؤتة - ٧٨٩/٢ وانظر البخاري: باب باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه برقم (١٢٤٦) : "أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب وإن عني رسول الله صلى الله عليه وسلم لتدرّفان ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له".

(٣) - السهيلي في الروض الأنف ١٣٠/٤

كيف يكون فرارًا لا نصرًا مبيّنًا، وقد رَجَعَ الجيشُ مخلّفًا ثلاثة عشرَ شهيدًا فقط، بعد معركة دامية دارت على أرض الأعداء واستمرت سبعة أيام، ولا توازنَ فيها بين القوي.

ويُمكن القول إن خالدًا بخطته تلك، قد أنقذَ الله المسلمين به من هزيمةٍ ماحقةٍ، وقتلٍ محققٍ وان انسحابه كان قِمة النصرِ بالنسبةِ إلى ظروف المعركة، حيثُ يكون الانسحابُ- في ظروف مماثلة، - أصعبَ حركات القتال، بل أجداها وأنفعها^(١).

وقد تمّ -بفضل الله بعد ذلك - ما بشرَ به الحبيبُ - صلى الله عليه وسلم - من أنهم الكُرّار، حيثُ عادُوا وفتحوا بلادَ الشامِ والقدسَ هزموا الرومَ عبرَ معركةِ اليرموكِ العظيمةِ.

وقد حقّق المسلمون في مُؤتةٍ عدةً مُكتسباتٍ من أهمها :

١- زيادةُ الثقةِ بأنفسهم وجرأةُ خروجهم إلى فضاءاتٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ جديدةٍ خارجِ الجزيرة العربية حيثُ بدأَ يحققون جزءًا ممّا يطمحون إليه في التدرُّج في إيصالِ الإسلامِ إلى العالمِ، وأنه رسالةُ الله - ليس للعرب فقط - بل إلى العالمين.

٢- وقد حققت مُؤتةُ أهدافها العسكرية والسياسية والدعوية حيثُ كانت انطلاقةً هامةً لما بعدها ومنصةً لمشروعٍ كبيرٍ ومتوسّعٍ، فزادتْ هيبةُ المسلمين وحضورهم وقوتهم وبدأَ نفوذهم وسلطانهم يؤذن بتجاوزِ جزيرة العربِ عبرَ عدةٍ مراحلٍ من العملِ والبذلِ، بدءً بمؤتةٍ ومرورًا بالقادسية واليرموك وغيرهما من المعارك الهامة التي كانت معاركٍ محوريةً واستراتيجيةً في المشروع الإسلامي المتنامي الصاعدِ بقوةٍ وتأييدٍ من الله

2.4. المبحث الرابع:

فتح مكة والتحوُّل الأكبر في المشروع

كان من شروطِ صلحِ الحديبية أن يُسمَحَ للعربِ بالتحالفِ مع أحدِ الفريقين، فدخلتْ حُرّاعةٌ في حلفِ النبي - صلى الله عليه وسلم - ودخلتْ بكرٌّ في حلفِ قُريشٍ، وبعد زمنٍ اعتدّتْ بكرٌّ على حُرّاعةٍ فكان هذا أولَ نقضٍ للعهدِ وبنودِ اتفاقِ صلحِ الحديبية.

(١) - الصلاحي في السيرة النبوية دروس وعبر ١٩٢/٨

ويذكر السيوطي السبب هذا فيقول^(١): كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة وقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له الوتير، وهو قريب من مكة، وقالت قريش: ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا من أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، وقتلوهم معهم للضعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وذكر السهيلي^(٢) الموقف منذ بدايته قبل الإسلام، وهو أن بني بكر عدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير، وكان الذي هاج ما بين بني بكر وخزاعة أن رجلاً من بني الحضرمي خرج تاجرًا، فلما توسط أرض خزاعة، عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة-قبيل الإسلام- على جماعة من بني الأسود من الدليل فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم.

فبينما بنو بكر وخزاعة على ذلك إذ حجز بينهم الإسلام بينهم وتشاغل الناس به، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين قريش، وكان فيما شرطوا أن يحالف كل طرف من يشاء، فدخلت خزاعة في حلف المسلمين وبنو بكر في حلف قريش.

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو الدليل من بني بكر من خزاعة، وأرادوا أن يصيبوا منه تارًا بأولئك النفر الذين أصابوا منهم، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في نفر، وهو يومئذ قائدهم حتى بيت خزاعة وهم على الوتير، ماء لهم فأصابوا منهم رجلاً، وتجاوزوا واقتتلوا، ورفدت بني بكر قريش بالسلام وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيًا، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة [لا يقوها إلا فاجر] لا إله له اليوم يا بني بكر أصيبوا تارككم فلعمرى إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون تارككم فيه؟ فقتلوهم.

فخرج عمرو بن سالم وركب^(٣) بما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير، حتى قدم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخبره الخبر، وقد قال أبيات شعر أنشدها بين يديه:

(١) -السيوطي في الخصائص الكبرى ٤٣٩/١

(٢) -السهيلي في الروض الأنف ١٤٠/٤

(٣) -الحكمي في مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة- ص ١٩٣.

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا.... .. حَلْفَ أَبِيْنَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا
 قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدًا.... .. ثُمَّتْ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
 فَاَنْصُرْ هَذَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا. .. وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَا تُؤَا مَدَدَا
 فِيهِمْ رَسُوْلُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا. .. إِنْ سِيَمَ حَسَنًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا
 فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبَدًا. .. إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
 وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا. . . وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَائِهِ رُصْدَا
 وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدًا. . . وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
 هُمْ بَيِّتُونَا بِالْوَتِيْرِ هُجْدًا. وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجْدًا(١)

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (٢) "نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ". فَمَا بَرِحَ حَتَّى مَرَّتْ عَنَانَةٌ
 فِي السَّمَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْتَهْلُ بِنَصْرِ بْنِ كَعْبٍ".
 وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- النَّاسَ بِالْجِهَازِ وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ
 حَبْرَهُ حَتَّى يَبْعَثَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ".

2.4.1.1. المطلب الأول : انفراط عقد الصلح بغدر قريش وحلفائها .

وكان هذا التحول هو الأهم في مجريات الأحداث، حيث كان عمر صلح الحديبية طويلاً لكن لم
 يمض أكثر من عامين حتى تم اختراقه، فكانت فرصة مهمة للمسلمين لفتح مكة وضيمها لدولتهم لما
 تُمثّل من أهمية كبرى من النواحي السياسية والاقتصادية فهي عاصمة جزيرة العرب في ذلك الحين
 ومحل ثقل كبير في المنطقة، والذي يتسيّد مكة ويُسيطر على الحرم سوف يُفتح له فتح كبير في أماكن

(١) - السهيلي في الروض الأنف ٤/١٤٦

(٢) - البيهقي في السنن الكبرى- كتاب الجزية- جماع أبواب الشرائط التي يأخذها الإمام على أهل الدّمة ، وما يكون منهم
 نقضاً للعهد - - باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد برقم (١٨٨٥٩) /٩/٣٩٠.

أخرى من بلاد العرب وكان هذا التفكير الاستراتيجي مهم جداً وفعالاً لا سيما أن المسلمين قد استفادوا من صلح الحديبية في تطوير قدراتهم وتوسيع نفوذهم وتعميق علاقاتهم داخل جزيرة العرب وخارجها وتعزيز موقفهم السياسي والاقتصادي والعسكري وفعلاً كان توقيت دخول مكة مناسباً لوضع المسلمين وإمكاناتهم.

2.4.2. المطلب الثاني : الإسلام أحق من يفي بعهد.

وليشهد التاريخ أنه لم يكن فتح مكة نقضاً لعهد الإسلام مع قريش، ولا خيانة لما تم الاتفاق عليه في عهدة الحديبية بل كان هذا الفتح من أبر البر؛ إذ هو نصرَةٌ للمظلومين، واستجابةً لمستغيثين أعني قبيلة خزاعة الذين كانوا حلفاء النبي - صلى الله عليه وسلم - واعتدت عليهم بكثر حلفاء قريش، وهذه الأعراف هي التي كان معمولاً بها في البلاد، وهي أن الاعتداء على المتحالف معهم يُعدُّ اعتداءً على الحلفاء، وقد أدركت قريش مغبة ما وقعت فيه بسبب حلفائها، وإيكم موقفاً من مواقف التاريخ حدث فيه مثل ذلك^(١):

"كَانَتْ ثَقِيفٌ حُلَفَاءَ لِبَنِي عَقِيلٍ فَأَسْرَتْ ثَقِيفٌ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَقِيلٍ وَأُصِيبَتْ مَعَهُ الْعَضْبَاءُ فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي الْوَتَاكِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ مَا شَأْنُكَ فَقَالَ بِمَ أَخَذْتَنِي بِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ إِعْظَامًا لِذَلِكَ فَقَالَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفًا."

وعندما علمت قريش بغضب المسلمين من هذا الاختراق للاتفاق أرسلوا أبا سفيان للوساطة عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - وضمن عدم التحرك ضدهم.

2.4.3. المطلب الثالث : القائد الفطن هو الذي يعلم من مقدمات الأمور عواقبها :

ولم يكن القائد النبي - ﷺ - ليغني عليه كيف ستصرف قريش في مثل هذه المواطن، وهكذا يجب أن يكون القائد، يُعدُّ لكل موقفٍ ما يناسبه، فقال الحبيب - صلى الله عليه وسلم - للناس: " كَأَنْتُمْ بِأَبِي

(١) - رواه أحمد في مسنده - مسند عمران بن حصين - برقم - (١٩٨٩٤).

سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ لِيَشُدَّ الْعَقْدَ وَيَزِيدَ فِي الْمُدَّةِ " (١).

ثُمَّ خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَوَّئَتْهُ عَنْهُ... ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَكَلَّمَهُ أَنْ يُكَلِّمَ لَهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ثُمَّ أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا الذَّرَّ لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ. ثُمَّ خَرَجَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَقَالَ يَا عَلِيُّ، إِنَّكَ أَمَسَ الْقَوْمَ بِي رَحْمًا، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُ فِي حَاجَةٍ فَلَا أُرْجِعَنَّ كَمَا جِئْتُ حَائِبًا، فَاشْفَعْ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ وَاللَّهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ.

فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ (٢) - بعد مشورة علي رضي الله عنه - فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أَجْرَتُ بَيْنَ النَّاسِ. فلم يرجع إلى قريش وسألوه فقال لهم لم أجد شيئاً غير أني اجرت بين الناس، فقالوا له: فَمَا يُعْنِي عَنكَ مَا قُلْتَ، وباءت محاولات قريش بالفشل (٣).

2.4.4. المطلب الرابع : إخفاء جهة السير .

فَجَهَّزَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - النَّاسَ لِعَزْوِ مَكَّةَ وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى إِخْفَاءِ الْأَمْرِ عَنِ قُرَيْشٍ لِمَبَاغِتَّتِهِمْ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - النَّاسَ بِالْجِهَازِ وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يَجْهَزُوهُ، وَكَانَ مِنْ

(١) - السهيلي الروض الأنف ٤/١٤٦

(٢) - السهيلي في الروض الأنف ٤/١٤٨

(٣) - وهنا أذكر صلح الحديبية، وكيف كانت الشروط قاسيةً على المسلمين في أكثر من نقطة، حتى أربكت الصفة الإسلامية، وكادت تموج فيه الفتنة، ومن ذلك ما رواه البخاري، وقد سبق بيانه لكن أسوقه هنا ليعلم أن الإسلام دائماً يحفظ العهود، والمواثيق ولا يغدر أبداً بعدوٍ أو صديق، لكن حين يغدر بنا العدو، فلا يلومن إلا نفسه، تأمل تعنت قريش حين عُقد صلح الحديبية: " إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْتَسِفُ فِي قُبُورِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَمْ أَصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَجِزْهُ لِي»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فَاَفْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ". البخاري - كتاب الشروط - بَابُ الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمَصَالِحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةُ الشُّرُوطِ - برقم ١٩٣/٣(٢٧٣١).

شدة حرصه على إخفاء وجهته في أول الأمر أنه لم يُخبر أهله أنفسهم بالوجهه التي يُريد، ويوضح ذلك حين دخل أبو بكر على ابنته عائشة -رضي الله عنها- وهي تحرك بعض جهاز رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال أي بُنية: أمركم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن تجهزوه؟ قالت: نعم،

قال فأين ترينه يُريد؟ قالت: لا والله ما أدري، ثم إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس أنه سائر إلى مكة بعدها، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبعتها في بلادها^(١).

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي، إلى بطن إضم، فيما بين ذي حشب وذي المروة، على ثلاثة بُرد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ٨ هـ؛ ليظن الظان أنه -ﷺ- يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته^(٢).

فتجهز الناس وكان خروج جيش المسلمين لعشر مَضِين من رمضان سنة ثمان^(٣). وكان عددهم خمسة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار، ولحق بهم خمسة آلاف من قبائل عربية أخرى، فأصبحوا عشرة آلاف أي باعتبار من لحقه في الطريق من القبائل كبنى أسد وسليم ولم يختلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار^(٤).

وعند قُرْبهم من مكة أمر رسول الله -ﷺ- بأن يكثرُوا من نيرانهم فأشعل الجميع نيراناً متفرقة، ليُرهبوا العدو، فيجبن عن القتال ولا تُراق أية دماء في هذا المكان الطاهر.

فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ الطَّهْرَانَ، وَخَرَجَ أَبُو سَفْيَانَ لِيَسْتَطْلِعَ الْأَمْرَ فَلَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَرَأَى النَّيْرَانَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي أَمَرَ الرَّسُولُ بِإِقَادِهَا فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ نَيْرَانًا قَطُّ وَلَا عَسْكَرًا فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: يَا أَبَا حَنْظَلَةَ، وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

(١) -الكلاعي في الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. الطبعة: الأولى - ص ١٧٩/٢

(٢) -المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٣٧٧

(٣) - البيهقي في دلائل النبوة - باب خروج النبي صلى الله عليه وسلم لغزوة الفتح واستخلافه على المدينة، ووقت خروجه منها ودخوله مكة وصومه وفطره في مسيره برقم (١٧٦٤).

(٤) -الحلي - السيرة الحلبية ١٣/٣ وانظر مسند أحمد - في مسند ابن عباس - برقم (٢٣٩٢).

النَّاسِ وَاصْبَحَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ، قَالَ فَمَا الْحِيلَةُ؟ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قَالَ قُلْتُ وَاللَّهِ لَئِنْ ظَفَرَ بِكَ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، فَارْتَكَبَ فِي عَجْزِ هَذِهِ الْبَعْلَةِ حَتَّى آتَى بِكَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَاسْتَأْمَنَهُ لَكَ^(١)، فدخل به العباس وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَجْرْتَهُ، وَحَاوَلَ عُمُرُ رَدَّهُ وَرَسُولٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - " اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ " .

فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَوْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ " وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ " قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، وَاللَّهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ لَقَدْ أَعْنَى عَنِّي شَيْئًا بَعْدُ قَالَ " وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ؟ " قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ أَمَّا هَذِهِ وَاللَّهِ فَإِنَّ فِي النَّفْسِ مِنْهَا حَتَّى الْآنَ شَيْئًا. فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ وَيْحَكَ أَسْلِمْتَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ^(٢) .

2.4.5.المطلب الخامس :

الإسلام حين يملك ويقدر يضرب أروع المثل في الرحمة والعفو .

(١) - وفي الطريق لقيهما عمر فأراد قتله لعداوته للرسول، فامتنع بالعباس، ودخلا على الرسول - ﷺ - فأكثر عمر وأراد أن يأخذ إقراراً من النبي بقتله، فتنحرك العباس، وأغلظ لعمر القول : مَهَلًا يَا عُمَرُ فَوَاللَّهِ أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ مَا قُلْتُ هَذَا، وَلَكِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ فَقَالَ مَهَلًا يَا عَبَّاسُ فَوَاللَّهِ لِإِسْلَامِكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخُطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِسْلَامِ الْخُطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ " . انظر الطبراني في المعجم الكبير - حديث ابن عباس - برقم (٧٢٦٤).

(٢) - انظر الطبراني في المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي . المعجم الكبير . المحقق : حمدي بن عبد الحميد السلفي . ط. ٢ . القاهرة . دار النشر : مكتبة ابن تيمية - دون ت . - مسند ابن عباس - برقم (٧٢٦٤).

تأمل الموقف - والمواقف كثر - حين شهد أبو سفيان شهادَةَ الْحَقِّ فَأَسْلَمَ، فاقترح^(١) العباسُ لفهمه شخصيةَ أبي سفيانَ وحبهِ للفخرِ أن يجعل الرسولَ له منزلةً في هذا اللقاءِ فقال: " نَعَمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ " ^(٢). فعممَ الرسولُ - ﷺ - الأمانَ للجميع.

فعندما أصبح أبو سفيان رهينةً بيد المسلمين، ومثلاً بين يدي النبيِّ في اليوم التالي، وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف واهترى كيانه فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. إنه يفدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأبيه وأمه، ويثني عليه الخير كله.

وعندما اقترح العباسُ شيئاً لأبي سفيانَ أجابه النبيُّ لطلبه: " ففني تخصيصِ بيتِ أبي سفيانَ شيئاً يُشبع ما تتطلع إليه نفسُ أبي سفيان، وفي هذا تثبيتٌ له على الإسلام وتقوية لإيمانه، وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاصِ الحقدِ من قلبِ أبي سفيانَ وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلصَ له وبدلَ في سبيله، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس ^(٣).

وهنا فُتِحَ المجالُ واسعاً للمسلمين، لتأمينِ الناسِ والتقليلِ من فُرْصَةِ وقوعِ حربٍ أو صراعٍ مُسَلِّحٍ، وأعطى الجيشُ الأوامرَ بالدخولِ من الجهاتِ الأربعِ لمكة المكرمة لاستعراضِ القوة والإحاطةِ بالخصمِ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يُقاتلوا إلا من قاتلهم، دخلت جميعُ الكتائبِ بسلامٍ باستثناءِ كتيبةِ خالدِ

(١) - أخرجه أبو داوود في سنن أبي داوود - كتاب المناسك - باب ما جاء في خبر مكة - برقم - (٢٠٢١) ٢/٢١٣. وسنده صحيح لغيره.

(٢) - فلما ذهب العباس لينصرف بأبي سفيان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا عباسُ احبسهُ بمضيقِ الوادي عند حطمِ الجبلِ حتى تمرَّ به جُنودُ الله فيراها ". قَالَ فَحَرَجْتُ حَتَّى حَبَسْتَهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي، حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَحْبِسَهُ. عَرَضَ الْجَيْشُ قَالَ وَمَرَّتِ الْقَبَائِلُ عَلَيَّ زَائِيَهَا، كُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ قَالَ يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ؟ فَأَقُولُ سَلِيمٌ فَيَقُولُ مَا لِي وَلِسَلِيمٍ ثُمَّ تَمُرُّ الْقَبِيلَةُ فَيَقُولُ يَا عَبَّاسُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَأَقُولُ مُزَيْنَةُ، فَيَقُولُ مَا لِي وَلِمُزَيْنَةَ حَتَّى تَفِدَتْ الْقَبَائِلُ مَا تَمُرُّ بِهِ قَبِيلَةٌ إِلَّا يَسْأَلُنِي عَنْهَا، فَإِذَا أَحْبَرْتَهُ بِهِمْ قَالَ مَا لِي وَلِئِي فُلَانٍ فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ كَتِيبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَضْرَاءُ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ لَا يُبْرَى مِنْهُمْ إِلَّا الْحَدَقُ، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ، فَقُلْتُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَا لِأَخِي هَؤُلَاءِ قَبِيلٌ". السهيلي . الروض الأنف ٤/١٥٥

(٣) - الصلابي السيرة النبوية : دروس وعبر ٨/٢٢٦

بن الوليد التي واجهت بعض المناوشات والمقاومة^(١).

وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- رايته سعد بن عبادة فهو أمام الكتيبة، فلما مرَّ سعد براهية النبي -صلى الله عليه وسلم- نادى يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة، اليوم أذل الله قريشًا.. فنادى أبو سفيان في رسول الله: الله أمرت بقتل قومك؟ وأعلمه بما قال سعد وإني أنشدك الله في قومك فأنت أبرُّ الناس وأوصلُ الناس، فقال: يا أبا سفيان اليوم يوم الرحمة اليوم أعز الله فيه قريشًا، وأرسل رسول الله -ﷺ- إلى سعدٍ فعزله وجعل اللواء إلى غيره^(٢).

ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ^(٣) فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابِ فَقَالَ: " مَا تَقُولُونَ وَمَا تَنْظُنُونَ ". قَالُوا: نَقُولُ ابْنُ أَخِي وَابْنُ عَمِّ حَلِيمٍ رَحِيمٍ -- وَقَالُوا ذَلِكَ ثَلَاثًا-- فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: " أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ {لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (يوسف ٩٢). قَالَ فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا مِنَ الْقُبُورِ فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ.

وتتجلى عظمة رسول الإسلام للجميع، وكيف أنَّ المشروع الإسلامي جاء لينشر العدل، والرحمة والحق والتسامح، فهو إذ قدَّر على من طردوهم من ديارهم وأخرجوهم من أهلهم وأموالهم، وقتلواهم ليُردوهم عن دينهم، اليوم يعلنون الصبح عنهم، والرحمة بهم ولا يستطيع أحدٌ من كُتاب التاريخ أو مُزوريه قديمًا أو حديثًا أن يُنكر هذه الصفحة البيضاء في تاريخ الإسلام، والتي أعلت من قيمة العفو والتراحم على كل شيء، فهل يفتن من يُعادي الإسلام اليوم، والمشروع الإسلامي أنه أرحم بهم من أنفسهم، لقد دخل رسول الله -ﷺ- مكة متواضعا مطأطئ الرأس خشوعًا وخضوعًا لله رب العالمين شاكرًا له عظيم نعمته وكريم فضله.

إنها مبادئ المشروع الإسلامي الناطقة عبر تاريخ الإسلام، حتى تُصبح هي الرد الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يُوهم أن دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية وهي كلمة جاءت عنواناً لحياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقاً على أنه بُعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض^(٤).

(١) - الزُّيَدي في مختصر صحيح البخاري - بابُ أينَ ركَّزَ النبيُّ -ﷺ- الراية يومَ الفتحِ؟ - برقم (١٧٩٢)

(٢) - انظره في كنز العمال - برقم (٣٠١٧٣).

(٣) - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى - كتاب جماع أبواب السير - باب فتح مكة حرسها الله - برقم (١٨٧٣٩) ٩/١٩٧.

٤ - الصلابي في السيرة النبوية : دروس وعبر ٨/٢٢٧

في يوم تاريخي، شعاره التوحيد لله الواحد القهار، لا شريك له دخل النبي -صلى الله عليه وسلم - مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصِب، فجعل يطعنُها بعودٍ في يده، وجعل يقول: " {جاء الحقُ وزَمَقَ الباطلُ}، {جاء الحقُ وما يُبديُّ الباطلُ وما يُعيدُ} " (١).

كان يوماً موعوداً أعزَّ الله به المسلمين وسقطت فيه الكثير من الحُرُفات وتعمَّق فيه الإيمان والعدل والمساواة، ورفع شأنهم وزدَّ لأهل الإسلام عزَّهم في المدينة التي عاشوا فيه التعذيب الذلَّ والمهانة، فها هو بلال يرتقي فوق الكعبة، ويؤذن لأول مرة، مشهد عنوانه: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وها هو رسول الله يأخذ البيعة من رجال ونساء مكة حيث أصبحت مكة مدينة إسلامية.

لقد كان فتح مكة تحولاً كبيراً في مسارات الأحداث فهو يومٌ من أيام الله حيث تحوّل ميزان القوى السياسي والعسكري والاقتصادي في جزيرة العرب من قريش إلى كفة المسلمين الذين زادت قوتهم ونفوذهم، وكان الإقبال على الدخول في الإسلام هو الحدث الأكبر بعد هذا الفتح العظيم كما أنه قد كانت للمسلمين جراح في مكة شُفيت، حيث لقاؤهم بأهل وماضٍ، أخرجوا منه إخراجاً.

حُنَيْن (٢) ودُخُول آخرِ مَدِينَةٍ فِي الْحِجَاز فِي دَوْلَةِ النَّبَوَّةِ:

كانت غزوة حُنَيْن (٣) فِي سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ بَعْدَ الْفَتْحِ مَبَاشَرَةً، وَلِذَلِكَ أَنَّ هَوَازِنَ سَمِعَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ، فَجَمَعَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّضْرِيُّ وَقَرَرُوا حَرْبَ الْمُسْلِمِينَ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَعَ هَوَازِنَ ثَقِيفٌ كُلُّهَا، وَاجْتَمَعَتْ نَضْرٌ وَجُشَمٌ كُلُّهَا، وَسَعْدُ بْنُ بَكْرٍ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ.

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شدة لها العرب، وبوغت القبائل المجاورة بالأمر الواقع، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغترسة، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نصرٌ وجشمٌ وسعد بن بكر وناس من

١- الزبيدي في مختصر صحيح البخاري - باب أين ركز النبي - ﷺ - الراية يوم الفتح؟ - رقم (١٧٩٤)

(٢) - حنين - بجاء مهملة ونون مصغر: واد إلى جنب ذي الحجاز قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات، قال أبو عبيد البكري سمي باسم حنين بن قانية بن مهلائيل..انظر السهلي في الروض الأنف ٢٠٤/٤ والمباركفوي في الرحيق المختوم ص ٣٩٧

(٣) - السهلي في الروض الأنف ٢٠٤/٤

بني هلال . وكلها من قيس عَيْلان؛ حيث رأت هذه البطون من نفسها عِزًّا وَأَنْفَةً أن تُقابل هذا الانتصارَ بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك ابن عوف النَّصْرِي، وقررت المسير إلى حرب المسلمين^(١). وكان رأي مالك بن عوف أن يُخرجوا وراءهم النساء والذرائع والأموال حتى لا يَفِرُّوا، فلما علم بذلك دُرَيْد بن الصمة - وكان محنكا خبيرا بالحروب - سأله: لم ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خَلْفَ كلِّ رجلٍ أهله وماله ليُقاتِلَ عنهم، فقال دُرَيْد: راعي ضأنٍ والله، وهل يردُّ المُنْهزمُ شيءٌ؟ إنما إن كانت لك لم يَنْفَعَكَ إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلِكَ ومالك، ولكنه لم يستمع لمشورته^(٢).

فبعد أن فرغ الرسول - صلى الله عليه وسلم - من فتح مكة مكث في حوالي تسعة عشر يوماً يُعلِّمُ الناسَ دِينَهُمْ وَيُفَقِّهُهُمْ فيه، وكان جيشُ الفتح المقدَّرُ بِعَشْرَةِ آلافٍ مقاتلٍ بالإضافة إلى ألفين آخرين من المسلمين الجدد بعد فتح مكة، وقيل أكثر من ذلك^(٣)، وهذه الكثرة في العدد هي الأولى في تاريخ المسلمين حتى قال بعضُ الصحابة - رضي الله عنهم - لئن نُغَلِبَ اليومَ من قِلةٍ، وكانت هذه من مؤشرات الاغترارِ بالعددِ الذي وَقَعَ فيه البعضُ، والذي كان له أثرٌ سلبيٌّ فيما بعدُ. ودخَلَ المسلمون وادي حُنينٍ وقد أصابتْ بعضهم الثقةُ المفرطةُ بالنصرِ، لكن تفاجأ جيشُ المسلمين بهجومٍ مباغتٍ من هوازنِ اصاب الجيشَ بالارتباكِ وانسحب البعضُ فاجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعادة تنظيم الجيشِ من جديدٍ وإعادتهم للمعركة.

2.4.6. المطلب السادس : استراتيجيات الرسول في غزوة حُنين .

فقرة 1 . الاستعداد بترتيب الجيش، وإعداده :

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٣٩٧

(٢) - السهيلي في الروض الأنف ٤/٢٠٤

(٣) - وعلى قول عروة والزهري وابن عقبة يكون جميع الجيش الذين سار بهم رسول الله - ﷺ - أربعة عشر ألفاً، لانهم قالوا: إنه قدم مكة باثني عشر ألفاً، وأضيف إليهم ألفان من الطلقاء. انظر الصالحى في سبيل الهدى والرشاد ٥/٣١٢

إن الاستعداد والتأهب لملاقاة العدو والأخذ بالأسباب المادية أمر لازم، وسبب من أسباب النصر، وهو لا ينافي التوكل، إذ إن المسلم يؤمن إيماناً جازماً بأن النصر من عند الله - عز وجل -، وهو في نفس الوقت يؤمن بأنه مأمور بالأخذ بالأسباب، وأخذ الحيطة، والتدابير اللازمة ضد عدوه" (١).

وقد أمر الله عز وجل بذلك في قوله تعالى: {وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّةَ الْوَعْدِ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ} (٢).

وقد رأينا هذا الاستعداد في صورٍ عدةٍ منها، وعباً رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ وَصَفَّهُمْ صُفُوفًا فِي السَّحْرِ وَوَضَعَ الْأَلْوِيَّةَ وَالرَّايَاتِ فِي أَهْلِهَا (٣)؛ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ لَوَاءً يَحْمِلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَايَةً يَحْمِلُهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَرَايَةً يَحْمِلُهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِي الْأَنْصَارِ رَايَاتٌ مَعَ الْخَزْرَجِ لَوَاءً يَحْمِلُهَا الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْدِرِ - وَيُقَالُ: لَوَاءُ الْخَزْرَجِ الْأَكْبَرُ مَعَ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ - وَلَوَاءُ الْأَوْسِ مَعَ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ وَفِي كُلِّ بَطْنٍ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ لَوَاءٌ أَوْ رَايَةٌ. وَفِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَايَةٌ يَحْمِلُهَا. ومنها حين أرسل زعيم المشركين غيونا؛ ليستطلعوا أخبار جيش المسلمين وهم ثلاثة أنفار أرسلهم لينظروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتوا وقد تفرقت أوصالهم قال: " ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجلاً بيضاً على حُيُولٍ بُلِقِ فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى وإن أطعنا رجعتنا بقومك" (٤).

لقد أعدَّ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - جيشاً قوامه عشرة آلاف، وهم الذين خرجوا معه من المدينة لفتح مكة، وانضم إليهم ألفان من مسلمة الفتح، ليصل العدد إلى اثني عشر ألف مقاتل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنِ التَّقَى هَوَازُنُ وَمَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَةُ آلَافٍ وَالطُّلُقَاءُ (٥)، وقيل الطُّلُقَاءُ وهم مسلمة الفتح ألفان (٦).

(١) - القريبي، إبراهيم بن إبراهيم. في مرويات غزوة حنين وحصار الطائف - : الطبعة : الأولى. ص. ٩٠

(٢) - الأنفال آية ٦٠

(٣) - الواقدي في المغازي ٨٩٨/٣

(٤) - الحلبي في السيرة الحلبية ٦٣/٣

(٥) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي - باب غزوة الطائف في سؤال سنّة ثمانٍ قاله موسى بن عُبَيْدَةَ - برقم ١٥٩/٥(٤٣٣٣).

(٦) - قال الواقدي : " وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَشْرَةَ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - وَالْقَبِيلِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ". انظر : مغازي الواقدي ٨٩٨/٣

وليس من شكٍ أن لهذا دلالة على كثرة العدد، والعُدَد، وعلى ظهورِ الشجاعة، والحماس، وحبِّ الجهاد، وعلى تنظيم الجيش، وترتيبه.

فقرة 2. إرسال العيون للاستطلاع.

لَمَّا سَمِعَ بِهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي حَدْرَدٍ الْأَسْلَمِيَّ وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ فِي النَّاسِ وَيُتِمِّمَ فِيهِمْ حَتَّى يَعْلَمَ عِلْمَهُمْ ثُمَّ يَأْتِيَهُمْ بِخَبْرِهِمْ، فَاذْهَبْ إِلَى أَبِي حَدْرَدٍ فَدَخَلَ فِيهِمْ حَتَّى سَمِعَ وَعَلِمَ مَا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسَمِعَ مِنْ مَالِكِ أَمْرَ هُوَزَانَ، وَمَا هُمْ لَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرَهُ الْخَبْرَ (١).

ويرى بعضُ الباحثين (٢) في السيرة النبوية أن ابن أبي حدرٍ - رضي الله عنه - قد قصَّر في أداءِ هذا الواجبِ حيثُ لم يَختلِطْ بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يُدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يُعنى به معرفةُ مواقعِ المشركين التي احتلُّوها وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمحطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة.

فقرة 3. استعارته الأدرع والسلاح :

الموقف صار حَظراً باجتماع كل هذه القبائل، واحتاج الأمر إلى مزيد تخطيط، وعناية، ولم يجد النبي حرجاً أن يستعين بالمشركين في تزويده بالسلاح، فأرسل رسولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى صفوان بن أمية برسالةٍ يقولُ له فيها " إِذَا أَتَتْكَ رُسُلِي فَأَعْطِهِمْ ثَلَاثِينَ دِرْعاً "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ أَوْ عَارِيَةٌ مُؤَدَّاةٌ؟ قَالَ: بَلْ عَارِيَةٌ مُؤَدَّاةٌ " (٣). وقيل بل مائة درع، مع ما يُصلِحُها (٤). وكان من حُسن تخطيطِ القائدِ أَنْ طَلَبَ مِنْ صَفْوَانَ أَنْ يَكْفِيَهُمْ حَمَلَ هَذِهِ الْأَدْرَعِ إِلَى أَوْطَاسٍ،

(١) - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي ١٨٩/٢

(٢) - الدكتور محمد بن علي الصلابي : السيرة النبوية : دروس وعبر ٤/٩

(٣) - رواه أبو داود بسند صحيح في السنن - كتاب البيوع - بابٌ في تَضْمِينِ الْعَوْرِ - برقم (٣٥٦٦) ٣/٢٩٧.

(٤) - الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٢٠٩ تحت حديث رقم (٦٣١)

فحملها صفوان إلى أوطاس" (١).

وقال السهيلي (٢): " واستعار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة حنين من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح، فقال -صلى الله عليه وسلم- كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين".

فقرة . 4. إدارته المعركة بنفسه وتلافيه الهزيمة.

لَمَّا بَاعَتِ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْطَرُوهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، إِذْ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ سَبَقُوا إِلَى نَزُولِ حُنَيْنٍ، فَاضْطَرَبَتِ صَفُوفُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَاجَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَانْهَزَمَ مَعْظَمُ الْجَيْشِ وَلَاذُوا بِالْفِرَارِ، وَهَنَا ضَهْرُ ثَبَاتِ الْقَائِدِ، حَيْثُ بَقِيَ الرَّسُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَنَفَرٌ قَلِيلٌ فِي الْمِيدَانِ يَتَصَدَّوْنَ لِهَجْمَاتِ الْمُشْرِكِينَ.

قال العباس (٣) - وكان ممن صمد -عَبَّاسٌ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَعْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءُ أَهْدَاها لَهُ فَرَوْهُ بِنُ نُفَاةَ الْجُدَامِيِّ، فَلَمَّا التَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكَفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يَرْكُضُ بَعْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَعْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- أَكْفُهَا إِزَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «أَيُّ عَبَّاسٍ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمْرَةِ»، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّئًا، فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمْرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللَّهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقْرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَيْكَ، يَا لَبَيْكَ، قَالَ: فَافْتَتَلُوا وَالْكَفَّارَ، وَالِدَعْوَةَ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: ثُمَّ فُصِّرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْحَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْحَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْحَزْرَجِ، فَظَنَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى بَعْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «هَذَا حِينَ حَمَى الْوَطِيسُ».

(١) - الصالحى، سبيل الهدى والرشاد ٣١٢/٥

(٢) - السهيلي في الروض الأنف ١٧٣/٣

(٣) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد والسير - باب غزوة حنين - برقم (١٧٧٥) ١٣٩٨/٣.

فقرة . 5. معرفته بالرجال الذين يعتمد عليهم في ساعة المحنة >

وقد كان لهذا صوراً عديدة: فمن ذلك اعتماده على صفوان بن أمية في الأدرع، وعلى نوفل بن الحارث في الأسلحة، وعلى العباس حين فرّ المسلمون بأن يُنادي على المسلمين يا أهل بيعة السمرة، وقد أثر هذا النداء في المسلمين^(١)، وتوليته لحملة الألوية، كلُّ بحسب ما يُناسبه.

فقرة . 6. الاستعانة الكاملة بالله حتى صير الله له التراب أقوى من الرماح والسيوف :

قال العباس: " ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «أَهْزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ» قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصِيَّاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا " (٢).

فقرة . 7. العبقريّة العسكريّة والسياسية :

وقد ظهر ذلك في مُطاردةِ فلولِ الفارّينِ إلى أوطاس والطائف، قال أبو موسى الأشعري-رضي الله عنه-: "لَمَّا فَرَعَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصَّمَةِ، فَقَتَلَ دُرَيْدًا، وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ. قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبِعْتَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ، فَرَمَى أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ جُشْمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثَبْتَهُ فِي رُكْبَتِهِ" (٣).

ومن صور العبقريّة السياسيّة أنّه لَمَّا جَاءَهُ وَفْدٌ هَوَازِنٍ قَالَ لَهُمُ الْحَبِيبُ: " مَا فَعَلَ مَالِكُ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَرَبَ فَلَحِقَ بِحِصْنِ الطَّائِفِ مَعَ ثَقِيفٍ، فَقَالَ: أَحْبِرُوهُ أَنَّهُ إِنْ كَانَ يَأْتِي مُسْلِمًا رَدَدْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَأَعْطَيْتَهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوا مَالِكًا، وَخَافَ مَالِكُ ثَقِيفًا عَلَى نَفْسِهِ. .. فَكَرَبَ

(١) - ذكر السهيلي عن العباس: " قَالَ إِنِّي لَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذُ بِحِكْمَةٍ بَعْلَتِهِ الْبَيْضَاءُ قَدْ شَجَرَتْهَا بِهَا، قَالَ وَكُنْتُ امْرَأً جَسِيمًا شَدِيدَ الصَّوْتِ قَالَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنَ النَّاسِ " أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ ؟ " فَلَمَّ أَرَى النَّاسَ يَلُؤُونَ عَلَى شَيْءٍ فَقَالَ يَا عَبَّاسُ أَصْرُحْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ : يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السَّمُرَةِ قَالَ فَأَجَابُوا : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ قَالَ فَيَذْهَبُ الرَّجُلُ لِيُنْبِئَ بَعِيرَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ فَيَأْخُذُ دُرْعَهُ فَيَقْدِفُهَا فِي عُنُقِهِ وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَتُرْسَهُ وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُجْلِي سَبِيلَهُ فَيَقُومُ الصَّوْتُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مِائَةٌ اسْتَقْبَلُوا النَّاسَ فَأَقْتَتَلُوا، وَكَانَتْ الدَّعْوَى أَوَّلَ مَا كَانَتْ يَا لِلْأَنْصَارِ. ثُمَّ خَلَصَتْ أَحْيَرًا : يَا لِلْحَزْرَجِ. وَكَانُوا صَبْرًا عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُكْبَتِهِ. فَتَنَظَّرَ إِلَى مُجْتَلِدِ الْقَوْمِ وَهُمْ يَجْتَلِدُونَ فَقَالَ الْآنَ حِمِّي الْوُطَيْسُ ". الروض الأنف ٢١٤/٤

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه-كتاب الجهاد والسير - باب غزوة حنين - برقم (١٧٧٥) ٣/١٣٩٨.

(٣) - الصلابي في السيرة النبوية دروس وعبر ٧/٩

عَلَى بَعِيرِهِ فَلَحِقَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَأَعْطَاهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَأَسْلَمَ
فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَاسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ تِلْكَ الْقَبَائِلِ حَوْلَ الطَّائِفِ
مِنْ هَوَازِنَ وَفَهْمٍ فَكَانَ قَدْ ضَمَى إِلَيْهِ قَوْمٌ مُسْلِمُونَ وَعَقَّدَ لَهُ لِيَاءً فَكَانَ يُقَاتِلُهُمْ مِنْ كَانَ عَلَى الشَّرِكِ
وَيُغِيرُهُمْ عَلَى تَقِيْفٍ، يُقَاتِلُهُمْ بِهِمْ وَلَا يُخْرِجُ لِتَقِيْفٍ سَرِحٌ إِلَّا أَعَارَ عَلَيْهِ، وَقَدْ رَجَعَ حِينَ رَجَعَ وَقَدْ
سَرِحَ النَّاسُ مَوَاشِيَهُمْ وَأَمْنُوا فِيمَا يَرُونَ حَيْثُ انْصَرَفَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ لَا
يَقْدِرُ عَلَى سَرِحٍ إِلَّا أَخَذَهُ وَلَا عَلَى رَجُلٍ إِلَّا قَتَلَهُ فَكَانَ قَدْ بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِالْحُمْسِ مِمَّا يُغِيرُ بِهِ مَرَّةً مِائَةً بَعِيرٍ وَمَرَّةً أَلْفَ شَاةٍ وَلَقَدْ أَعَارَ عَلَى سَرِحٍ لِأَهْلِ الطَّائِفِ فَاسْتَأَقَ لَهُمْ أَلْفَ
شَاةٍ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، فَاسْتَطَاعَ بِحُكْمَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ أَنْ يُجَنِّدَ مَالِكًا بَعْدَ إِسْلَامِهِ، وَاسْتَمَالَتِهِ، لِيُنْكِي فِي
هَذِهِ الْقَبَائِلِ حَتَّى تَسْتَسْلِمَ.

2.4.7.2.4.7. المطلب السابع :استراتيجية القائد في قتال الطائف :

فقرة . 1.فَرَضُ الحِصَارِ عَلَيْهِمُ :

قَرَّرَ الرَّسُولُ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ يَفْتَحَ الطَّائِفَ، فَمَضَى حَتَّى نَزَلَ قَرِيبًا مِنَ الطَّائِفِ فَضَرَبَ بِهِ عَسْكَرَهُ، وَحَاصَرَهَا فُقُتِلَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالنَّبْلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَسْكَرَ اقْتَرَبَ مِنْ حَائِطِ الطَّائِفِ، فَكَانَتِ النَّبْلُ تَنَالُهُمْ، وَلَمْ يَقْدِرِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنْ يَدْخُلُوا حَائِطَهُمْ أَغْلَقُوهُ دُونَهُمْ، فَلَمَّا أُصِيبَ أَوْلَئِكَ النَّفَرُ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالنَّبْلِ، وَضَعَّ عَسْكَرَهُ عِنْدَ مَسْجِدِهِ الَّذِي بِالطَّائِفِ الْيَوْمَ فَحَاصَرَهُمْ بِضَعَا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً (١).

وَكَانَ أَهْلُهَا ذَوِي خَبْرَةٍ فِي فَنِّ الدِّفَاعِ الْعَسْكَرِيِّ، وَالْبَلَدَةُ مُحْصَنَةٌ وَخَيْرَاتُهَا كَثِيرَةٌ، وَلَمَّا طَالَ الْحِصَارُ وَاسْتَعْصَى الْحِصْنُ، وَأُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِمَا أُصِيبُوا مِنْ رَشْقِ النَّبَالِ وَبِسُكِّ الْحَدِيدِ الْمُحْمَاةِ، وَكَانَ أَهْلُ الْحِصْنِ قَدْ أَعَدُّوا فِيهِ مَا يَكْفِيهِمْ لِحِصَارِ سَنَةٍ.

فقرة . 2 . استراتيجية الأسلحة الحديثة في القتال :

اسْتَعْدَمَ الرَّسُولُ -صلى الله عليه وسلم- الْأَسْلِحَةَ الْحَدِيثَةَ فِي قِتَالِ الطَّائِفِ، فَنَصَبَ الْمَنْجَنِيْقَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ، وَقَذَفَ بِهِ الْقَذَائِفَ، حَتَّى وَقَعَتْ شَدْحَةٌ فِي جِدَارِ الْحِصْنِ، فَدَخَلَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ دَبَابَةِ، وَدَخَلُوا بِهَا إِلَى الْجِدَارِ لِيَحْرِقُوهُ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ سِكِّ الْحَدِيدِ مُحْمَاةَ النَّارِ، فَخَرَجُوا

(١) - مرويات غزوة حنين ص ٢٨١

من تحتها، فرمّوهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً.

فقرة 3. استراتيجية التخويف لحملهم على الاستسلام :

وأمر رسول الله -ﷺ- كجزء من سياسة الحرب لإجلاء العدو إلى الاستسلام، فأمر بقطع الأعناب وتحويلها، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم، والناظر المتأمل يُدرك أنه لم يكن من هدف القائد النبي -صلى الله عليه وسلم- تخريب الأعناب ولا الأشجار، بل المقصود حمل العدو على الاستسلام، والدليل على ذلك أنه حين ناشدوه بالله والرحم كف عن قطعها^(١).

فقرة 4. استراتيجية الاستمالة :

أرسل الحبيب -صلى الله عليه وسلم- مناديه يُنادي^(٢): أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، إليهم بضعة عشر رجلاً^(٣) فيهم أبو بكر، إذ تسور حصن الطائف، وتُدلي منه ببكرة مستديرة يُستقى عليها، فكنّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم [أبا بكر]، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشقق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة.

فقرة 5. استشارة الخبراء في أمرهم :

لما طال الحصار استشار رسول الله -ﷺ- نوفل بن معاوية الديلي فقال: هم تَعَلَبُ في جُحْرٍ، إن أقمّت عليه أخذته وإن تركته لم يضرّك، وحينئذ عزم رسول الله -ﷺ- على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس، إننا قافلون غداً إن شاء الله، فنثقل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحهُ؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "اغدوا على القتال"، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: "إننا قافلون غداً إن شاء الله". فسئروا بذلك وأدعّونوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) - الرحيق المختوم ص ٤٠٨

(٢) - ابن عبد الوهاب في مختصر السيرة - ص ٢١٧

(٣) - وقيل : ثلاثة وعشرون رجلاً. انظر المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٤٠٨

يَضْحَك (١).

فقرة . 6. الدعاء لهم بالهداية :

وَقَدْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْمَ ظَعَنَ عَنْ ثَقِيفٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اذْعُ عَلَيْنِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -
اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَأْتِ بِهِمْ (٢).

فقرة . 7. الإسلام يدعو إلى مبدأ ورسالة :

لقد حازب النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - هذه القبائل، لأمرٍ واضحٍ هو نشرُ دعوة الإسلام، وتحقيقُ العبوديةِ لله في الأرضِ، ولم يكن يطلبُ مُلكًا، ولا مالًا، أو سلطانًا، وقد ظهرَ جليًا هذا المعنى في كلِّ المعاركِ التي خاضها الرسولُ الكريمُ، ومن صور ذلك هنا أنه امتنعَ عن قطعِ شجرِ العنبِ، حينَ ناشدته ثقيفٌ، مع أنهم هم الذين أغروا به سفهاءهم يومَ أن جاءَ يدعُوهم في ديارهم إلى الإسلامِ. وقُبيل ذلك بقليلٍ أطلقَ أهلَ مَكَّةَ أحرارًا مع أنهم الذين أخرجوه، والمؤمنين من ديارهم، وأمواهم بغيرِ حقٍّ، وها هو أبو سفيان يُسلم فيجعل الرسول له مكانةً ومنزلةً "فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن". وردَّ هُنا إلى هوازن - حينَ جاءه وفُدها يُعلن إسلامه - ردَّ إليهم أبناءهم، ونساءهم، وها هو مالك بن عوف يُعطيهِ النبي - صلى الله عليه وسلم - أهله وماله، ومائةً من الإبل، ويؤليه أمرَ الناسِ في مكانه. ويدعو الناسَ للتسليم وتترك الحرب فيقبل ممن استسلم منهم، ويعفو، ويعطي، ويمنح، ويقسم الغنائم في الناس ويقضي بينهم بما أمر الله، فهذا وأمثاله ليشهد التاريخ أن المشروع الإسلامي لم يأت إلى الدنيا ليأخذ أموال الناس أو ليزيئهم عن مناصبهم، وأملاكهم أو يأخذ أبناءهم، ونساءهم بل جاء ليخرج الناسَ من عبادةِ الناسِ إلى عبادةِ الله الواحدِ الأحدِ، ومن جورِ الأديانِ إلى عدلِ الإسلامِ، ولتشهد الحضاراتُ الغربيةُ اليومَ التي اتخذت الإسلامَ عدواً أنهم كانوا أسوأَ البشرِ إذ فكروا في طمسِ أعلى شريعةٍ عرفها البشرُ، وأعدلِ رسالةٍ، وأرحمِ قانون، ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره، ولو الكره المشركون. ورُغمَ كيدِ الكائدين دخلتْ آخرُ المدنِ الحجازية تحت سيطرةٍ وسيادةٍ دولةِ النبوةِ بعدَ مكةَ والمدينةِ وتوالت الانتصاراتُ للمسلمين وكان دخول الطائف أحدَ مؤشراتِ التحولِ الكبيرِ الذي حصل

(١) - السابق

(٢) - السهيلي الروض الأنف ٢٦٢/٤

للمسلمين في قوتهم ونشاطهم وتمكنهم بعد فتح مكة العظيم.

2.4.8. المطلب الثامن : غزوة تبوك⁽¹⁾ وملامح تدشين المرحلة العالمية للدعوة والدولة :

لم تكن مؤتة هي نهاية المطاف في الصراع مع الروم بل هو صراع طويل يحتاج إلى صبر وقوة وطموح ورؤية استراتيجية للأحداث، وقد كانت غزوة تبوك هي المرحلة الثانية من الصراع مع الروم الذين يُسيطرون على أغلب الحدود الشمالية لجزيرة العرب، وقد تحدثنا في المبحث السابق عن بعض الأسباب التي دعت لغزوة مؤتة، وما حدث فيها، وقد أحدثت هذه الغزوة أثراً إيجابياً كبيراً على جميع الأصعدة العربية، والدولية، والإسلامية، وبيان ذلك ما يلي:

فقرة 1 . على الصعيد العالمي:

كانت امبراطورية الروم من أكبر الامبراطوريات في العالم، وكانوا يتعاملون في تأديب العرب، وكفهم وترويضهم عن طريق إماراتهم التي كانت في شمال الجزيرة، والتي يتأثر بها أمراء عرب، يدينون بالولاء لا لعربيتهم بل لمملكة الروم كأمثال الغساسنة وغيرهم، ولما استطاع المسلمون أن يخرجوا في مؤتة إلى ملاقات الروم بأنفسهم، ومواليهم من العرب وقدر الجيش الإسلامي على أن يرجعوا بأقل خسارة في

(1) - عنون السهيلي في الروض الأنف ٢٩٠/٤ لغزوة تبوك فقال: " غَزْوَةُ تَبُوكَ فِي رَجَبِ سَنَةِ تِسْعٍ " أي من الهجرة. وفي سبب التسمية بذلك ينقل أيضا: " تَبُوكَ، وَهِيَ الْعَيْنُ الَّتِي أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - النَّاسَ أَلَّا يَمْسُوا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا، فَسَبَقَ إِلَيْهَا رَجُلَانِ وَهِيَ تَبِضُ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ فَجَعَلَا يُدْخِلَانِ فِيهَا سَهْمَيْنِ لِيَكْتُرَ مَائُوهَا، فَسَبَّهَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لهُمَا: مَا زِلْتُمَا تَبُوكَاهَا مِنْذُ الْيَوْمِ فِيمَا ذَكَرَ الْفُتَيْيَ قَالَ وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ الْعَيْنُ تَبُوكَ، وَالْبُوكُ كَالنَّقْشِ وَالْحَفْرِ فِي الشَّيْءِ وَيُقَالُ مِنْهُ بَاكَ الْحِمَارُ الْأَتَانُ يُبُوكُهَا إِذَا نَزَا عَلَيْهَا "

معركة يلتقي فيها جيشان بينهما هذا الفرق العظيم جدًا في العدد والعدة - كان ذلك يُعد نصرًا مبینًا للمسلمين، أحدث ذلك زَعزعةً، واضطرابًا في نفوس الروم، وأثار كثيرًا من الحقد، وحب الثأر والانتقام، لقد كان الرومان أعظم دولة في ذلك الزمان، وقرروا أن يُعدوا العدة لمواجهة المسلمين في المدينة.

قال المبارك فوري: "وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتًا غير مُعتاد إلا ويظنون أنه زحف الرومان، ويظهر ذلك جليًا مما وقع لعمر بن الخطاب" (١). في حديث طلب أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - زيادة النفقة، وفيه قال عمر - رضي الله عنه: " وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ عَسَانٍ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا فَقَدْ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ " (٢).

بلغ المسلمين من الأناط الذين قدموا بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هب جيشًا عرمرمًا، قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل حثم وجذام وغيرهما من مُتنصرة العرب، وأن مُقدمتهم بلغت إلى البلقاء، وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

فقرة . 2. على الصعيد العربي :

كانت القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة العربية معظمها في هذه الفترة تدين بالولاء للروم طوعًا أو كرها، وحفاظًا على البقاء في الملك والرياسة، وقد كانت القوتين العظيمين يومها (فارسي والروم) يتقاسمان القيادة لممالك العرب الشمالية، في الشماليين الغربي والشرقي (٣) وقد كان القلق والاضطراب يُسيطر على هذه الممالك بسبب هذه الصراعات بين القوتين، والعرب في ذلك يُبحثون عن مصالحهم، ولم يكن لهم طاقة بمعاداة إحدى القوتين، فلم يكن إلا التحالف مع ما تضمن به بقاءها، ولما بدأ الفتح العربي الإسلامي، وأخذ يظهر بقوته، ومنهجه، وسلطانه، حتى أمكنه ذلك من مُحاربة قوة من أعظم القوى في العالم، وهم الروم - كان ذلك ذا أثر واضح يجعل هذه القبائل

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٤٢٠

(٢) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب التفسير - باب { تَبْنِي مَرْضَاةَ أَرْوَاجِكَ } { قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ مِجْلَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } برقم (٤٩١٣) ٦/١٥٦.

(٣) - الشريف، في مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم - دون ط. - ص ١٧٣.

العربية تُعيد النظر في مولاتها ومعاداتها، وكان هذا هدفاً استراتيجياً للمشروع الإسلامي قصده القائد الأعلى - عليه الصلاة والسلام - وقد أحدثت غزوة مؤتة هذا الحراك النفسي عند القبائل العربية، أو عند بعضهم، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والحيرة، وسوف نرى أثر هذا الكلام واضحاً حين تمت غزوة تبوك، ولم يلق المسلمون فيها كيداً، وفيها تجلّى ما تم التخطيط له من دخول عددٍ من القبائل العربية النصرانية في الصلح مع المسلمين، وقبل ذلك كما قال المبارك فوري^(١) رأينا: " القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تتورّ على المسلمين جَنَحَت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليم وأشجع وعطفان ودُبيان وفزارة وغيرها ".

فقرة 3. على الصعيد الإسلامي :

لقد كانت غزوة مؤتة مليئةً بالدروس، حافلةً بالبطولات، ومن أهم ذلك أنها تُعطي البرهان على أن الإيمان إذا استقرّ في القلوب، وعمل عمله فيها قاد النفوس إلى استقبال المنايا، وتمي الموت؛ ابتغاء رضوان الله تعالى.

إن طبيعة البشر عدم الاهتمام عند الموت إلا بالموت وسكراته، لكن أولئك القادة-قادة مؤتة- نسوا ما هم فيه، وقضى كل واحد منهم نحبّه وقلبه مع الإسلام، إن هذه النماذج من البشر إذا وجدت في الأمة تحقّق لها النصر، إن حروب المسلمين مع عدوهم لا تحسّم بكثرة العدد، أو قوة العتاد؛ بل الفيصل فيها قوة الإيمان، وصدق التوكل على الله تعالى والإخلاص في طلب الشهادة. وتلك سنةٌ أبدية، وهي مفسرة لأسباب هزائم المسلمين المتتابعة^(٢).

فقرة 5.القرار الصائب :

لا يمكن أن يكون القائد المحنك أعني رسول الله بمعزل عن الآثار التي ترتبت على هذا الفتح في مؤتة، كيف وهو الذي خطّ لتلك الأصدقاء، وعمل على تحقيق أهدافها؛ لهذا جاء إصرار الرسول القائد -عليه الصلاة والسلام- على ملاقات الروم.

فقرة 6.الهدف الاستراتيجي من وراء ملاقات الروم:

(١) -المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٣٦٩

٢ - الحقل في غزوة مؤتة: أحداث ودروس- مقال -موقع الألوكة. <http://www.alukah.net/sharia/0/1478>

ليس بمنكور أن المشروع الإسلامي ليس كبقية الرسالات السماوية؛ لأنه يتسم بالعالمية، وفقد أنزله الله لهداية الناس طراً أجمعين بل للجن والإنس، ولم يكن التخطيط لهذا المشروع ليُنقى عند حدود شبه الجزيرة العربية، بل تُعدُّ الخطط لنشر دعوة الحق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، في بقاع المعمورة بدون أن يُكره أحدٌ على ذلك، وهذا اللقاء الذي قرره الرسول بين الروم والمسلمين سوف يُطلق مرحلة العالمية لرسالة الإسلام، ويجعل هذه الدعوة تتجه إلى آفاق غير جزيرة العرب، إلى مناطق أبعد وأعمق.

عقبات في غزوة تبوك :

وبدأ التنفيذ الفوري للفكرة، حيث طلب الرسول -عليه الصلاة والسلام- من الصحابة الاستعداد لكن واجهة الحبيب عددٌ من المشكلات التي تلزم البحث عن حل لها؛ فالقائد يجب أن يتحمل المسؤولية في كل الأحيان في الشدة والرخاء، والنصر والهزيمة، وكانت العقبات تتمثل في أمور من أهمها ما يلي:

العقبة الأولى: بُعد المسافة بين تبوك، والمدينة المنورة، فإذا اجتمع إلى ذلك وعورة الطريق إلى تبوك، وشدة الحرارة ازداد الطين بلةً وتعقدت المشكلة أكثر.

العقبة الثانية: كان العام الذي سيخرج فيه الجيش للغزوة عام جَدْب، وقحط، حيث قلة المطر، ومن ثمَّ الرعي، والزرع، وقلة الدَّر والضرع، وما يترتب على ذلك، من ثمارٍ، وقوتٍ.

العقبة الثالثة: بدأت الثمار بعد عام القحط تبدو، ويُرهر ينعها، وتُنضج ثحبُّها، والناس في حاجة شديدة، وإعواز إليها، وقد كانوا ينتظرون من عام استواء زرعهم من تمرٍ وعنٍ.

العقبة الرابعة: ظهور النفاق الذي أصبح معلوماً منتشرًا في بعض منافقي المدينة، هؤلاء الذين لم يفتؤوا يُبتطون الصحابة الأطهار -رضي الله عنهم- ويخزلونهم عن سلك طريق الصدق والإيمان.

ولهذا، وغيره أُطلق على هذا الجيش جيش العُسرة، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظرٍ أدقٍّ وأحكم من هذا كله، إنَّه كان يري أنه لو توالى أو تأخر عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية وعلى شُعبة المسلمين العسكرية، فالجاهلية التي تُلْفِظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاصمة في حنين ستحي مرةً

أخري، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبي عامر الفاسق سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، في حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام (١)؛ لذا كان قرار الحرب والمواجهة.

2.4.9. المطلب التاسع : التدابير و الاستراتيجيات التي تبناها الرسول لمواجهة هذه العقبات:

فقرة 1. الصبر لأمر الله، والتضرع إلى الله من أهم عوامل النصر.

فقد عدا واضحا لكل ذي بصير عاقل أن جميع غزوات ومعارك الإسلام التي شهدتها تاريخ الإنسانية منذ فجر الإسلام إلى اليوم إنما يرجع فيها النصر إلى الإيمان بالله، والإخلاص له واتباع الهدى النبوي، وحسن التخطيط، التحلي بالسماة التي تُرسخ للبطولة، وتساعد على النصر، والتي من أهمها الصبر، ففي دقائق يصبرها الجيش الإسلامي على ملاقاته عدوه كفيلا بأن تحوّل الهزيمة إلى نصر، وأو تحقق النصر الكامل، ولو تأملت تحقق صفة الصبر، والتضرع إلى الله في غزوة تبوك، لأدركت أن النصر مع الإيمان والصبر: فقد قيل لعمر بن الخطاب حديثنا من شأن الساعة العسرة فقال (٢): " خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر قرته فيشربه ويجعل ما بقي على كفيه، فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما نأكله فجازت العسكر.

فقرة 2. الحظ على الجهاد، والنفقة.

ومع هذا الجذب والقحط، وقلة ما في اليد حصى الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الجهاد،

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ٤٢٢

(٢) - السيوطي في الخصائص الكبرى ١/٥٩٩

ودعا أهل الغنى إلى التَّفَقَّةِ وَالْحُمْلَانِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١)، ولم يكن من المسلمين بعد أن سمعوا صوت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو^(٢) إلى قتال الروم حتى تسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يَتَجَهَّزُونَ للقتال بسرعةٍ بالغةٍ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كلِّ صوبٍ وناحيةٍ، ولم يرض أحدٌ من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة، إلا الذين في قلوبهم مرضٌ وإلا ثلاثة نفرٍ، حتى كان يجيء أهلُ الحاجةِ والفاقةِ يستحملون رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- ليخرجوا إلى قتالِ الروم، فإذا قال لهم: {لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} ^(٣).

وقام عثمانُ بنُ عفان فقال: يا رسولَ الله عليٌّ مائةٌ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيلِ الله، ثم حَضَّ على الجيشِ فقامَ عثمانُ بنُ عفان فقال: يا رسولَ الله عليٌّ مائتا بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيلِ الله، ثم حَضَّ على الجيشِ فقامَ عثمانُ بنُ عفان فقال: يا رسولَ الله عليٌّ ثلثمائةٍ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيلِ الله ^(٤)، وجاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفِ دِينَارٍ فِي كُمَّهِ -حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حَجْرِهِ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْلِبُهَا فِي حَجْرِهِ وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ» ^(٥)، ثم تصدق وتصدق حتى بلغَ من مقدار صدقته أن قال عن نفسه يقول كما في البخاري^(٦): " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ حَفَرَ رُومَةً فَلَهُ الْجَنَّةُ فَحَفَرْتُهَا أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ فَجَهَّزْتُهُمْ "

وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِجَمِيعِ مَالِهِ، وَعَمْرٌ بِنَصْفِهِ، يَقُولُ ^(٧): " أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمَ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا فَجِئْتُ بِنَصْفِ مَالِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ». قُلْتُ مِثْلَهُ، قَالَ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ -

(١) - السهيلي في الروض الأنف ٢٩٧/٤

(٢) - المباركفوري الرحيق المختوم ص ٤٢٤

(٣) - سورة التوبة : ٩٢ .

(٤) - الصلابي في السيرة النبوية دروس وعبر ٥٠/٩

(٥) - أخرجه الترمذي في سنن الترمذي - كتاب أبواب المناقب - باب في مناقب عثمان (٣٧٠١). ٦٢٦/٥ وحسنه الألباني.

(٦) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب الوصايا - باب إِذَا وَقَفَ أَرْضًا أَوْ بَعْرًا وَاشْتَرَطَ لِنَفْسِهِ مِثْلَ دَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ... - برقم (٢٧٧٨) ١٣/٤.

(٧) - أخرجه أبو داوود في سنن أبي داوود - كتاب الزكاة - باب الرجل يخرج من ماله - باب الرخصة في ذلك - برقم (١٦٨٠) ١٢٩/٢. وحسنه الألباني.

رضى الله عنه - بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ». قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ لَا أَسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا ". وهكذا فعل الصحابة الموسرون - رضي الله عنهم -، بل والفقراء كما سبق بيانه، وعُذِرَ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ، وَلَمْ يُحْرَمِ الْأَجْرَ أَيْضًا.

فقرة 3. نزول الوحي السماوي تربيةً، وتوجيهًا للصحابة، وتحذيرًا وفضحًا للمنافقين :

لقد نزل القرآن يكشف عن كثيرٍ من حقائق الإيمان من قِبَلِ الصحابة - رضي الله عنهم -، ويدعوهم إلى البذلِ والتفَرُّعِ للجهادِ، وبين حال المنافقين وفضحهم، هؤلاء الذين خدَلوا الصحابة، وتباطؤوا، وثبَطوا الناسَ عن الخروجِ، فكانت سورة التوبة فاضحةً لهؤلاء المنافقين، وأظهرت عُذْرَ المعذورين، وتوبةً مَنْ تَخَلَّفَ بِلَا عُذْرٍ، ولكنه صدق الرسول - ولم يكذبه، لقد كانت غزوة تبوك تربيةً إيمانيةً وتمحيصًا لمجتمع المدينة، وفضحًا للنفاق، وإظهارًا لمكانة أهل الصدق والإيمان وهم أصحاب محمد - ﷺ -.

فقرة 4. على صعيد العدد والعدة والتجهيز :

لقد استطاع الحبيب - صلى الله عليه وسلم - أن يجمع عددًا من المقاتلين تجاوزَ الثلاثين ألفِ مقاتلٍ، من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، و فيهم عشرة آلاف فارسٍ، وهذا العددُ وتلك العدةُ لم يُسبقْ إليه قطُّ في تاريخ الإسلام الأول، ومع ذلك لم تكن الأموال كافيةً لتجهيزِ جميعِ هذا العدد، فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزًا كاملاً، بل كانت في الجيش قلةٌ شديدةٌ بالنسبة إلى الزادِ والمراكبِ، فكان ثمانية عشرَ رجلاً يعتقدون بعيراً واحداً، وربما أكلوا أوراقَ الأشجارِ حتى تَوَرَّمَت شفاهُم، واضطروا إلى ذبحِ البعيرِ . مع قلتها . ليشربوا ما في كرشه من الماء (١).

ووقعت في هذه المعركة قصة الثلاث الذين خلفوا عن المعركة وكانوا يريدون اللحاق بالرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يفعلوا فعفى الله عنهم بعد ثبات صدقهم وصدق توبتهم وكثرة طلبهم للصفح والسماح.

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ٤٢٥

فقرة 5. إعلان النفي العام بلا تورية :

صرح -صلى الله عليه وسلم- في هذه الغزوة -على غير العادة- بالجهة التي يريد غزوها وجلّى هذا الأمر للمسلمين لأسباب، ذكرها الصلابي في تعليقه على السيرة النبوية^(١) منها:

١- بُعد المسافة، ليكون المسلمون على بصيرة مما قد يواجهونه.

٢- كثرة عدد الروم، وأنهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي -صلى الله عليه وسلم- من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة، ليقيف المسلمون على أفضل طرق القتال وحططه مع هؤلاء.

٣- شدة الزمان، وذلك لكي يقف كل امرئ على ظروفه، ويُعدّ النفقة اللازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعولهم من ورائه.

٤- أنه لم يُعدّ مجالاً للكتمان في هذا الوقت، حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة مُعادية لها حطرتها تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم، في منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة.

وصل الجيش الإسلامي إلى تبوك وعسكر بضعة عشرة ليلة، وكان في هذه الأثناء يُرسل السرايا والطلائع لتقيف على أخبار الروم، والروم بطبيعة الحال على علم بتحركات المسلمين، لكنهم آثروا عدم الاحتكاك معهم زعم أن المسلمين تجاوزوا الحدود الرومانية، وهذا الجانب ساعد على رفع معنويات المؤمنين وأعطاهم المزيد من الثقة، فرغم قوة الروم، وعددها وتسليحها إلا أن المسلمين أصبحت لهم هبة وقوة وسلطان.

وكانت غزوة تبوك هي تأكيداً للسيطرة على جزيرة العرب والتطلع لتحقيق حلم العالمية والوصول إلى جوهري رسالة الإسلام وأنها للعالمين دون استثناء.

لقد تجلّت في غزوة تبوك جميع أنواع الجهاد والابتلاء :

بالمال.

والأجساد.

والأقوال.

(١) -الصلابي في السيرة النبوية : دروس وعبر ٦١/٩ بتصرف.

فهناك مَنْ صَمَدَ، وَضَحَّى لِلإِسْلَامِ كَأَصْحَابِ النَّبِيِّ الْأَطْهَارِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - وَهَذَا مِنْ تَخَادُلٍ وَتَبَطُّطٍ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ وَاصَلُوا لِعَبِّ أَدْوَارِهِمُ السَّيِّئَةِ وَالْمَعَادِيَةِ لِلْمُسْلِمِينَ. كَمَا رَبَّتْ هَذِهِ الْغَزْوَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَهْمِيَةِ اسْتِمْرَارِ الْفَتْوحَاتِ وَالِدَعْوَةِ لِذِي اللَّهِ وَأَنْ يَكُونُوا طَمُوحِينَ مُتَطَلِّعِينَ بَعْدَاءَ النَّظَرِ، وَأَنْ يَسْتَمِرُّوا فِي الْعَمَلِ عَلَى فَتْحِ بِلَادِ الرُّومِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ بِلَادٍ، تَبْلِيغًا لِلرِّسَالَةِ وَتَأْدِيَةً لِلْأَمَانَةِ.

وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِإِحْرَاقِ (١) مَسْجِدِ الضَّرَّارِ وَهُوَ عَائِدٌ مِنَ تَبُوكَ، وَهُوَ مَسْجِدٌ بَنَاهُ الْمُنَافِقُونَ لِأَغْرَاضٍ مَشْبُوهَةٍ وَمَعَادِيَةٍ، وَكَانَ رُدُّهُ فِي ذَلِكَ حَازِمًا - ﷺ - حِفَظًا عَلَى صَفُوفِ الْمُسْلِمِينَ وَجَمْعِ كَلِمَتِهِمْ وَلِيَمْنَعَ مِنْ أَنْ يُخْتَرَقَ صَفُّ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ تُضْرَبَ الدَّوْلَةُ مِنَ الدَّخْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ السُّهَيْلِيُّ قِصَّتَهُمْ فَقَالَ (٢): " ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ، بَلَدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضَّرَّارِ قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ، وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّتَاتِيَّةِ، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا، فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ: " إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالٍ شُغْلٍ وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَأْتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ "

فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانَ، أَنَاهُ خَبِيرُ الْمَسْجِدِ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَالِكََ بْنَ الدَّخْشَمِ أَحَا بْنَ سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَمَعْنَ بْنَ عَدِيٍّ أَوْ أَحَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، أَحَا بْنَ الْعَجْلَانِ فَقَالَ انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ فَحَرَّجَا سَرِيعِينَ حَتَّى أَتَيَا بْنَ سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمْ رَهْطٌ

(١) - نقل السهيلي كما في الروض الأنف ٣٠٦/٤: " وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضَّرَّارِ قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّتَاتِيَّةِ وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا، فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ " إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالٍ شُغْلٍ أَوْ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَأْتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانَ، أَنَاهُ خَبِيرُ الْمَسْجِدِ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالِكََ بْنَ الدَّخْشَمِ أَحَا بْنَ سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَمَعْنَ بْنَ عَدِيٍّ أَوْ أَحَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، أَحَا بْنَ الْعَجْلَانِ فَقَالَ انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ فَحَرَّجَا سَرِيعِينَ حَتَّى أَتَيَا بْنَ سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمْ رَهْطٌ مَالِكِ بْنِ الدَّخْشَمِ، فَقَالَ مَالِكٌ لِمَعْنٍ أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكَ بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي. فَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ فَأَخَذَ سَعْفًا مِنَ النَّحْلِ فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا، ثُمَّ حَرَّجَا يَشْتَدَانِ حَتَّى دَخَلَاهُ وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرَّقَاهُ وَهَدَمَاهُ وَتَفَرَّقُوا مَعَهُ عَنْهُ وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ } وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ {

(٢) - السهيلي في الروض الأنف ٣٠٦/٤

مَالِكِ بْنِ الدَّحْشَمِ، فَقَالَ مَالِكٌ لِمَعْنٍ أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكَ بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي، فَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ فَأَخَذَ سَعْفًا مِنَ النَّخْلِ فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا، ثُمَّ حَرَجًا يَشْتَدَانِ حَتَّى دَخَلَاهُ، وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرَقَاهُ وَهَدَمَاهُ وَتَفَرَّقُوا مَعَهُ عَنْهُ وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ.

2.4.10. المطلب العاشر : عام الوفود حصاد النتائج وزخم الدعوة :

كان العام التاسع الهجري^(١) من أعظم الأعوام على المسلمين من ناحية أن القبائل العربية قد وفدت على المدينة النبوية للدخول في الإسلام، لأنه لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، وضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمد أربعة أشهر لقبائل العرب المشركين لكي يقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفًا معينًا، ضربت إليه وفود العرب أباط الإبل من كل وجه معلنة إيمانها وولاءها^(٢).

وفي قراءة ذكية من ابن إسحاق - رحمه الله - يذكر سببًا من أهم أسباب ورود الوفود على المسلمين، تتصلح، وتعلن إسلامها: " وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَرَبِّصُ بِالْإِسْلَامِ أَمْرَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا إِمَامَ النَّاسِ وَهَادِيَهُمْ وَأَهْلَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَصَرِيحَ وَدِّ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَقَادَةَ الْعَرَبِ لَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي نَصَبَتْ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَخِلَافِهِ فَلَمَّا أُفْتِيَتْحَتْ مَكَّةُ، وَدَانَتْ لَهُ قُرَيْشٌ، وَدَوَّخَهَا الْإِسْلَامُ

(١) - وقد اختلف العلماء في تاريخ مقدم الوفود على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي عددها حيث أشارت المصادر الحديثية والتاريخية إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخ مبكر عن السنة التاسعة، ولعل ذلك مما أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد عن ستين وفداً عند البعض، وليرتفع فيبلغ أكثر من مائة وفد عند آخرين، ولعل البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم. انظر الروض الأنف ٤/٣٣٤ - والسيرة النبوية دروس وعبر ٩/١٤١

لكنه ليس من شك أنه كانت هناك وفود وردت على النبي قبل عام التاسع من الهجرة مثل وفد دوس : حيث وفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتا من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فلحق به. ووفد قيس وكانت لهذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له مُنْقَدُ بن حيان، يرُدُّ المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي - ﷺ - وعلم الإسلام أسلم، وذهب بكتاب من النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة... والوفادة الثانية في عام الوفود. انظر الرحيق المختوم ص ٤٣٧ - ٤٤٠

(٢) - قلعجي في قراءة سياسية للسيرة النبوية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان. دار النفائس، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م. ص ٢٨٤

وَعَرَفَتْ الْعَرَبُ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَلَا عَدَاوَتِهِ فَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ" (١).

ويضيف المباركفوري - حفظه الله - لمحةً أخرى فيقول: "كانت غزوة فتح مكة. .. معركة فاصلة، قضت على الوثنية قضاءً باتاً، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل، وزالت عنهم الشبهات، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام، قال عمرو بن سلمة: "كُنَّا بِمَاءِ مَمَرِ النَّاسِ وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسَأُهُمْ مَا لِلنَّاسِ مَا لِلنَّاسِ مَا هَذَا الرَّجُلُ فَيَقُولُونَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَوْ أَوْحَى اللَّهُ بِكَذَا فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ وَكَأَنَّمَا يُعْرَفُ فِي صَدْرِي وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوُّمَ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ فَيَقُولُونَ اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا فَقَالَ صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ أَحَدُكُمْ وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا" (٢).

(١) - ابن هشام في سيرة ابن هشام ٥٥٩/٢

(٢) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي - باب مَقَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ زَمَنَ الْفَتْحِ بِرَقْمِ (٤٣٠٢) ٥/١٥٠.

2.4.11. المطلب الحادي عشر استراتيجيات تعامل القائد مع الوفود:

فقرة 1. الإعدادُ لاستقبال الوفود.

- فقد استعدت الدول الإسلامية لاستقبالهم وهيئة المناخ التربوي لهم^(١)، وقد تمثل هذا الاستقبال، بهيئة مكان إقامة لهم وكانت هناك دار للضيافة^(٢)، ينزل فيها الوافدون.
- وهناك مسجد رسول الله - ﷺ - الذي كان ساحةً للاستقبال.
- ثم كان هناك تطوع أو تكليف من رسول الله - ﷺ - لأحد الصحابة باستضافة بعض القادمين^(٣).

فقرة 2. اهتمامه - ﷺ - بتلك الوفود بتعليمها وتربيتها^(٤).

-
- (١) - ومن حسن استقبالهم ما ذكره الواقدي في مغازيه ١/٩٦٦ في إسلام ثقيف: " فَدَخَلَ الْمُغِيرَةُ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَهُوَ مَسْرُورٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَدِمَ قَوْمِي يُرِيدُونَ الدَّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ بَأَنْ تَشْرُطَ لَهُمْ شُرُوطًا، وَيَكْتُبُونَ كِتَابًا عَلَى مَنْ وَّرَاءَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَبِلَادِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لَا يَسْأَلُونَ شَرْطًا وَلَا كِتَابًا أَعْطَيْتَهُ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ إِلَّا أَعْطَيْتَهُمْ فَبَشَّرَهُمْ "
- (٢) - وكما فعل مع وفد تجيب: " و أمر بلالا أن يحسن ضيافتهم، فأقاموا أياما ولم يطيلوا اللبث فقبل لهم ما يعجلكم فقالوا نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله - ﷺ - وكلامنا إياه وما رد علينا، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ عليه وسلم } يودعونه فأرسل إليهم بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود". انظر الاكتفاء بما تضمنه ٢/٢٦٩
- (٣) - الصلحي في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٦/٢٨٢ - والواقدي في مغازيه ١/٩٦٦: " وَأَنْزَلَ الْمُغِيرَةَ تَقِيْمًا فِي دَارِهِ بِالْبَقِيعِ وَهِيَ خُطَّةٌ حَطَّهَا النَّبِيُّ - ﷺ - ... وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يُجْرِي لَهُمُ الضِّيَافَةَ فِي دَارِ الْمُغِيرَةَ "
- (٤) - الواقدي ١/٩٦٦: " فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَيِمَاتٍ ثَلَاثٍ مِنْ جَرِيدٍ فَضَرَبَتْ فِي الْمَسْجِدِ فَكَانُوا يَسْمَعُونَ الْقِرَاءَةَ بِاللَّيْلِ وَتَهَجَّدَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْظُرُونَ إِلَى الصَّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ وَيَرْجِعُونَ إِلَى مَنْزِلِ الْمُغِيرَةَ فَيُطْعَمُونَ وَيَتَوَضَّئُونَ وَيَكُونُونَ فِيهِ مَا أَرَادُوا، وَهُمْ يَحْتَلِفُونَ إِلَى الْمَسْجِدِ

فقد كانت تلك الوفود التي جاءت تُسلم أو أسلمت من قبل حريصةً على فهم الإسلام وتعلُّم شرائعه وأحكامه، وآدابه، ونُظمه في الحياة، وتطبيق ما علّموه تطبيقاً عملياً، جعلهم نماذج حياة لفضائله، وقد كان لكثير منهم تساؤلات عن أشياء كانت شائعةً بينهم ابتغاء معرفة حلالها وحرامها، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- حريصاً أشدَّ الحرص على أن يتفقهوا في الدين، وبيان ما سأله عنه، وكان -صلى الله عليه وسلم- يُدني منهم مَنْ يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهاً فيه ويقول لأصحابه: فقّهوا إخوانكم^(١).

فقرة 3. ذكائه -ﷺ- في سبر أغوار النفوس : فكان يسأل عمَّن يُعرف من شرفائهم، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق، وحثّهم على الاعتصام بالصبر.

فقرة 4. استخدام مبدأ التحفيز والمكافأة :

فكان يُجيزهم بالجوائز الحسان، ويسوّي بينهم فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هداة دعاة، مشرقة قلوبهم بنور الإيمان، يعلمونهم مما علّموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي ويره وبشره واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تأخيهم وتحاببهم ومواساة بعضهم بعضاً ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولقاء أصحابه، ويحببوا إليهم التآسي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم^(٢).

فقرة 5. قانون: لا إكراه في الدين:

لقد اختارت بعض الوفود البقاء على كفرها ونصرانيتها، كوفود نصارى نجران ووافقت على دفع الجزية، وقد قبل منهم القائد -صلى الله عليه وسلم- ذلك، لترسيخ أنه لا إكراه في الدين، ولم يشهد التاريخ موقفاً قطُّ رُفع فيه سيفٌ على عُنق كافرٍ لإرغامه على الإسلام. وبالجملة لقد تركت لنا تلك الأخبار والقصاصُ منهجاً نبويّاً كريماً في تعامله -صلى الله عليه وسلم- مع الوفود يمكننا الاستفادة من هديّه -صلى الله عليه وسلم- في تعامله مع النفسية البشرية وتربيته ودقته وتنظيمه ففيها ثروة هائلة من الفقه الذي يدخل في دوائر التعليم والتربية والتثقيف وبعْد النظر

(١) - عرجون في محمد رسول الله، الطبعة الثانية، ٤٠/٥٢١

(٢) - الصالحى في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٦/٢٨٢

وجُمع القلوب على الغاية وربط أفرادِ بأعيانهم بالمركز بحيثُ تبقى في كلِّ الظروف والأحوال مرتكزاتٍ قويةً إلى الإسلام إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كلِّ الحقول نفسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، وإداريًّا، وسياسيًّا وعسكريًّا تُعطي لكلِّ عاملٍ في جانبٍ من هذه الجوانبِ دروسًا تكفيه وتُغنيه^(١).

وكانت جُلُّ هذه القبائلِ قد أيقنت بقوة المسلمين وصعود نجمهم وعمق الرسالة التي يحملونها وصدق مضمونها وعظم نتائجها، ولذلك كانت الوفودُ تأتي إلى المدينة وهي لا تُريدُ الصدامَ مع المسلمين بل كانت الوفودُ تردُّ بقصدِ المحاججةِ والحوارِ أو طرحِ الأسئلةِ والاستفسارِ من الرسول -- ﷺ لتأمين مستقبلهم وكشفِ بعضِ الشُّبُهاتِ والاستيضاحِ عن بعضِ الأمور، وترتيبِ العلاقةِ الجديدةِ مع دولة الإسلام الصاعدة. وصدق القائل^(٢): " وما زال آحاد الوافدين وأفذاذ الوفود من العرب يغدون على رسول الله - ﷺ - منذ أظهر الله دينه وقهر أعداءه".

فقرة 6. لا مساومة في التوحيد أو الفجور:

ويظهر ذلك في رده - ﷺ - على بعضِ وفودٍ ثقيف، إذ إنهم قدموا على رسول الله، فضرب عليهم قبةً في ناحية المسجد، لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله، وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله - ﷺ - قضيةً صلحٍ بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه بالزنا وشربِ الخمر وأكلِ الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يُعفيهم من الصلاة. وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله - ﷺ - أن يقبل شيئًا من ذلك، فخلوا، وتشاوروا فلم يجدوا مخلصًا عن الاستسلام لرسول الله - ﷺ -^(٣).

ومع دخول اليمن في سلطانِ دولة الإسلام أرسل الرسول - ﷺ - أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهم - ليعلموا الناس دينهم^(٤).

(١) - حوى، في الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية، الطبعة الأولى، ١٠١٤/٢.

(٢) - الكلاعي في: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ٢٦٢/٢.

(٣) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٤٤٤.

(٤) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الزكاة - باب أخذ الصدقة من الأغنياء وتُرَدُّ في الفقراء حيث كانوا - برقم (١٤٩٦) ١٢٨/٢.

في هذا النصر المبين والفتح العظيم، نزل بعده ذقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِذْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (١).

فبكى أبو بكر الصديق لأنه عرّف أن هذه الوفود العظيمة التي تقدّم المدينة بالآلاف من الناس، وهذا النصر العظيم هو إيذانٌ بقرّب نهاية رسالة قائد هذه الدعوة والدولة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ولتحوّل المسؤولية من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى أتباعه بعد اكتمال التشريع واستقرار الدين ونضوج الدولة وقوتها واتساع مساحتها ونفوذها وانتشار نور الإيمان والعدل والحرية والرفق والحضارة في كل مكان.

2.4.12. المطلب الثاني عشر : حجة الوداع^(٢) وخطبة الدستور :

لقد من الله على رسوله، وتمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وقوي بناء مجتمع جديد على أساس التوحيد الخالص، ونفي العقائد الضالة، وأكمل الله لنبيه الدين، والتشريع أو يكاد، وكان " هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية"^(٣). حتى إنّه حين بعث معاذاً على اليمن سنة عشر من الهجرة قال له فيما قال: "يا معاذ: إنك عسي ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمرّ بمسجدي هذا وقبري، فبكي معاذاً خشعاً لفراق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"^(٤).

شاء الله أن يُري رسوله صلى الله عليه وسلم ثمار دعوته، التي عاني في سبيلها ألواناً من المتاعب

(١) - سورة النصر (١-٣).

(٢) - قال الدكتور الصلابي في السيرة النبوية ١٥٧/٩: " لم يحج النبي - صلى الله عليه وسلم - من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأنه - ﷺ - ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ، لأنه - ﷺ - بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام، وقواعده شيء إلا وقد بينه، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عليه بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة، آية: ٣)

(٣) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٤٥٤

(٤) - أخرجه ابن حبان في صحيح ابن حبان -باب ذكر الخبر الدال على أن أولياء المصطفى -ﷺ- هم المتقون دون أقربائه إذا كانوا فجرة- برقم (٦٤٧). وقال عنه الأرنؤوط إسناده قوي.

بضعًا وعشرين عامًا، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدَّى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة^(١).

لقد عاش النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى رأى الجزيرة العربية بكاملها تقريبًا تدخل في الإسلام، وتقرُّ به بعد حربٍ ضروسٍ، ومقاومةٍ عنيفةٍ، فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا، وها قد وصلت الدعوة إلى كثيرٍ من أرض المعمورة يومها، و قد مُكِّن للإسلام، وارتفعت رايات التوحيد في كل مكان، وعادت الكعبة المشرفة إلى وضعها الصحيح، رجعت كما كانت أيام إبراهيم -عليه السلام- بيتًا يُوحَد فيه الله، ولا يُشرك به أحدًا.

وفي هذا التوقيت في العام العاشر من الهجرة قرَّر الرسول -صلى الله عليه وسلم- الحجَّ لبيت الله الحرام فاجتمع للحجَّ معه أكثر من مائة ألف صحابي وصحابية^(٢)، حيث يُريدون إتمام الركن الخامس من الإسلام وفيه يشرح رسول الله -ﷺ- طريقة أداء هذه التُسك المهم الذي هو أحد أركان الإسلام الخمسة^(٣).

وصل الرسول -ﷺ- إلى مكة فمكث يوم الثامن من ذي الحجة في منى ثم انتقل إلى عرفة يوم التاسع، وقال^(٤): "الحج عرفة"^(٥). لأن قريشًا كانت لا تقف في عرفة وكانوا يقفون في مزدلفة ولهذا كان الناس ينتظرون هل يُقرُّهم الرسول -ﷺ- أم يخالفهم بذلك وقد خالفهم وأكد أن الحجَّ عرفة.

(١) - المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٤٥٤

(٢) - انظر الصلابي في السيرة النبوية : دروس وعبر ١٥٦/٩ : " كان عدد الذي مع رسول الله أكثر من مائة ألف ". ونظم ذلك الحافظ العراقي في منظومته عن السيرة النبوية: ألفية العراقي في السيرة النبوية ص ١٤ المؤلف : العراقي، الحافظ أبو الفضل (٨٠٦هـ). فقال :

في العشرِ كانت حجَّةُ الوداعِ * لا يَحْضُرُ الوافونَ باطلاعِ
فقليلَ كانوا أُرْبَعِينَ ألفًا * أو ضعْفها وزدَّ عليها ضعْفًا

(٣) - كما في البخاري- كتاب الإيمان - بابُ قولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنيَ الإسلامُ على خمسٍ» - برقم ١١/١(٨) عن ابنِ عُمَرَ، رضيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- " بُنيَ الإسلامُ على خمسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالْحَجُّ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ "

(٤) - أخرجه الترمذي في سنن الترمذي - كتاب أبواب الحج - بابُ ما جاءَ فيمنَ أدركَ الإمامَ يَجْمَعُ فَفَدَّ أدركَ الحجَّ برقم (٨٨٩) ٢٢٨/٣ وصححه الألباني.

(٥) - معلومٌ أنَّ الحاج لا يصير بِمَجَرَّدِ الوقوفِ بعرفة حاجًا، بل تبقى عليه فروضٌ وواجبات، وإنما ذَكَرَ مُهِمَّ الحجِّ وأهم أركانه وعماده.

وفي هذا اليوم العظيم يومُ عرفةَ وقَفَ الرسولُ -صلى الله عليه وسلم- في نمرة^(١) يخطبُ أهمَّ خطبةٍ في مسيرة نبوته وهي حُطبةُ الوداعِ، التي تُمثِّلُ دستورًا مهمًّا وعميقًا للمسلمين من قائدهم ونييهم. فمن خلال هذه الخطبة لَحَّصَ أصولَ الدين ومقاصدَ الشريعةِ وعمَقَ البُعدَ الروحيَّ والأخلاقيَّ والحضاريَّ والسلوكيَّ في نفوسِ المتلقين الذين سمعوا منه كلماتٍ غايةً في الأهمية والدقة، بيَّن فيها الحدودَ والمنطلقاتِ والخطوطَ العريضةَ للدعوة الإسلامية الخالدة حيثُ شملت هذه الخطبة الكثيرَ من الأفكارِ والرؤى ذات الأهمية البالغة.

ولم تُكُنْ هذه الخطبةُ التاريخيةُ لمن أمامه فقط بل هي للمسلمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، حوتُ الكثيرَ من الرسائلِ والهداياتِ وحذَّرتُ من الكثيرِ من المآزقِ والأخطارِ والمحظوراتِ على جميعِ المستوياتِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ والشخصيةِ.

وأكدَ رسولُ الله -ﷺ- في هذه الخطبة التاريخية إهدارَ أمورِ الجاهليةِ مثلِ التفاخُرِ والعنصريةِ والطبقيةِ والقبليةِ، والرباَ وظلمِ النساءِ أو احتقارهن والنسيءِ وهو التلاعبُ بالأشهرِ الحرامِ والتحايلُ عليها بقصدِ إحلالها للحربِ والغزوِ للتكسُّبِ، كما وضَّحَ الرسولُ -صلى الله عليه وسلم- تفاصيلَ الدِّيةِ للقتلِ العمدِ وشبهِ العمدِ لحفظِ حقوقِ الناسِ وقطعِ دابرِ التعديِّ والظلمِ والتلاعبِ بالدماءِ والنفسِ البشريةِ التي عَصَمَ اللهُ دماءَها.

وكانت الخطبة حافلةً بالكثيرِ بأبعادٍ مهمةٍ لحياةِ المسلمين وأعمالهم وعلاقاتهم وحياتهم الدنيويةِ والأخرويةِ حيثُ حثَّتْ على العدلِ والإنصافِ وتقوى الله وعدمِ الانتكاسةِ إلى ما كان عليه الناسُ في الجاهليةِ من تيهٍ وتخبُّطٍ وظلمٍ وجهلٍ وطُغيانٍ وواقعٍ مُظلمٍ.

وأوثقت رباطَ الأخوةِ بين المسلمِ وأخيه المسلمِ، وحفظت حقوقهم وأموالهم، وأعراضهم، كما بينت الخطبة مرجعيةَ الكتابِ والسنةِ وأنهما أهمُّ وأبرزُ أدواتِ التشريعِ والمرجعيةِ الأولى و الخالدةُ للمسلمين في كلِّ مناجي الحياة.

(١) -أبو داوود في سنن أبي داود - كتاب المناسك - باب صفة حجة النبي - برقم (١٩٠٥) ١٨٢/٢: " فلما كان يومُ الترويةِ ووجهوا إلى منى، أهلوا بالحجِّ، فركب رسولُ الله -ﷺ- فصلَّى بمنى الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاءَ والصبحَ، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمسُ، وأمر بقيَّةَ له من شعرٍ، فضربتُ بَنَمرةٍ فسارَ رسولُ الله -ﷺ- ولا تشكُّ قريشٌ أن رسولَ الله -ﷺ- واقفٌ عندَ المشعرِ الحرامِ بالمزدلفةِ كما كانت قريشٌ تصنعُ في الجاهليةِ، فأجاز رسولُ الله -ﷺ- حتى أتى عرفةَ، فوجد القُبَّةَ قد ضربتْ له بَنَمرةٍ، فنزلَ بها حتى إذا زاغتِ الشمسُ أمرَ بالقصواءِ فُرِحلتْ له، فركبَ حتى أتى بطنَ الوادي، فخطب الناسَ

فقرة.1. نص خطبة الوداع^(١)

" أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أُدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا، بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا^(٢).
يَا أَيُّهَا النَّاسُ^(٣) أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمَ حَرَامٍ قَالَ فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدُ حَرَامٍ قَالَ فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا
قَالُوا شَهْرُ حَرَامٍ قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا
فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فَأَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوْصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ "

(١) - هذه النصوص جمعُها مما ذُكر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قاله في حُطبة الوداع من كتب الصحاح والسنن والمسانيد، والذي يبدو لي أنها لم تكن حُطبةً واحدةً بل كانت حُطبتين، وأنه - صلى الله عليه وسلم - قد حُطِبَ يومَ عرفة، وحُطِبَ يومَ النحر، وحُطِبَ في أيام التشريق، وقد وردت آثار تدل على ذلك، وقد رأيتُ المبارك فوري - رحمه الله - قد أشار إلى ذلك، كما في المباركفوري، الرحيق المختوم ص ٤٥٥.

(٢) - في كنز العمال برقم (١٢٣٤٥) : عن أبي أمامة قال: شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وأنا يومئذ ابن ثلاثين سنة فسمعتة يقول: أيها الناس، اسمعوا قولي فعسىتم أن لا تروني بعد عامكم هذا فعجل رجل من الناس فقال: ماذا نضع يا رسول الله؟ قال: تطيعون ربكم، وتصلون خمسكم وتصومون شهركم وتؤدون زكاة أموالكم وتحجون بيت ربكم وتطيعون ولاية أمركم فتدخلون جنة ربكم. "

(٣) - أخرج البخاري في صحيحه - كتاب الحج - باب الحُطبةِ أَيَّامَ مِئِي (١٧٣٩) / ١٧٦ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا فَضِيلُ بْنُ عَزْوَانَ حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُطِبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ ...

وقال: " أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَيْسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَدًا وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَيَرْضَى، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رَبٍّ مِنْ رَبِّ الْجَاهِلِيَّةِ يُوَضِّعُ، لَكُمْ رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ مَا أُضْعُ مِنْهَا دَمَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - كَانَ مُسْتَرَضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلْتَهُ هُذَيْلٌ - أَلَا يَا أُمَّتَاهُ هَلْ بَلَغْتُ؟ » ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ :

اللهم. اشهد " (١).

وقال: " الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمٍ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ السَّنَةَ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمُ وَرَجَبٌ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ. . . وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ. " (٢)

وقال: " اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرُبُوهُنَّ صَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ لَكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ: فَلَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْدَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ " (٣).

وقال: " وإني قد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به: كتابَ الله، وأنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ " قالوا: نشهدُ أنك قد بلغتِ وأدَّيتِ ونصحتِ، ثم قال بإصبعه السَّبَابَةَ يرفعُها إلى السماء، وينكُبُها إلى الناسِ " اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد " (٤).

وقال: " أَلَا لَا يَجْنِي جَانٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَجْنِي وَالِدٌ عَلَى وَلَدِهِ، وَلَا يَجْنِي وَلَدٌ عَلَى وَالِدِهِ أَلَا

(١) - أخرجه النسائي في السنن الكبرى - كتاب كسوف الشمس والقمر - يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ - برقم (١١١٤٩) / ٦ / ٣٥٣.

(٢) - أخرجه البخاري في الصحيح - باب خطبة الوداع - برقم (٤٤٠٦).

(٣) - أخرجه ابن ماجه في السنن - حق المرأة على الرجل - برقم (١٨٥١) - قال الأرنؤوط صحيح لغيره.

(٤) - أخرجه أبو داوود في السنن - باب صفة حجة النبي - برقم (١٩٠٥)

إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ، فَلَيْسَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ" (١).
ولم يلبث أن نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (٢).
وبها اكتمل نزول القرآن واكتمل التشريع الرباني، وحيث استقرت دولة الإسلام ودعوته العظيمة وأتم الله على المسلمين تمام هذه النعمة الكبيرة.

فقرة 2. بعض الدروس من حجة الوداع، وما قبلها (٣) :

١- الاهتمام بتوجيه القاعدة العريضة:

وصلت الأمة الإسلامية في السنة العاشرة مرحلة من النضج متقدمة و، كان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً، فوسع - ﷺ - في العام التاسع والعاشر من الهجرة دائرة التلقي المباشر من خلال استقباله الوفود ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته وقد تلقت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رحي الإسلام دائرة وإلى الأبد، ففي حجة الوداع كانت اللمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -.

٢- تربية الأفراد على قطع الصلة بالجاهلية بأدراجها:

فقد أشار فيما أشار - صلى الله عليه وسلم - إلى أهمية قطع المسلم علاقته بالجاهلية، أوثانها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك ولم يكن حديثه - صلى الله عليه وسلم - مجرد توصية بل كان قراراً أعلنه للملأ كله لأولئك الذين كانوا من حوله، والأمم التي ستأتي من بعده وهذه هي صيغة القرار، لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لا صلة لها برجس الماضي وأدراجه.

٣- تربية المجتمع على مبادئ أساسية تحفظ وجوده: كالأخوة في الله، فهي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين، فلا يحل لا مرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، وأمر بحفظ الأعراض، والأنفس.

٤- الوقوف بجانب الضعيف :

(١) - ابن الأثير في جامع الأصول في أحاديث الرسول - الطبعة : الأولى. دون م. دون ت. - الفصل الثالث : في أحكام متفرقة- برقم (٥٢). وقال المحقق : قال الترمذي : حسن صحيح.

(٢) - المائة آية (٣).

(٣) - انظره فيما كتبه الدكتور الصلابي في السيرة النبوية : دروس وعبر ١٦٦/٩ وما بعدها

حتى لا يكون هذا الضعيف ثغرةً في البناء الاجتماعي، فأعطى المرأة مكانها ودافع عنها، وأوصى خيراً بالنساء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية.

٥-التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام.

وذلك بالتزام شرع الله، وطاعة الحاكم العام، ولو كان الحاكم عبدا حبشياً، فإن في ذلك الصلاح والفلاح، والنجاة في الدنيا والآخرة، وقد بيّن -صلى الله عليه وسلم- العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنها تعتمد على السمع والطاعة مادام الرئيس يحكم بكتاب الله وسنة رسوله.

٦-وضع المنهاج المستقيم للأمة من بعده

وذلك بتحديد مصدر التلقي: وقد حدّد -ﷺ- مصدر التلقي والطريقة المثلى لحل مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم في الرجوع إلى مصدرين، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما، الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ-.

2.4.13. المبحث الثالث عشر : إدارة الحكم والتنظيم السياسي والإداري :

جاءت دولة الإسلام لتغيير العُرف القائم في جزيرة العرب في هذا المجال حيثُ كانَ أساسُ التنظيم والمرجعية هو الجانب القبلي، ولا يوجد إطارٌ إداريٌّ مُنظَّمٌ لذلك.

ولذلك كانت دولة الإسلامِ نقلةً نوعيةً في هذا المجال حيثُ التسلسلُ الإداريُّ، وتعيينُ الولاة والعمال والقضاة، فأصبح رأسُ الهرمِ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - يُعيِّنُ الولاةَ والعمالَ والموظفين والقضاةَ، كُلاً حَسَبِ كفاءتهِ ومناسيتهِ للمكانِ والزمانِ والظروفِ، وفي هذا حِرْصٌ كبيرٌ على حُسنِ الإدارةِ وتنظيمِ العملِ وترتيبِ المسؤولياتِ وتنسيقِ الأدوارِ داخلَ الدولةِ.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يَضَعُ لهم المعاييرَ والنُظَمَ العامةَ كُلاً حَسَبِ مكانِ عملِهِ ونوعِهِ، وما تَقْتَضِيهِ المصلحةُ، وظروفِ البلدِ التي سوف يُدير شؤونها أو القبيلة التي كُلفَ بإدارتها.

لقد كان الاهتمامُ بجانبِ التنظيمِ الإداريِّ منذُ أولِ يومٍ، حتى قبلَ قيامِ الدولةِ، ففي بيعةِ العقبةِ طلبَ الرسولُ القائدُ - صلى الله عليه وسلم - مَن بَايَعُوا أَنْ يُرَشِّحُوا لهم نُقباءَ ليتابعوا التطبيقَ والتنظيمَ ويتلقوا الأوامرَ والتوجيهاتِ.

ولم يَكُنْ أمرُ هذا الترتيبِ أو التربيةِ القياديةِ، وتحملِ المسؤوليةِ أمرًا وليدًا على المشروعِ الإسلاميِّ، فقد جعله قانونًا في الأمورِ العامةِ، والخاصةِ، حتى تَسْتَقِيمَ به حياةُ الناسِ، وإصلاحُ معادِهِم، ومعاشِهِم، فالرسولُ - عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ - كان مهتمًا جدًا بتعزيزِ القيادةِ بينَ أصحابِهِ - رضي الله عنهم - ويُسَجِّعُ على النظامِ وتحملِ المسؤوليةِ، وهو القائلُ: " إذا خرج ثلاثة في سفرٍ فليؤمروا

أحدهم ". وعنه (١): " ولا يجلب لثلاثة نفرٍ يكونون بأرضٍ فلافةٍ إلا أمروا عليهم " (٢).

قال الشيخ تقي الدين: " يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأسٍ حتى قال النبي -ﷺ- (٣): " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " فأوجب -ﷺ- تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع " (٤). وكان الرسول -ﷺ- حريصاً على التنظيم العسكري للدولة وتنصيب القادة ومن ينوب عنهم في حال خلوه مسند القيادة وتدريب الجند وبناء القدرات العسكرية القوة والرادعة للدولة الناشئة التي ينتظرها الكثير من العمل والجهد والاتساع.

وكان الأتباع يُدركون أهمية السمع والطاعة بالمعروف وأهمية وحدة الكلمة واحترام القادة والبحث عن المصلحة العامة.

وعندما نرى حال المدينة عاصمة الدولة الإسلامية نجد أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يستخلف عليها أحد أصحابه حينما يخرج في مهمة ما، وما ذلك إلا لأهمية تولى المسؤولية، ووجود من يقضي للناس مصالحهم وييسر أعمالهم ويحفظ أمنهم. ومن هؤلاء الذين ولّاهم الرسول -ﷺ- على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حيث ولّاه الرسول -ﷺ- على المدينة كثيراً، واستخلف عليها في مراتٍ أخر عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهم -.

ومن الجدير بالذكر أنه كان من الولايات التي قامت في العصر النبوي وبداية تأسيس الدولة اليمن وقد تم إرسال مجموعة من الولاة والقضاة إلى اليمن لإدارة شؤون البلاد والعباد وكان كل شخص مسؤولاً عن منطقة معينة أو إقليم من أقاليم اليمن.

وكان من مهمات الولاة حفظ الأمن وإدارة شؤون الناس وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم وضبط السلم الأهلي بينهم، وجمع الزكاة والصدقات والجزية من غير المسلمين وتوزيعها على المستحقين

(١) - أخرجه أحمد في المسند - مسند عبد الله بن عمرو - برقم (٦٦٤٧). صححه الشيخ شاکر.

(٢) - أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الجهاد - باب في القوم يُسافرون يؤمرون أحدهم - برقم (٢٦١٠) ٣/٣٦٦. قال الألباني حسن صحيح.

(٣) - أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الجهاد - باب في القوم يُسافرون يؤمرون أحدهم برقم (٢٦٠٨). وصححه الألباني.

(٤) - ابن تيمية في السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية - دون ط. ص ٢١٦.

حسب مصارفها الشرعية، وكان من مهام القضاة النظر في الخصومات والفصل في المنازعات وإقامة العدل بين الناس ورفع الظلم عنهم.

وكان من أشهر ولاة اليمن معاذ بن جبل^(١) - رضي الله عنه - الذي كان والياً وقاضياً ومعلماً للناس شؤون دينهم وكان معاذ تحت مجموعة من الولاة والقضاة يعملون في شتى أرجاء اليمن ويرتبطون به بشكل مباشر وكان من مهامهم نشر الدعوة الإسلامية بين الناس وتصحيح معتقدات الناس، وتعميق الإيمان في نفوسهم.

وأما مكة المكرمة^(٢) فقد ولي عليها رسول الله - صلّى الله عليه وآله - بعد فتحها عتاب بن أسيد بن أبي العيص واستمر والياً عليها حتى بداية عهد عمر وكان يقوم بالكثير من الأدوار السياسية والشرعية والإدارية فيها.

وأما الطائف^(٣) فقد ولي عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عثمان بن أبي العاص بعد أن أسلم أهلها بعد غزوة حنين واستمر فيها حتى عهد عمر - رضي الله عنه - فطلب منه أن يعفيه منها فأصدر عمر - رضي الله عنه - قراراً بتوليته البصرة ثم بعد ذلك البحرين.

(١) - في البخاري - كتاب المغازي - باب بعث أبي موسى، ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع - برقم (٤٣٤١) ١٦٢/٥، ونص صحيح مسلم - كتاب الإيمان - ٧ - باب الدعاء إلى الشهادتين وشرايع الإسلام - برقم (٢٩) ٥٠/١: " أن معاذاً، قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَأَدْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّيَ رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ حَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَرُدُّ فِي قُرْبَانِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ " .

(٢) - انظر الحلي في السيرة الحلبية ٢ / ٣٠٧ - وقال ابن إسحاق السيرة النبوية ١٧٨/٥: " حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صلّى الله عليه وآله - مِنَ الْجِعْرَانَةِ مُعْتَمِرًا، وَأَمَرَ بِبَقَايَا الْفَيْءِ فَحَسِبَ بِمَجَنَّةَ بِنَاحِيَةِ مَرِّ الظَّهْرَانِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُمْرَتِهِ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَاسْتَحْلَفَ عَتَابَ بْنَ أُسَيْدٍ عَلَى مَكَّةَ، وَخَلَفَ مَعَهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، يُفَقِّهُ النَّاسَ فِي الدِّينِ وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صلّى الله عليه وآله - بِبَقَايَا الْفَيْءِ " .

(٣) - الاكتفاء بما تضمنه ٢ / ٢٣٨ في حديثه عن إسلام ثقيف: " فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله { صلى الله عليه وسلم } كتابا أمر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سنا فقال أبو بكر لرسول الله { صلى الله عليه وسلم } يا رسول الله إنني قد رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن فحدث عثمان بن أبي العاص قال كان من آخر ما عهد إلي رسول الله - صلّى الله عليه وآله - حين بعثني على ثقيف أن قال يا عثمان تجاوز في صلاتك وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة " .

كما لم يُفْتِ رسولُ الله -ﷺ- من حرصه على الانضباطِ الأمني والانساقِ السياسي والتنسيقِ الإداري في الدولة تعيينُ ولايةٍ على المدنِ الصغيرة والقرى، مثل وداي القُرى وتيماء وهذا من مزيد حرصه على الجانبِ التنظيمي للدولة ورعاية رعاياها، وإغلاقِ بابِ الفوضى والتخبُّطِ سواءً السياسي أو الإداري. أمَّا ما يخصُّ القبائلَ المنتشرة في الجزيرة العربية سواءً في نجدٍ أو الحجازِ أو الأجزاء الأخرى فقد كان رسولُ الله -ﷺ- يُرسل لهم أحدَ أفرادِ هذه القبائلِ لِيُعَلِّمَهُم أمورَ دينهم ويجمعَ الزكاة من المسلمين والجزية من غير المسلمين، وينفقُها في مصارفها الشرعية ويُنظِّم شؤونهم ويكون هذا الصحابيُّ مربوطاً بالحكومة المركزية في المدينة من حيثُ التنسيق والتواصل.

وفي البحرين^(١) - تلك الولايات التي دخلت في الإسلام في آخر العهد النبوي، وكان يتبعها مجموعة من القرى.

فقد ولى عليها رسولُ الله -ﷺ- العلاء بن الحضرمي^(٢) - ثم تولى البحرين أبو هريرة -رضي الله عنه- وكان هنا الكثيرُ من المراسلاتِ والمكاتباتِ بين الرسول -عليه الصلاة والسلام- وبين الولاية، تلك التي تتعلق بإدارة شؤون الولاية ومصالح أهلها.

وعُمان قد دخلت إلى الإسلام بعد أن سلّم عمرو بنُ العاص إلى ملكيها (جيفر بن الجلندي) (وعباد ابني الجلندي)^(٣) رسالةً من رسولِ الله -ﷺ- فعين رسولُ الله -ﷺ- عمرو بنَ العاص والياً على عُمان^(٤) مع وجود ملكيها وكان عمرو بنُ العاص يُعَلِّم الناسَ أمورَ دينهم ويجمعُ الزكاة وينشرُ الدين ويحيبُ على الكثير من الأسئلة التي كانت تأتي من الأسقف والرهبان عن الإسلام ويُشرف على مجموعة من الولاة الذين يعملون تحت إشرافه ويقومون بأدوارٍ سياسية وشرعية وإدارية في جميع أرجاء عُمان.

(١) - السهيلي في الروض الأنف ٤٨٤/٣

(٢) - نقل المباركفوري ص ٣٢٢: "وكتب النبي -ﷺ- كتاباً إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندي، ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فأني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فأني رسول الله -ﷺ- إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً وبحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقرتما بالإسلام ولينتكما، وإن أبيتما [أن تقررا بالإسلام] فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما".

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه - وانظر السهيلي في الروض الأنف ٣٩٠/٤

(٣) - السهيلي في الروض الأنف ٣٩٠/٤

(٤) - نقل السيوطي في الخصائص الكبرى ٤١٠/٢: "كان عمرو بن العاص عاملاً لرسول الله -ﷺ- على عمان".

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو القائد الأعلى لهذه الدولة يتواصل دومًا مع الولاة والقضاة المعينين و يؤكد لهم أهمية ترسيخ العدل التام ونفي الظلم والتأكيد على تعليم الناس أمور دينهم وتيسير أمور دنياهم فكانت وصيته لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - عندما بعثهم إلى اليمن: "يَسْرًا وَلَا تُعْسِرًا وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا وَتَطَوَّعًا وَلَا تُخْتَلَفًا" (١). ويقول - ﷺ -: "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" (٢).

وكان الرسول - ﷺ - أشد الناس تطبيقًا للشورى وعدم الانفراد بالقرار فيما يأتيه من الولاة في الأمصار وكان الكثير من المواقف والأحداث يناقشها مع صحابته الكرام - رضي الله عنهم - بكل شفافية ويأخذ الرأي السديد من كل من أتى به، مادام لا يتعارض مع قيم الحق والعدل، ومصالح الناس، والتنسيق والحوار والشورى من أجل المبادئ التي رسخها المشروع الإسلامي منذ اللحظات الأولى، ولم يكن هناك قمع أو استبداد أو اختطاف للسلطة أو تهميش للناس من الولاة أو من القضاة أو من يعملون معهم وكان باب الحرية المنضبطة واسعًا، حيث فتح باب الشكوى والتقاضى وإبداء الرأي حرصًا على العدل والإنصاف واستقرار المجتمع ورفقته، وتوازن أجنحة الدولة وكانت الرقابة شديدة على الولاة والقضاة والمساءلة لهم مستمرة، وكل ذلك للحرص التام على تطبيق قيم الإسلام وروحه العملية على أرض الواقع حيث ينهض الإنسان والأوطان في ظل تطبيق قيم الشورى والعدل والحرية والمساواة وتطبيق مقاصد الشرع ومعالم الدين.

وبهذا حقق المسلمون نقلة نوعية في الجانب الحضاري للإنسان الذي كان يعيش في جو قاتم شعاره الظلم والقمع والعنصرية والاستبداد وتهميش الآخر والضلال والجهل وانتشار الحروب والعدوان وقطع الطرق وانتفاء العدل والحرية والمساواة في حياة إنسان الجاهلية الغارق في التيه إلى أن جاء الإسلام حيث أنقذ الإنسان والأوطان ونهض بكل شيء عبر أعظم مشروع حضاري عرفه الإنسان في التاريخ.

(١) - أخرجه البخاري في الصحيح - باب ما يُكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه وقال الله تعالى {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} قَالَ فَتَادَةُ الرَّيْحِ الْحَرْبُ برقم (٣٠٣٨) وفيه: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ يَسْرًا وَلَا تُعْسِرًا وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا وَتَطَوَّعًا وَلَا تُخْتَلَفًا".

(٢) - الحميدي في الجمع بين الصحيحين - من أفراد البخاري - برقم (٢٥٠٧).

2.4.14. المطلب الرابع عشر : : الرسول -ﷺ- القائد وإعداد القادة:

كانت الرؤية واضحةً لقائد هذا المشروع العظيم العابر للقارات، ذلك الذي يؤمّل له أن يحدث تغييراً كبيراً في فضاء البشرية الرحب، وهذه الرؤية المستمدّة من الوحي، لإبلاغ وتمكين الإسلام كانت تحتاج إلى عمق كبير في إعداد وهيئة القادة المبشرين بهذه الرسالة العظيمة التي جاءت بالخير والسلام والقوة والحرية والعدالة للبشرية.

فحرص الرسول القائد غاية الحرص على إعداد القادة، وهيئة الجيل من الصحابة الذين سوف يُعنون بالرسالة الإسلامية ويرعوها ويقومون بها بعد رحيله -ﷺ- مثل أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعليّ والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وغيرهم.

بالإضافة إلى اهتمامه البالغ بشباب الصحابة وإعدادهم وتشجيع طموحهم واستثمار تميّزهم مثل عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير، وأسامة بن زيد.

وكان الرسول القائد -ﷺ- يدرّس السمات الشخصية للصحابة -رضي الله عنهم- ويعرف نقاط القوة والضعف لكل واحد منهم، ويوظفها في المكان المناسب لها، فبعض الصحابة استثمر وطور قدراتهم العسكرية مثل عليّ بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، والقعقاع بن عمرو التميمي.

وبعض الصحابة كان لديه تميّز في الجانب السياسي مثل عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق وعمرو بن العاص، فدعم القائد هذا البروز ووظفه في مشروع الدولة وإعداد القادة الذين سوف يقوم المشروع عليهم.

ولم يُفت القائد نقطة جوهريّة، وهي أعداد الكوادر العلمية، فدعم واستثمر البروز العلمي والفكريّ لدى عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود، وقوة الحفظ لدى أبي هريرة وعائشة -رضي الله عنهم- وشجّع زيد بن ثابت على تعلّم اللغة اليهودية؛ ليُمكن التواصل مع اليهود والاعتماد الذاتي في قراءة رسائلهم والردّ عليهم، وكان زيد بن ثابت فقيهاً عظيماً ومفتياً للمدينة بالإضافة إلى قوته في الترجمة وقدرته الفائقة في حفظ ومعرفة السنة الأعاجم.

ووظّف الرسول القائد القدرات الدبلوماسية والسمات الشخصية، تلك التي تؤهلهم أن يكونوا

سفراء ناجحين، مثل مصعب بن عمير، وجعفر بن أبي طالب، و أبي موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل، وغيرهم كثير.

وفي جانب الاقتصاد، والتجارة كان لدى بعض الصحابة تميز وجانب قيادي مالي وتجاري مثل عبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان بن عفان-رضي الله عنهم -.

أما فيما يخص الجانب النسائي فاهتم الرسول-صلى الله عليه وسلم- بالجانب القيادي من العنصر النسائي، ودعم إطلاق القدرات وتفعيل الطاقات وتنمية الإنتاج والعمل والإبداع في الجانب النسائي، وبرزت من الصحابات عددٌ في مجالات متعددة.

وكان الرسول -ﷺ- حريصاً على استقطاب أفضل الطاقات وأميز القدرات من الصحابة، وتوظيف طاقاتهم وقدراتهم في احتياجات الدولة وأكافئها، كلٌ حسب ما يُجيد ويتميز، وتذكر بعض الإحصائيات أنّ الصحابة الذين حجّوا مع النبي-صلى الله عليه وسلم- حجة الوداع حوالي أربعة عشر ومائة ألف صحابي، وأن الصحابة الذين ذكروا بالاسم في تاريخ السيرة لم يتجاوزوا ألفين وأربعمائة صحابي تقريباً، وهذا قد يُفسر باعتماد الرسول-ﷺ- على أفضل الطاقات والقدرات والإمكانات عند الصحابة -عليهم رضوان الله-.

وكان إعداده لهذه الطبقة من القادة قائماً على منظومة قيم القيادة والمسؤولية الزائدة مع منظومة القيم التي تشمل جميع من ينضم تحت راية التوحيد من الصدق والإخلاص والتفاني والشفافية والتجرد لله-عز وجل- والعمل لصالح الإسلام والمسلمين والعدالة والقوة والأمانة والتواضع والغيرة على حُرمة الله والورع والسعي بمصالح البلاد والعباد والإيثار وغيرها من القيم العظيمة التي غرسها الرسول -صلى الله عليه وسلم- في صحابته الذين هيأهم لقيادة المشروع من بعده.

وقدّر للرسول -عليه الصلاة والسلام- تربطه ببعض الأصحاب مزيد روابط من علاقات النسب والمصاهرة، فاجتمع هؤلاء الصحبة للنبي -ﷺ- وأنعم بها من خلّة جعلت لهم السبق في القرآن، والحب عند أولياء الرحمن، إنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فتزوج من الأول والثاني وزوج الثالث والرابع مع أصرة القرابة - رضي الله عنهم وعن جميع الصحابة والتابعين-وهنا تعمّقت العلاقة أشدّ وكان التجانس أكبر، وقد كان هؤلاء الأربع هم من حملوا همّ الأمة والرسالة كخلفاء فيما بعد، واستمروا على نهجه وسيرته -ﷺ- في تبليغ الديانة، وإقامة العدل، وحملوا الأمانة بكلّ قوة ونزاهة.

2.4.15. المطلب الخامس عشر :

السلوك الحضاري في قيام الدولة والنظام السياسي:

تُوقِّي الرسول ﷺ -وقد ترك دولةً مكونةً من شعبٍ وأقاليمٍ وحكومةٍ وسيادةٍ، حيثُ كانت الحكومةُ على سبيل المثال "تقومُ بالوظائفِ الأساسيةِ والوظائفِ الخدميةِ للشعب، مثلُ أعمالِ التشريعِ وتنفيذِ القراراتِ والقضاءِ وتكونُ الحكومةُ مسؤولةً بشكلٍ كاملٍ من الناحيةِ السياسيةِ عن تناعُمِ العلاقةِ بين السلطاتِ التنفيذيةِ والتشريعيةِ والقضائيةِ وعدمِ التداخلِ بينهم.

ويُعني مفهومُ السيادةِ: امتلاكُ الدولةِ سلطةً الهيمنةِ الداخليةِ على إقليمِها وأفرادِها واستقلالِها عن السيطرةِ الخارجيةِ، وتتجسّدُ الأولى قوةً وإدارةً سلطةِ الدولةِ داخليًا وتتجسّدُ الثانيةُ في الاستقلالِ عن الدولِ الأخرى وعدمِ الخضوعِ" (١).

ولقد تركَ الرسولُ - صلى الله عليه وسلم- دولةً تقومُ بجميعِ وظائفِ الدولةِ مثلِ الوظائفِ الوجوديةِ للإنسانِ كالعسكريةِ والأمنيةِ والقضائيةِ والوظائفِ الماليةِ والخارجيةِ بالإضافةِ إلى وظائفِ الخدماتِ العامةِ مثلِ الصحةِ والتعليمِ والتكافلِ الاجتماعي (عبرَ نظامِ الوقفِ والصدقاتِ والزكاةِ) كما أن الدولةَ لها وظائفٌ خاصةٌ بالتطويرِ والتنميةِ والرفاهِ وتحقيقِ أفضلِ سبيلِ العيشِ للمواطنين، وهذا يحققُ الهدفَ الأسمى من قيادةِ الدولةِ وهو رعايةُ البشرِ والاستخلافُ في الأرضِ وعمارتها وقد سادتِ العدالةُ والإنصافُ والتوازنُ والأمنُ في دولةِ النبوةِ بالإضافةِ الى الرفاهِ الاقتصاديِ والتنميةِ والتكافلِ، فلا يُوجدُ فرقٌ أو تميّزٌ لمدينةٍ على أخرى في ذلك أو إقليمٍ على آخر.

ولقد كان النظامُ السياسيُّ في دولةِ النبوةِ حريصًا على التفاعلِ مع مطالبِ الناسِ واحتياجاتهمِ وتفعيلِ طاقاتهمِ والاستفادةِ من خياراتِ الشورىِ والحريةِ البتاءةِ بشكلٍ لافِتٍ، فلم يكنِ النقدُ ممنوعًا، ولم تكنِ المطالبةُ بالحقوقِ فيها أيُّ حرجٍ، وكان الجميعُ حكامًا ومحكومين متساوين في الحقوقِ والواجباتِ ولم تتكوّنْ هنا أيُّ فجواتٍ طبقيةٍ كبيرةٍ بل كانت الطبقةُ الوسطى هي الطبقةُ الكبرى وهي صمّامُ الأمانِ وكان الأغنياءُ يتسابقون للبدلِ والعطاءِ والمشاركةِ في التنميةِ، فهناك -مثلا- آبارٌ عامةٌ كانت في سبيلِ الله -عز وجل- تكفلُ بها مُحسنون وكان هناك أعمالٌ أخرى ومبادراتٌ من المواطنين

(١) - سلطان في قواعد في الممارسة السياسية- ط. الأولى.ص ٥٤

تجاه بناء دولتهم وقوتها، والشواهد على ذلك لا تُحصى كثرة، ومن ذلك دعم عثمان بن عفان -رضي الله عنه- للمنظومة العسكرية بأكثر من مائة ناقة مجهزة في جيش العسرة، وغيرها من المبادرات التي تؤكد أن قيم الإنتاجية والفاعلية وهي من قيم الحضارة العميقة كانتا متوفرتين بشكل كبير وظاهر في المشروع الإسلامي ودولة النبوة.

كما أن النظام السياسي كان شوريًا بشكلٍ ظاهرٍ يستوعب التنوع والاختلاف ويحقق مصالح البلاد والعباد، ولم يكن أي احتكارٍ للسلطة أو تحويل الطبقة السياسية إلى طبقةٍ منتفعين أو تهميش الجماهير والشعب بل كانت الطبقة السياسية في تلك الدولة من عامة الناس ولا يظهر عليهم أي استفادة من السلطة بل كانت الطبقة السياسية طبقةً باذلةً نشطةً مؤمنةً بالمشروع وتعمل لتقويته وانتشاره بكل إخلاصٍ وتجردٍ مُبتغين ما عند الله.

وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يعيشون في أجواءٍ من الحرية جعلت هناك تباينًا في الآراء وشجعت على العصف الذهني وتوليد الأفكار في مناقشة القضايا للصالح العام، والتنوع الثقافي والفكري دون أي تثريبٍ على أحدٍ ما لم يخرج عن المعلوم والمشهور من دين الإسلام.

وهذه من علامات الأمم الناهضة التي تعيش حراكًا فكريًا وعلميًا وثقافيًا كبيرًا تكون نتائجه قيمةً مضافةً للمجتمع والدولة وليس الجدل العقيم الذي لا يقدم بل يؤخر إذ الهدف منه الانتصار للذات. وكانت الدولة أيضًا تقر العدل والإنصاف والحقوق لغير المسلمين وتسمح لهم بالحياة الكريمة الهانئة وتحفظ لهم حريتهم في التعبد ولا تجبرهم على الدخول في الإسلام ويتنعم غير المسلمين بكافة الخدمات التي تُقدّمها الدولة دون تمييز، وهذا من أعظم الملامح الحضارية في المشروع الإسلامي ذي الطبيعة الإنسانية العظيمة.

2.4.15. المطلب الخامس عشر وفاة الرسول - ﷺ - القائد وانتقال السلطة :

بعد عودة الرسول - ﷺ - من حجة الوداع كان يعرف أن منيته قد حانت وأن أيامه معدودة على إجمال النصح، واختصاره، وسعى في توديع الأحياء والأموات فزار مقبرة البقيع وصلى على شهداء أحد بعد ثماني سنوات على استشهادهم.

قال عقبه بن عامر - رضي الله عنه - : " صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَيَّ قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالْمَوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ثُمَّ طَلَعَ الْمَنِيرَ فَقَالَ إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضُ وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا وَإِنِّي لَسْتُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا وَلَكِنِّي أَحْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا قَالَ فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - " (١).

وفي آواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة بدأ الرسول - ﷺ - يحسُّ بالِم في رأسه ومع مرور الوقت زاد هذا الألم والإعياء فاستأذن زوجته بأن يُطَبَّبَ في بيت عائشة - رضي الله عنها - فوافقت على ذلك، وكان مما أوصى به كذلك أن يظل باب أبي بكر مفتوحاً له، وتغلق كل الأبواب، قال ابن عباس : " خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه في خرقه، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "إنه ليس أحدٌ آمنٌ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت مُتخذاً من الناس خليلاً، لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ولكن حُلَّةَ الإسلام أفضل، سُدُّوا عني كلَّ حَوْحَةٍ في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر" (٢).

وشعر بدنو الأجل فحدث الناس بذلك، قال أبو سعيد الخدري (٣) : " خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَهُوَ عَاصِبٌ رَأْسُهُ قَالَ فَاتَّبَعْتُهُ حَتَّى صَعِدَ عَلَى الْمَنِيرِ قَالَ فَقَالَ إِنِّي السَّاعَةَ لَقَائِمٌ عَلَى الْحَوْضِ قَالَ ثُمَّ قَالَ إِنَّ عَبْدًا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا فَاحْتَارَ الْآخِرَةَ فَلَمْ يَقْطُنْ لَهَا أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ بِأبي أَنْتَ وَأُمِّي بَلْ نَقْدِيكَ بِأَمْوَالِنَا وَأَنْفُسِنَا وَأَوْلَادِنَا " وأوصى بعدة وصايا - عليه أفضل الصلاة والسلام - :

(١) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي - باب غزوة أُحُدٍ - برقم (٤٠٤٢) / ٥ / ٩٤ .

(٢) - أخرجه أحمد في المسند - مسند ابن عباس - (٢٢٣٢) . صححه الأرنؤوط .

(٣) - أخرجه أحمد في المسند - مسند أبي سعيد - برقم (١١٨٦٣) صححه الأرنؤوط .

١- إصراره على أن يُصَلِّيَ بالناس أبو بكرٍ في حياته، ولهذا دلالة واضحة، تَنفَعُ مَنْ كَانَ لَهُ مُسْكَةٌ عَقْلٍ أو إسلامٌ صحيحٌ لما يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ صِحَّةِ خِلافةِ أَبِي بَكْرٍ، وهذا أمرٌ متواترٌ في التاريخ لا يُنكَرُهُ رَافِضِيٌّ ولا ناصبيٌّ، ولا حتى كافرٌ ممن يَقْرَؤون التاريخ، إلا من تَنَكَّرَ لِلحَقَائِقِ، فقد ورد في الصحيح عن عائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- " لَمَّا مَرَضَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَأُذِنَ فَقَالَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ وَأَعَادَ فَأَعَادُوا لَهُ فَأَعَادَ الثَّلَاثَةَ فَقَالَ إِنَّكَ صَوَّاحِبُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلَّى فَوَجَدَ النَّبِيَّ -ﷺ- مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ يُهَادِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ كَأَنِّي أَنْظُرُ رَجُلَيْهِ تَحُطَّانِ مِنَ الْوَجَعِ فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ -ﷺ- أَنْ مَكَانَكَ ثُمَّ أَتَى بِهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ" (١).

٢- الوصية بإخراج اليهود من جزيرة العرب، وغيرهم من المشركين، فعن عائِشَةَ قَالَتْ: "كَانَ آخِرُ مَا عَهَدَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- أَنْ قَالَ لَا يُتْرَكُ بِيَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٌ" (٢). فكان حريصًا على حماية خطِّ الدِّفاعِ الأوَّلِ للمسلمين وهي جزيرة العرب من أيِّ تهديدٍ أو اختراقٍ مِنَ اليهود أو النصارى

٣- الوصية بأصل الدين، وهو التوحيد بسد كل باب إلى يؤول إلى ضده وهو الشرك، لصون جناب التوحيد، فحذر من اتخاذ القبور مساجد، وقد ناسب ذلك التنبيه قُرب وفاته؛ حتى لا يَتَزَرَّعَ جاهلٌ بجوازِ- كما حدث في القرون التي بعد عهد الأصحاب والتابعين -فيتخذ القبر وثناً يُعْبَدُ من دون الله، وسبحان الله مَنْ يَنْظُرُ اليَوْمَ إلى الشيعة الروافض والصوفية يراهم كأنهم يحِرِّصون على العمل بخلافِ نَهْجِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقد روت عائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: " لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا قَالَتْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ غَيْرَ أَنِّي أَحْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا" (٣).

٤- كما أوصى بعمود هذا الدين، وهو الركن الثاني من أركانه الصلاة، فعن أمِّ سلمة أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يقول في مرضه الذي تُوفِّي فيه: " الصَّلَاةُ، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُ وَقَالَتْ: " كانت عامَّةً وصية رسول الله: " الصلاة الصلاة، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، حَتَّى جَعَلَ يُغْرِغُرُ بِهَا فِي صَدْرِهِ،

(١) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب الأذان - باب حَدِّ الْمَرِيضِ أَنْ يَشْهَدَ الْجُمُعَةَ (٦٦٤) ١/١٣٣.

(٢) - أخرجه أحمد في المسند - مسند عائشة - برقم (٢٦٣٥٢). وسنده صحيح لغيره قاله الأرنؤوط.

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الجنائز - بابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ - برقم (١٣٣٠) ٢/٨٨.

و ما يفيضُ بها لسانه" (١).

وكان آخرُ موقفٍ حصلَ قبلَ وفاته هو دخولُ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما - وحيينا مُستندًا على صدرِ عائشة -رضي الله عنها- ومَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكَ رَطْبٌ يَسْتَنْ بِه فَأَبَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصْرَهُ فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَفَصَمْتُهُ وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَنْ بِهِ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ فَمَا عَدَا أَنْ فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ثَلَاثًا ثُمَّ قَضَى وَكَانَتْ تَقُولُ مَاتَ بَيْنَ حَافَتِي وَدَافَتِي (٢) " (٣).

فقرة 1. أثرُ موتِ النبيِّ على الأصحاب :

لم يكن حَدَثُ موتِ الحبيبِ حَدَثًا عَابِرًا أو هِينًا، بل كان بلاءً ما أشدَّهُ على جميعِ الأصحابِ بل على جميعِ المؤمنين الصادقين، طاشت عقولُ أناسٍ، ونشج الجميعُ بالبكاء، وأصابهم همٌّ وغمٌّ، فهذه عائشة رضي الله عنها زوج النبي -ﷺ- قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ [يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ] فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- قَالَتْ وَقَالَ عُمَرُ وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ وَلَيْبَعَثَنَّهُ اللَّهُ فليَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَن رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَبَّلَهُ قَالَ بِأبي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيْقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ فَحَمِدَ اللَّهُ أَبُو بَكْرٍ وَأَثَى عَلَيْهِ وَقَالَ أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا -ﷺ- فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَقَالَ { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } وَقَالَ { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } قَالَ فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ " (٤).

لقد جاءت اللحظة الأليمة، مات رسول الله، وأظلمت مدينة رسول الله، لقد نوزها يوم دخلها،

(١) - أخرجه أحمد في المسند - من مسند أم سلمة - برقم (٢٦٦٨٤). و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٨٦٨).

(٢) - قال ابن حجر في فتح الباري ٨ / ١٣٩: " والحاقنة بالمهملة والقاف ما سفل من الذقن والذاقنة ما علا منه أو الحاقنة نقرة الترقوة هما حاقنتان ويقال إن الحاقنة المظمن من الترقوة والحلق وقيل ما دون الترقوة من الصدر وقيل هي تحت السرة وقال ثابت الذاقنة طرف الحلقوم "

(٣) - أخرجه البخاري في الصحيح - كتاب المغازي - باب مَرَضِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَفَاتِهِ - برقم (٤٤٣٨) / ٦ / ١٠.

(٤) - السابق - كتاب أصحاب النبي -ﷺ- باب قَوْلِ النَّبِيِّ -ﷺ- لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا قَالَهُ أَبُو سَعِيدٍ - برقم (٣٦٦٧) / ٥ / ٦.

فَحَوَّلَتْ مِنْ يَثْرِبَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَ أَظْلَمَتْ الْمَدِينَةَ نَفْسُهَا يَوْمَ مَاتَ الْحَبِيبُ، بَلْ أَظْلَمَتْ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا، وَلَيْسَ هَذَا مَبَالِغَةً فَالرَّسُولُ لَيْسَ مَجْرَدَ رَجُلٍ عَظِيمٍ، أَوْ قَائِدٍ فِدِّيٍّ، أَوْ مَفْكَرٍ عَمَلًا فَقَدْتَهُ الْبَشَرِيَّةُ، إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ الْأَصِيلَةَ آخِرُ رَسُولٍ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى النَّاسِ، لَذَا أَظْلَمَتْ.

لَيْسَ مِنْ شَكِّ أَنْ الْفِتْنَةَ سَتُقْبَلُ بَعْدَ وَفَاتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَوَقَّعُوا ظَلَامًا فِي فِتْرَاتٍ كَثِيرَةٍ مُقْبِلَةٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُولُ عَنْ فِتْنَةٍ مِنْ هَذَا النُّوعِ سَتَأْتِي عَلَى أُمَّتِهِ: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا"^(١).

بَلْ إِنْ الرَّسُولَ رَبطَ اشْتِدَادِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ بِمَوْتِهِ، فَقَالَ: "النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ"^(٢).

كَانَتْ الْفِتْنَةُ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ عِنْدَ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مَنْ رَأَى كَمَنْ سَمِعَ، وَلَيْسَ مَنْ عَاشَ وَخَالَطَ كَمَنْ قَرَأَ كِتَابًا، أَوْ سَمِعَ مُحَاضِرَةً، لَا شَكَّ أَنْ مَصِيبَةُ الصَّحَابَةِ بِفَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ كَانَتْ أَعْظَمَ وَأَجَلَّ مِنْ مَصِيبَةِ أَيِّ مُسْلِمٍ فِي الْحَبِيبِ.

لَقَدْ اضْطَرَبَ الْمُسْلِمُونَ اضْطِرَابًا شَدِيدًا، حَتَّى ذُهِلَ بَعْضُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُ التَّفَكِيرَ، وَقَعَدَ بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ، وَأَنْكَرَ بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَطِيعُ التَّصَدِيقَ، وَقَدْ رَأَيْنَا عَمْرَ يَنْكُرُ وَيَعْتَرِضُ، وَيَقُولُ: "وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ"^(٣): "وَاللَّهُ مَا مَاتَ".

ظَلَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ يَتَمَنُّونَ صَدَقَ كَلَامَ عَمْرٍ، حَتَّى جَاءَ الصِّدِّيقُ، وَدَخَلَ مُسْرِعًا إِلَى بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، فَوَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ نَائِمًا عَلَى فِرَاشِهِ، وَقَدْ غَطُّوا وَجْهَهُ الْكَرِيمَ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَ أَدْرَكَ الْحَقِيقَةَ الْمَرَّةَ، لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فَعَلًّا، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بِكَاءٍ مُرًّا، وَقَالَ: "بَأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، طَبْتُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا، أَمَا الْمَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَتْ عَلَيْكَ

(١) - أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ - ٥١ - كِتَابُ الْإِيمَانِ - بَابُ الْحَثِّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَظَاهِرِ الْفِتَنِ - بِرَقْمِ ١١٠/١(١٨٦).

(٢) - السَّابِقُ - كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ - ٥١ - بَابُ بَيَانِ أَنَّ بَقَاءَ النَّبِيِّ - ﷺ - أَمَانٌ لِأَصْحَابِهِ، وَبَقَاءُ أَصْحَابِهِ أَمَانٌ لِلْأُمَّةِ - بِرَقْمِ ١٩٦١/٤(٢٠٧).

(٣) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ - كِتَابُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ - لَوْ كُنْتُ مُتَّحِدًا خَلِيلًا - بِرَقْمِ ٤/٥(٣٦٦٧).

فقد مُتَّهَماً". فالرسول كان بالنسبة له كلُّ شيءٍ، ولم يكن رسولاً بالنسبة لأبي بكر فقط، ولكنه كان صاحباً، وموطن سرّ، ومبشراً، ومطمئناً، وزوجاً لابنته، ورئيساً للدولة، وهادياً لطريقه، ومع ذلك إلا أن الله أنزل على الصديق ثباتاً عجيباً، ولو لم يكن له من المواقف في الإسلام إلا هذا الموقف لكفى دليلاً على عظمتِهِ، ولكن سبحان الله ما أكثر موافقه العظيمة^(١)!

ثم أسرع الصديق خارجاً إلى الناس ليسكن من روعهم، وليثبتهم في مصيبتهم، فوجد عمر يقول ما يقول، ويقسم على أن رسول الله -ﷺ- لم يمت، فقال: أيها الخالف على رسلك، وفي رواية قال له: اجلس يا عمر، لكنَّ عمر لم يكن يسمع شيئاً فلم يجلس، فتركه أبو بكر، واتجه إلى الناس يخاطبهم، فأقبل الناس عليه، وتركوا عمر، فخطب فيهم خطبته المشهورة الموقفة، التي تعتبر -على قصرها- من أهم الخطب في تاريخ البشرية^(٢). فما تحمل عمرُ العملاقُ وقع المصيبة حين أدرك، فسقط مغشياً عليه، وارتفع البكاء في كل أنحاء المدينة المنورة، وتأمل أبو ذؤيب الهذلي رحمه الله -من التابعين كان مسلماً على عهد النبي ولم يره- يصف المشهد، فقال: وَقَدِمَتِ الْمَدِينَةَ وَلَهَا ضَجِيجٌ بِالْبُكَاءِ كَضَجِيجِ الْحَجِيجِ إِذَا أَهَلُّوا بِالْإِحْرَامِ فَقُلْتُ: مَهْ؟ فَقَالُوا: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-^(٣). ض.

ويكفي قول أنس: " لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ وَقَالَ مَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَيْدِي حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا "^(٤)

فقرة 2. انتقال السُّلطة وسقيفة بني ساعدة :

لم يُعلن رسول الله -ﷺ- خليفةً له رُغم أهمية الموضوع إلا أنه تركها شورى بين المسلمين؛ ليختاروا الأكفأ والأصلح، ولا يتمحل حاقداً غشوماً ويتناول على أصحاب محمد في أنهم اجتمعوا يبحثون أمر الخلافة، ورسول الله لم يُدفن بعد؛ لأن حُلُو مسند الحكم ومنصب الخلافة أمرٌ خطيرٌ، وحسبهم هذا الأمر يُعتبر له الأولوية الكبرى دَرءاً للفتنة أو لاستغلال العدو ذلك الفراغ، ومن ثمَّ كان اجتماع

(١) - السرجاني ، مقال بعنوان : وفاة الرسول وأثره على الصحابة <http://islamstory.com/ar>

(٢) - انظر زينو في : قطوف من الشمائل المحمدية والأخلاق النبوية والآداب الإسلامية- الطبعة الخامسة.ص١٧

(٣) -السهيلي في الروض الأنف ٤/٥٧

(٤) - أخرجه أحمد في المسند - مسند أنس بن مالك - برقم (١٣٨٣٠) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم

(٢٨٦١).

السقيفة بين الصحابة اجتماعًا تاريخيًا،

وقد اختلف الأصحاب في هذا الأمر، لأنَّ كلاً منهم كان حريصًا على القيام بأمر الدين، والسَّعي في مصالح الأمة، ويرى أن التفریط في هذا نقصًا، وليس بكمالٍ، فطلبها بعضهم، واجتمع حوله جماعةٌ، وطلبها آخرون، واجتمع حولهم جماعةٌ، وكلُّ يُريد الخيرَ، والحقَّ، ولا أدلَّ على هذا من أنَّهم حينَ وجَّههم أبو بكرٍ، وأفنعهم انصاعوا له أجمعون، وبايعوا أبا بكرٍ، ورضوا به خليفةً للمسلمين، ولم يبقَ أحدٌ من أصحابِ محمدٍ -رضي الله عنهم- في المدينة إلا وقد بايعَ أبا بكرٍ حتى الذين تأخروا في البيعة لأسبابٍ فإنهم بايعوه أيضًا، فأجمعت الأمة يومها على بيعة أبي بكرٍ -رضي الله عنه-، ولذا فإن كلَّ العقلاء يُزرون بالروافض المأفونين الذين يخدعون أنفسهم بكذبٍ أطاروها في الآفاق ورَّجوها على المفتونين، والجهلة، والعميان، والضعفاء من أتباع شيعتهم -بأن هناك من بايعَ أبا بكرٍ تقيَّةً، وأنَّ من بايعوه قد حَطَّطوا لذلك، فهذا القول لا يقوله عاقلٌ لأنَّه تكذيبٌ للوقائع والحقائق، وطعنٌ في هذه الأمة، وسادتها، ونعوذُ بالله من الخذلان.

اجتمع الأنصارُ بقيادةِ سعدِ بنِ عبادة، وظنُّوا أنَّهم هم المسؤولون عن هذه الأمرِ بحُكم أنَّهم أصحابُ الأرض والسكان الأصليون في المدينة النبوية عاصمة الدولة الإسلامية، وهم الناصرون محمدًا، حينَ أخرجَه أهلُه وعشيرته.

فطلب الخليفة سعدُ بنُ معاذٍ لنفسه وسارعَ المهاجرون للتحقيق بإخوانهم الأنصارِ في هذا الاجتماع وحصلَ الحوارُ العميقُ، المفتوحُ بينهم في هذا الملفِّ المهمِّ والحساسِ في ذاتِ الوقتِ.

فالأنصارُ يرون أنَّهم كانت لهم سابقةٌ في هذا الدين، والجهادِ وفتحِ البابِ لهجرةِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة وتأسيسِ الدولة، والمهاجرون لا يقلُّ فضلهم في كونهم المسلمين الأولين الذي لاقوا العنتَ والتعذيبَ والحصارَ بدايةَ الدعوة.

ومع اشتدادِ النقاشِ بينَ الفريقين حاولَ أبو بكرٍ الصديقُ الخروجَ برأيٍ يتفقُ عليه الصحابةُ -رضي الله عنهم أجمعين- ويكون مرضيًا للجميع، وقد اجتمعت الأنصارُ إلى سعدِ بنِ عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ فذهب إليهم أبو بكرٍ وعمرُ بنُ الخطابِ وأبو عبيدة بنُ الجراح فذهب عمرُ يتكلَّمُ فأسكته أبو بكرٍ، وكانَ عمرُ يقولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي، حَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوَزَرَاءُ، فَقَالَ حَبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَ لَنَا مِنْ أَمِيرٍ وَمِنْكُمْ أَمِيرٍ، فَقَالَ أَبُو

بَكَرٍ لَا وَلَكِنَّا الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا وَأَعَزُّهُمْ أَحْسَابًا فَبَايَعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بِنَ الْجَرَّاحِ فَقَالَ عُمَرُ بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَحَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ فَقَالَ قَائِلٌ قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فَقَالَ عُمَرُ قَتَلَهُ اللَّهُ (١).

واصل أبو بكر بثَّ روح الطمأنينة، وتقريب وجهات نظر المسلمين والعبور بالسفينة إلى برِّ الأمان

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الصحابة - باب قَوْل النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا حَلِيلًا قَالَهُ أَبُو

سَعِيدٍ - برقم (٣٦٦٧) ٤/٥. وانظر: السهيلي في الروض الأنف ٤/٤٤٨

(مناقشة الموقف الذي حدث من عمر لسعد)، خلاصته - بلا لِي النصوص، وبلا تَكْلُفٍ - ما يلي :

أولا : قد قال عمر - هذه الكلمة فعلا، فالحديث قد صحَّ كما في البخاري.

ثانيا : هذا الكلام قد قاله عمر ردًّا على مَنْ قال : (قتلتم سعدًا).

ثالثا: لم يقصد القائل (الذي قال : قتلتم سعدًا) القتل الحقيقي، وإنما قصد خذلتموه في رأيه، ولم توافقوه عليه، وقيل كان سعدًا

مريضًا فلمَّا قام الناسُ أجمعون للبيعة كادوا يَطْوُونَهُ.

رابعا : قَوْلُهُ عمر (اقتلوه أو قتلَهُ الله) كانت ردًّا على القائل ؛ لأن سعدًا لم يَزْ أَنْ يُبَايِعْ، فكأنَّ عمر رأى منه تخاذُلًا في البيعة،

فَدَعَا عَلَيْهِ بِهَا. قال الخطابي : " ومعناه - والله أعلم - أن هذه الكلمة جَرَّتْ مِنْهُ جَوَابًا عَلَى مَذْهَبِ الْمَطَابِقَةِ لِلْفِطْرِ الْأَنْصَارِيِّ، يُرِيدُ

بِهَا إِبْطَالَ مَعْدِرَتِهِ فِي التَّشْبِيهِ عَنِ الْبَيْعَةِ لِمَكَانِ سَعْدٍ وَلَمْ يَقْصِدْ بِهَا إِيقَاعَ الْفِعْلِ، وَإِنَّمَا قَالَ اقْتَلَوْهُ بِمَعْنَى لَا تَبَالُوا بِمَا نَالَهُ مِنَ الضَّغْطِ

وَالْأَلْمِ وَأَقْبَلُوا عَلَى شَأْنِكُمْ وَأَحْكَمُوا أَمْرَ الْبَيْعَةِ. ..

وفيه وجه آخر وهو أن يكون المعنى اجعلوه كمن قُتِلَ واحسبوه في عداد من مات، وهلك أي لا تعتدوا بمشهديه، ولا تُعْرَجُوا

على قوله، وذلك أن سعدًا إنما حضر ذلك المقام؛ لِأَنَّ يُنْصَبَ أَمِيرًا عَلَى قَوْمِهِ عَلَى مَذْهَبِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ لَا يَسُودَ الْقَبِيلَةَ

إِلَّا رَجُلٌ مِنْهَا وَكَانَ حُكْمُ الْإِسْلَامِ خِلَافَ ذَلِكَ ". انظر غريب الحديث للخطابي ١٢٨/٢

خامسا: هذا الذي فعله سعدٌ - ﷺ - من عدم البيعة هو أحد الأقوال، وخرج من المدينة ولم يرجع حتى مات - ﷺ - ويكون هذا

الذي حدث من سعد - ﷺ - إِنْ كَانَ قَدْ حَدَّثَ - مجرد اجتهادٍ منه، مأجور عليه ؛ لأنه كان يَرَى لِلْأَنْصَارِ حَقًّا فِي ذَلِكَ، وَهُوَ

اجتهاد يُخْطِئُ صَاحِبُهُ أَوْ يُصِيبُ، وَلَا شَكَّ عِنْدَنَا أَنَّهُ أَخْطَأَ - رضي الله عنه -.

سادسا : هناك رأي آخر يرى بأن سعدًا بَعَدَ الْمَعَارِضَةَ وَبَعْدَ كَلَامِ أَبِي بَكْرٍ، قَدْ وَاقَفَ وَبَايَعَ وَقَدْ بَوَّبَ عَلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ كَمَا فِي : الْبِدَايَةِ

وَالنَّهْيَةِ ٢٦٨/٥ : " ذَكَرَ اعْتِرَافَ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ بِصِحَّةِ مَا قَالَهُ الصِّدِّيقُ - رضي الله عنه - يوم السقيفة، وفيه قول أبي بكر لسعد

: " وَلَقَدْ عَلِمْتَ يَا سَعْدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قال: - وَأَنْتَ قَاعِدٌ - قريش ولاةٌ هذا الأمر، فَبَرَّ النَّاسِ تَبِعَ لِبَرِّهِمْ

وَفَاجَرَهُمْ تَبِعَ لِفَاجِرِهِمْ. فقال له سعدٌ: صدقت. ..

ومعنى هذا أنه - رضي الله عنه - إنما قَبِلَ الْإِمَامَةَ تَخَوُّفًا أَنْ تَقَعَ فِتْنَةٌ أَرَى مِنْ تَرْكِهِ قَبُولَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. وكان هذا في

بقية يوم الاثنين، فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء اجتمع الناس في المسجد فتمت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبة، وكان

ذلك قبل تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم. اهـ.

فوقف أبو عبيدة وعمرُ وطلبنا من أبي بكرٍ أن ييسطَ يده ليبيأعوه، فلحق الأنصارُ بالمهاجرين وبايعوا أبا بكرٍ الصديقَ باستثناء سعدِ بنِ عبادة الذي كان يُمثل المعارضة في تلك الجلسة الاستثنائية فيما نستطيع أن نسميه اليوم - بأعراف السياسة - برلمانَ المسلمين وهو سقيفةُ بني ساعدة حيث كان التثؤُغ والحوارُ والحريَّة التي تضيف ولا تهدم.

كانت الأجواءُ داخلَ تلك الجلسة أجواءَ حوارٍ وبحثٍ عن رأيٍ رشيدٍ، ولم تكن هناك مطامعُ ومآربُ وحشاهم وقد رَكَاهم الله، بل كلُّ تعاملٍ مع الموضوع بسليقته وفهمه للأمرِ وكان الحوارُ حضارياً بحثاً عن المصلحة العامة للدولة الإسلامية والشعب الذي يرتقبُ من يقوده بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد أثبت التاريخُ أن المجلس التاريخي هذا قد خلا من التعدي أو التهديد والوعيد أو أي صورة من التجاوز الأدبي أو الأخلاقي.

وكانت الجلسة فيها أعلى درجات الحريَّة والشورى والنقاش، وقال الجميع آراءهم دون خوفٍ أو وجلٍ، بل كان حواراً مفتوحاً بحثاً عن الحقيقة والمصلحة واجتماع الكلمة مع تقدير جميع الآراء وعدم مُصادرتها بالإضافة إلى احترام النصِّ الشرعيِّ ومقاصد الشريعة.

كانت البيعة في اليوم الأول بيعة خاصة في السقيفة لما يُسمى أهل الحل والعقد ثم كانت البيعة عامة في اليوم الثاني من فوق المنبر، وبعدها لُقِبَ أبي بكرٍ الصديق بخليفة رسول الله - ﷺ -.

وبهذا انتقلت السلطة من نبيِّ الله إلى خليفته أبي بكرٍ وسط أجواءٍ من الرقي والتحضُّر وحرية الاختيار والاجتهاد في البحث عن الأصلح والأقوى والأنسب لقيادة الأمة ومشروعها الصاعد.

ومع هذا لم ينفرد أبو بكرٍ بالسلطة بل كان مثلاً لتفعيل الشورى واحتواء الجميع والاستماع لهم والحرص الشديد على العدل والإنصاف وكرامة الإنسان ومصالح البلاد والعباد ومستقبل الدولة ومواصلة رحلة نهضتها وقوتها وتطويرها ومواجهة التحديات التي تحدث بكلِّ حكمة وحزم.

وأشيرُ إلى نقطة مهمة، وهي أن الإسراع إلى الاجتماع في السقيفة كان موضع تعليقٍ بواسطة بعض أهل الأهواء من الشيعة وأمثالهم، فيزعمون أنَّ المُجتمعين تركوا أمرَ تجهيز الرسول - ﷺ - وتوقَّروا على البيعة، وما يتصلُّ بها.

يقول القاضي عبد الجبار دفاعاً على ذلك: " وكان للقوم عُذرٌ في المبادرة إلى البيعة؛ لأنهم خافوا من التأخر فتنة عظيمة، واتكلوا في أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على علي بن أبي طالب وغيره من أهل البيت، وقد اتخذ أهل السنة بعد هذا من واقع الإسراع في البيعة للخلافة دليلاً على

وجوب الخلافة وأهمية هذا المنصب لتصريف شئون المسلمين" (١).

بعض ملاحظات على مجلس البيعة والاجتماع السياسي (٢):

ذكرت ملامح اجتماع السقيفة التي تكاد المصادر السنينة تجتمع على إيراد تفاصيلها، ومن المهم أن نعرض الملاحظات التي نستطيع أن نستقيها من اجتماع السقيفة فيما يلي:

أولاً: أنه أول اختلاف يحدث بين المسلمين عقب انتقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى، فهو كما يصفه الإمام أبو الحسن الأشعري بأن أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبهم - صلى الله عليه وسلم - اختلافهم في الإمامة (٣).

ولكن الاختلاف هنا كان سياسياً محضاً، وليس دينياً، ولم يتسع لأكثر مما حدث وبينته آنفاً؛ إذ سرعان ما عاد عامل الدين بسلطانه القوي فأدى دوره في تهدئة النفوس والمبايعة لأبي بكر.

ثانياً: تمت البيعة لأبي بكر بالإجماع، فيما عدا سعد بن عبادة - الذي كان يطلب الولاية لنفسه، ولهذا يقول القاضي عبد الجبار: "وقد قال شيخنا أبو علي ما يدل على أن خلاف سعد لا يؤثر، أنه إنما خالف على سبيل طلب الإمامة لنفسه، وقد صح كونه مُبطلاً في ذلك" (٤).

ثالثاً: لم يتم الأمر لأبي بكر بالعنف أو الإكراه، وإنما كان نتيجة مناقشة مفتوحة بين المهاجرين والأنصار، وأتيحت الفرصة كاملة لكلا الفريقين؛ ليُدلي كل فريق برأيه في حرية تامة.

ويصف الدكتور الرئيس (٥) هذا الاجتماع بأنه كان شبيهاً بجمعية وطنية أو تأسيسية فوضها المسلمون للبحث في مصير الأمة للأجيال المقبلة، وفي رأيه أن هذا الاجتماع بما حوى من أسس جوهرية لمساجلات حرة للرأي جعل كاتباً غريباً يشهد بأنه يُدكر إلى حد بعيد بمؤتمر سياسي دارت فيه المناقشات وفقاً للأساليب الحديثة.

رابعاً: إن البيعة تمت أولاً في اجتماع السقيفة بحضور خاصة المسلمين، ثم كانت بيعة العامة في اليوم التالي على المنبر، ولعل هذه الطريقة هي أساس نظرية أهل السنة في إتمام البيعة بواسطة أهل الحلّ

(١) - عبد الجبار في المغني في أبواب التوحيد والعدل - الطبعة الأولى - ٣٨١/٣ القسم الأول.

(٢) - ذكرها الدكتور مصطفى حلمي في كتاب: نظام الخلافة في الفكر الإسلامي - دون. ط. ص ١٣٢.

(٣) - الأشعري في مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - الطبعة الثالثة ص (٣٣)

(٤) - عبد الجبار في المغني في أبواب التوحيد والعدل - ٣٨١/٣.

(٥) - الرئيس في النظريات السياسية الإسلامية - الطبعة السابعة. ص ٢٥.

والعقدِ أي خاصة المسلمين، وهم ذوو الدين والعلم والرأي.

خامسًا: اتسمت المناقشات بطابعٍ فريدٍ في نوعه؛ لا نجدُ له شبيهاً في المجالسِ السياسيةِ للمجتمعات التي بلغت أرقى درجاتِ الرُّقى في العصر الحديث، فهذا هي المعارضة بما تمثله من مخالفة في الرأي. لا تلبث أن تخضع في سهولة ويسر لإحساس الأخوة في الدين وتمثل لمبادئه فيعترف كل منهما بأفضال الطرف الآخر بالرغم من الاختلاف في الرأي، كما في قول أبي بكر واصفًا الأنصار: "أنتم يا معشر الأنصارِ مَنْ لا يُنكرُ فضلهم في الدين، ولا سابتهم العزيمةُ في الإسلام"، أو قول ابن الجراح: "أنتم أول من نصر وأزر" وهكذا، قدموا لنا نموذجًا مثاليًا للسلوك في المجال السياسي.

المبحث الخامس : خلاصة الفصل الثاني :

لقد انتقل المشروع في هذه المرحلة إلى نقطة أشد خطورة من ناحيتين :
الأولى : أن قوى الشر أصبحت ترى فيه خطرا كبيرا عليها يهدد وجودها بل استقرارها .
الثانية : أن الصراع قد انتقل من حالة الدفاع عن المشروع من قبل رجاله وقادته إلى الهجوم وتمكين الدولة والدعوة إلى الإيمان والتوحيد .

وقد كان الحدث الأكبر في هذه المرحلة هو الفتح العظيم فتح مكة ، حيث عاد المشروع إلى الأرض التي ظهر نوره فيها في أول الأمر ثم أضطر إلى أن يخرج منها حين منعه قوى الشر من أن ينشر نوره ؛ لكنه رجع هذه المرة وهو يشعل أنوار هدايته في كل مكان ، فعشيت أبصار المشركين ولم يملكوا إلا أن يعترفوا بأن الإسلام أصبح قوة ومشروعا حقيقيا ، ذا سلطان وسيادة ومبادئ .
وأمام قوة المشروع ظهرت نابتة النفاق والتظاهر بالإسلام، و بدأت دسائس الأعداء الداخليين ، ومواجهة المشروع لمكائد هؤلاء والتغلب عليهم ، واضطرت أكبر القوة المتخامة وهم اليهود إلى عقد معاهدات ومواثيق لكن كعادتها نقضتها ، فكان هذا إيذانا بالخلاص منهم ، وسطع نور الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، وأديت الرسالة ، ورسخ المشروع أهم مبادئ قيام الحضارات من تربية القادة ، وإقامة الشورى ، وجعل الأهداف العليا فوق كل مآرب ، وترسيخ العدالة .

الفصل الثالث : (الخاتمة)

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول : التمهيد .

المبحث الثاني : نتائج البحث .

المبحث الثالث : الأثر العلمي للبحث في المجال والمجتمع .

المبحث الرابع : التوصيات .

المبحث الخامس : الخلاصة

المبحث الأول : التمهيد

أحمدُ اللهَ على نعمائه وفضله وجوده أن أتمَّ هذه الرسالة العلمية التي أسألُ اللهَ أن تكونَ إضافةً

علمية وفكرية للإسلام والمسلمين وكلّ الباحثين عن الحقّ والخير في العالم.
فخدمة سيرة سيدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واكتشاف الدرر والجوهر الذي فيها أمرٌ
عظيمٌ، لا سيّما في عصرنا الآني الذي نشعر فيه بأهمية تعميق الهوية والأصالة والانتماء، وطرح الكثير
من الأفكار الإبداعية والمميّزة، التي تمتلئ بها السيرة النبوية الشريفة على طاولة التأمل والباحث وصانع
القرار، حيث تطلُّ علينا سيرة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وفيها الكثير من الحلول
للمشكلات والأفكار والأطروحات، والقيم العظيمة والأخلاق الكريمة والتشريع الذي رفع الإنسان
ونفض بالأمّة وسوف ينهض بها من جديد بإذن الله - تعالى - .
أسأل الله - عزّ في علاه - أن يكون عملي خالصاً لوجه الكريم، وأن تأخذ هذه الأطروحة
طريقها إلى فائدة البلاد والعباد إنه جواد كريم.

المبحث الثاني: نتائج البحث

خلص البحث إلى التالي :

١ - الأنبياء وعلى رأسهم الرسول عليه الصلاة والسلام دائما ما يبدون في تغيير الأفكار التي كانت هي سبب انحراف البشر ليتم تغيير المشاعر ثم السلوك ولهذا كانت المرحلة المكينة مرحلة اصلاح بحث للعقيدة اكثر من أي مسار آخر في العبادات والمعاملات التي جاءت في المرحلة المدنية .

٢ - عندما يكون لأي أمة مشروع نهضوي أو حضاري يكون هذا من أبرز الدوافع للعمل والإنتاج والتعاون وهذا ما كان الرسول يغرسه في دعوته ؛ لأن دين للعالمين أنه يحمل الخير الكثير للناس ولهذا كان هذا الحلم دافعاً حيث كان الرسالة السامية والعظيمة محركا كبيرا للناس في رضى الله ، وربط هذا بمصالح الناس التي كانت محققه في اعمالهم وامنهم ومعاشهم حيث كان الدعوة تركز على توازن عميق بين كل الابعاد الروحي والفكري والنفسي والجسدي والحياتي للناس .

٣ - مرحلة التكوين لا بد ان تسبق مع التمكين كما ان التدرج هنا من اهم القوانين التي عمل بها الرسول عليه الصلاة والسلام في التشريع والتطبيق والنظام والعمل ونشر الدعوة وتحمل مقاومة التغيير .

٤ - خلصت الرسالة على أهمية الاهتمام بأعداد قادة مؤمنين بهذه الرسالة ويكملون المسيرة في نشر دين الله وأن هذا من ابرز الاعمال بالإضافة الى ان الاختيار كان على الكفاءة وليس على حسب العمر او الحسب او القرابة وهذه جودة ومؤشر اداري مميز .

٥ - خلصت الرسالة على أن هناك مسارات في إدارة الناس تعود إلى الاجتهادات وتحكيم القواعد العامة مع مراعاة المصالح والمفاسد وأن الشريعة أعطت مساحة واسعة للإبداع الإنساني والعمل التطويري في مختلف الأنشطة ولهذا الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان ولا يتعارض من التطوير والإبداع بل يحفز عليه .

المبحث الثالث :

الأثر العلمي للبحث في المجال والمجتمع

المتتبع للكثير من الأبحاث والدراسات في السيرة النبوية يعرف أن هناك ثغرة كبيرة في الفهم والإسقاط المعاصر للجوانب الحضارية للسيرة على الواقع من خلال المواقف والأفكار والمشكلات والحلول والكثير من الإرث الحضاري الموجود في السيرة .. ولهذا لم يكن الباحث يعمل في مسار بحثه إلا وهو على يقين أنه يأخذ النقطة من السطح ثم يتعمق بها أكثر فأكثر ؛ ليكتشف الكثير من الحقائق والدقائق والدروس ،ويجيب على الكثير من الأسئلة.

والأثر العلمي للبحث سيكون على أكثر من خط :

- الأول وهو الخط التشريعي المبين للكثير من فقه المسائل والأحوال والأحداث واستنباط الأحكام وفهم مراد الشارع من خلق الإنسان وإرسال الأنبياء لهم حيث تركز الرسالة على التحولات الكبرى التي حدثت في حوال ٢٣ عاما.
- الأثر العلمي الآخر وهو جمالية رصد الكثير من الظواهر الصغيرة وتفسيرها حيث إن وضع الكثير من المواقف والأفكار في سلسلة علمية مترابطة يخرج لوحة رائعة من الجمال والحكمة والسمو وكيف أن الإسلام كان هو الترياق للمريض والخريطة للتائه والغذاء للجائع ..
- المسار الثالث للأثر العلمي هو تشجيع الباحثين الجدد على قراءة جديدة للسيرة النبوية حيث نحتاج أن نؤسس لخط تجديدي في فهم السيرة واستخراج الكثير من المسارات والأفكار والقوانين العظيمة من وحي سيرة خاتم نبي للعالمين للواقع المعاصر الذي لا يزال يحتاج إلى وعي عميق وفهم دقيق وقراءة معاصرة للسيرة .

المبحث : الرابع التوصيات .

١- في كثير من تجارب الإنسان نحو النهوض والوصول إلى ذروة الحضارية الإنسانية تكون التجارب المسددة بالوحي هي أعظم التجارب حين يفهمها الإنسان ، ويتمكن من صياغة القالب المعاصر لها ولهذا أرجو أن تكون في هذه الأطروحة الكثير من المنتجات القابلة للتطبيق في مسارات بناء الإنسان أو بناء التشريعات أو التعامل مع التحديات مع العلم أن هذه التجارب تجعل الإنسان يفجر الكثير من طاقات الإبداع لديه وولادة الكثير من الأفكار الجديدة والنيرة للارتقاء بالإنسان والمجتمعات .

٢ - أوصي الباحثين بالنظر في الكثير من المشكلات التي وقعت في هذا الرصد التاريخي وعدم الوقوع فيها ؛ لأن الكثير مما حدث هو سنة كونية إلهية لتبيان النواميس والقوانين الكونية لله في هذا الكون ولهذا يرسل الله الأنبياء للبلاغ وتقرير السنن ، وتبيان الخطوط التي يمضي عليها الناس حيث النعيم والقوة والسعادة والخير وعاقبة الخروج على هذا الصراط المستقيم

٣ - أوصي بالأخذ من الظواهر والمواقف العظيمة في السيرة مثل صلح الحديبية وفتح مكة وغيرها من الأحداث العظيمة والتحويلات الكبرى وإعادة قراءتها ، فهناك الكثير من الدروس والعبر والأسرار التي سوف تجيب على الكثير من أسئلة الإنسان المسلم في هذا الوقت وأزمة أخرى قادمة .

٤ - أوصي بالعمل على التعمق في مجالات الحكمة و الكثير من التصرفات التي قاد بها النبي أكثر من السلوك الظاهر ؛ فالدخول في عالم الدوافع يجعل الإنسان يفهم الحكمة الجليلة من هذا الأمر وهذا يتبين من الكثير من الدراسات السلوكية والنفسية والفكرية التي ترصد من هذا الظاهرة الحضارية أو غيرها بشكل دقيق وعميق ويحول الكثير مما فيها إلى منتجات عملية وتطبيقية في مختلف مجالات الحياة وهنا تكون السيرة حياة والسيرة حلول والسيرة نور نمشي به في الظلمات

المبحث الخامس: الخلاصة .

هذه الرسالة العلمية تتبّع مسارات الرسالة الحضارية النهضوية العظيمة للإسلام، في شقّها السياسيّ وكيف كانت هذه الرسالة الخالدة مؤثرةً على مسار البشرية ومصالحهم وحياتهم، ومآلاتهم، وكيف كان التغيير والتحوّل الكبير في عالم الأفكار مدخلاً مهماً؛ لإحداث أعمق تغيير في عالم الأعمال والسلوك والعلاقات. فقد كانت الرسالة المحمدية ذات صدّى مُحكّم في الجانب التشريعيّ والتطبيقيّ والاجتهاديّ، في عوالم السياسة التي من خلالها تمّ إعداد وتأهيل أعظم جيل في التاريخ، لقيادة هذه الأمة، والتبشير بدينها الخاتم. ولقد ركّزت في هذه الرسالة على تتبّع أغلب المسارات السياسية التي كان لها أثر كبير في النقلة الحضارية والنهضوية للجزيرة العربية أولاً، والعالم من بعد ذلك ثانياً. و كذلك الأثر والتأثير الذي تركه الإسلام في إنسان ذلك الزمان، ومخرجاته الحضارية، على جميع المستويات النفسية والعقلية والبدنية والروحية والمادية . كما تتبعت الرسالة البعد الاستراتيجي في الرسالة النبوية، وكيف كان تطبيقها المُتدرّج فاعلاً ودكياً في إحداث أكبر تغيير إيجابي، وفعال، عرفته البشرية عبر التاريخ.

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم .

٢- إبراهيم، عماد - الإسلام وبناء المجتمع - دون ط. - الرياض - جامعة الملك سعود - ١٤٣٠.

٣- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني (١٥١ هـ). المغازي والسير. ط الأول. بيروت - دار الفكر. ١٣٩٨-١٩٨٧.

٤- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري الشيباني (٦٠٣ هـ). الكامل في التاريخ. تحقيق. عمر تدمري. ط الأولى. بيروت. الكتاب العربي. ١٤١٧-١٩٩٧.

٥- ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم. توفي عام (٦٣٧). جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق الأرنؤوط. دون ط. بيروت. دار البيان. ١٣٩٢-١٩٧٢.

٦- ابن أبي الحديد، هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين المدائني، المعروف بابن أبي. .. وتوفي في بغداد سنة (٦٥٥ هـ). شرح نهج البلاغة. تح. أبي محمد أبي الفضل إبراهيم. دون ط. القاهرة. عيسى البابي الحلبي. دون ت.

٧- الأزدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي (٤٨٨ هـ). الجمع بين الصحيحين. تح. علي حسن. ط ٢. بيروت. دار ابن حزم. ١٤٢٣-٢٠٠٢.

٨- الأشعري، علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (٣٢٤ هـ). مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. تح. هلموت بيتر. ط ٣. ألمانيا. دار فرانز شتايز. ١٤٠٠-١٩٨٠.

- ٩- الأصبهاني، الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم (٥٠٢هـ). المفردات في غريب القرآن. تحقيق سيد كيلاني. دون ط. بيروت. دار المعرفة. دون ت.
- ١٠- ابن أبي العز الحنفي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذري (٧٩٢هـ) - شرح العقيدة الطحاوية - تح. الألباني. ط٦. بيروت. المكتب الإسلامي. ١٤٠٠-١٩٨٠.
- ١١- الأعظمي، محمد بن مصطفى. دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه. دون ط. بيروت. المكتب الإسلامي ١٤٠٠-١٩٨٠.
- ١٢- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني الأرناؤطي المعروف بالألباني (١٩٩٩م). إرواء الغليل في تخريج احاديث منار السبيل. ط. ٢. بيروت. المكتب الإسلامي. ١٤٠٥-١٨٠٥.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة) - دون ط. الرياض. الناشر: مكتبة المعارف. ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة. طبعة: الأولى. الرياض. دار النشر: دار المعارف - ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
- صحيح سنن أبي داود - دون ط. الكويت. مؤسسة غراس للنشر والتوزيع. دون. ت.
- صحيح الترغيب والترهيب - دون ط. الرياض. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. دون. ت
- صحيح الجامع الصغير وزيادته. ط٢. بيروت. المكتب الإسلامي. ١٤٠٦ هـ.
- صحيح السيرة النبوية. ط. الأولى - عمان. الأردن. المكتبة الإسلامية. دون ت.
- سنن الترمذي (مع أحكام الألباني، ت: مشهور) المحقق: محمد ناصر الدين الألباني. مشهور بن

- حسن آل سلمان-الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع-سنة النشر: ١٤١٩ - ١٩٩٨.
- صحيح و ضعيف سنن أبي داود -دون. ط. بيروت. الناشر: مكتبة المعارف-سنة النشر: ١٤١٩ - ١٩٩٨.
- صحيح وضعيف سنن الترمذي - دون. ط. بالإسكندرية. القاهرة. مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة. دون. ت.
- مُختصر صحيح الإمام البخاري-الطبعة: الأولى، الرياض الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ١٣- أمير بادشاه. محمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه(٩٧٢هـ). تيسير التحرير. دون ط..مصر. الناشر: مصطفى البابي الحلبي ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م
- ١٤- البغدادي، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي، تاريخ الوفاة(٢٤٥هـ). المنمق في أخبار قريش. تح. خورشيد أحمد. دون ط. بيروت. عالم الكتب. دون ت.
- ١٥- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي(٥١٦هـ). شرح السنة. تح. الأرنؤوط. دون ط. بيروت. المكتب الإسلامي - ١٩٧١.
- ١٦- البلادي، عاتق بن غيث. المعالم الجغرافية للسيرة النبوية. ط. الأولى. مكة. نشرة دار مكة - ١٤٠٢.
- ١٧- البوطي، محمد سعيد. فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة. دون ط. بيروت. دار الفكر. دون ت.
- ١٨- الترمذي، محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى(٢٧٩هـ).

سنن الترمذي. تح. الألباني، ومشهو بن حسن. دون ط. بيروت. مكتبة المعارف. ١٤١٩-
١٩٩٨.

١٩- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام النميري
الحراني(٧٢٨هـ). الإيمان الأوسط، ط. الأولى. القاهرة. دار الحديث. ١٤٢٨.

-السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية-دون. ط. -بيروت. الناشر: دار المعرفة. دون. ت.
-الفتاوى الكبرى -تح: محمد مصطفى، وعبدالقادر عطا - دون. ط. بيروت. دار الكتب
العلمية. دون ت.

-الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان- دون. ط. الشرقية. القاهرة. المطبعة العامرية
١٣٧٩.

-أمراض القلوب وشفائها. دون ط. -القاهرة -المطبعة السلفية. ١٣٩٩هـ.

٢٠- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني الليثي البصري، (٢٥٥ هـ). الحيوان. تح.
عبد السلام هارون. دون. ط. بيروت. دار الجليل. ١٤١٦-١٩٩٦م.

٢١- ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الدمشقي العمري الشيرازي
الشافعي(٨٣٣هـ). غاية النهاية في طبقات القراء. دون. ط. القاهرة. مكتبة ابن تيمية -١٤١٣.

٢٢- الجوابي، محمد طاهر. المجتمع والأسرة في الإسلام. ط.٣. بيروت. عالم الكتب. ١٤٢١.

٢٣- الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي
الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع. تاريخ الوفاة، (٤٠٥). المستدرک علی الصحیحین. تح.
مصطفى عبد القادر. ط١. بيروت - الكتب العلمية. ١٤١١-١٩٩٠.

٢٤- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني. تاريخ الوفاة،
(٨٥٢ هـ). الإصابة في تمييز الصحابة. تح. عادل عبد الموجود، وعلي معوض. ط١. بيروت.
المكتبة العلمية. ١٤١٥هـ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري. دون. ط. بيروت. دار المعرفة. ١٣٧٩هـ.
- ٢٥- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ). الإحكام في أصول الأحكام. تح. أحمد شاكر. دون ط. بيروت. دار الآفاق الجديدة. دون ت.
- ٢٦- الحكمي، حافظ بن محمد بن عبد الله الحكمي. مرويات غزوة الحديبية. دون ط. المدينة المنورة. مطابع الجامعة الإسلامية -١٤٠٦.
- ٢٧- حلمي، مصطفى. نظام الخلافة في الفكر الإسلامي. دون ط. بيروت. دار الكتب العلمية. ١٤٢٥-٢٠٠٤.
- ٢٨- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي (١٦٤-٢٤١هـ)-المسند. تح. شعيب الأرنؤوط. ط١. بيروت. الرسالة. ١٤٢١-٢٠٠١.
- ٢٩- حوى، سعيد. الأساس في السنة وفقهها، ط١. مصر. دار السلام. ١٤٠٩-١٩٨٩.
- الرسول ﷺ-دون. ط. بيروت. دار عمار. دون. ت.
- الخريجي، عبد الله. علم الاجتماع الديني. دون ط. جدة. طبعة جامعة الملك عبد العزيز. ١٩٨٠-١٤١٠.
- الخضري، محمد عفيفي. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. ط١. بيروت. دار المعرفة. ١٤٢٥-٢٠٠٤.
- ٣٠- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون. تح. خليل شحادة. دون ط. بيروت. دار الفكر. ١٤٠٨-١٩٨٨.
- ٣١- الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليعمدي، أبو عبد الرحمن (١٧٠هـ)،

- العين. تح. إبراهيم السامرائي. ومهدي المخزومي. دون ط. دون م. مكتبة الهلال. دون ت.
- ٣٢- الدارمي، أبو حاتم محمد بن حبان (بكسر الحاء وتشديد الباء) بن أحمد بن حبان (٣٥٤هـ). صحيح ابن حبان مع التعليقات الحسان. تح. الألباني ومشهور. ط. ١. جدة. دار باوزير. ١٤٢٤-٢٠٠٣.
- ٣٣- أبو داوود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي من منطقة سجستان المشهور بأبي داود (٢٧٥هـ). سنن أبي داوود. تح. الألباني، ومشهور. دون ط. بيروت. المعارف. دون ت.
- ٣٤- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري الدوسي (٣٢١هـ). الاشتقاق. تح. عبد السلام هارون. ط. ١. بيروت. دار الجيل. ١٤١١. ١٩٩١.
- ٣٥- الدوري، صفاء عبد الكريم، مفهوم الحضارة كما يصورها القرآن. دون ط. العراق. مكتبة صلاح الدين. ١٤٣٤-٢٠١٢.
- ٣٦- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي. تاريخ الوفاة (٧٤٨هـ). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تح. عمر تدمري. ط. الأولى. بيروت. دار الكتاب العربي. ١٤٠٧-١٩٨٧.
- ٣٧- الريس، محمد ضياء الدين، النظريات السياسية في الإسلام. ط. ٧. دون م. دار التراث. دون ت.
- ٣٨- الزبيدي، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض (١٢٠٦هـ). تاج العروس من جواهر القاموس. دون ط. بيروت. دار الهداية. دون ت.
- ٣٩- الزرقاني، محمد بن عبد العظيم الزُّرْقَانِي. تاريخ الوفاة، (١٣٦٧هـ). مناهل العرفان في علوم

القرآن. ط. ٣. مصر. عيسى البابي الحلبي. دون ت.

٤٠ - أبو زيد القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ). **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**. تحقيق محمد البيجاوي. دون ط. مصر. مكتبة نهضة مصر. دون ت.

٤١ - زينو، محمد جميل، **قطوف من الشمائل المحمدية والأخلاق النبوية والآداب الإسلامية**. ط. ٥. جدة. دار الخراز. دون ط.

٤٢ - السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي السبكي (٧٥٦هـ). **الإبهاج في شرح المنهاج**. ط. ١. بيروت. العلمية ١٤٠٤.

٤٣ - ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي مولاهم، أبو عبد الله البصري، المعروف بابن سعد (٢٣٠هـ). **الطبقات الكبرى**. تح. محمد عطا. ط. ١. بيروت. العلمية. ١٤١٠-١٩٩٠.

٤٤ - السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. تح. اللويحق. ط. ١. بيروت. الرسالة. ١٤٢٠.

٤٥ - سلطان، جاسم بن محمد. **قواعد في الممارسة السياسية**. دون ط. المنصورة. مصر. دار أم القرى. ١٤٢٩-٢٠٠٨.

٤٦ - السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن الخطيب بن أصبع بن حبيب بن سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي السهيلي (٥٨١هـ). **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية**. تح. عبد الرحمن الوكيل. دون ط. القاهرة. دار الكتب الحديثة ١٣٨٧هـ.

٤٧ - السويدان، طارق. **ألبوم السيرة النبوية**. دون ط. جدة. قرطبة للإنتاج الفني والتوزيع. دون ت.

- ٤٨- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل والمعروف بابن سيده المرسي (٤٥٨هـ). المحكم والمحيط الأعظم. تح. مصطفى السقا وزملائه. دون ط. القاهرة. عيسى البابي الحلبي. ١٣٨٧هـ.
- ٤٩- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين الخضير الأسيوطي (٩١١هـ) - الخصائص الكبرى. تح. خليل هراس. دون ط. مصر. دار الكتب الحديثة. دون ت.
- ٥٠- شاهين، مصطفى. علم الاجتماع والمجتمع الإسلامي. دون ط. القاهرة. دار إحياء التراث. دون ت.
- ٥١- الشامي، صالح أحمد. من معين السيرة. دون ط. بيروت. المكتب الإسلامي. دون ت.
- السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة. ط. ١ - بيروت. المكتب الإسلامي ١٤٢٣-٢٠٠٢.
- ٥٢- ابن أبي شبة، زيد بن عبدة بن ربيعة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: ٢٦٢هـ). تاريخ المدينة المنورة. دون ط. جدة. دون ن. ١٣٩١.
- ٥٣- الشريف، أحمد إبراهيم. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ. دون ط. بيروت. دار الفكر. دون ت.
- ٥٤- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دون ط. دون م. طبعة مجمع الفقه الإسلامي. دون ت.
- ٥٥- صاحب، إسماعيل بن عباد بن عباس بن عباد بن أحمد بن إدريس القزويني، الطالقاني، الأصفهاني (٣٨٥هـ). المحيط في اللغة. تح. محمد آل يسن. دون ط. بيروت. عالم الكتب. ١٤١٤-١٩٩٤.

- ٥٦- الصالحى، محمد بن يوسف. سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. تح. عادل عبد الموجود، وعلي معوض. ط١. بيروت العلمية. ١٤١٤-١٩٩٤.
- ٥٧- صبري، إسماعيل عبد الله، نحو نهضة عربية ثانية: الضرورة والمتطلبات. بيروت. مجلة المستقبل العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. العدد ١٦. ١٩٩٢.
- ٥٨- الصغير، طلال علي و مطرجي، محمد رضوان. نماذج من أساليب الرسول في تربية الصحابة وأهميتها وكيفية توظيفها في مدارسنا. دون ط. طرابلس. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. دون ت.
- ٥٩- الصلابي، محمد علي. السيرة النبوية: دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة. دون ط. بيروت. دار المعرفة. دون ت.
- ٦٠- ابن طاهر، أبو نصر المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ). البدء والتاريخ. دون ط. مصر. بورسعيد. مكتبة الثقافة العربية. دون ت.
- ٦١- الطبري. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ). تاريخ الرسل والملوك. ط٢. بيروت. دار التراث. ١٣٨٧.
- ٦٢- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي (٣٦٠هـ). المعجم الكبير. المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. ط٢. القاهرة. دار النشر: مكتبة ابن تيمية - دون ت.
- ٦٣- عبد الباقي، محمد فؤاد. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. دون ط. بيروت. دار إحياء الكتب العربية. دون ت.
- ٦٤- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (٣٦٨ هـ - ٤٦٣ هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تح. علي البيجاوي. دون ط. مصر. مكتبة نهضة مصر.

دون ت.

٦٥- عبد الجبار، بو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد المعزلي
الرازي الهمداني (٣٥٩ - ٤١٥هـ). المغني في أبواب التوحيد والعدل. ط. ١. مصر. الشركة
العربية للتوزيع والنشر. ١٣٨٠هـ.

٦٦- عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ)، المصنف. ط. ٢. بيروت. المكتب الإسلامي.
١٤٠٣.

٦٧- عبد الجواد، أحمد. المبادئ في علم الاجتماع. دون. ط. القاهرة. نهضة الشرق. دون
ت.

٦٨- ابن عبد الوهاب، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي (١٢٠٦هـ). مختصر
سيرة الرسول. تح. عبد الرحمن البراك. دون. ط. الرياض. طبعة جامعة محمد بن سعود. دون
ت.

٦٩- العراقي، زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم العراقي الشافعي الحديث، (٨٠٥هـ). نظم
الدرر السنية في السير الذكية. تح. محمد المالكي. دون. ط. بيروت. دار المنهاج. دون.

٧٠- ابن العربي، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، المشهور بالقاضي أبو بكر بن العربي
الإشبيلي (٥٢٤هـ)، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي. تح. محب
الدين الخطيب. ومحمود مهدي. ط. ٢. بيروت. دار الجيل. ١٤٠٧-١٩٨٧م.

٧١- عرجون، محمد الصالح. محمد رسول الله ﷺ - ط. ٢. بيروت. دار القلم. ١٤١٥هـ -
١٩٩٥.

٧٢- العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران اللغوي

- العسكري(٣٩٥هـ). الأوائل: ط: الأولى. طنطا. مصر. دار البشير-١٤٠٨ هـ.
- ٧٣- علي بن أبي طالب (٤٠هـ). صحبة علي بن أبي طالب - ﷺ - تحقيق. رفعت فوزي. دون ط. القاهرة. توثيقية دار السلام. ١٤٠٦-١٩٨٦م.
- ٧٤- علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ط. ٤. دون م. دار الساقى. ١٤٢٢هـ.
- ٧٥- العمري، أكرم ضياء الدين. عصر الخلافة الراشدة: محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين - الناشر: ط: الأولى، مكتبة العبيكان - الرياض. ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- ٧٦- العمري، بريك. غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية. ط ١. المدينة المنورة. طبعة عمادة البحث العلمي. ١٤٢٤. ٢٠٠٤م.
- ٧٧- العمري، عبد العزيز. رسول الله - ﷺ - وخاتم النبيين. ط ١. بيروت. دون ن. دون ت.
- ٧٨- عودة، محمود. أسس علم الاجتماع. دون ط. بيروت. دار النهضة العربية. دون ت.
- ٧٩- عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي (٤٧٦ هـ - ٥٤٤ هـ). مشارق الأنوار على صحاح الآثار. دون ط. دون م. التراث. دون ت.
- ٨٠- الغزالي، محمد. فقه السيرة النبوية. ط. ٧. دمشق. دار القلم. ١٩٩٨.
- ٨١- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (٣٩٥ هـ). معجم مقاييس اللغة. تح. عبد السلام هارون. دون ط. بيروت. ١٣٩٩-١٩٧٩م.
- ٨٢- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر مجيد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي

(٨١٧هـ). القاموس المحيط. ط. ٨. بيروت. مؤسسة الرسالة. ١٤٢٦-٢٠٠٥.

٨٣- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ).

المصباح المنير شرح غريب الرافعي الكبير. دون ط. بيروت. دار الكتب العلمية. دون ت.

٨٤- القاري، علي بن سلطان محمد القاري (١٠١٤هـ). مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.

ط. ١. بيروت. دار الفكر. ١٤٢٢-٢٠٠٢.

٨٥- القريبي، إبراهيم بن إبراهيم. في مرويات غزوة حنين وحصار الطائف-: الطبعة: الأولى،

المدينة النبوية، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ١٤١٢هـ

٨٦- قلعجي، محمد. قراءة سياسية للسيرة النبوية. ط. ١. بيروت. دار النفائس. ١٤١٦-

١٩٩٦م.

٨٧- ابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكّي

زيد الدين الزُّرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيّم الجوزية (٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ). زاد المعاد في

هدي خير العباد -ط: السابعة والعشرون، الكويت. الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت -مكتبة المنار

الإسلامية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

-مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (ط. المجمع) - المحقق: عبد الرحمن بن

حسن بن قائد-دون ط. جدة الناشر: مجمع الفقه الإسلامي -سنة النشر: ١٤٣٢.

٨٨- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشي

الدمشقي (٧٧٤هـ)- البداية والنهاية. ط. الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي بالشراكة مع مركز

البحوث والدراسات الإسلامية والعربية. دون ط. - القاهرة -بدار هجر -١٤١٧-١٩٩٧.

- تفسير القرآن العظيم، تفسير القرآن العظيم. تح. سامي بن محمد سلامة-ط. ٢.. دون. دار طيبة

للنشر والتوزيع. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٨٩- الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي-الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله

والثلاثة الخلفاء-الطبعة: الأولى -بيروت-دار النشر عالم الكتب --١٤١٧هـ.

٩٠- اللحام، حنان. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي. دون ط. بيروت. دار الفكر.

دون ت.

٩١- اللحياي، هدى بنت هليل. المضامين التربوية المستنبطة من صلح الحديبية وتطبيقاتها

التربوية في الأسرة والمدرسة. بحث مكمل لنيل درجة الماجستير. مكة. أم القرى. ١٤٢٨-

١٤٢٩هـ.

٩٢- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربيعي القزويني (٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه.

دون ط. مصر. عيسى البابي الحلبي. دون ت.

٩٣- المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (١٣٥٣ هـ). تحفة

الأحوزي شرح سنن الترمذي. دون ط. بيروت. دار الكتب العلمية. دون ت.

٩٤- المباركفوري، صفي الرحمن بن عبد الله بن محمد أكبر بن محمد علي بن عبد المؤمن بن فقير الله

المباركفوري الأعظمي(١٤٢٧هـ). الرحيق المختوم. دون ط. إسكندرية. دار ابن خلدون. دون

ت.

٩٥- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي

البرهان فوري ثم المدني فالملكي الشهير بالمتقي الهندي، (٨٨٥ هـ - ٩٧٥ هـ). كنز العمال في سنن

الأقوال والأفعال. تح. بكري حياتي، وصفوت السقا. ط٥. بيروت. الرسالة. ١٤٠١-١٩٨١م.

٩٦- مجمع اللغة العربية بالقاهرة. العامي الفصيح. دون ط. مصر. طبعة المجمع. دون ت.

- ٩٧- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. كتابة السنة. دون ط. المدينة المنورة. نشرة المجمع. دون. ت.
- ٩٨- المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن، أبو علي المرزوقي (٤٢١هـ). شرح ديوان الحماسة. تح. عبد السلام هارون، أحمد أمين. ط ١. مصر. لجنة التأليف والترجمة. ١٩٥٣م.
- ٩٩- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، (٢٠٦ هـ - ٢٦١ هـ). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله. تح. محمد فؤاد عبد الباقي دون. ط. بيروت. دار إحياء التراث العربي. دون. ت.
- ١٠٠- المصري، محمد أمين. المجتمع الإسلامي. ط ١. الكويت. دار الأرقام. ١٤٠٠-١٩٨٠م.
- ١٠١- المقرئزي أحمد بن علي بن عبد القادر (٨٤٥هـ). إمتاع الاسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع- ط ١. بيروت. الكتب العلمية. ١٤٣٥هـ
- ١٠٢- ابن الملقن، عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله، سراج الدين أبو حفص الأنصاري الوادي آشي الأندلسي التكروري المصري (٨٠٤هـ). التوضيح بشرح الجامع الصحيح. تح. خالد الرياط. وجمعه فتحي. دون ط. قطر. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ١٤٢٩-٢٠٠٨.
- ١٠٣- المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (١٠٣١هـ). التوقيف على مهمات التعاريف. ط ١. بيروت. عالم الكتب. ١٤١٠-١٩٩٠م.
- ١٠٤- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (٧١١هـ). لسان العرب - الطبعة الثالثة. بيروت. الناشر: دار صادر - دون. ت.
- ١٠٥- الندوي، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي تاريخ الوفاة (١٤٢٠هـ) -

السيرة النبوية - الطبعة: الثانية عشرة - دمشق. الناشر: دار ابن كثير دون ت.

١٠٦- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان (٣٠٣هـ) - السنن الصغرى

للنسائي - تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة - الطبعة: الثانية - حلب، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية

١٤٠٦ - ١٩٨٦.

١٠٧- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني

(٤٣٠هـ) - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دون ط. مصر. دار السعادة. ١٣٩٤ - ١٩٧٤.

١٠٨- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ). المنهاج شرح صحيح مسلم

بن الحجاج - الطبعة: الثانية، بيروت الناشر: دار إحياء التراث العربي - ١٣٩٢.

١٠٩- نويهض، وليد - النخبة ضد الأهل - ط. الأولى بيروت: دار ابن حزم، عام ١٩٩٤.

١١٠- ابن وهب، أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (١٩٧هـ). كتابه الجامع في

الحديث: ط. ١. القاهرة. دار ابن الجوزي - ١٩٩٦ م.

١١١- اليوسي، الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (١٠٥١هـ) - زهر الأكم

في الأمثال والحكم - تح. محمد حجي - ومحمد الأخضر: دار الثقافة - المغرب. سنة النشر:

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

ثانيا: مراجع شبكة الانترنت:

١- الحقيل، إبراهيم بن محمد. في غزوة مؤتة: أحداث ودروس - مقال - موقع الألوكة.

<http://www.alukah.net/sharia5/11/2007>

٢- السرجاني، راغب السرجاني. سلسلة السيرة النبوية. إسلام عمر - ﷺ -

<https://audio.islamweb.net> 2014/09/05

- لماذا حارب الرسول - ﷺ - كل من عاهدهم من اليهود

<http://www.islamstory.com> 2014/03/05.

٣- الفياض، زيد بن عبد العزيز بحوث ودراسات. موقع الشيخ زيد بن عبدالعزيز الفياض / شبكة الألوكة

ورابط الموضوع <http://www.alukah.net/web/fayad/0/23769/#ixzz3kgT8ugpn>